يوسف الخال

دفاتر الأيّام

أفكار على ورق

يوسف الخال

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

يوسف الخال

(١٩١٧ ـ ١٩٨٧)

ولد في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ في قرية عمار الحصن في وادي النصارى شمال سورية.

نشأ في طرابلس حيث تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة الأميركان حين كان والده راعيا للكنائس الانجيلية هناك، والثانوية في مدرسة الأميركان في حلب.

تابع دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت، فنال عام ١٩٤٢ بكالوريوس علوم في الفلسفة، ثم درّس لسنتين في الثانوية التابعة للجامعة.

تولى رئاسة تحرير مجلة «**صوت المرأة**» عام ١٩٤٢، وكان قد أسس قبلها عام ١٩٤٠ مجلة «**الفنون**».

انتقل الى نيويورك عام ١٩٤٨ حيث عمل في الأمم المتحدة، متنقلا بين ليبيا وجنيف ونيويورك.

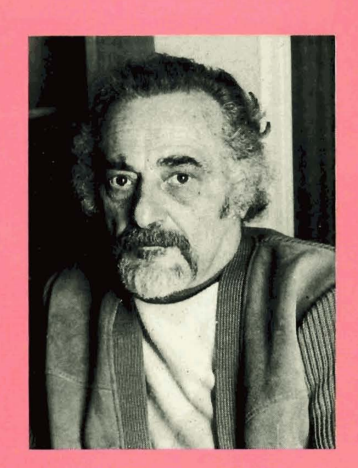
تولى رئاسة تحرير جريدة «**الهدى**» النيويوركية من عام ١٩٥٢ الى ١٩٥٥.

عاد الى بيروت عام ١٩٥٥ فعمل استاذا في الجامعة الأميركية لمدة سنتين، الى جانب عمله في الصحافة اللبنانية.

أسس مجلة «**شعر**» عام ١٩٥٧، ودار النشر التابعة لها، وأصدر مجلة «**أدب**» عام ١٩٦٢، وأنشأ «**كاليري وان**» كصالة لعرض الفن التشكيلي العربي.

تولى عام ١٩٦٧ رئاسة التحرير في **دار النهار للنشر**، وتابع من هناك الاشراف على اصدار مجلة «**شعر**» الى أن احتجبت عام ١٩٧٠.

الغلاف: لوحة للفنان ضياء عزاوي



مؤلفاته الشعرية:

«**الحرية**» ١٩٤٤.
«**هيروديا**» ١٩٥٤.
«**البئر المهجورة**» ١٩٥٨.
«**قصائد في الأربعين**» ١٩٦٠.
«**الأعمال الشعرية الكاملة**» ١٩٧٣ (١٩٣٨ ـ ١٩٦٨)
«**رسائل الى دون كيشوت**» ١٩٧٩.
«**الولادة الثانية**» ١٩٨١.

مؤلفاته النثرية:

«**الحداثة في الشعر**» ١٩٧٨.
«**دفاتر الأيام**» ١٩٨٧.

ترجماته:

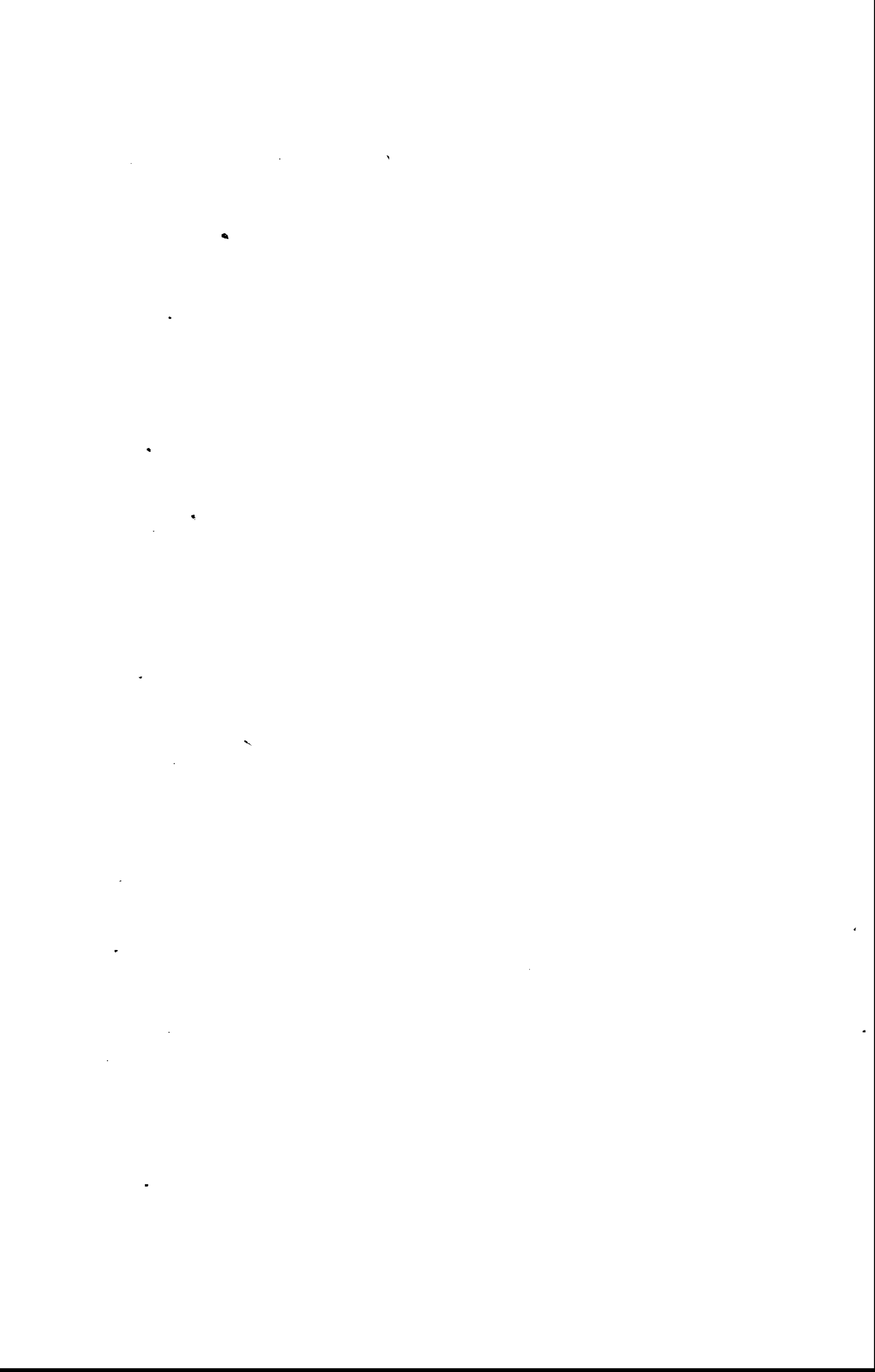
«**النبي**» **لجبران** ١٩٦٨.
«**الأرض الخراب**» **ت. اس اليوت**» ١٩٥٨
«**ديوان الشعر الاميركي**» ١٩٥٨.
«**خواطر عن أميركا**» **لجاك مارتيان** ١٩٥٨.
«**ثلاث مسرحيات**» ١٩٥٩.
«**ابراهام لنكولن**» **لكارل ساندبرغ** ١٩٥٩
«**قصائد مختارة**» **لروبرت فروست** ١٩٦٢

ترجم العهد الجديد من الكتاب **المقدس** إلى العربية الذي صدر عام ١٩٨٥. وكان قد انجز ترجمة جزء كبير من العهد القديم قبل وفاته، منها سفر التكوين والمزامير ونشيد الأناشيد.

£14.00 net
in UK only

دفاتر الأيام

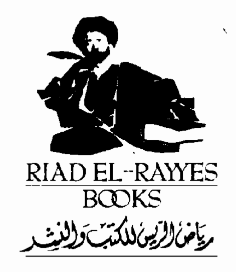
أفكار على ورق



يوسف الخال

دفاتر الأيّام

أفكار على ورق



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

Notebooks of Yesterdays

by

YUSUF ALKHAL

First Published in Great Britain in 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data

Alkhal, Yusuf
Notebooks of yesterday.
1. Arabic literature——20th century——
History & criticism
I. Title
892'.7'09006 PJ7535
ISBN 1–869844–47–5

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة

بطريرك الشعر العربي

اذا كان لكُلِ احتفالٍ من عريس فإن عريسنا اليوم هو زينُ الشباب يوسفُ الخال.(*)

وإذا كان لِكل مسرحٍ من بَطَل، فإن بطلنا الذي يحملُ كلَّ ملامح أبطالِ الإغريق، هو يوسفُ الخالِ.

نعم. هو العريسُ الجميل، والفتى النبيل، والبطريركُ الجليلُ الذي فتح كنيسةَ الحداثة لآلاف المصلّين.

والسؤالُ الذي أُحبُّ أن أطرحه هو: هل أنَّ جميعَ من دخلوا كنيسةَ الحداثة كانوا من المؤمنين.. أو كانوا من الأنقياء المطهَّرين؟؟

أم أن بعضَهم كان بنصف دين. ونصف يقين. ونصفِ موهبة؟

يوسفُ الخال ليس مسؤولاً عَن نوايا المصَلينَّ.

وليس مسؤولاً عما في جُيُوبهم من متفجراتٍ، ومفرقعاتٍ، وزُجَاجات مولوتوف.

فيوسف فتحِ مجّلةَ «شعر». ولم يفتح إصلاحيةً للأحداث، أو محضَر بوليس مهمتهُ أن يفتشَ الداخلينَ الى مقهى الحداثة، والخارجينَ منه.. وأن ينبشَ في حقائبهم وفي ضمائرهم.

يوسف الخال ليس ناطوراً، ولا حارساً ليلياً، ولا ممرّضاً في مستشفى الأمراض العصبية الذي يسمّونه الحداثة.

الرجل، أشعل عُودَ ثِقَابٍ في غابة الشعر.. ولم يَعُدْ مسؤولاً عمّن أحرق أصابعَه.. أو أحرقِ ثيابه.. أوَ عمَّن لا يزال يُشوىَ على نار الحداثة. يوسف الخال ليس مسؤولاً عن خرابِ البصرة...

مجلةُ «شعر»، فتحت باباً للاجتهاد، ولم تفتح كازينو للقمار أو جزيرةً للغُزاة..

فتحتْ أُفُقاً.. ولم تفتح ميليشيا شعرّيةً مسلَّحة..
طالبت بحريّة التغيير. ولم تُطالب بحريّة الاغتيال.
طالبت بالتجريب.. ولم تطالب بالتخريب..

بشّرت بولادة القصيدة الآتية.. ولم تسخر من القصيدة الماضية.
هيأت مناخَ الحرية.. وتركت الشباب يشتغلون كلُّ حسْبَ موهبته، وحَسْب ما أعطاه الله..
واذا كانت مجلةُ «شعر» قد اتُهمت بالعَمَالة.. وبالقبض من السفارات الأجنبية، فهذه التهمة اصبحت تهمةً كلاسيكية ومن صميم التراث السياسي العربي، تُلصقُ بكل من يحاولُ الخروجَ على سلطة أهل الكهف، ومنطقِ أهل الكهف. وشرائعِ أهل الكهف.

* * *

يوسفُ الخال قاد سفينة. وهو بالتأكيد ليس مسؤولاً عن سُلُوك البحّارة، وعن سُكْرهم، وعَربدتهم، ومخالفتِهم لطقوس الملاحة، واخلاقِ البحر...
إن أهمَّ ما في يوسف هو أبوّتُه، وحنانُه، ومناَقبيتُه، واخلاَقُه الرسولية. فلم يعمد يوماً الى ضرب بحّار، لأنه كان يفتحُ ثقباً في خاصرة السفينة، أو يرمي الزبالةَ أمام غُرَف المسافرينّ.
كان يوسفُ الخال اخلاقياً كبيراً. ولا اتصورُ قصيدةً لا اخلاق لها.

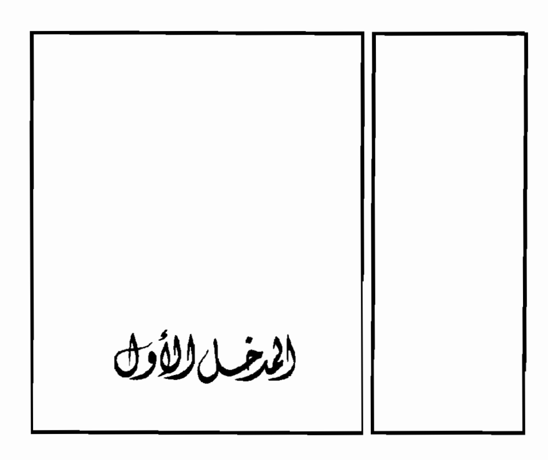
* * *

وبعدُ.. فقد فرحتُ كثيراً حين علمتُ أن هذا الاحتفال يُقام لتكريم صديقي البطريرك يوسف الخال.
من أجل هذا طرتُ الى لندن لأقبِّلَ عريسَنا الوسيم يوسف الخال. ولو كنتُ في آخر الدنيا لطرتُ اليه ايضاً.. لأقول له شكراً.. باسم الحداثة العاقلة، الهادئة، التي تبصر طريقها جيداً.. وتعرفُ التاريخ جيداً..
ليوسف الخال أقول: نحن رعاياك وتلامذتُك. فتحتَ أمامنا الضوءَ الأخضر، وعلّمتَنا الركضَ على أرض الحرية.
واذا كان بعضُ البحّارة لا يوافقونَ على ما أقوله... فإن بحر المانش قريب.. وبإمكانهم أن يرموا أنفسَهم فيه...

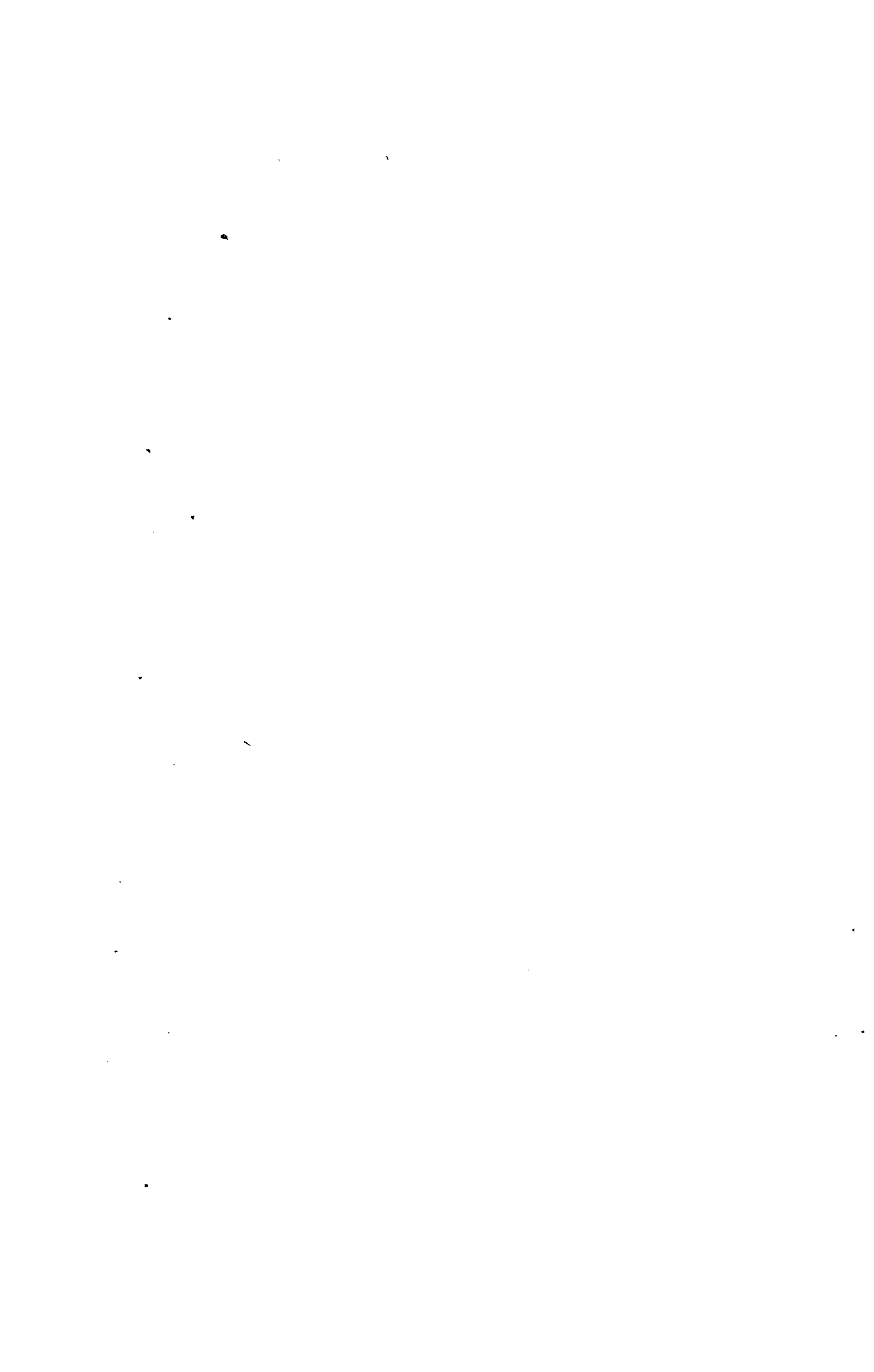
نزار قباني

لندن ١٩٨٦/٦/٩

* كلمة القيت في مهرجان الشعر العربي الحديث الذي أقيم في لندن في حزيران (يونيو) ١٩٨٦، تكريماً للشاعر الراحل يوسف الخال. وتنشر بإذن خاص من نزار قباني.



المدخل الأول



يعاني الأدب العربي المعاصر ازمة قلّما عاناها في تاريخه . فلا يغرّك هذا السيل الدافق من المنشورات الموضوعة والمترجمة ، هنا وهنالك .

هذه الأزمة تتناول من الأدب مبناه ومعناه . فالأزمة في مبناه واضحة في ما نسميه مشكلة اللغة ؛ اما الأزمة في معناه فما أدلّ عليها من هذا السخف الذي تلفظه المطابع كل يوم ، سواء أكان مجموعاً في كتاب أو منشوراً على صفحات الصحف والمجلات .

مشكلة اللغة موضوع قائم بذاته ، لن أتطرق لمعالجته هنا . فلسوف اتناول المبنى كما هو ، أي باللغة الفصيحة ، لا كما ينبغي ان يكون ، أي باللغة الدارجة . وغايتي أن ألاحظ كيف ان التعبير بحد ذاته سقيم وناقص ، وكيف ان هذا التعبير ، بأداته الفصيحة الحاضرة ، لا مهرب له من السقم والنقص .

للعرب القدماء مباحث مرهقة في علاقة المعنى بالمبنى . حتى الأغريق لم يسلموا من مثل هذه المباحث بل هم تناولوها على صعيد فلسفي ، فاتخذت صفة الجوهر والصورة عند ارسطو ، أو الفكرة والشكل عند افلاطون . ومهما قيل في ذلك ، فالأمر الذي لا بد من الانتهاء اليه ، هو ان المعنى أو الفكرة أو الجوهر أسبق وجوداً من المبنى أو المادة أو الشكل ، وان هذا السبق ، على رغم اهميته الانتولوجية ، لا يقلل من شأن المبنى ، أو ايهما شئت من مترادفاته . فكلاهما ضروري لتحقيق الكيان .

اول مايطالعك من مبنى الأدب العربي الحديث شكليته «Formalism» . هذه الشكلية بعثتها نهضة القرن التاسع عشر . ومن هنا يصح ان لا تدعى نهضة ، بل رجعة . كانت أساليب التعبير الكتابية حتى عصر هذه « النهضة » أقرب الى الحياة ، فلما جاءت « النهضة » ابتعدت عنها ، فأخذت تنسج على منوال الحريري وبديع الزمان واضرابهما من أئمة اللغة والبيان القدامى . واذا كنا نحن اليوم نجابه مشكلة اللغة ، فلأننا استفقنا من كابوس هذه النهضة الى الوراء . فمنا من يدعو الى تبسيط اللغة ، وهي دعوة فارغة ، ومنا من يدعو الى الاعتراف باللغة كما انتهت اليه على ألسنة الناس ، وهي الدعوة الحق .

ومن مآسي هذه الشكلية في التعبير انها فتحت مصراعي الأدب لكل فكر عقيم . فما أسهلها على التعبير والتسطير . وقد يكتب « أديب » أو « شاعر »

مقالاً أو قصيدة ، فلا يقول فيه أو فيها شيئاً . ومع ذلك يبدو المقال أو تبدو القصيـدة كأنهما أثر أدبي يستحق النشر والتصدير ، ولا يفضح هذا العقم الفكري المشرب بالشكلية مثل الترجمة الى لغة اخرى ، فما عليك الا ان تجرب بقطعة من النثر أو الشعر اذا كنت بحاجة الى برهان .

ومما يطالعك أيضا في مبنى الأدب عندنا هذا الاجترار المستمر كأنما لا نهاية له . فالأدب الحي يتجدد دائماً في مبناه لأن معناه المستمد من الحياة يتجدد دائمـاً أيضـاً . فمنذ نحو ثلاثين سنة التقطنا في اديب مظهر وفوزي معلوف شعـاعاً من ادباء الرمز والرومنسية في فرنسا . وكان شعاعاً محيياً حقاً ، اذ أوجـد التيـار الشعـري اللبنـاني الحديث ، أو قل التيار الشعري العربي المعاصر . وماذا بعد ؟ لا شيء . ما زلنا نجتره ونقتله اجتراراً . انه من القرن التاسع عشر .. أفما حان لنا ان نلتقط شعاعاً من هذا القرن ، من هذه السنة التي نحن فيها ؟

في العالم أدباء وشعراء أوجدوا أساليب في التعبير تكسب المعنى جدة حتى لا يبلى ، فهل سمعنا حتى بأسمائهم ؟ هل ترجمناهم ، أو هل قرأناهم على الأقل ؟

لا ، ما زلنا « رمزيين » أو تقليديين ، ننظم معانينا على أوزان الخليل . نتفنن بالقـوافي ، ونخلط هذه الأوزان بعضهـا ببعض ، متـوهمين اننا « نجدّد » . فكـأنمـا هذه الأوزان تعكس القوالب التي وضعنا فيها عقولنا منذ اجيال . نتوارثها كما نتوارث هذه اللغة الفصيحة التي اختفت من حياتنا ، وما زلنا نركض وراءها في الكتب .

قلت في مقـدمتي الموجزة لمسرحيتي ، « هيروديا » ، إن هذا النتاج الأدبي سيكـون آخـر عهدي بهذا الاسلوب الشعري العتيق ، فلم يدرك البعض ما عنيت ... وهم لو أدركوا لما عتبوا مثل هذا العتب الذي كان الاستاذ عبد الله المشنوق في طليعة من أعربوا عنه ، اذ قال في كلمة له عن « هيروديا » : « هذه الدعوة الصريحة الى اللغة العامية لاحلالها محل الفصحى ، في أدبنا المعاصر ، ليست جديـدة علينا . ولكن الجديد علينا أن تصدر عن يوسف الخال الذي سوف يخلد بين الشعراء بمسرحيته « هيروديا » ، التي نظمها بالفصحى ، ولم ينظمها زجلاً او « قرادي » ، ولله الحمد ... ان العامية تشويه للفصحى ، وهي محدودة الألفاظ ، لا تتسع للصور الرائعة التي جاءنا بها يوسف الخال في مسرحيته ... » .

الحقيقة هي انني لم أعن بـ « الاسلوب الشعري العتيق » اللغة الفصيحة بالذات . ففي اللغة الدارجة (الزجل) أساليب شعرية عتيقة أيضاً بحاجة الى تجديد ، ولا استثني شعر ميشال طراد . واذا كنت قد عرضت باللغة الفصيحة في سيـاق الحـديث ، فلأنني أؤمن بأنهـا تتآمر على ابقاء الاساليب الشعرية عتيقة . وكم يطيب لي أن أجد برهانا يدحض هذا الايمان . أعطوني اسلوباً

شعرياً أو نثرياً جديداً ، باللغة الفصيحة ، يتجاذب مع الحياة ، ويصدق في تعبيره عنها ، وانا اكون في طليعة التائبين ... أتحسبون هذا الشعر المنثور تجديداً ؟ أم هذا الذي ينتظم عندنا في وزن قافية ؟ أم هذا التقليد البهلواني الزائغ الذي طلع علينا به البعض في آخر الزمان ؟

ويطالعك من أزمة المبنى في الأدب العربي الشيء الكثير ، منه ما ذكرت لئلا يطول المقال . اما أزمته في المعنى فأشد هولاً : نسيج من فراغ عاصف لا تدعمه حجة في تراثنا أو في تراث الفكر ، على وجه العموم . انما الذي يدعمه فاستشهاد بأقوال بعضها من هنا ، وبعضها من هناك . أين المسؤولية فيما نكتب من مباحث في الأدب ، أو فيما ننظم من قصائد في الشعر ؟ بل أين المسؤولية حتى فيما نترجم ؟

حان أن نفهم حقيقة لا خلاص لنا إلا بفهمها ، وهي ان النهضات لا تقوم بالعودة الى نشر الآثار الماضية واعادة نشرها واجترار معانيها ومبانيها ، وانما تقوم على التاثر بما في تراث حي آخر تاثراً عميقاً شاملاً ، غايته او نتيجته التبني والتملك الى اقصى حد . فاذا كان الأدب او الفكر العربي قد انحط في الاجيال الأخيرة ، فلأن قيمه لم تقوَ على التجدد والنمو والاستمرار ، إلا بالقدر الذي انتهى اليه . فاذا شئنا تجديده وانماءه وحمله على الاستمرار ترتب علينا تلقيحه بقيم أخرى ثبت حتى الآن انها تقوى على التجدد والنمو والاستمرار .

وهذا التلقيح لا يكون طفرة ، ولا اعتباطاً ، ولا شيء مما يصيب التعريب اللامسؤول . وانما يكون بالتصميم وبالغرف من أعمق الاعماق . فالى ان ننهض ، بطريقة ما ، الى نقل روائع التراث الغربي الى لغتنا نقلاً صحيحاً دافقاً ، من العبث بنيان مستقبل ادبي أو فكر ما ، فالمعجزة هي ان نحقق معجزة صيرورتنا ، لأول مرة في تاريخنا العربي ، من أبناء هذا التراث الذي ينبغي ان يكون لكل انسان على وجه الارض . ويا لها من معجزة ! انها معجزة ولادة جديدة من فوق ... ولادة تجعلنا ان نكون عوضاً عن ان نظل ، كما نحن ، صيرورة نحو الزوال .

هذا الأدب الذي ندعوه أدباً ، فلا يقرأه من المتحضرين الا نحن ، ما هو في معظمه الا توافه يلفظها كيان فارغ عقيم . زن معظم هذا الأدب في الموازين تجده ليس ناقصاً فحسب ، بل قبضة من ريح .

نحن حظينا بالجلوس اخيراً في مجالس الامم بفضل اسرائيل والبترول وموقعنا الجغرافي ، فمتى نجلس هناك بفضل آدابنا وعلومنا ، اي بفضل عقلنا المبدع الخلاق ؟ هذا هو الجلوس الحق ، الجلوس بشراكة ، الجلوس بعائلية متحدرة من أصل في الفكر والروح واحد أوحد .

كل شيء ، ما عدا ذلك ، زائف باطل .

تراثنا القومي جزء من تراث الانسان اطلاقاً ، لا كلٌ منفصل ، منعزل أو معزول . ونهضتنا الأدبية أو خروجنا من ازمتنا الأدبية لن تتم ، في المبنى ، إلا بالتحرر من اساليبها البعيدة عن الحياة ، كما انها لن تتم في المعنى ، الا بالاتصال من جديد بمجاري الحياة الفكرية الاصيلة الحية في العالم المتحضر - هذا الاتصال الذي من شروطه القيام بحركة نقل وتعريب عميقة مسؤولة شاملة ، هدفها التبني والاحتضان ، ونتيجتها الكبرى تلقيح أدبنا وحياتنا بقيم تتجدد وتنمو وتقوى على الاستمرار .

١٩٥٥

المدخل الثاني

ان يزدهر سوق الأدب العربي في لبنان ، وان يعمر بالمجلات الأدبية دون سائر اقطار العرب ، وان تكثر فيه دور النشر فوق ما يطيق ، وان يغص بحملة الاقلام عن جدارة أو عن دعوى ...

ان يكون هذا كله واقعاً صحيحاً فشيءٌ ، وان يكون دليل نَهضةٍ ادبية فشيءٌ آخر .

أما الواقع فنعرف أسبابه : اضطرابُ مناخ الحرية في الشرق العربي ، وصفاؤه في لبنان . واما دليل النهضة فأين هو ؟

أفي القصة ، وهي طفل ما حبا بعد ؟ تعيق نموها لغةٌ مكتوبة قد انقطعت صلتها بالحياة ، ويعيق نموها خلوُّ تراثنا الأدبي من أثر قصصيّ نترسمه ونهتدي به ، ويعيق نموَّها ، كذلك جهلنا الصارخ لمآثر الامم الاخرى وانقطاعُنا التعيس عن ينابيع الحضارة الأصيلة ومجاري تياراتها الفاعلة في التاريخ ؛ ناهيك بفقر حياتنا ذاتها ، وضعف روح الصراع والبطولة في كياننا وانطماسه في تقاليدنا ، وميلنا الى الانغلاق على انفسنا فلا نجعل آلامها وافراحها ، انهزاماتها وانتصاراتها ، دخائلها وخفاياها ، موضوعاً لقصص نرويه ونذيعه على الناس .

أم ترانا نجد الدليل في الشعر ؟ هذا الشعر الممعن في انصرافه الى الغناء دون سائر ضروب الشعر . فلا مسرحيات ولا ملاحم ، بل محاولات ضئيلة لا تسد الفراغ العاصف في حياتنا الأدبية ووجودنا الفكري . ومهما قيل عن اسباب ذلك ، فالحقيقة ان كياننا ما برح واقعاً تحت تأثير روعة الكون ورومنطيقية القضاء والظروف والحظ . وهو لو وقع ، كالكيان الاغريقي او اللاتيني او الغربي على العموم ، تحت تأثير روعة الشخصية الانسانية التي تصارع القضاء والظروف والحظ ، لكان لنا مسرحيات وملاحم . فنحن ، حتى في هذا القرن العشرين ، لا نزال عبيداً للطبيعة وقوى الغيب ، مفعولين لا فاعلين ، قانعين من الحياة بالآن لا طامعين منها بالأبد ، راسفين في محدودية الجسد لا محلقين بأجنحة الروح ، متمرغين في الهينّ السهل لا متمرسين بالصعب الجاثم على ذروات المستحيل .

ولو اننا في الغناء ، أو قل في الشعر من حيث هو شعر ، أتينا بالخالد العجيب ، لشفع بنا اذن عند الشعوب المتحضرة . والشاعر الحديث اخفق كما

اخفق القديم في خلق شخصيات موضوعية بمعزل عن فرديته ، او في التصدي حتى من خلال هذه الفردية ، للمعضلات الانسانية الكبرى . فاذا به مادحاً نفسه لا مادحاً سواه ، راثياً حاله وان لم يرْثِ احداً ، هاجياً كل شيء وان لم يهجُ شخصاً بالذات ، متغزلا بالحبيب كجسد لا كفكرة يسمو بها الى الجليل الرفيع .
اما النبض الشعري الجديد الذي بدأ مع اديب مظهر في الربع الثاني من هذا القرن ، فحان له ان يستنفد نفسه ويدركه الجمود . وما في الافق اليوم تباشير حركة تتجاوزها الى التأثر بمفاهيم الشعر وتياراته المعاصرة . فالاجترار ظاهر ، والعقم في الخلق والابداع لا يستطيع نكرانه أحد ، وكأنما نحن في عالم ذاتي مستقل عن العالم الأكبر ، وكأنما هذه الأزمة العصيبة التي يجابهها الانسان الحديث لا صلة لها بنا في شيء . وإذ نُصِرُّ على التفكير بعقليتنا القديمة المتأخرة ، نحسب ان مصيرنا رهن ارادتنا وحدنا ، جاهلين انه واقع في نطاق تصارع القوى المادية والروحية في عالم اليوم .

أما من حيث الاسلوب ، فهناك بداءة عصيان على الأوزان السائرة وتلمس لأسلوب جديد يخفف من قيود الأوزان ويلوي عمود الشعر القديم . واننا لنأمل لهذه البداءة النمو والنضج . وهي اذ تنضج لا بد لها من التوصل الى الادراك ان العلة لا تنحصر في الأوزان والقوافي بل تتجاوزها الى التركيب اللغوي ذاته .

ولكم يحزُّ في نفوسنا ان نجتاز هذه المرحلة الحاسمة في التاريخ دون أن ننعم بشعراء مبدعين ، شعراء في مصاف الانبياء ، يدلون على الطريق ، ويجسدون في قصائدهم وملاحمهم احلام امة بأسرها ، ومن ورائها ، احلام الانسانية جمعاء .

وبعد ، أترى دليل نهضتنا الأدبية في النقد ؟

فمنذ أيام صارح توفيق الحكيم زملاءه بأن لا نقد في مصر ، وكان الأجدر به ان يعمم قوله حتى يشمل العالم العربي كله ، إلا اذا حسب ان انعدام النقد في مصر كافٍ لانعدامه في الأدب العربي اينما كان .

والحق ، فحال النقد العربي عندنا لعلى أتعس ما تكون . وكان من حسن الطالع ان يضع احدنا ، منذ ربع قرن ، حجراً اساسياً للنقد الحديث ، ثم ما لبث ان انحرف عن هذا الاتجاه الصحيح الى التعلق بأحبال ليست من صنعه ، ولا أصول لها في تربة الجبل الذي آثر ان يخلد اليه . فظل ذلك الحجر وحيداً حتى هذا التاريخ .

وليس النقد في الآداب الناهضة عند الامم الحية إلّا فناً ادبياً اصيلاً لا غني عنه . فهو الميزان والمقياس ، أو قل ، مع ميخائيل نعيمة ، هو الغربال . وإلّا فكيف يشتهر كاتب مغمور ، أو تنطمس شهرة آخر ، في يوم وليلة ؟ ومن الذي ينير سبيل الكاتب ، فيدلّه على جوانب ابداعه او اسفافه ، ان لم يكن هذا الناقد

الفاهم المسؤول ؟ ومن يا ترى يبصر الاصالة هنا ، او الزيف هناك ، الا هو ؟ وأين دليل القارىء الى ما يحْسُن به ان ينفق الوقت أو المال في قراءته ، إذا ما انعدمت صناعة النقد وأقفرت ساحتُها الا من المطبلين والمزمرين والدجالين ؟

وانظر الى الأديب عندنا ، فانك لتراه ينشر كتاباً فلا يجد من يذكره بخير أو بشرّ ، بل لا يجد من يقراه ؛ وينشر مقالاً او قصيدة فكانما نشرها على صفحات المـاء . وكم يخيب الأديب في قصوى امانيه حين لا يلاقي نتاجُه صدى مهما كان . فهل نلومه اذا رايناه يحمل كتابه الجديد الى هذا او ذاك من أصدقائه ملتمساً رأياً فيه ؟ حتى اذا اجيب ، وهو قلما يجاب ، كان الرأي تقريظاً ابعد ما يكون عن النقد الصحيح .

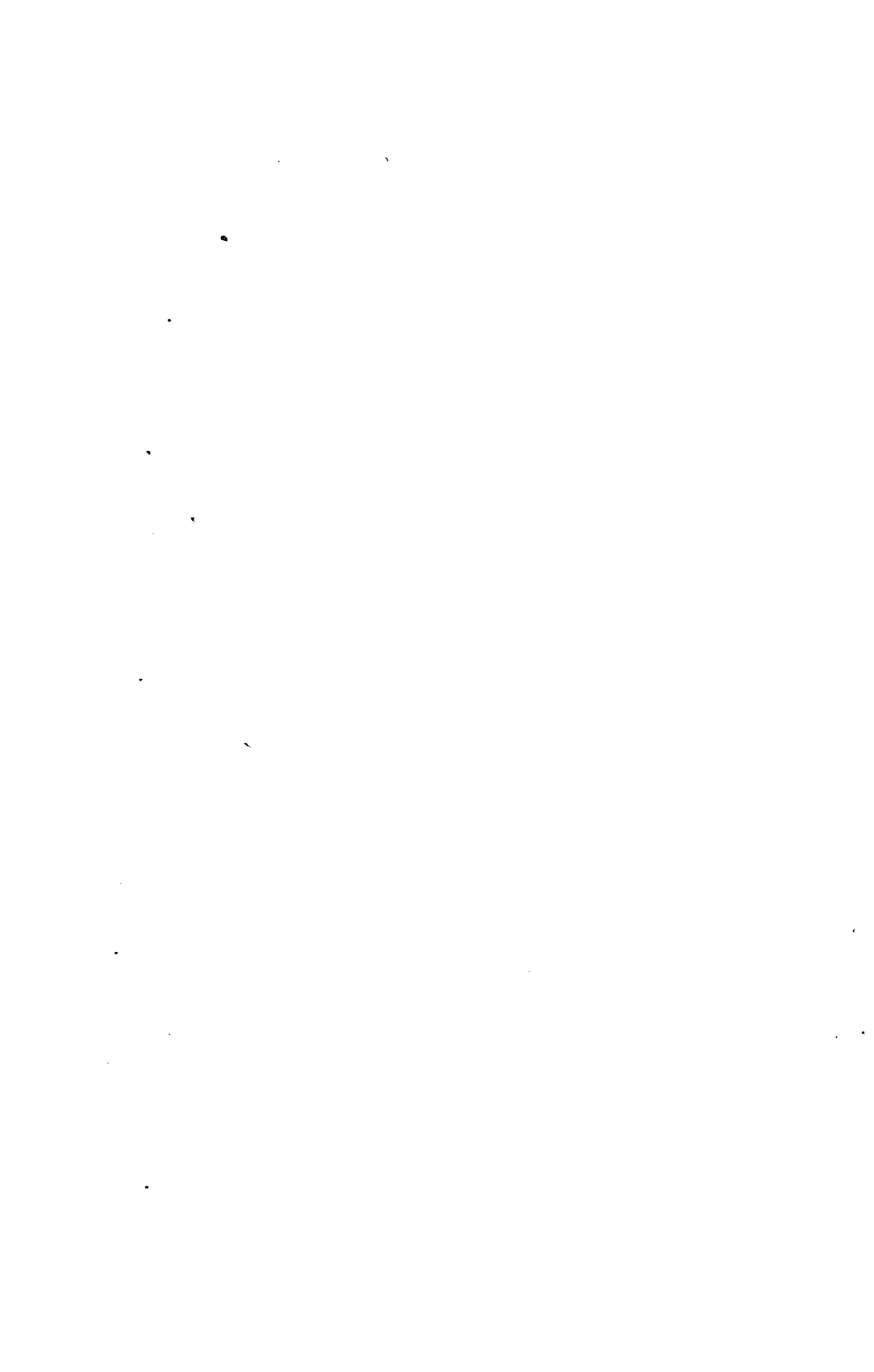
وما الحديث عن النقد ، ادبياً كان أو غير أدبي ، الا حديثاً طويلاً . اذ ليس انعدامه من حياتنا الأدبية أو الفكرية أو الاجتماعية الا شاهداً على الجمود الكياني الذي نعانيه . فالنقد لا يترعرع الا في أجواء الحرية . وأين نحن من هذه الأجواء ؟ أفي المناطق الحرام التي سيّجناها بالتقاليد والتفاسير ، وقلنا للعقـل : حذار الاقتـراب منها ؟ أم في مراعاتنا للخواطر ، وتزلفنا للآخرين ، واخضـاعنـا الحقيقـة لشتى الاعتبارات : القرابة ، والصحبة ، والحزبية ، والمنفعة ، والجبانة التي ما بعدها جبانة .

وهكذا يتبين لنا ان نهضة ادبنا لم تحن بعد . وهي لن تحين ما لم تتوافر لها شروط نذكر منها تجديد تراثنا ووعيه ، والاعتراف بالتطور الطبيعي الذي حققته اللغة على اللسان ، وتحرير العقل والروح لينهضا باصلاح حياتنا من الاساس ، والاقرار بوحدة الحضارة وتعديل موقفنا منها على ضوء هذا الاقرار ، والقيـام اخيراً بحركة ترجمة واسعة النطاق من شانها تلقيح كياننا الفكري والروحي وتهيئة اسباب عودتنا الى الاشتراك في بناء حضارة الانسان .

١٩٥٥

١

من زاويتي



١ سبل ومناهج

مارون عبود صندوق فرجه كالذي لا يزالون يطوفون به في القرى . وان شئت فهو سنديانة على باب كنيسة في الجبل . ولربما كان مارون عبود اسطورة ما برح يرويها الجيل العتيق للجيل الطالع .

في كتابه الجديد « سبل ومناهج » يلقي علينا مواعظ هي زبدة اختباراته . واذا كان لا ينطبق عليها قوله في مطلع الكتاب ان ليس له مذهب في الحياة ، فالمؤكد انه ينطبق عليها قوله ايضا ان كل اعماله خبص بخبص .

ونحن نحب مارون عبود لأن اعماله خبص بخبص ، لا لأن له مذهب في الحياة . فحين ينقرض هذا اللبناني الفذ ـ بعد عمر طويل ان شاء الله ـ ينقرض معه جيل بكامله . جيل فيه بركة ، لا كهذا الجيل الذي لا تنقصه الاها .

فعندما تلتقي مارون عبود بالمدينة يخيل اليك انه هبط اليها ماشيا او على حمارا أو بغلة ، فالسيارة ابعد ما تكون عن الجو الذي يحيط به او عن الصورة التي يرسمها في ذهنك كلامه الجبلي ، ذو البادرة الصريحة والعاطفة الصادرة من القلب .

أما في « سبل ومناهج » ، فلم يكن تماما هو . وما احسب ان المقالات التي وردت في هذا الكتاب الا احاديث حاول صاحبها ان يركبها السيارة اليك فما « ظبطت » . ففيها شيء من رائحة البنزين ، أو قل من رائحة الحبر . وكيف نلوم هذا الشيخ الشاب ان هو جهد في جمع ما علّمه اياه الدهر من حكمه ، بين دفتي كتاب ؟ فمن حقه ان يكشف للناس ما في خزائن نفسه . فالنقد الذي كرس له معظم نشاطه الادبي لا يروي غلة . فان لم يكن الانسان معلما ، فماذا يكون ؟

وغدا عندما يطلع في الاجيال القادمة من يستحق ان يغمس رغيفه في صحن مارون عبـود ، فسوف يتلذذ بألوان لا تستطعمها الآن حلوقنا المخصفـة اليابسة . وقد لا يكون « سبل ومناهج » من هذه الالوان . ولكنه واحد من ألف لون ولون .

٢ الفكر الاسلامي

للمستشرق جب كتاب جديد عن « النزعات الحديثة في الفكر الاسلامي » . طالعناه فأعجبنا به ، ورأينا أن نشير عليك بمطالعته في لغته الانكليزية الاصلية ، اذا امكن ، أو في الترجمة العربية التي وضعها الاستاذ كامل سليمان ونشرتها مكتبة دار الحياة في بيروت .

اوحى الينا هذا الكتاب ان قضيتنا ، في آخر الامر ، هي قضية تراثنا العقلي والروحي ، وهو التراث الذي انتهى الينا مع العروبة والاسلام . هذه القضية ، لكي تجابه بصراحة وجرأة ، يجب أن تمر بمرحلة النقد . ففيها ينبغي لكل شيء لنا وفينا ان يقف عاريا امام وجه الشمس . فليس لشيء ما قداسته أو حرمته عند العقل الناقد بمحبة وحرية .

ومن شأن مرحلة النقد هذه ان تركز ، في نظرنا ، على المبادىء الاساسية التالية :

اولا ـ ان الاديان في صميم تراثنا كأمة ، وان أمرها يعني اذن كل فرد من افراد الامة على السواء .

ثانيا ـ ان المعتقدات الدينية ، كسائر المعتقدات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، تخضع في حرية كاملة الى البحث والنقاش والجدل والشك .

ثالثا ـ ان حضارة الانسان واحدة ، وان لكل شعب في التاريخ نصيبه القليل او الكثير في بنائها ، وانها لذلك تخص كل شعب دون ما تمييز .

رابعا ـ ان قيمة تراث امة ما تقدر بمقدار تفاعله مع الحضارة ، وان كل انعزالية هي اذن جمود فموت ، وان كل نظرة لا تشع من معين الحضارة هي نظرة فراغية زائلة لا تتحد ولا تتصل مع مجهود العقل الانساني .

وخامسا ـ ان تراث الامة هو التراث الحي الذي نعيشه في الزمن الحاضر لا الذي عشناه في الزمن الماضي ، وان كل محاولة احياء اصطناعية هي محاولة عقيمة . وما ذلك الا لأن فعل الحياة قد اتخذ بشأن هذا التراث قراره الذي لا مرد له ، فأبقى على الصالح للبقاء وذهب

بالذي يستحق الذهاب .

وعلى ضوء هذه المبادىء الخمسة ، يمكن لمرحلة النقد ان تثمر وان تهيء الأسباب لمرحلة الدخول من جديد في حضارة الإنسان.

٣ فؤاد سليمان

أحببنا فؤاد سليمان وهو بيننا . فلما قيل لنا : مات ، تلفتنا فما افتقدناه .

وها هو ، في دوام حبنا له ، لا يزال في وسطنا كأي واحد منا .

أجل ، بل أكثر حياة من أي واحد منا ... ذلك أن الموت قد امتحنه ، فما قهره ، أما نحن فلم نمتحن بعد .

ولو كنا لا نحب الا الشخص في فؤاد سليمان ، لمات فؤاد سليمان بموتنا نحن . أما وقد أحببنا فيه الاله الصغير الذي يبدع ، فانه فيما ابدع تكون له حياة ويكون له افضل .

نقول ذلك ونحن نعلم ان فؤاد سليمان ليس من العباقرة . ولكننا نعلم ان الكلمة التي كتبها فؤاد سليمان جبلها بدم قلبه ، وان الفكرة التي حبل بها عقله وضعها بالأوجاع والآلام .

واذا كان فؤاد سليمان لم يكتب « الالياذة » أو « الكوميديا الالهية » أو «فوست» أو «هملت» فله اسوة بأنبياء الادب . ألم يرفع فؤاد سليمان في وجه امته سياطا من نور الكلمة ، ويمسح جراحاتها ببلسم الامل والعزاء ؟

لقد احببنا فؤاد سليمان ولا نزال نحبه . ونحن لذلك لم نفتقده . ويقيننا ان أولادنا سيحبونه كما أحببناه ونحبه . فلا يفتقدونه هم أيضا الى الف جيل .

٤ التربة القاحلة

في التربة القاحلة لا ينمو زرع . من قال إننا فيما مضى حملنا مشعل الحضارة الى العالمين ؟

انظر الينا : اكواخ تنك نحن على حافتي الطريق .

في قرطاجة ، يوم كنا ، جدلت النساء شعورهن حبالا للسفن .

وفي صور ، اقسم الناس عن بكرة ابيهم ان لا استسلام الا للموت .

وفي عهد نبوخذ نصر سقنا اليهود الى السبي ، ثم عادوا ، ثم عدنا ، فنثرناهم تحت كل كوكب . وها هم اليوم يعودون فلا يجدون امامهم الا خصيانا تمرست بالعبودية والذل .

وفي سالف الازمان ، دققنا ركائز العرب في الاندلس . ولما نمت للافعى انياب حفرنا حفرة في الارض واختبأنا فيها . ولئن كنا اليوم قد خرجنا الى نور الشمس ، فكالحرادين التي سرعان ما تختبىء من جديد عند اول غيمة تلوح في الافق البعيد .

مات القلم بين ايدينا ونحن نشكو ونتذمر . فمتى يا ترى ينمسح وجه الدرهم حين نمسّه بأصابعنا ، فلا يعود يتحول الى عقرب في قلوبنا وفي ضمائرنا ؟

٥ | توق نحو الأجلّ

نقول بتحرير الشعر من قيوده .
ونقـول بحاجتنا الى القصة والمسرحية والملحمة ناهيك بحاجتنا الى ادب صحيح .
ونقول بأشياء أخر من حقنا ـ في بدء يقظتنا ـ ان نقولها .
انما الذي لا يفيدنا فيه اي قول فخلق عقول مبدعة جبارة تشق الطريق .
عقول تجابه مشاكلنا في الاساس ، فلا ترتعد ولا تجبن .
عقول ترى الرؤيا وتؤمن بها حتى الموت .
عقـول لا تعظ بل تفعل . تقف في وجه الشيطان ثلاثين يوما فتقهره وتمشي الى الصلب .
عقول لا تطمع بنيابة او بزعامة او بشـهرة ، بل بلقمة مغموسة بالعرق والدم .
عقول كهذه نريد ، لا رقابا غليظة ومطايا ناعمة مريحة للركوب .
فلقد شبعنا من العادي والوسط والوضيع ، وها نحن في توق الى الفذ والشامخ والجليل ..
في توق ، اجل .
وتبقى لنا ، بعد ، نعمة الصبر والانتظار .

٦	احمل سريرك

ندرك ، وادراكنا علامة خير ، ان ادبنا اقليمي شخصي ، وان الفن عندنا مجرد الوان واظلال تائهة ، وان الفكر جناح مهيض او عبد مشدود الى الوراء بألف قيد .

ندرك ذلك ونقوله في مقال هنا ، وفي حديث هناك . انما القول وحده لا يكفي .

الزمن ، صحيح ، بجانبنا . ففي كل مطلع شمس نزحف زحفة الى الامام . ولكن ، هل نعتمد على عامل الزمن ونقبع ، كالحرادين ، في حر الشمس .

فالزمن يسير بنا كما يسير بسوانا . وحين نقطع شوطا ، يقطع هو اشواطا . وهكذا نظل في المؤخرة . فها هو الآن يصطنع في الفلك كواكب ويستعد لغزو القمر ، فهل نستطيع ادعاء المساهمة في هذا الفتح العجيب ؟؟

نقول : ماذا علينا ان نفعل ؟ والاصح ان تقول ماذا عليّ ان افعل ؟ الجواب بسيط : « قم احمل سريرك وامش ! » .

٧ نظرة جديدة

نعجب كيف أننا ، منذ الف سنة ، لم نطلع على عالم الفكر او الادب او الفن بشخصية واحدة .

تراثنا الحضاري عريق في التاريخ ، يرقى الى خمسة آلاف سنة . فقبل هوميروس غنّينا ملاحم تعتبر احداها ـ أعني ملحمة قلقامش ـ اروع نتاج ادبي في كل العصور وفي كل الامم . وقبل ان يكتشف العالم عالم الاجتماع الحديث ، كان منا ابن خلدون .

فمن حقنا اذن ان نعجب لهذا العقم الذي منينا به . ومن حقنا ايضا ان نبحث في اسبابه .

والاسباب معروفة : تحجر عقلنا ، فلا هو حر في التفكير ، ولا هو حر في التعبير عن هذا التفكير . اي ان عقلنا مسكوب في قالبين : فكري ولغوي .

كثيراً ما نحاول التقليل من اثر النظرة الى الكون والحياة والفن ، فنحسب ان نهوض الامم او سقوطها عائدان الى عوامل ميكانيكية ، او الى المصادفة والاتفاق .

واذا كانت النظرة الى الكون والحياة والفن هي ما نسميه « الدين » ، ظهر عندئذ خطأ التقليل من شأنها في حياة الافراد والامم .

في هذه النظرة اذاً ، ينبغي ان نبحث عن اسباب نهوضنا أو سقوطنا . فلا شيء غير هذه النظرة الى الكون والحياة والفن يجعلنا الانسان الذي نحن والمجتمع الذي نحن ، والفكر الذي نحن .

واذا كان لنا بعد هذا السقوط الذي حلّ بنا منذ الف سنة ان ننهض من جديد ، فعلينا ان ننقد نظرتنا الحاضرة ، فنتبنى تعديلا لها أو بدلا عنها . فمن المحال ان يقوم عندنا ادب جديد أو مجتمع جديد الا على اساس نظرة جديدة .

الا يكفي هذا العقم الطويل الامد دليلا على ان في نظرتنا القديمة نقصا ، او على الاقل شيئاً كثيرا من النقص ؟

٨	بلادك

أفـاقد أنت ثقتك ببلادك : بأدبها ، بفكرها ، بفنها ـ أو قل بتراثها المتراكم منذ القدم ؟

اذن ، فما عليك الا هـجرانها . فاهـجرها تعد اليك ثقتك بها . تجدها . تحبها . تركع على ترابها . تقبل هذا التراث وتضعه على رأسك .

لا ألومك إن أنت تذمرت منها . ان احتقرت انسانها وأنت هو . إن جدّفت على شعبها وأنت واحد منه . إن ظننت انها أحط ما في الارض من بلدان .

لا ألومك مطلقا ، بل أقدر موقفك .

اني اتمنى لك أن تفارقها قليلا ، أن تتغرب ، ففي الغربة شفاؤك مما أنت فيه . وعندئذ يكون لك الفرح الذي لا فرح أعظم منه .

اراك تتساءل ، متى صدقتني ، عن السر .. أنا أفضح لك السر : أما سمعت بأنه قيل : « من يخسر نفسه يجدها ؟ » .

وبلادك ، من هي الا نفسك ، اقول نفسك وانا اعني بنفسك انت بكل ما فيك من قوة وضعف ، وجبن وجرأة ، وبؤس وفرح ، وذل وبطولة ، وخلود ولا سبيل اليه بغير الموت !

٩ تجارة الفكر

في الفكر ، كما في كل شيء ، نحن تجار .
وتجار نحن منذ افلاطون . فليس في الأمر شيء جديد . وليس فيه عار . إنما العار في اننا نتاجر حتى في الفكر !
فالفكر ، وموضوعه المعرفة ، لا يكون سلعة للمتاجرة .
اما كيف نتاجر بالفكر ، فخبره عند دور النشر عندنا ، بل عند الذين يستغلون المعرفة من اجل الكسب والجاه المرموق .
أعرف أمثلة . وكان بودي ان اسرد بعضها . انما يثنيني عن ذلك شيء من اللياقة لا من الجبن . وماذا يفيد المرء من اعطاء أمثلة هي بحد ذاتها بحاجة الى امثلة ؟
والمتاجرة بالفكر ، لا تنحصر في بيعه وشرائه بالمال . فهي تتخذ وجوها عديدة . منها مثلا إدعاؤها بأننا ادباء ونحن لسنا من الأدب في شيء . ومنها استخدام القلم للتطبيل والتزمير ، بل لتزوير الحقيقة وتضليل الناس . ومنها ايضا اللجوء الى التمويه وايهام الناس بما ليس له في الواقع اي وجود . فكم من « مفكر » سحر سامعيه أو محدثيه بما سيقوم به من مآثر ، بينما هو اعلم بأن طاقته لا تتحمل شيئاً مما يقول أو مما يعد بأنه سيفعل .
قلت : الامثلة كثيرة . وقلت إنني لن اسرد ولو واحدا منها . فما انت بحاجة ، في الواقع ، الى اي سرد . افتح اي مجلة او اي جريدة ، او اي كتاب .

١٠ صراع المفاهيم

للصراع القائم في عالم اليوم ، وجوه عدة . وما السياسة الا وجها منها ، بل هي الوجه الذي يعكس سائر الوجوه .

ولعل الوجه الاهم هو ما اتصل بالفكر . اذ هنا يحتدم الصراع بين مفاهيم قديمة جوفاء لا صلة لها بالواقع ، وبين مفاهيم حديثة مستمدة من هذا الواقع .

قد تكون المفاهيم القديمة مفاهيم وجيهة ، بل قد تكون هي الحق بعينه ، ولكنها اذا لم « تتطور » لتجيب عن تساؤلات الانسان الحاضر ، فماذا تنفع وجاهتها ؟

الشيوعية وما تفرعت منه أو تفرع منها تجيب ، أو هي تحاول أن تجيب ، عن تلك التساؤلات بمفاهيم فكرة حديثة . واذا كانت هذه المفاهيم مخطئة بالقياس الى المفاهيم القديمة ، فليس ما يمنع انتشارها وربما انتصارها الى اجيال . وكلنا يعلم ان العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول .

فعلى المفاهيم القديمة ، لكي لا تظل جوفاء بالرغم من وجاهتها ، ان تجيب عن تساؤلات الانسان الحاضر بالعودة الى الانسان ـ هذا الانسان الذي فقدته ، في طريقها ، منذ ثلاثة قرون .

وماذا تعني عودتها الى الانسان ؟

السامري الصالح في الانجيل لم يؤاس الجريح بالمواعظ ، ولا ضمد جراحه بالنظريات ، ولا تصدق عليه ببعض ما في جيبه من مال . وانما هرع اليه يلمس جراحه ، ويحمله بين ذراعيه ، وينقله على دابته الى حيث يمكنه أن يشفى .

١١ تفتيش

لو كنا نفتش عن انفسنا فقط ، لكنا تساوينا في ذلك مع كل شعوب الارض . اما ونحن لا نزال نفتش عن بلادنا ، فأمر فريد قد لا يشاركنا فيه شعب من الشعوب .

ففي الايام الاخيرة اصغينا الى خطاب ومحاضرة . اما الخطاب فلشارل مالك ، واما المحاضرة فلجواد بولس . والموضوع : لبنان !

وكأنما « تعريف » الاول للبنان بأنه عالمي ، عربي ، لبناني ، شخصي ، لم يكن كافيا . فجاء الثاني ليلوم الاول على نسيانه كون لبنان « مديترانيا » ايضا ، وليضيف الى القائمة صفة « جغرافي » ...

وهكذا اصبح لبنان اليوم ذا وجود عالمي ، عربي ، لبناني ، شخصي ، مديتراني ، جغرافي . نقول « اليوم » لأننا قد نشهد غدا من ينهض ليضيف الى هذه القائمة وصفا آخر يكون بمثابة « ثالثة الأثافي » او القشة التي تكسر ظهر الجمل !

والآن ، أفلا يحق لنا ان نتساءل عن الغاية من كل هذا الالحاح ؟ اهو مجرد « التعريف » ، والتعريف لا يكون إلا للشيء المجهول ، أم مجرد « فشة خلق » كلما دق الكوز بالجرَة ؟

لقد كان الخطاب والمحاضرة وجيهين . ما في ذلك ريب . انما هذا خارج موضوعنا الآن .

موضوعنا الآن هو : الى متى نظل نفتش عن بلادنا ؟ الى متى نظل نشعر بأن « الوطن » الذي ننتمي اليه بحاجة الى شرح وتوضيح وتعريف واثبات ؟

فاذا كان لبنان موجودا بالفعل فليس من مبرر لهذا الشعور . اما اذا كان موجودا بالطاقة ، فما هو السبيل الى وجوده بالفعل .

هنا القضية .. وكفانا الله مؤنة التفتيش والتعريف و... فشة الخلق !

١٢ التهرّب

منذ القدم ، تهرّب قايين من وجه ربه .

وهـا هو ، على مدار الاجيـال ، ما زال يتهـرّب . من نفسـه ، ومن مجتمعه ، ومن حاضره ، ومن الفراغ الذي يملأ قلبه وكل ما حوله .

وفي التهرّب ، يظن هو ، كل النجاة : فيعاقر الخمر أو يقامر . ينطوي على نفسه او ينفلش على الناس . يلتزم مكانه او يطوف في كل مكان . يفتش . يتحزب . يشتغل في السياسة . يقرأ جرائد . يسهر كل ليلة حتى صياح الديك . يتذمر من اي شيء وينفلت لسانه دائما بلعنة ..

التهرّب ، ما اذل التهرّب ! ما اقبحه ! ما اثقل كعب حذائه على الرقاب !

انه عنوان هذا الجيل وكل جيل . أما ترى طابعه على كل شيء : على ما نفعل وعلى كل ما لا نفعل ، على ما نقول وعلى ما لا نقول ؟

البطل والقديس ينجوان منه . أليسا هما اللذان يصمدان في وجه الواقع لينفذا منه الى اعماق الحقيقة ؟

وفي وسـع كل انسان ان يصير بطلا وان يصير قديسا ، حسبه ان يصمد بجرأة في وسط المعركة .

اراك تسأل : وكيف يكون ذلك ؟

الجواب : سؤالك هذا دليل على ان الله في قلبك قد مات !

١٣ التكريس

يسأل الكثيرون عن اسباب عجزنا عن تصدير اديب او مفكر او عالم واحد الى الحضارة طيلة القرون العشرة الاخيرات .

وهم في سؤالهم هذا جادون بقدر ما هم مصيبون .

فما هي الاسباب ؟

الأسباب عديدة أود أن اختار واحدا منها ، هو سبب له بدوره اسباب . انما لن اتعرض لها . اذ لو تعرضت لها لانطبق علينا مثل الدجاجة التي اوجدت البيضة ام البيضة التي اوجدت الدجاجة !

أما السبب فهو انصرافنا عن تكريس انفسنا للادب او للفن او للفكر او للعلم .

فنحن نريد ان نكون ادباء وفنانين وعلماء دون تكريس . فنرانا نطمع بالمنزل الفخم ، والسيارة الواقفة عند الباب . ونرانا نطمع الى المقام الاجتماعي الرفيع والمكانة المرموقة : فنتزلف كيما نصل ، ونبيع انفسنا لأول الشارين ، ونسخّر مواهبنا للنفع المادي الزائل ، ونهدر وقتنا في المسايرات الاجتماعية العقيمة .

وترانا كذلك ، نسعى للتزوج باكرا كما يفعل الناس ، وللانجاب والقاء المراسي في المرافىء الامينة .

ولو انك تقوم بتحقيق عن حياة ادبائنا او فنانينا او علمائنا ـ او الذين كان يمكن ان يصبحوا كذلك ـ لوجدتهم على الحال التي وصفت . فأية غرابة ، اذن ، ان نرى مواهبهم تذوي وتزول ؟

التكريس .. هذا ما يروي تربتنا لإنبات الاديب والفنان والعالم وتصديرهم الى سوق الحضارة ..

ارجوك لا تسألني عن أسباب وجود هذا السبب !

١٤	فراغ

اريد ان اقف الآن لأقول كلمة :
كل ما كتبت ، في هذه الزاوية كتبته في فراغ ، فلا أنا احسست به ولا أحد احس .
أتكون حياتنا عبثا بهذا المقدار ؟
منذ ايام أطلّت سنة جديدة : اتصدق انت ان سنة جديدة أطلّت عليك ؟
اما أنا فلا اصدق .
نعم صرت اكتب ١٩٥٦ بدل ١٩٥٥ . ما عدا ذلك ، اي اثبات لديك او لدي أن الزمن تحرك لنا نقلة الى الامام ؟ من قال ان للزمن شأنا في حياتنا ؟
طول عمرنا لم نعرف هذا الشيء . لو نقول الفضاء ، نعم . هذا الشيء نعرفه لأننا نملأه . أما الزمن ؟
البارحة قرأت في جريدة ان عالما انكليزيا ينكر امكان الطيران وراء جاذبية الارض ..
وكانت حروف هذا الخبر سوداء كبيرة ، وضمن برواز !
فكأنما الجريدة تريد ان تقول للغرب : « شفتوا ، ما فيكم تطيروا للقمر أو للمريخ . معرفتكم خلط !»
قد تقول لي ما شأن الزمن في هذا ؟
وانا أجيب : الزمن نقطة انطلاق . ومنذ الف سنة اضعنا نقطة الانطلاق هذه .
ومن هنا هذا الفراغ الذي من مظاهره انني لا أحس بما اكتب وانك لا تحس أيضا به .

١٥ فقرنا الشعري

فقرنا الحاضر في الشعر يفوق كل فقر .

فحتى شعر الاجترار ، والنسج الكياني ، والترقيع البالي في الفكرة والاسلوب .. حتى هذا النوع من الشعر غير موجود ، فكم بالحري الشعر المعاصر ، الصادر عن غنى في النفس ، المسكوب بلغة طبيعية تعكس الحياة ؟

أيكون معين الابداع الشعري اللبناني الذي تجلى مرارا منذ مطلع هذا القرن قد نضب ؟

وهل يعقل ان الابداع الذي ادخل وحدة الموضوع الى القصيدة العربية ، وراد بها آفاقاً جديدة من المعنى وطريقة التعبير عنه ، وقف اليوم عند هذا الحد ؟

قد يكون بيننا من ينظم ملحمة بثمانمئة بيت ، ولكن هل بيننا من ينظم بيتا واحدا يسترعي انتباه العالم ، أو قل بيتا واحدا من الشعر المعاصر ؟

الفقر اتعس ما يكون في القيمة لا في الكمية . فماذا نقول عنه اذا ما تجلى في القيمة والكمية معا ؟

ربما لا نعني الشعراء الشيوخ أو انصاف الشيوخ . هؤلاء شقوا طريقا وراحوا . وانما نعني الفوج الطالع من الشعراء ـ الفوج الواجب ان يتخطى كل قديم للحاق بركب الشعر العالمي المعاصر .

ولكم استبشرنا خيراً بواحد هنا وآخر هناك . ولكن سرعان ما كان يختنق كالوردة النابتة مصادفة في حقل شوك .

خاطرة	١٦

لا يشفع فينا شيء الا عمرنا الطويل الذي يرقى بنا الى خمسة آلاف سنة .

فبه نحن « اغنياء » على فقرنا الحاضر . ولولاه لكنا كالعاصفة التي يذريها الريح .

القدم في التاريخ له حق . والا فمن أين لنا هذا التهافت على العيش ، وهذا الارتخاء في كل ما له شأن بالمعرفة ؟ ومن أين لنا ما « ننعم » به من جمود وسط الحركة المشمرة عن ساقيها في العالم الحديث ؟

الاركيلة ؟ من قال لك إنها ليست خلاصة خبرة طويلة علمنا اياها الدهر ؟

والمسبحة كذلك ، أتظنها عبثا ؟

وماذا نقول في هذه الاطعمة التي ننفق ثلاثة ارباع وقتنا في طهيها والتلذذ بها ؟

الركض دليل الفتوة . والفتوة قادمة على شيخوخة .. ولكم ركضنا في الماضي : الفينيقيون ، الآراميون ، الكلدانيون ، الآشوريون ، الحثيون ، السلوقيون ، العرب . وها نحن قد شخنا ، فهل في هذا عار ؟

وفي الغد سيشيخ سوانا ، هؤلاء الراكضون في موكب الحياة اليوم . فليركضوا ما شاءوا . نحن في انتظارهم هنا . هذا اذا لم يسرِ الينا منهم عدوى الركض فلا نجد مكانا نلتقي فيه .

ما في هذا القول عدمية او حتى اقل شك في نتائج العلم الحديث ، كما ان لا فيه دعوة الى القعود او الرجوع الى عنزة غاندي ونوله . وانما هي خاطرة تمر بالمرء في لحظة من لحظات حنينه الى ما قبل ، أو تطلعه الى ما وراء .

١٧ صابون العرب

الامثال السائرة تعكس نفسية الشعوب . من قال إن مثلنا السائر « كله عند العرب صابون » لا يعكس فقدان مزية التمييز في تفكيرنا ؟
والقدرة على التمييز تعني معرفة . فالجاهل كالاعمى ، لا يميز مثلا بين الخيط الابيض والخيط الاسود .
« كله عند العرب صابون » . القصد ان تكون له رغوة . اما النوع أو القيمة فأمر ، عند الجاهل ، لا شأن له .
والغريب اننا في شؤون الاكل واللباس والراحة الجسدية قادرون على التمييز . أما في شؤون الفكر والادب والفن ، فعجزنا ظاهر لكل ذي بصيرة .
خذ الفن مثلا . كم منا من اذا حضر معرضاً لرسوم تشكيلية مثلاً ، يميز بين اللوحة الجيدة واللوحة الرديئة ؟
لي صديق من الفنانين يصور النساء عاريات اكثر ما يصور . تسأله لماذا فيجيبك : بدي بيع حتى عيش ..
لو كنا ندري كم هي القدرة على التمييز دليل على انسانيتنا ، اذن لأدركنا الى أي حد نحن عراة الا من الشعر النابت على جلودنا .
« كله عند العرب صابون » .. وسواء أكنا عربا ـ في البادية او خارجها ـ أم لا ، فالمثل سائر بيننا . وسيظل انعكاسا لنفسيتنا حتى نقطع اللسان الذي يستشهد به .

١٨ في النفاق

لو نتكلم بصراحة ، فماذا يبقى لنا ؟
أعني لو تعـرينا ، لو ظهرنا على حقيقتنا ، اتبقى لنا حرمة في عين انفسنا ـ ولا نقول في عين الناس ؟
النفاق . ما أقبح النفاق ! ما اضره ! ما اصدقه تعبيرا عن حياتنا !
في السياسة ، نساير الغوغاء . نسايرها لا عن حكمة بل عن جبن ، عن خوف ، عن طمع في نفع .
وفي الادب ، في الفن ، في الفكر ، ننافق ايضا .
نجلس على قارعـة الطريق كالزانيـة في سفـر حزقيال . نكشف عن عورتنا للغريب . نضاجعه . نلد البناديق .
في القصة ، في الشعر ، في اللحن وفي اللون .
وكـالزانية ايضا ، نريد ان نغني ، ان نغني بسرعة ، ان نغني بلا جهد . فلا نؤلف بل نجمع جمعا ، ولا نكرس حياتنا للتأمل والبحث عن الحق بل نسخر القلم سلما للشهرة .
ونحن ، حين ننافق على انفسنا وعلى الناس ، ننتحل الاعذار آنا ونلوم سوانا آنا آخر . عقلنا مريض ، ونعرف انه مريض . وقد نعرف الدواء . الا اننا نجبن عن الاعلان والشهادة ونساير . نساير ، نساير ، نساير لتسلم جلودنا .
النفاق . ما اقبح النفاق . ما اضره ! ما اصدقه تعبيرا عن حياتنا !
صحيـح . لو تكلمنا بصراحة ، فماذا يبقى لنا ؟ تبقى لنا حرمتنا ، ويبقى لنا املنا ـ املنا في ان يبقى لنا شيء ..

١٩ أحلقة مفرغة ؟

إرادة النهوض واضحة فينا .
فنحن نريد ان ننهض . سياسيا فنستقل في ارضنا وتحت سمائنا . واقتصاديا فنستغل مواردنا الطبيعية والبشرية بأحسن ما يكون الاستغلال العلمي الحديث . واجتماعيا فندعو الى الغاء الاقطاعية وتوزيع الثروة بالعدل ونشر التعليم ورفع مستوى العامل والفلاح وانشاء المؤسسات التقدمية .
ونحن نريد ايضا ان ننهض ثقافيا ، فننصبّ على النقل والترجمة كيفما اتفق ، ونفتش عن اية وسيلة تصلنا بتراثنا الميت الحي وحضارة الانسان العامرة الزاخرة .
أَلا بورك لنا في ارادة النهوض هذه .
انما الارادة وحدها لا تكفي . فنحن لا نعرف بعد من أين نبدأ أو كيف نبدأ . فترانا نبدأ بالاقتصاد ، فتعوزنا الخبرة والمال . ونبدأ بالسياسة فنطرد الاجنبي ـ بعض الاحيان ـ من الباب ليعود الينا من النافذة . ونبدأ بالاجتماع ، فنصطدم بقوى الرجعة في قلوبنا ونفوسنا ، أو نبدأ بالثقافة فلا نجد من يقرأ ولا نجد من يكتب .
فمن أين نبدأ ، وكيف نبدأ ؟
أتقول يجب أن نبدأ بالانسان ـ أي بالعقل ـ فهو الأساس ، وهو الكائن الذي يوجد به كل شيء ومن دونه لا يوجد شيء .
وكيف يمكن البدء بالانسان ؟ الا يقتضي ان يكون هنالك انسان يبدأ بالبدء بالانسان ؟
أتظن وقعنا هنا على حلقة مفرغة ؟ فكّر معي قليلا .

٢٠ لبنان الطائفي

يعتبر انيس صايغ في كتابه « لبنان الطائفي » ان الطائفية هي « الخطر الاكبر الجاثم على صدر الواقع اللبناني » .

ولذلك فقد نهض بدراسة تتناول الطائفية من الناحية التاريخية فقط . وعذره في هذه « الفقط » ان اخاه الدكتور فايز صايغ قام في سنة ١٩٤٧ « بدراسة الطائفية في مسلكها الفلسفي » وان زميله حليم فياض يعد « رسالة جامعية في المسلك الواقعي للطائفية » .

ويأمل المؤلف ان يشكل كتابه ، مع الكتابين الآخرين « سجلاً وافيا لهذا الموضوع الخطير » .

نشكر همة هذا الفرع الصغير الرابع من الدوحة الصائغية الباسقة. فهنالك يوسف ، الخبير بالاقتصاد ، وفايز ، الخبير في كل شيء ، وتوفيق ، الخبير في الآداب ، والناظم شعرا منثورا ، والقائم اليوم بدراسات ادبية شتى لم ينشر منها الا القليل بعد ، وانيس ، هذا الذي أطل علينا اليوم بهذا الكتاب .

نمتدح في انيس روحه العلمية وبراعته في السرد والتبويب ، ومثاليته الرصينة التي تأبى « لبنان الطائفي » بداءة حسنة ، بل قل دراسة قيمة لموضوع يصفه بأنه « الخطر الاكبر » .

انما يؤسفنا ان لا نمتدح في انيس عجزه عن الغوص الى الاعماق . فهو ، كأخيه فايز من قبله ، لم يصل الى القاع في سبر غور الطائفية . لقد حاول ان يسبر هذا الغور في التاريخ . وهو ، لو وعى ، لسبره في نفسه . نعم ، في نفسه .

للنزعة القومية المثالية حسنات . ولكن لها مع الاسف ، سيئات ايضا . ومن هذه السيئات الدراسة التي اتحفنا بها مؤلف « لبنان الطائفي » .

لا يا أخي . جذور الطائفية ليست في التاريخ . انها فيّ وفيك ... في هذا الكيان الانساني الذي ينشد الحرية ، الحرية في الاعتقاد بما يعتقد ، والحرية في العيش بحسب هذا الاعتقاد .

نريد أن نبني أمة على اساس القومية . عال ، ولا اجمل من هذا

ـ وكدت اقول « هيك » ولكن ، لعن الله لكن ، ماذا نفعل بالدين ؟ أتظن أن الدين مجرد مبادىء يمكن وضعها على الرف ؟ اتظن أن لا علاقة له بهذه الطائفية التي نصفها بالخطر الاكبر ؟ اتظن ، كذلك ، أن القومية ـ أسورية كانت أم لبنانية أم عربية ـ ممكنة في بلادنا ما لم تصبح هي ، بحد ذاتها ، دينا او ترتكز على دين من الاديان القائمة فيها ؟

ثم أتظن انه من الصدفة ان يكون الذين تصدوا للطائفية بروح علمية ـ انت ، واخوك فايز ، وحليم فياض ـ هم من المسيحيين ؟

ثم اتظن ـ وهذا هو التساؤل الاخير ـ ان لبنان موجود بكيانه الذي انتهى اليه لمجرد نزعة طائفية ؟

اننـا ، حين نفقد الايمان بالله وبالقيم المنحدرة من هذا الايمان ، نجنـح الى تأليه التاريخ . وبذلك نقع في وثنية أشد هولا من أية وثنية عرفها الانسان منذ وجوده .

فيا أخي انيس ـ مؤلف لبنان الطائفي ـ آمن بالله .

وليباركك الله .

٢١ فنائيون وعبدة أصنام

فنائيون نحن وعبدة اصنام .

عندنا تباشير نهضة شعرية اخذت تحطم قوالب التعبير العتيقة ، فهل درينا بها ؟ هل ادركنا عمق مغزاها وبعد اثرها في تطور الشعر العربي ؟

عندنا نزعات فكرية تقدمية جامحة اوشكت ان تتبلور في ثورة على جمود التفكير القديم . بل هناك دعوة جدية صريحة الى حرية العقل من كل قيد .. فهل حاولنا تشجيعها ، أو ضبطها ، أو الاهتمام بها سلبا أو ايجابا ؟ هل بدأنا نعي أن السياسة في آخر الامر لا تقرر مصيرنا ، بل الذي يقرر مصيرنا هو الفكر ـ الفكر وحده دون سواه ؟.

وعندنا ، من ناحية ثانية ، ظلم يقع ، وقيود توضع على العقل ، وسياسة تطغى على كل شيء ، وشوك يخنق كل نبتة صالحة ، وقبح تشمئز منه النفس والعين ، دجل يسيطر على ساحة المعرفة ... فهل وقفنا من هذا كله الموقف الايجابي الذي يقينا من الفناء بأجدى مما يقينا أي سلاح يأتينا من الشرق أو من الغرب على السواء ؟

اجل ، فنائيون نحن وعبدة اصنام .

وبـ « نحن » لا أعني أحدا بالضبط . هذه الكلمة تعبير عن وجدان المواطن أيا كان ، وعن تراث الامة ـ كامكانية على الاقل ـ وعصارة جهدها الحضاري منذ فجر التاريخ .. أو قل ، هي تعبير يقصد اليه المسؤول الاول والاخير عن مقامنا في حضرة الازل وفي عين الحق الاخير .

فنائيون نحن وعبدة اصنام .

على اننا لن نظل كذلك . ففي وسعنا ان نأمل ـ بفضل سرعة التطور الحاضر ـ بأن تنهض هذه الـ « نحن » قريبا على انقاض ألف جيل .. وجيل .

٢٢ | من يطالع ماذا

في الاوساط الفكرية اجماع على ان مطالعة الكتب الجدية في هذا البلد تكاد تكون معدومة . فروى لي احد المؤلفين انه نشر كتابا بالعربية ، فلم يسمع له صدى . غير انه ما كاد ينشره هو ذاته بلغة أجنبية في اميركا ، حتى تجاوبت اصداؤه في العالم المتحضر بأسره .

ومن ذلك ، ما أفضى الي به مؤلف آخر قال : « عندما اصدرت كتابي الاخير (....) وفيه ما فيه من الآراء الجريئة ، توقعت ان ترجم الغوغاء منزلي بالحجارة وان تضج اعمدة الصحف والمجلات بالنقد ، وان تدور رحى حرب قلمية على نحو ما يجري كل يوم في المجتمعات الواعية . الا ان شيئاً من هذا لم يحدث . فنحن يا أخي نيام ، لا نطالع ولا نقيم وزنا للفكر . همنا العيش . حتى ان قضايانا السياسية لم تعد تهمنا . فلولا الجرائد التي تتعيش ، والزعماء الذين بدورهم يتعيشون ، من كان يا ترى يسمع حتى بقضية فلسطين ؟.

ومن ذلك أيضا رأي صديق لي منحه الله موهبة كتابة القصة . عرفته ، منذ بضع عشرة سنة ، اديبا ناشئا يدرب قلمه على الكتابة باللغة العربية . فلما التقيته امس بعد انقطاع ، وجدته يدرب قلمه من جديد على كتابة القصة باللغة الانكليزية . فلماذا يا فلان ؟ الا تعلم ان لغتنا بحاجة الى القصة أكثر من لغة سوانا ؟ ألا تعلم ان مجال القصة العربية مفتوح ، بينما هو في القصة الانكليزية ضيق على امثالك ؟؟

على ان صاحبي هزّ رأسه قائلاً : « من يقرأ بالعربية ؟ أتريدني ان أكتب في فراغ ؟ ثم بأي لغة عربية اكتب ، بالدارجة أم بالفصحى ؟»

والحق ان قضية المطالعة عندنا من القضايا الفكرية الشائكة . فهي تتصل ولا ريب باللغة كما تتصل بإيثارنا الراحة والكسل ، وحياة الجسد على الجهد الفكري والتنعم بحياة العقل والروح .

٢٣ غبار البحيرة

« غبار البحيرة » مجموعة مقالات يعود بعضها الى عهد « الفليبين » ، ويخيل اليك وانت تتصفحها انها « الفراطة » التي في الكيس . وقديما قيل : « بيت الاسد لا يخلو من العظام » .

وسعيد تقي الدين أسد هو . انما « غبار البحيرة » ما هي ـ هذا التعبير له ـ بالعظام . عجل مسمن كالذي ذبحه الاب لابنه الشاطر في الانجيل . وماذا اقول لك عن « غبار البحيرة » ؟

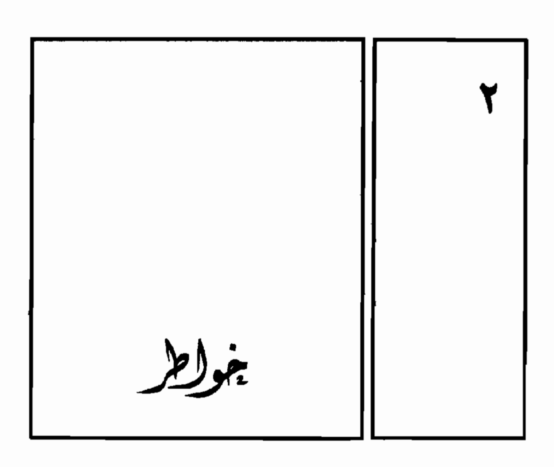
يجب ان تطالعها بنفسك لتعرف أي لون جديد اضافه سعيد تقي الدين الى صناعة الادب . لا اقول « العربي » لأني في كل ما قرأت ـ أو سمعت ـ عن ادب الغرب لم اجد له من شبيه . هو لون فيه من خفة الدم ، والبراعة في التهكم ، والتحرر من قوالب التفكير والتعبير ، ما يجعلك تهتف عند كل جملة : « ولوه ، شوهيدا يا سعيد ! »

ولو انت تعرف سعيد تقي الدين لرأيته امامك في كل كلمة . فكما يكتب ـ أو يتكلم ـ فهكذا هو : انسان كبير الجسم والقلب . اما اذا كان قد فاتك معرفته ، فلا بد لك ان تتخيله امامك على صورة ما : قد تكون اكبر مما هو في الواقع ، ولكنها لن تكون اصغر .

حبذا لو ان الذي يكتبه سعيد تقي الدين يترجم . اذ لكان افتتح لنا زاوية في ادب العالم . فأجمل ما كتب ـ حتى الآن ـ روائع محلية . اذ كيف يمكن للاسوجي مثلا ان يتلذذ بعجل سعيد المسمن وهو لا يعرف مثلا التابعي الزهفطون ، او سعيد فريحة ، او اسكندر الرياشي ، او شمدص جهجاه ، او حليم داهش دموس ، او حتى شارل مالك البطرامي ؟

ولو كان لسعيد تقي الدين « طشم » ـ المعذرة من وضعها بين هلالين ـ لفتح مدرسة في أربعة آفاق الارض لا في واحد منها فقط . ولو كان هذا الانسان يعرف انه اديب ـ أولاً اديب ـ لاقتصر من السياسة على الايمان بعقيدة ، ومن هذه العقيدة على اغنائها بنتاج عقله وقلبه . ولو كان هذا الانسان أيضا يفقه انه ما زال في مطلع حياته الادبية ، لعاش كمن يصعد جبلا لا كمن يهبط الى واد .

والآن ، فما هذا الغبار على بحيرة سعيد تقي الدين الا « عينة » ـ المعذرة ايضا من وضعها بين هلالين ـ مما يمكن ان تثيره في ادبنا حوافر الجواد الاصيل .


٢
خواطر

١ في الشعر

■١■

يدلنا على صواب الحركة الشعرية الحديثة ان النق يتعاظم واللغط يشتد والحشرجة تتعالى اصواتها . ويدلنا على صوابها وجبروتها كذلك ، ان سعيد عقل مثلا ـ وهو أحد « الكبار » ـ يحاول تقليدها . فهو بعد ان نفض عن آثاره القديمة غبار الزمن ، ونزع عن آرائه « اللاواعية » في الشعر نفتلين العث ، نشر قصيدة « جديدة » (هل هي جديدة ام نشرت منذ سنوات في « اهل النفط » ؟) فاذا عرفت كيف تقرأها ، تجلى لك انها لا تلتزم عمود الشعر العربي التقليدي ، بل تتصرف بالتفاعيل ، تماما ، كما يفعل الشعراء « الحديثون » !

ايظن سعيد عقل وامثاله ان هذا هو باب الدخول في حركة الشعر الحديث ؟

ايظن ان السر هو في تفكيك مفاعيل البيت الشعري الواحد واعادة بنائه على اساس التفعيلة الواحدة ؟

من قال له ولأمثاله هذا ؟

هذا خطأ يا صديقي . قلنا مراراً ـ وانت « كبير » من لا يسمعون او يقرأون ـ ان الحركة الحديثة في الشعر العربي المعاصر تقوم على موقف شعرائها من الانســان والوجود ، وعلى مفهومهم المعاصر ـ لا القرن التاسع عشري ـ لماهية الشعر . مثلا : ان الانسان في همومه وافراحه ، في قلقه ورؤياه ، في قنوطه ومعانقته الوجود بفرح هو موضوع الشعر ـ لا الطبيعة وجمالها الخارجي ، لا وصف العيون بالزنبق والجسد بالفل ، لا تشبيه صوت فيروز بصوت البلبل .

مثــلا : ان الشعر خلق عالم جديد ، نبوءة ، وعي للوجود الانساني الحق ـ لا طرب ، لا زوزقة كلام ، لا بهلوانية في اللفظ والتنغيم ، لا افكار مفتعلة تنزلق على بشرة الجلد .

مثلا : ان التجربة الشعرية الفذة تبدع الشكل الفني الفذ . من هنا ثورتنا على الاســاليب التقليدية ، لا لأنها سخيفة ، بل لأن الاتباعية واستخـدام القـوالب الخـارجية الجاهزة أمر لا يجوز في نظر الشاعر الحـديث الذي يبدع أشكاله الخاصة في عالم ثوري تغيرت فيه انماط الحياة على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ .

فالى متى نعيد ونكرر هذا ؟

قصيدتك يا اخي سعيد فاشلة . فاشلة لأنها في مستوى ما كنت تكتبه منذ عشرين سنة . إذا شئت بالفعل ان « تتجدد » عليك ان تتجدد من الداخل ـ من العقل والقلب . هل تعيش ؟ هل تعيش تجربة ؟ هل تقرأ شعراً بعد فاليري ؟ هل تقرأ نظريات في الشعر بعد الاب بروموند ؟

انت الذي حملت قضية الشعر في لبنانٍ بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٢ ، أمستعد ان تساهم في حملها اليوم ؟ إتضع اذن ، وتعلم .

• ٢ •

من حق فلول العهد الشعري البائد ، والمستظلين بظله والمستجدين رضاه ، ان يدافعوا عن وجودهم باثبات وجودهم .

على أن وسائل دفاعهم اعجز من ان تكسبهم مجدا وشرفا ، ناهيك بأن تكسبهم معركة .

الشتيمة ؟ السخرية ؟ الاتهام ؟ الغرور ؟

اطلاق الاحكام المغلوطة والنظريات البالية ؟

تجاهل العارفين والتطبيل والتزمير لهذا وذاك ؟

أهذه أسلحة دفاعية فعالة أو مشرفة ؟

والغريب ان هذه الفلول التي كانت تأكل بعضها بعضا في أوج عهدها البالي ، صار اليوم بعضها يلحس جراح البعض الآخر ويضمده . فقد جمعتهم المصيبة ووحد بينهم خطر الزوال .

وكم يكـون سرورنـا عظيما ، لو ان هذه الفلول تمسح الصدأ عن « مواهبهـا » الشعرية وتقف في ميدان المعركة بنتاج شعري أو أدبي

معاصر اصيل . اذن ، كنا نقول : ها ان الجهود المبذولة لانهاض الشعر العربي قد أثرت ، اذ نفخت روح الحياة فيمن حسبناهم بعداد الاموات .

ولكن ، هل يطلع من الشوك عنب ؟

لو كان لهؤلاء الاعزاء علينا قليل من الحكمة والرصانة لاكتفوا بالنوم على أكاليل الغار . فالذي صنعوه في عهدهم البائد لن ينكر عليهم . وهذه الدون كيشوتيه لن تفيدهم ، بل لعلها تسيء اليهم بجعلهم ابطالا مهووسين .

ولكن الحياة عزيزة . وهؤلاء ، اذ ليس عندهم قضية ، لا يريدون ان يخدموها بكرامة وشرف ، فيسكتون .

ولكن سواء سكتوا او اصروا على اثبات وجودهم بمثل هذه الوسائل الدون كيشوتيه المضحكة فاننا سنتجاوزهم ونمشي الى تأدية رسالتنا الشعرية بالعطاء الخير الاصيل .

- ٣ -

« الاثم اللبناني » لا ينجو منه الشعر الحديث .

فهنالك حتى اليوم ، رغم هذه النهضة الشعرية الرائعة التي يتوسطها لبنان ، من يترحمون على العهود البائدة تماما كما يترحم البعض على عهد الانتداب ومن قبله على عهود السلاطين .

- رزقا لله عالمتليك . كان يشتري حمل بطيخ .

- رزقا لله عالرطل . كان فيه بركة . هالكيلو ما بيعبي العين .

- رزقا لله عالمتنبي . شوقي . مطران . الاخطل الصغير . امين نخلة . هالشعر « الحديث » صف كلام .

- صف كلام هو ، بالطبع . لأن الذنب الاعوج لا يستقيم ولو قولبته اربعين سنة .

صف كلام هو ، بالطبع . لأن المدمن على حشيش القافية واركيلة الوزن الوتيري البدائي الذي يخدر العصب والحس ، لا « يطرب » للبناء الفني المنسجم ، ولا للنغم الداخلي العضوي المبهج ، ولا للمعنى ذي الايماء الخفي الذي يفض اسرار النفس الانسانية ويفتح آفاق عوالم جديدة .

سنسير رغم النق والنقيق والندب وحفر القبور وجر عربات الموتى .
سنسير بالشعر العربي الحديث الى المكانة اللائقة بنا كبشر .
سنسير به في موكب الشعر في العالم المتحضر .
سنسير به لأجلنا نحن واجل أبنائنا لا لأجل أولئك المدمنين على الحشيش والاراكيل ، المترحمين على ايام المتليك والرطل .

- ٤ -

كثير من هذا الادب الطالع ، هنا وفي العالم ، لا ينفع . فنحن ، على ما يظهر ، في عصر راح بعيدا في نكران الوجود ، وفي العبث ، وفي الحقد على كل شيء حتى الذات .

وكم يطيب للطالعين ان يهدموا . انهم كاللصوص ، يسرقون الكحل من العيون . أو هم كالجراد يمحقون كل شيء حيث يغطون .

لا . التحرر من التقليد والاتباع والسلفية لا يعني الانتحار . انه يعني الابداع والخلق والتجدد .

النكران والعبث والحقد علامات مرض لا صحة . فنحن موجودون ، وهذه حقيقة . فخير لنا ان نوجد ، ما دمنا موجودين ، في حال الصحة .

وحال الصحة ان نؤمن ونرجو ونحب ، في نطاق هذا نثور ضد ما نشاء ونهدم ما نشاء .

هذا الادب الطالع ، في كثرته ، لا ينفع . انه اتعس من الادب الموجه . ذلك تقتله المثالية والجهل ، وهذا يقتله الحصر والتسخير .

استثني من الادب الطالع ، الصادر اخيرا ، في ما استثني ، « ماء الى حصان العائلة » لشوقي ابي شقرا . في هذا الكتاب فرح بالوجود ، وتعالية على الكبت والحرمان ، ورجاء ، ومحبة حتى لصغير الاشياء .

في اتضاح شوقي ابي شقرا ارتفاع نحو الجدير واللائق ، فلا عجب ان هو اخاف المترصنين والمتزمتين واصحاب القبات المنشاة ، اولئك الذين لا يضحكون للرغيف الساخن .

هذه الانسانية في ادب ابي شقرا جديدة على ادبنا . كنا ولا نزال نحب الافكار ، موزونة او منثورة ، ونكره الاشياء ، حية أو جامدة . وكنا ولا نزال نضرب بالكبيرة . نأتي الوجود من فوق وككل ونحتقر الجزئي والصاعد من الاعماق الخفية الدافئة . لذلك كان الكثير من ادبنا رياضيا

وهندسيا ومشغولا كالاواني النحاسية والسجاد العجمي . كان باردا . كان لفظا لا كلاما . وكان عاجزا عن ان يخلق فينا الحركة ، او يغرينا بالشهادة ، او يزيد قامتنا قيراطا .

باختصار : كان في معظمه لا انسانيا .

وفي « ماء الى حصان العائلة » محاولة جادة لاعادة ادبنا الى الانسان ككائن يتوسط الوجود حوله ويأخذ ويعطي معه . وفي ما يحسب الكثيرون انه هراء ، يعتقد القليلون انه من اجمل ما كتب . السر فيه انه يخلو من الغرور . يأخذ الموجود كما هو ويصعد به الى الفكرة . لا يدعي خلاصك ، ولا يطمح الى ان يريك العالم مقلوبا حتى تؤمن بعبقريته . « الصرصور » و « الغراب » و « الجدي » و « الشجرة » و « الحجر »، وما الى هذا من اشياء الطبيعة ، شخصيات لها قيمة بحد ذاتها في « ماء الى حصان العائلة » . انها ليست وسيلة ، ليست احجارا تبني بها قصرا شاهقا مهجورا ، ليست ادوات تسخرها لقضاء حاجتك . هكذا كان هذا الاثر الجديد رافضا ومرفوضاً في وقت واحد ـ رافضاً لأنه احب كل شيء فأوقفه عاريا بيننا كالسنبلة ، ومرفوضا لأننا لم نألف هذا النوع من الحب ، بل لم نألف أي نوع من الحب . فحيث لا وجود في تراثنا الا للمطلق ، بات الحب عندنا عبادة .

ـ ٥ ـ

لا نهضة في الادب والفن والفكر ـ اي لا نهضة انسانية ـ من دون تقدير . التقدير لا بالكلام بل بالفعل ، ببذل المال والوقت في سبيل النتاج الادبي والفني والفكري .

لا تقل ما عندنا ادباء وفنانون ومفكرون ، بل قل لمن يكتب هؤلاء ؟ قلما بيعٍ كتاب عربي ذو قيمة بنفقات طبعه . قلما بيعت لوحة فنية الا بألف منية . مسرحية هاملت لشكسبير ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ـ باعت في انحاء العالم العربي كله ١٤٦ نسخة .

تقول : حلقة مفرغة . الادب الجيد يعوزه تربة جيدة ، والتربة الجيدة وحدها تطلع ادبا جيدا .

ومهما يكن ، يبقى لنا ان نسأل هل أدبنا جيد ؟ وهل تربتنا جيدة ؟ بعضه ، نعم . هذا البعض الذي لم يطلع فقط في تربتنا ، ولم يكتب

فقـط لأجلها . وهو البعض الذي يتهمونه بشتى التهم . منها انه غير مفهوم ، أو أنه غير « عربي الروح والنزعة » ، أو أنه مستورد ومزيف .

وبعض التربة ، نعم . انها الواحات الضيقة اليوم ، الواسعة غدا ، هنا وفي سائر مواطن اللغة . من هذه يصدر اليوم وفي المستقبل كل خير . ما عداها قفر ومستنقع .

نؤمن بذلك والا فلنرحل أو ننتحر .

■٦٠■

الشعر ؟!

يحرق قلبي ، يبكيني ليل نهار .

ذلك ان العصر ، اذا انكشفت عورتـه ، راح يستتـر بالشعر . كان الشعر غاية ، فصار وسيلة . كان فنا ، فصار فلسفة ، بل كاد يصير علما .

ما للشعر وللفلسفة . هو في واد ، وهي في واد . هو الابداع والخلق ، وهي الشرح والتفسير ، هو « الانا » في الوجود ، وهي الوجود في « الانا » .

فحيث الفلسفة ، هناك بطلان الشعر .

واذا كانت الفلسفة في هذا العصر قد افلست ، وكذلك افلس العلم ، في اقرار الطمأنينة ، فما شأن الشعر حتى يتخذ خشبة خلاص ؟ كفاه ما لاقى ، خلال العصـور ، على ايـدي المهرجين والمتطفلين ، والراثين والمادحين ، والعشاق وطلاب الوصال . كفاه ما عانى على ايدي الشامتين الجاحدين ، والموالين المتعصبين ، على السواء .

فحلّوا ايهـا الفـلاسفـة و المتفلسفـون عنه . دعوه يتنفس . دعوه يعيش . دعوه يكون ما هو .

قيل لي : الشعر الحديث هو في محتواه الحديث لا في شكله الحديث .

فما هو المحتوى ـ اي محتوى ، وما هو الشكل ـ أي شكل ؟ في الشعر والفنون عامة ؟

وكيف يجوز الفصل ؟ ومتى كانت هذه الازدواجية في الاثر الشعري حقيقة واقعة ؟

انها الفلسفة . قاتل الله الفلسفة التي تصبح ، في آخر هذا الزمان ،

شعرا . والعكس بالعكس .
الوجود ذاته ، هذا هو الشعر . اما الفلسفة مع احترامنا الصاعق لها ، فعلى هامش هذا الوجود .

- ٧ -

الى بدر شاكر السياب :
أنت على خطأ يا صديقي في قولك إني لا أمثل « واقع الحياة العربية تمثيلاً كافياً » ولا أحمل « هموم هذا الجيل العربي » ، فأنا أفعل ذلك بالقدر الذي يفعله من سميتهم أنت ، غير أن الفرق ، كما يبدو لي ، هو في كيفية « تمثيل واقع الحياة العربية » و « حمل هموم هذا الجيل العربي » . والخلاف بيننا ، كما يبدو لي ، هو في مفهومنا الشعري (لا السياسي ، ارجوك) لهذه الكيفية .
أهي في نظم القصائد الجماهيرية الخطابية تلو القصائد عن فلسطين والجزائر ؟
أهي في معالجة « الواقع العربي » مباشرة ، كما هو من شأن النثر ، وفي حمل « هموم هذا الجيل العربي » بالصراخ والعويل وهز القبضات على المنابر ؟
تعال نتفق على هذه الكيفية .
انا اعتقد ـ ولا اظنك تخالفني ، فشعرك يثبت شيئا منه ـ ان هذه الكيفية شعريا هي غير ذلك ، او هي على الاقل ليست فقط ذلك .
عندما اعبر شعريا في قصائدي عن الضياع ، والوحدة ، والاقتلاع ، والتمرد من اجل الحق والحرية ، انما أعبر عن هذا « الواقع العربي » وهموم الجيل العربي تعبيرا حقيقيا . وحين ادعو في قصائدي الى « الموت الذي يعقبه البعث » ، والى « الايمان بأمثولة الالم والصلب والفداء » ، انما ادعو الى تغيير هذا « الواقع العربي » وتفريج « هموم هذا الجيل العربي » دعوة حقيقية .
ألانني لم أذكر الاستعمار واشتم العدو في قصائدي ؟
ألانني لم اكتب مباشرة قصيدة أو أكثر عن جميلة ، وبور سعيد ، واللاجئين ، وفساد الحكام او صلاحهم ؟
لا ، يا سيدي . ما هكذا فقط كيفية تمثيل « الواقع العربي » وحمل

« هموم الجيل العربي » ، تمثيلا وحملا شعريا حقيقيا .
ولا أظنك عنيت ذلك كله في قولك .
الواقع العربي هو انا وانت وهو ، هو الانسان الذي جعلناه موضوعنا .
الانسان . هذا هو الواقع الازلي الحي .
حين يذوب الثلج ، لا يبقى سوى التراب والحجارة .
وبهذه وحدها نبني .

٢ في ما يكون ولا يكون

-١-

القيم الاخيرة ، في نظري ، ثلاث : العقل ، والحرية ، والمحبة . منها تتفرع الفضائل الانسانية جميعاً .
فمن العقل ، الكيان والمعرفة والعدل .
ومن الحرية ، الصيرورة والخلق والابداع .
ومن المحبة ، الصلاح والخير والجمال .
العقل تراث اغريقي . أما الحرية والمحبة فتراث مسيحي محض . كلاهما ، اذن ، تقليد بحر ـ متوسطي .
ولبنان حيث هو ، وفي مداه الحضاري الاعم ، وريث هذا التقليد . انه الوريث الوحيد في آسيا كلها . وهذا فضل كوفىء عليه بما يرتع فيه اليوم من وجود حر ، مستقل .

الفكرة التي يلدها العقل ، لا الهوى ، ممكنة التنفيذ . تبقى الوسيلة .

والوسيلة مهمة ، والا بقيت الفكرة في الرأس او على الورق . وهي مهمة ايضا لأن اختيارها يقرر نجاح تنفيذ الفكرة أم فشله .
ومن الافكار ما هو مخطىء ، فلا بد من ان تكون وسائلها ، هي الاخرى ، مخطئة أيضا .
اما الافكار الصائبة ، فقد تكون وسائلها صائبة أو مخطئة . ولكنها تكون الى الصواب اقرب .
والفكرة الصائبة لا تبرر الوسيلة المخطئة . وما الوسيلة المخطئة الا تلك التي تنكر ما ذكرناه من قيم وفضائل .
ثم ان الفكرة التي لا تهيأ للتنفيذ ، عاجلا او آجلا ، لا قيمة لها .
الوجود ، كما قال ارسطو ردا على افلاطون ، سابق للفكرة .
فهل « انا افكر ، اذن انا موجود » ، ام « انا موجود ، اذن انا افكر » ، هو الاصح ؟
الايديولوجيات افلاطونية وديكارتية كلها ، هي افكار مطلقة مسبقة

تتوسل الوجود . من هنا تبريرها كل وسيلة ، من هنا ثوريتها (بالمعنى الرجعي) وتحديها الموجود واحتقارها اياه وسحقه وتشويهه بدعوى اعادة خلقه . ومن هنا ، لذلك ، طغيانها وعداوتها للانسان الحر ، الكريم .

وقانا الله شر الايديولوجيات !

الاصح ان نأخذ الموجود ونعالجه بالعقل والحرية والمحبة . اذاك نراه ينمو بين ايدينا نموا طبيعيا ، حقيقيا ، صامدا ، لا مصطنعا ولا مفتعلا ولا مؤقتا . اذاك ينخلق بنا من جديد ، طوعا وكل يوم .

وعلى سيرة الوجود ، يمكننا الاستطراد الى القول إن الانسان المعاصر ، بميله الى نكران تراث العقل والحرية والمحبة ، والفضائل التي تنبع منها ، أضاع فرحه بالوجود . صارت الكآبة ، وصار الحزن والقلق ، وصار الحس والجنس ، عنوان هذا العصر .

لذلك ننقّ طوال الوقت ، فلا نتمرد الا سلبا . لذلك ننكبت في انفسنا وننكمش ، فلا نبدع الا بتشويه المقاييس المألوفة أو نقضها ، بدل اغنائها واعطائها ابعادا جديدة . لذلك نزحف نحو الجدة والطرافة زحفا ذليلا اعمى . لذلك تفتننا الآلة وتقتلنا الشهوة واللذة . لذلك نفرغ في داخلنا ، فلا نجد امتلاء الا في الخارج في الركض والتحليق وقهر الاعصاب .

المغامرة التي نزعمها ، انما هي مغامرة مسطحة ولا واعية . اين منها مغامرة الاقدمين ، أو حتى المحدثين كدستيوفسكي ، ونيتشه ، وبيتهوفن ، وبودلير ، ورامبو ، وفان كوخ ، حتى الانتهاء بفولكنر وازرا باوند . كانوا يغامرون من الداخل ، اما نحن اليوم فنغامر من الخارج من الفراغ العاصف بعالمنا الجاحد المتفسخ .

- ٢ -

« هذا عصر ثوري . ونحن هنا لا نثور الا على مستوى جلودنا .

« عروقنا لم تتقطع بعد . الدم يسيل فيها بطمأنينة واستمرار .

« وعلى مستوى الجلد نحن بشر . تحته نحن بغال تصلح لجر عربات الموتى .

« نتوهم القلق ولا نعيشه . نقف امام المصير ولا نجابهه . نكتئب .

نضجر . نذوق مرارة العدم والفراغ . نكفر . نؤمن . نحب ونقف امام جسد الحبيبة وما في ضلوعنا غير الحرمان . نتغنى بالبطولة وفي اللحظات الحاسمة نختصر كل شيء بلفظة : البقاء ـ البقاء بأي ثمن .

« لم نبلغ بعد مرحلة الايمان بالوجود والفرح به . ماضينا ، هذا القريب ، استسلام لوجود يركب فيه السلطان رعيته ، او لوجود ضبابي نحلم به كالاطفال .

« هل في لبنان ، بل في العرب ، ثوري حقيقي واحد ؟

« الثائر الحقيقي شهيد أو قديس ، يضع المصباح على السطح ويمشي في النور ، لا تحت المكيال ويختبىء في الظلمة .

« والظلمة هنا كلام ، كلام ، ولا شيء فقط غير الكلام .

« فيا لمأساة الشاعر المتفتح على حقيقتنا وعلى العالم !

« غريب ومنفي في عقر داره . مرفوض ورافض « بعض » الرفض . ليته كان « كل » الرفض ، اذن لأثارته لذة السقوط تحت سياط الظلم .

« ... علينا ، لكي نصير ، ان نسلخ جلودنا في الشمس ونبكي . »

عثرت على هذا القول بين اوراقي . كتبته منذ زمن . أما اليوم فصرت أكره النق ، والنقيق ، واصطناع المواقف ازاء الحياة . صرت اكره الندب ، وحمل بساط الرحمة ، وحفر قبور الموتى . تماما كما اكره البهورة ، والمرجلة ، والتفاؤل الفارغ التعيس .

النقد الذاتي فضيلة . وهو غير هذا . بالنقد الذاتي نتوخى معرفة اخطائنا لنتلافاها ، أو تقييم امكاناتنا فلا نخدع ولا ننخدع . بالنقد الذاتي نسلم من الكبرياء والحماقة فلا تصدمنا الخيبة ويباغتنا الخسران .

والتمرد فضيلة . وهو ايضا غير هذا . و كذلك الثورة . بهما نحمل اقلامنا وسيوفنا ـ أو بالحري ارواحنا ـ لتغيير وجه الاشياء . لا يكفي ان نعتصم في رأس جبل ونعلن عن تمردنا . التمرد موقف كياني ازاء الوجود كله . به نصبح اولياء ، لا على مصيرنا نحن وحسب ، بل على مصير الكل . فالمتمرد ، الثائر ، عرق الوجود النابض . انه صرخة الحياة في وجه الموت . انه الفعل في التاريخ ـ الفعل الذي يميت ويحيي فلا يكون عدم .

النق والنقيق ؟ لا .

التمرد والثورة ؟ نعم .

التمـرد موضوع أحبه . المتمرد اله صغير يمشي بيننا . انه الخالق البشري الوحيد . اتصوره أجمل ما في الارض . النساء يعشقنه والرجال يتبعونه كالظل . انه المثال الاعلى .

في هذا العصر الثوري ، لا مكان الا للمتمرد . الظلمة تشتد والدعوة الى حمل الصليب تقوى .

لا يكفينا ، نحن الشعراء ، ان نتمرد في الشعر ، ان نتحرر من القيود وننـطلق الى آفاق جديدة . علينا ان نتمرد في كل شيء ، ان نقلب هذا الواقع رأسا على عقب ، ان نعبر الى الشاطىء الآخر ، ان نصعد في مركبة من نار .

نظرتنا الى الوجود يجب ان تتغير . بهذا نرى رؤيا ونحلم احلاما . بهذا تتجدد الكلمة وتحيا وتنمو .

ولكن الى ماذا يجب ان تتغير ؟

هنا ندخل حرم الفلسفة ، وأنا لا أريد ان اتفلسف . على انني سأبوح بما تغيرت اليه نظرتي حتى اليوم :

اولا ـ أؤمن بالوجود وأرى له معنى .

ثانيا ـ هذا المعنى أعطيه أنا . وهو يعكس تفاهتي أو قيمتي .

ثالثا ـ أحب الحياة واعتبرها نعمة . ولا أخاف الموت واعتبره نعمة كالحياة .

رابعا ـ الله ضرورة ، موجودا كان او غير موجود .

خامسا ـ كل ما اعرف عن هذا الله هو في شخص المسيح .

سادسا ـ المسيح حي دائما ، لأنه مثال للبشر لا يمكن ان يتخطوه .

سابعـا ـ الحرية اقدس الاشياء . بها يوجد كل شيء ، وبدونها لا يوجد شيء ـ ولا أستثني المحبة .

ثامنا ـ الغاية من الحياة والوجود ان نحيا ونوجد . بهذا نمجد الذي وهبهما لنا .

تاسعا ـ اقبل الشر مثلما اقبل الخير . سلاحي الوحيد لقهر الشر هو قبولي هذا به . لن افرح ، ولن أجد سعادة ، بغير ذلك .

عاشرا ـ الحقيقة مطلقة وموجودة . ولا اعثر عليها الا في ذاتي .

حادي عشر ـ الانسان خير ما في الوجود ، بل هو الوجود كله .

ثاني عشر ـ كل ما جرى او يجري اقيسه بما تقدم . فاما أؤيده أو ارفضه ، واتمرد عليه ، واثور ضده .

اذن ، حين نتمرد لا نتمرد من اجل الشعر ، بل من اجل الانسان في الوجود . الشعر وسيلة ، اما الانسان فوحده الغاية .

فحينما تجادلوننا ايها « اللامتمردون » بالشعر : أهو الموزون المقفى ام غير الموزون المقفى . بلبنان : اهو فينيقي ، ام عربي ، ام سنسكريتي . بالعرب : اهم عرب ، أم شبه عرب ، أم لا عرب . باللغة : اهي المكتوبة ، ام الميسرة ، ام المحكية . بالسمكة : أهي التي أكلناها حتى رأسها ، أم رأسها ، ام رأسها ...

ايها اللامتمردون دعونا نعيش بسلام ، بلا نق ولا نقيق ، نحقق ما هو أهم : وجودنا .

دعونا نرقص في عين القمر ، نغني قلوبنا للريح ، ننشر جباهنا على رؤوس أشجار الصنوبر .

دعونا نمسح جفوننا بالورد . ننام مع جسد دافىء . نضمد جراحاتنا بفرح .

دعونا نشحذ حراب تمردنا . غايتنا انقاذ انفسنا وانقاذكم .

ـ ٣ ـ

نحن احرار من كل شيء ولكل شيء ، في هذا قوتنا . في هذا رجاؤنا بأن نكون .

وسيلتنا الشعر . سنصقله ونشحذه قاطعا . اللغة هذه سنصهرها بعروقنا ، وبالدمع والدماء نصوغ سُوراً جديدة .

لا نرفض الماضي . لا لأننا نريده ، بل لأنه لا يُرفض . الماضي نحن . اذا كان من رفض ، فالماضي هو الذي يرفض .

ولقد بدأ يرفضنا . نحن الذين أحببناه الى حد العمل على دفنه ، على غرسه ، في الحاضر . وهو انما يرفضنا لفرط هذا الحب .

على أن الماضي كله لا يرفضنا . فلو فعل ، لكان وجودنا بلا معنى .

ما لا يرفضنا فيه نعانقه ونجعله حاضرا . وعليه نقيم مصيرنا .

وما لا يرفضنا فيه ، هو ما اصبح جزءا فاعلا في الحضارة .

وهــو ما يعيش فينا هذه اللحظة . فالماضي الذي لا يعيش فينا هذه اللحظة ، ماض ميت .

بالماضي نعني التاريخ . والتاريخ ، كما قال كروتشه ، سيرة الحرية عبر الزمن . او قل سيرة الصراع من أجل الحرية .

موقفنا هذا من الماضي يحررنا منه . لا يعود صخرة سيزيف . وهو ، حين يحررنا منه ، يحررنا ايضا لأجله .

وبذلك نحن احرار من كل شيء ولكل شيء .

سنستخدم حريتنا بشجاعة وفرح . ما رفضنا من الماضي لن يتركنا بسلام . سيحاول افسادنا . وحين يفشل ، سيلجأ الى تمزيقنا .

لن ينجح ، بالطبع ، فالبذرة قد دفنت في الارض .

الماضي هو التاريخ ، وهو ايضا التراث . فالتاريخ والتراث شيء واحد ، التــراث ، هذا الذي يتمنى بعضنا نكرانه ، ليس ثوبا لبسناه ، بل لحمنا ذاته ودمنا ، او لعله قلبنا الذي يخفق .

التراث الذي يعيش فينا ، نحن الاحرار ، يعيش في الحضارة . هذا محك قيمته وبقاؤه الاخير .

أو بكلمة : تراثنا هو التراث الانساني الحي .

مثــلا (من جهــة كوننا لبنانيين) : التجسد والقيامة بعد الموت . التمدين . الاستيطان والتعمير . الألفباء . التجارة والمواصلات . الفتح . الفلسفة . البشارة . الكنيسة . اللغة (وهي اليوم العربية) . التصوف الاســلامــي . الرازي . ابــن رشــد . الخــوارزمــي . ابن خلدون . الارابيسك . صفات الانفتاح والفردية والكرم وما الى ذلك .

فكل جدول لا يصب في البحر ، لا يكون خارجا من نبع .

نحن اذن مفــرق طريق ، لا في الشعــر فقط ، بل في ما ننتمي اليه ايضا . بعدنا لن يكون وجه الاشياء كذي قبل . فالكارثة نحن : طوفانا كنا ام ولادة .

قد يكون جيلنا ضائعا ، لكن قدميه قويتان وعينيه في مقدمة رأسه . في العــالم ، اخــذ يمســك الثور بقرنيه ، وفي لبنان والعرب بدأ يطرح الاسئلة ، وله بقيت الشهادة الاخيرة .

يكفي واحد وما فوق لكي تتفسخ قشرة الوجود ، لكي تتفتح . فحيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسم الحق ، تعانق السماء الارض وتتدحرج

الحجارة .

نحن ، في العالم ، لم نعد نطيق الانحدار على السفح ، لم نعد نعشق الهاوية ، لم نعد نعاقر الانتحار . نحن في العالم نعيد سيرة الخلق على صورتنا ومثالنا .

ونحن ، في لبنان والعرب ، فرغ صبرنا من الدوران والتكرار ، من الجيف المحنطة ، من النواميس والقواعد المخطوطة ، من الحرف ، من الله قابعا في هذا الحرف ، من الصلوات اليابسة ، من السلطان وجلسائه وندامئه وجواريه ، من الكتبة والفريسيين ، من الصراخ « يا رب ، يا رب » ، من السيف والنخلة والهلال المكسوف . نحن في لبنان والعرب شرارة الحريق الاولى .

هنا ، وهناك ، وهنالك .

الجميع مدعوون لهذا العشاء الاخير : حتى يهوذا . الحقيقة لا تخيفها الخيانة . الخيانة لا تخيف الا نفسها ، لا تخون الا نفسها . الحقيقة المصلوبة تنهض في اليوم الثالث .

الحقيقة ليست لنا ، ليست لاحد . انها الضالة المنشودة ، ونشدانها يكفي . كدورة الفصول . كدورة الحبل والولادة والموت . كدوران الافلاك . كدوران المياه التي تسقط وتروي وتجري نهرا الى البحر .

الحرية من كل شيء ولأجل كل شيء .

الماضي يرفض ولا ينرفض ، ما لا يرفضنا منه يعيش هذه اللحظة فينا وفي الحضارة .

نحن مفرق طريق . كالكارثة : طوفانا كنا أم ولادة .

جيلنا جيل الشهادة والنشدان والصعود ، جيل البعث .

- ٤ -

للجسد حاجاته ، منها الحاجتان : القوت او الجنس . انهما لذتاه الوحيدتان .

ونحن عبيد لهما ـ عبيد للقوت لنعيش ، وعبيد للجنس لنتناسل ونكتمل بالآخر .

والاسف ان حصولنا عليهما محدود . فالقوت يحده الوفر والمال ، والجنس يحده العرف والتقليد . هذا عدا حدودا اخرى .

لو توفـر لنـا المال لتلذذنا بأطايب المأكولات ، ولولا العرف والتقليد لحررنا جسدنا من الكبت والحرمان .

ولنا اليوم ، كما في الماضي ، مذاهب وفلسفات لقهر الجسد . تقول : اللذائذ الروحية خير ، اما اللذائذ الجسدية فشر . وتقول : جسدك عدوك فاقهره ، لئلا تخطىء .

صحيح . ولكن الانسان أساء الفهم ، بل استغل الامر كعادته . فاذا بجسدنا في زنزانة قد يكون أرحم منها الاعدام .

أنا حر ، يقول الانسان المعاصر . حر بجسدي وبروحي معا . أريد ان اتلذذ بالمآكل ما وسعني التلذذ ، وأريد أن أفجر عاطفتي كما أشاء . تحدني فقط مشيئة الآخر . لا عرف ، لا تقليد ، لا قيد ما من القيود .

ما احوجني الى الدفء في الليالي الباردة ، الى بلوغ الآخر الذي لا اكتمل الا به ، الى الالتصاق بالحبيب والصيرورة واحدا .

أجوع فآكل . فلماذا ، حين اشتهي ، لا انال ؟

أيكون الحيوان خيراً ، مني حرا أكثر مني ، فائزا اكثر مني ؟

الارث الذي استعبدنا ، هو وحده الذي سيحررنا . رفضه مستحيل ، ومستحيل كذلك قبوله على علاته . علينا ان ندحرج الحجر ونقوم . من اجل ذلك سنموت الف ميتة .

الجسد والروح واحد . ما يبهج الجسد يترك اثره في الروح . وما يبهج الروح يترك اثره في الجسد .

انت باسمـاً مطمئناً اجمل منك عابساً قلقاً . وأنت صحيح الجسم احب الى الناس منك معتلاً وذا عاهة .

تطلع في وجهك تصغ الى قصيدة رائعة او الى قطعة موسيقى لبتهوفن ، ثم تطلع فيه عندما تكون ناقما كالحطيئة ..

وهل في وسعك ، وانت مضطرب البال ، قلق النفس ، ان تأكل بشهية أو تحب بشهية ؟

الجمال يبهج الروح ، لكنه يفتح مسام الجسد .

ما أتعس ان تلتصق بجسد قبيح .

وما هي ، الى ذلك ، مباهج الروح ؟ هي الجمال في الفن والطبيعة . المعرفـة . الحرية في حضن الحقيقة . الانتصار . الصداقة والحب .

الرجاء والايمان بشيء .
وهي كذلك : الألم .
وايضا : الشهادة والقداسة والرؤيا .
الحياة لا تقبل الجمود . حتى حين تبدو لك جامدة ، تكون في خفية عنك متحركة ، فهي كالبركان الذي يتقد . ثم لا يلبث يوما ان ينفجر .
كل ما يُعمل ، عن قصد أو عن غير قصد ، يعمل في صالح الحياة . منطقها هو الغالب . وهو كذلك الاصح . وما التمرد ، او الثورة ، الا سلاحا من اسلحتها العديدة من اجل الحركة والصيرورة . فهي في الحركة والصيرورة تكون ، وفي سواهما لا تكون . أما غايتها من الحركة والصيرورة فخير دائماً .
اقول هذا في وجه العدميين والعبثيين الضاربين على وتر الوجودية السوداء ، اولئك الذين لا رؤيا لهم ، لا ايمان في قلوبهم بالفناء والبعث .
انهم يتعامون عن الحدث الاعظم في التاريخ : الاله الميِّت الحي .

٣ في لبنان والعرب

-١-

الهمـوم اللبنـانيـة ، على صلتهـا بالهموم العراقية والهموم اليمنية والهمـوم السعودية والهموم المصرية والليبية والجزائرية ، الخ ... هي هموم كيان لا صيرورة . انها هموم من لقي ذاته ، لا من لا يزال يفتش عنها .

كيف نكون ، هذا هو لبنان الاخير بينما همّ اخواننا هو كيف نصير . لذلك فلبنان لا يهدف الى غير ما هو ، وانما يهدف الى ان يكون فعلا ما هو ، وان يكونه على خير وجه .

وباختصار : هموم لبنان هي هموم الكيان الراسخ القديم . وهي ، اذن ، هموم حضارية . فالكيف اكون ، لا الكيف اصير ، هو السؤال اللبناني .

ويسـألونـك : نحن في لبنان ننتمي الى العائلة العربية ، فلماذا لا نهدف الى ما يهدف اليه بقية اعضاء هذه العائلة ؟ لماذا هم صيرورة ونحن كينونة ؟ لماذا الفارق الجوهري بين همومنا وهمومهم ، ونحن في الهواء سواء ؟

والجواب هو اننا فتشنا فوجدنا ، اما هم فما زالوا يفتشون .

وجدنا هذا الكيان (او ، في الاصح ، وعيناه) فلاءمنا ولاءمناه . ذلك اننا توفقنا الى جعله كيانا حرا .

وكمضمون : ماذا اكثر من الحرية ؟

من هنـا ان الاطار لا يعني شيئـاً . لا مع الوحدة نحن ، ولا ضد الوحدة . نحن مع الحرية في اي اطار تكون .

ومن دون وحدة : نحن مع العرب والى العرب . وما العرب بقبيلة . هم لغة تحمل ثقافة . فلو كانوا قبيلة ، لاستغنى اتحادهم عن اية شروط . أما وهم ثقافة ، فلن يتم الاتحاد الا بشروط .

من هذه الشروط ان يحتـرم الواقع الحياتي ، في الارجاء العربية ، ويؤخذ بعطف ورفق . فلا ايديولوجية تبيح اي شيء ، ولا نزوات تقطع اي رأس ، ولا اوهام تجعل من الحبة قبة .

وان يوضع الانسان ـ كرامته وحقه حتى في الجنون ـ فوق أي شيء : الوطن ، الدولة ، المجتمع ، النظام . ذلك ان كل شيء موجود للانسان ، لا الانسان موجود لأي شيء .

ولا شيء يبرر سلب حرية الانسان هذه ، لا مؤقتا ولا مرحليا ، لأن لا أحد أعطي مثل هذا السلطان : أن يسلب حرية الآخرين كوسيلة لغاية ، مهما تكن هذه الغاية سامية . ثم ان بلوغ الغاية على حساب اقدس ما في الوجود انما هو بلوغ الى لا شيء .

▪٢▪

الواقع العربي ، من حيث لبنان جزء منه ، يستحيل رفضه او التخلي عنه . ففي ذلك رفض لحقيقتنا او التخلي عنها .

انما نحن معنيون بتعميده ، بأنسنته ، بتجديده . نفعل ذلك بالثورة والتمرد عليه . ونفعل ذلك بوعي الخير الذي فيه وتكميله .

لذلك نحن « شعوبيون » . كما كان المعتزلة شعوبيين . كما كان الصوفيون الاسلاميون شعوبيين . كما كان الفلاسفة ، من الكندي والفارابي حتى ابن رشد وابن سينا شعوبيين . كما كان الشعراء المجددون شعوبيين . من عدي ابن زيد مروراً بأبي تمام وابن الرومي وابي نواس حتى الانتهاء بنا اليوم .

والسؤال المطروح أمام حاضرنا هو : هل كل خير ظهر في الواقع العربي ، منذ الاسلام حتى اليوم ، هو « شعوبي » ؟ أيكون النور والانفتاح والثورة الحقيقية على الجمود والتأخر وقفا على « الشعوبيين »؟ أيكون الحق مرادفا لـ « الشعوبية »؟

نحن ، بهذا المعنى ، شعوبيون ولنا الفخر .

ولهؤلاء الذين يدلون علينا بالاصابع نقول ـ تأثرا بجبران ـ « لكم عروبتكم ولنا شعوبيتنا »..

شعوبيتنا هذه هي التي خلاصكم الأوحد .

فان شئتم ان لا تستحوا ، او تصمتوا ، فلكم ان تنقوا وان تنعقوا ما شئتم .

نحن كل شيء . وأنتم لا شيء ، تماماً لا شيء ، لا شيء ، لا شيء .

نظام التربية وحده يوحد مختلف النشاطات الانسانية ـ من فن ،

وسياسة ، وادب ، وعلم ـ فلا يكون الفنان مثلا عارفا بفرع من الفروع ، جاهلاً سواها ، بحيث يعجز عن التفاعل مع سائر المواطنين . وهكذا قل عن السياسي والاديب والعالم ، بل كل متعلم في الناس .

اما النظام السياسي ـ أي نظام الحكم ـ فهو اقل شأنا من النظام التربوي لأنه وليده . وحيث ان نظامنا التربوي ضعيف أو معدوم كان نظامنا السياسي موضوعا لهذا النق والنقيق اللذين نشهدهما منذ فجر الاستقلال .

النظام يعني الانسجام والاستمرار . وللحصول على الانسجام والاستقرار نحن ننق . كل حكومة تأتي ، انما تأتي بارتجال وتعمل بارتجال . ولولا دستورنا الذي يعطي سلطة قوية لرئاسة الجمهورية ، لهررنا من زمان كورق الخريف .

ان الانسجام والاستمرار في السياسة ، وبالتالي في الحكم ، أي وجود نظام سياسي يعكس نفسه في هذا الحكم ، لا يقوم الا على اساس نظام تربوي منسجم مستمر يهيىء المواطنين للانتظام في أحزاب سياسية ذات فلسفة معينة في السياسة وفي الحكم . هذه الفلسفة التي من شأنها أن تعبر عن واقع الشعب وانطلاقه من هذا الواقع الى مصير أفضل ، هي عامل الانسجام والاستمرار الوحيد في حياة البلاد السياسية . فما دامت احزابنا السياسية غير موجودة ، اذ ان هي وجدت خلت من فلسفة سياسية صحيحة ، عبثاً نأمل في حكم منسجم مستقر بتطور مع الحياة تطورا بريطانيا سلميا لا حاجة معه الى الثورة والعنف .

عندئذ لا ننق بل نعارض وننتقد . نعارض وننتقد ونحن نعي جيداً على أي أساس فلسفي للسياسة والحكم نحن نعارض وننتقد . وهذا ما يميز بين المعارضة والنقد وبين النق .

كل تصد آخر لمعالجة مشكلة الحكم في لبنان ، لا يجدي . المراسيم الاشتراعية ـ مهما تكن آية من آيات الحكمة والبراعة ـ صفر . تغيير رئيس وزارة بآخر ـ مهما يكن عبقريا ـ صفر . حتى رئيس الجمهورية ـ مهما يكن قديسا وصالحا وفاهما ـ يظل عاجزاً عن تحقيق أمله في اعطاء لبنان مقومات الدولة الحديثة .

نظام التربية هو الاساس . كل مواطن يجب ان يحصل على نوع المعرفة التي يحصل عليها المواطن الآخر . منهاج تربوي واحد لجميع

المواطنين على اختلافهم ، في جميع المدارس على انواعها .

على اســاس نظام كهذا ، يتحقق فيه الانسجام والاستمرار ، يقوم نظام سياسي يتحقق فيه الانسجام والاستمرار ايضا ، وفق فلسفة معينة تجمع المواطنين في احزاب سياسية تجهد لتسلم الحكم وتتهيأ له .

من يريد ، بالفعل ، ان يعمل من اجل لبنان ، فليعمل هكذا : يسن نظاما للتربية في لبنان .

وبعد جيل يتغير وجه لبنان .

نأمل ان يكون غسان تويني قد فقأ الدمل فأراحنا واستراح .

أقلقــه النـظام البــرلماني في لبنان ، فاستفتى وأفتى ، ثم خرج من الموضوع كما دخل اليه .

وجـد ان جميع الذين استفتاهم يؤيدون النظام البرلماني ويعزون العلة الى الذين يمارسون هذا النظام او الذين يخضعون له .

ولا واحد قال : الى جهنم ، بالنظام البرلماني ـ حتى جورج نقاش .

وغسان تويني يقتدي اقتداء الند بجورج نقاش . فهو صنوه الفريد في سعة الحيلة و القبض على ناصية الحرفة الصحافية في لبنان .

ولكن غسان تويني لا يعترف بالهزيمة ، هكذا بسهولة ، فراح يقترح حله الخاص .

وما هو حله الخاص هذا ؟

حله الخــاص هذا ينسجم ، بالطبــع ، مع ميـزة اشتهر بها غسان تويني : التسوية .

الحل الوسط . القاعدة الذهبية الارسطوطاليسية . الوقوف بين بين . القــوة الثـالثة (الم يحاول تأليفها قبل حوادث عام ١٩٥٨ من بعض السياسيين اللبنانيين ؟)

وبعد ، ما هو حل غسان تويني بصدد النظام في لبنان ؟

الحــل : لا النـظام البرلماني المعروف ، ولا النظام الديكتاتوري او العسكـري المعــروف ، بل نظام بين بين تمارسه النخبة (وهو بالطبع منها) بمعزل عن ارادة الشعب الذي لا يوثق بحسن ارادته .

أي : الحل الهوائي .

وان رفــاق غسان تويني وعارفيه ومحبيه (ونحن منهم) ليعجبون لهوائية كهذه حين تصدر عن شخص كغسان تويني درس العلم السياسي

في كبرى الجامعات ودرسه ، ومارسه صحفيا لامعا ونائبا ألمع .

النخبة ؟ من يأتي بالنخبة ؟ من ينتخب النخبة ؟ من يقرر أن النخبة هي النخبة ؟

اذا لم يفعل الشعب هذا ، فمن يفعله ؟ أليس لهذا وجد الانتخاب الشعبي ؟

وكيف لا يكون اختيار النخبة لا شعبيا ، اختيارا ديكتاتوريا ؟ وما هي الديكتاتوية اذن ؟ أليست هي فرض نخبة ، تدعي انها نخبة ، على الشعب « القاصر »؟

لا يا أخي غسان . النخبة شيء والحاكم شيء آخر . قد لا يكون الحاكم من النخبة ، ولكنه يكون بالتأكيد حاكما . وليكون حاكما عليه ان يستند لا الى قوة علمه واخلاقه وكفاءته (كما تمنى افلاطون نظريا) ، بل الى قوة فعلية ما ، إما أن تكون قوة الشعب (النظام البرلماني) ، أو قوة الجيش (النظام العسكري) ، أو قوة البوليس (النظام الديكتاتوري أو البوليسي) .

لا حل وسط . حتى حكم النخبة ، اذا صح ، يكون من وراء الستار حكم فئة من الشعب لها في البلاد مصالح حيوية كبرى تهيىء لها اسباب النفوذ والسيطرة على الدعامتين : المال والرجال .

المزايا الشخصية وحدها لا تكفي . يجب ان يتمتع الحاكم بقوة تسنده في الحكم : الاختيار الشعبي او الاجبار العسكري .

ولا وسط .

قد لا يكون الاختيار الشعبي مثاليا ، ولكنه يظل الاختيار الافضل . لأن به تنعكس صورة الشعب .

وصورة الشعب دائما صادقة ، فاذا تشوهت ، حق للشعب وحده ان يثور لاصلاحها ـ لا الجيش ولا أحد سواه .

وغسان تويني يدرك تمام الادراك ان الحقيقة لا يجوز احتكار معرفتها . فلكل مواطن الحق في السعي الى هذه المعرفة والادعاء بالقبض عليها وممارستها . والا فما معنى حرية الجدل والنقاش ؟ وما قيمة العقل اذن ؟

قد تكون معرفة غسان تويني للحقيقة أعمق من معرفة رجل الشارع

لها . ولكن لا يجوز ان يفرضها عليه فرضا . الحرية الانسانية ترفض هذه الوسيلة . والحرية الانسانية شيء مقدس .

على غسان تويني ، اذن ، ان يسعى الى « تنويره » بالكلمة المقنعة والقدوة الحسنى .

ما يعوزنا هو الايمان بالحرية وبقدرة أي انسان على رؤية الحقيقة . وما نفتقر اليه هو الصبر . فنفاده يفقدنا الاتزان والحكمة والروية ، ويجعلنا نلجأ الى اتخاذ الوسائل الهوجاء . مثلنا ، تماما ، حين نفقد صوابنا فنرتكب حماقة ـ او حتى جريمة . وما هي بمصادفة ان يظل لبنان وحده في الشرق الادنى ـ وربما الاقصى ايضا ـ البلد البرلماني الوحيد . فهو قائم في جوهره على الحرية . ولا حرية ، حيث لا نظام برلماني ، والعكس بالعكس .

ونحن نريد ان نحتفظ بهذا النظام لأننا نريد ان نحتفظ بالحرية ، وبالتالي بلبنان . واذا كانت فيه من مساوىء ، فلنصلحها . ولكن من داخل النظام وبتأييد الشعب .

وليبدأ كل منا بنفسه .

■ ٥ ■

نريد ان نعرف ما هو هذا الذي يسمونه « واقع الحياة العربية » تارة ، و « القومية العربية » تارة اخرى .

اذا قلنا نحن لبنانيون ، ولبنان وطن مستقل ، ولأنه مستقل يجب ان تكون له خصائص يمتاز فيها عن سواه ، وإلا لماذا يكون مستقلاً ..

واذا قلنا ان للبنان تاريخا عريقا يرجع الى يوم وجد اول لبناني ...

وان لبنان على البحر ، ولهذا البحر حضارة انسانية عظمى ساهم فيها لبنان على مر التاريخ ويريد ان يظل يساهم فيها ..

وان لبنان ، الى هذا كله ، يفتخر بلغته العربية وتراثه العربي ، ويتمسك بانتمائه الى الاسرة العربية ، ويدعي عن حق انه هو الذي حمل ويحمل مشعال النهضة العربية ..

اذا قلنا هكذا ، صرخ المتاجرون بـ « واقع الحياة العربية » ، او « القومية العربية »: انتم ضد « واقع الحياة العربية » ، او « القومية العربية » .

واذا قلنـا نحن في لبنـان أحـرار ، لأن التقاليد اللبنانية والدستور اللبناني يضمن لنا هذه الحرية ، صاح هؤلاء : هذه الحرية باطلة لأنها ضد « واقع الحياة العربية » ، أو « القومية العربية » .

واذا خطرت ببالنا فكرة جديدة ، نظروا اليها لا بمنظار الحقيقة ، بل بمنظار « واقع الحياة العربية » او « القومية العربية ». وللحال وجدوا فيها « مؤامرة استعمارية » تهدف الى تشويه « واقع الحياة العربية » ، او « القومية العربية ».

كل ما نقـول ومـا نفعل ، حتى لو قلنا : « يا جمل يا بوبعة » ، أو سافرنا الى باريس او لندن او ستوكهولم ، أو كان لنا مفهوم حديث في اللغة والادب والشعر ، أو لبسنا برنيطتنا بالمقلوب ، أو أطلقنا لحيتنا أو حلقناها ، يحسبه المحتكرون لـ « واقع الحياة العربية »، أو « القومية العربية » موجها ضد « واقع الحياة العربية »، أو « القومية العربية ».

فحان لنا أن نعرف ما هو المقصود بتعبير « واقع الحياة العربية » أو « القومية العربية » التي يعتبر اصحابها انه يتنافى مع كل تجديد ، وكل تطوير ، وكل معرفة ، وكل انفتاح على النور والحقيقة اينما كان ؟

الواقع ان ليس من يسيء للحاضر العربي والمصير العربي غير هؤلاء المتـاجـرين بالتعـابير الوهمية والكليشهات الغوغائية ، الجاهلين لها ، الحاسبينها سلعة جديدة صالحة للاستهلاك .

والواقع ايضا ان ليس من يفهم ـ لا هم ولا نحن ولا أي مخلوق على وجـه البسيـطة ـ ما معنى « واقـع الحيـاة العـربية » ، او « القومية العربية » . فليس في العالم اليوم من ينسب هذه الالفاظ الى أي بلد من البلدان او شعب من الشعـوب . بل ان العـالم المتحضر يضحك حين يسمـع هذه الالفـاظ . فالانكليـزي مثلا لا يتحدث عن « واقع الحياة الانكليزية » او « القومية الانكليزية » . وكذلك الاميركي والروسي . بل ان هذين الاخـرين يعتبران ايا من هذين التعبيرين ، لا سيما القول بالقـوميـة الروسية او القومية الاميركية ، تشويها لـ « واقع الحياة » الاميركية أو الروسية وهذياناً لا يقره عقل .

نحن عرب ، سواء كنا لبنانيين أم « جمهور ـ عربيين » ام عراقيين أم تونسيين ام الى آخره . يكفي اننا نتكلم لغة عربية ، ونجد مبررا لوجودنا ضمن تراث عربي . أما اختراع تعابير غوغائية وهمية والحكم على القيم

الانسانية والحضارية من خلالها ، واحتكارها ، والمتاجرة بها ، واستغلالها لمحاربة كل تيار فكري وروحي جديد ، فأمر يسيء الى الحاضر العربي والمصير العربي .

نحن ـ لأننا لبنانيون فاهمون حقيقتنا اللبنانية ـ نستطيع أن نكون مع ذلك عرباً فاهمين حقيقتنا العربية ، أما هؤلاء ـ فلأنهم عرب جاهلون حقيقتهم العربية ـ لا يستطيعون ان يكونوا مع ذلك لبنانيين فاهمين حقيقتهم اللبنانية .

نحن ، لذلك ، نوفق بين لبنانيتنا وعروبتنا ، أما هم فأنى لهم أن يسبروا عمق هذا التوفيق .

إنهم ، في كل شيء ، مثال العروبيين المزيفين واللبنانيين المزيفين .

صوتهم صوت يعقوب ، وشعرهم شعر عيسو .

- ٦٠ -

الانسان وحده يصنع التاريخ ، لا تصنعه الافكار (افلاطون وهيغل) ، ولا يصنعه الديالكتيك المادي (ماركس) ، ولا يصنعه العرق (هتلر) ، كما ان نظريات العبث الوجودي (كامو) واللاشيئية (سارتر) لا تصنعه في شيء .

هذه المواقف كلها حتمية . لذلك فهي تسلب الانسان حريته وتجعله آلة بيد الظروف وعبدا للقدر .

الانسان وحده ، بكامل حريته ، هو الذي يفعل . وفعله الحر هو التاريخ . ويوم دخل الله التاريخ ، أي يوم تجسد ، أصبح للتاريخ ، بدء ونهاية . قبلها كان دائرة مغلقة . كان واقعا محتوما ، كان مفازة لا معالم فيها ولا نور .

اذن ، فكل نظرية وكل عمل لا ينهض على اساس الحرية انما هو عمل ضد التاريخ ، بل خارج التاريخ . قد يصول ويجول حينا من الزمن ، لكنه لا يلبث ان يزول .

هذه الحرية لا تعطى من انسان الى انسان ، والا حق للانسان أن يسلبها من الانسان . وانما تعطى ممن هو فوق الانسان ، من الله ، ولذلك لا يحق لغير الله ان يسلبها منه . فهي في صلب الانسان ولا انتزاع لها منه .

من هنا كانت الثورة من أجل الحرية أمرا مشروعاً ، بل واجبا ، وكان من لا يثور من اجل حريته مخلوقاً جباناً . فالبطولة هي ان نقف في وجه الطغيان ونقول : لا .

فالنظام الديمقراطي ، وحده بين انظمة الحكم ، يرعى هذا المفهوم ويقر بأنه لا يهب للانسان الحرية ، فهو لذلك لا يسلبها منه . حتى انه ، في دساتيره يعترف ، صراحة او ضمنا ، بحق الشعب في الثورة . فاذا نجحت كان من حقها ان تنجح ، واذا اخفقت كانت عصيانا وتمردا . أما خطأها أو صوابها ، فأمر يقرره تصادم القوى الفاعلة في الشعب . ذلك أن هذه القوى ، في آخر الامر ، انعكاس لارادة مشروعة .

أما الطغيان فبخلاف ذلك . فهو يدعي لنفسه العصمة ويهب من يشاء ما يشاء . يقيم نفسه حكما واحدا وحيدا فيما يجب ان يكون . ينطلق من المبدأ المخطىء ان الشعب قاصر لا يعرف صالحه ، وينتهي بالمبدأ المخطىء الآخر ان الطغاة ظل الله على الارض . فاذا لم يكن سلطانهم مستمدا من الشعب ، فمن اين يستمد ؟

وحين يدعون استمداده من الشعب ، فلا تصدقوهم . اذ لو صدقوا لتركوا للشعب حرية اختيار من يشاء ، وقول ما يشاء ، وفعل ما يشاء .

وفي حين يدعي النظام الطغياني العصمة والقدرة على بلوغ الكمال ، يعترف النظام الديمقراطي بقصوره وعجزه عن بلوغ الكمال . فكما ان الانسان قاصر وعاجز بطبيعته ، ولا منقذ له من هذا القصور والعجز غير نعمة الله ، كذلك المجتمع الذي هو فرد فيه .

وهكذا يسوق الطغيان الشعب بالقهر والعسف ، في حين تترك الديمقراطية للشعب مجال الوقوع في الخطأ والرجوع عنه . وفيما يتحمل الطغاة المسؤولية كلها ، فيخنقون كل صوت ويمنعون كل نقد ، يشترك الشعب تحت النظام الديمقراطي في حمل المسؤولية ، فيشجع النقد لاكتشاف مواطن الخطأ ، ويعتمد وسيلة الانتخاب لتصحيحه وتقويم ما امكن من اعوجاجه .

ومن أسف ان الشعوب المتخلفة في حماستها للحاق بالركب المتحضر ، تظن انها تختصر الطريق اذا هي اعتمدت نظام الطغيان . فهي تضيق ذرعا ببطء النظام الديمقراطي ، وتشكو من سوء تنفيذه والأخذ به . بل قد يشك بعضها في أهليته له . وهكذا تسلم مقاليد امورها لراكب

الحصان الابيض .

بذلك تتنازل عن انسانيتها ، وراكب الحصان الابيض يعرف ذلك . فما أن ترفع رأسها ، بعد حين ، متسائلة حتى يصفعها بكعب جزمته . من لا حرية له ، لا رأي له .

ويطبق الفخ . القفزة أين هي ؟ الاصلاح الجذري أين هو ؟

« انتظروا » يقال لهم ، فاذا نالوا القليل مما انتظروه ، لم يعد لهم القدرة على الاستمتاع به . تماما كمن يقضي شبابه في الادغال سعيا وراء المال ، حتى اذا اصابه ، شاخ ولم يجد فيه عوضا عن اسنان مقتلعة وحيل مقطوع .

أريد من هذا كله ان اشدد على اهمية الحرية . على وجوبها . على اسبقيتها . لا شيء غير الحرية يستحق العيش به وله ، أو الاستشهاد لأجله وفي سبيله .

وأريد كذلك أن أشدد على ان النظام الديمقراطي الذي ننعم نحن به في لبنان ، هو النظام الامثل ، رغم مساوئه التي نشكو منها وننق .

لبنان واقع خاص . اذن ، هو مجتمع خاص . وفرادة هذا المجتمع هي في انه ، اذ يحضن القيم الحضارية المستمدة من المسيحية ، يعتنق في الوقت ذاته ـ عن طريق اللغة ، والتاريخ المشترك ، والمصير الواحد ـ التراث العربي الاسلامي .

هذا اللقاء الحميم ، في المجتمع اللبناني ، لا وجود له في واقع بلد آخر . انه لقاء يجب ـ اذا فعل فيه العقل ـ أن يجعل القيم الحضارية المسيحية السائدة في لبنان ، قيما حضارية لبنانية تبرر وجود المجتمع اللبناني الراهن ، وتوحده ، وتحرره من مركبات النقص ، والتدجيل السياسي ، والدعوات التافهة الى المناصفة ، والحيادية ، والطائفية ، وما الى ذلك من دلائل المجتمع المتفسخ .

القيم الحضارية المستمدة من الدين ، او من اي عقيدة كلية ، كالشيوعية مثلا ، هي غير الدين . الدين عبادات وشعائر وطقوس ، أمرها شخصي وفصلها عن حياة المجتمع والدولة أصح . أما القيم الحضارية المستمدة من الدين ، فهي تلك التي تقوم على النظرة الى الله والانسان والوجود . هذه النظرة التي ينحدر منها كل شيء ، هي في اساس كل شيء . في اساس ما نأكل ، وما نلبس ، وما نتعامل به مع الناس ، وما

نقول ونفعل . وبكلمة واحدة : انها في اساس ما نحيا به وله .

في امكان أي كان أن يمارس دينه بلا قيد ولا شرط في المجتمع الغربي (لا أقول السوفياتي لأن الدين والدولة واحد) . ذلك أن هذا المجتمع ، اذ يستمد قيمه الحضارية من المسيحية ـ كما انتهت اليه بتفاعلها مع التراث اليوناني والروماني ـ هو مجتمع حر ، يساوي بين مواطنيه ، ولا يميز بين الاديان . هذا يعني على الصعيد المدني ، ان المواطنين متساوون امام القانون : يولدون ويلدون ويتزوجون ويرثون ويموتون ، تحت نظام واحد لا يفرق بينهم في شيء .

والمجتمع اللبناني هكذا . او هكذا يجب ان يكون .

في هذه « الوجوبية » تحد لنا ، لا يرفعه الا فهمنا ووعينا له . اذاك نجعل منه شيئا عظيما ننعم به نحن وابناؤنا من بعدنا ـ شيئاً ليس بمستبعد ان ينبثق منه نور خلاص جديد للجنس البشري .

وما كنت لأتطرق الى هذه القضية ، لولا غاية الوصول الى قضية الادب ، فهي موضوع نشاطي واهتمامي الاول .

اذا كان المجتمع اللبناني مجتمعا عربيا متميزا بقيمه الحضارية اللبنانية ، استتبع ان يكون له ثقافة لبنانية متميزة ، وبالتالي ادب لبناني متميز .

هذا بالفعل ما ظهرت بوادره ، وربما من دون ما وعي منا ، منذ عصر النهضة . ظهرت عند أدباء النهضة جميعا ، لا سيما الناثرين منهم . حتى اننا لنستطيع القول إن النهضة الفكرية والادبية ـ وكدت أقول السياسية والاجتماعية ـ العربية في القرن التاسع عشر ، هي نهضة لبنانية . ولم يكن هذا مصادفة واتفاقا . بل كان العامل الاول فيه بلوغ العقل اللبناني مرحلة الفعل والعطاء ، بعد قرون من الرزوح والقهر تبعتها قرون اخرى من الاستعراب . وما كان ليبلغ مرحلة العقل والعطاء هذه ، قبل سواه في هذا المشرق ، لو لم يحتفظ بالصلات الروحية التي تربطه بعالم الحضارة .

اذن ، فنحن في طريق الادب اللبناني الخاص . وكلما ازداد وعينا وفهمنا وعيشنا للثقافة اللبنانية المستمدة من القيم الحضارية اللبنانية التي يقوم عليها المجتمع اللبناني ، ازدادت شخصية هذا الادب بروزا ، كما ازداد غنى وعطاء . فالأدب ، وهكذا النشاط الانساني جملة ، يعكس

المجتمع وينبع من قيمه الحضارية . هذا هو معنى أن يكون الادب انسانيا ، وبالتالي كليا وخالدا .

ان وجود المجتمع اللبناني الخاص ، وعلى اساسه الادب اللبناني الخاص ، لا يخضع لارادتنا . ما يخضع لارادتنا هو الايمان به والولاء له . كل واقع واجب الوجود هو هكذا ، ولبنان واقع الوجود .

واجب وجوده هو في انه الكيان الأوحد الذي يشهد للحقيقة في آسيا كلها .

وفرادته هي في هذا اللقاء المسيحي ـ المسلم الذي ليس له مثيل في التاريخ .

وعظمته هي انه تمكن حتى الآن ، وسيتمكن في المستقبل ، ان يجعل من هذا اللقاء نعمة تتعدى حدوده الى الآخرين .

يكتسب ما قلت ضرورته لنا الان ولأبنائنا من الحقائق الآتية :

اولا ـ وحدة الفكر والشعور بين المواطنين هي اساس كل كيان سياسي .

ثانيا ـ الانسان وجد لكي يحقق كمال ذاته . بهذا فرحه الاعظم . ولهذا يعوزه العيش في مجتمع منسجم ، مستقر ، حر ، يدين بقيم حضارية مستمدة من واقعه الحي ، ومن واجب وجوده .

ثالثا ـ الوطن لا يكون الا كلاً . والولاء له لا يتجزأ . فحيث كنزك ، هناك قلبك ايضا .

- ٨ -

اعتناق اللبنانيين التراث العربي الاسلامي سياسيا وسطحيا ـ كما في ما يسمونه « الميثاق الوطني » ـ لا يكفي . على هذا التراث ان يصير لبنانيا . ان يتفاعل ويتحد بالتراث الحضاري المسيحي .

هذه ضرورة لتحقيق الاستقرار والانسجام والوحدة في المجتمع اللبناني .

ان لبنان ، بفضل هذا اللقاء الاسلامي المسيحي الفريد ، مدعو الى اتمام العملية التاريخية الواجبة التي بدأها ، منذ الف سنة ، رعيل من الفلاسفة والمتصوفة الاسلاميين . اعني بها عملية تركيز الفكر الاسلامي على اسس الحضارة الانسانية القائمة على الاغريق والرومان والمسيحية والعلم الحديث .

فمن دون هذا التركيز الذي يدخل التراث العربي الاسلامي في مجرى التيار الحضاري الخلاق دخولا صميميا ، سيبقى هذا التراث والمعتنقوه على هامش التاريخ .

ومن أسف ان اللقاء الاسلامي ـ المسيحي على الصعيد التاريخي العام ، لم يكن في مجمله الا لقاء الاعداء والخصوم . حمل المسلمون الفتح حتى ابواب فرنسا ، ثم قامت الحملات الصليبية تزرع الخصومة والحقد من جديد . وكان آخر الامر نهوض الاقتصاد الاوروبي على اساس الاستعمار الذي لم نسلم منه تماما حتى هذه الساعة .

على ان التجربة اللبنانية الراهنة ، من شأنها حين تنجح ، ان تضمد جراح الماضي وتجعل اللقاء لقاء يسوده العقل ، والنقاش الحر ، والاخلاص المتبادل في خدمة الحق والحقيقة

ان مصيرنا ومصير أبنائنا في هذا المشرق ، رهن بنجاح هذه التجربة .

الغاية التي من أجلها حاولت أن أتلمس معالم الطريق الى ركائز الوطن اللبناني والمجتمع اللبناني ، هي اننا نريد وطنا ننتمي اليه بحق ، ومجتمعا نحقق فيه وجودنا بحرية وفرح .

هذا حق من ابسط حقوقنا الانسانية . وانه لمن الظلم ، لنا ولأبنائنا من بعدنا ، ان يكون وطننا عرضة للشك الدائم في وجوده ، وأن يكون مجتمعنا متفسخا فاقداً عوامل الوحدة والانسجام والاستقرار .

ذلك اننا في وطن كهذا الوطن ومجتمع كهذا المجتمع ، يستحيل علينا العيش بكرامة وحرية ، كما يستحيل علينا النهوض والتقدم الصحيح .

ونحن ، المعنيين اليوم بنهضة الشعر العربي على أسس المفاهيم الحديثة ، لا نستطيع ان نرسي قواعد هذه النهضة الا في تراث حضاري نعيشه ، ونؤمن به ، ونستمد منه حقائق وجودنا في الحاضر والمستقبل . لذلك نجد أنفسنا مدفوعين الى توضيحه في أذهاننا وفي أذهان مواطنينا . وهكذا قل في ما يتمناه جميعنا من نهضة في شتى ميادين النشاط اللبناني .

ان العالم العربي بأسره يمر اليوم في مرحلة التقييم والتعريف والتحديد . انه يسعى ـ في خضم القلق والاضطراب ـ الى رسم اطاره القومي الصحيح وامتحان مضمونه الحضاري الكفيل بتعزيز قيمة الانسان وصيانة حريته وكرامته . وفيما تشترك سائر الاقطار العربية

بوحـدانية التراث العربي الاسلامي ، يقف لبنان ـ بفعل واقعه الذي ذكـرنـا ـ وحيـدا امام نفسه . عليه ان يقر اطاره الخاص ومضمونه الحضاري الخاص لجميع مواطنيه على السواء ، متخطيا بذلك تعددية مذاهبهم واديـانهم . انه العلماني الوحيد ـ بالمعنى الفلسفي العميق لهذه اللفظة ـ في محيطه العربي .

ما لبنان لساسته وزعمائه وقبضاياته . فلهؤلاء ـ كما لزملائهم في كل بلدان الارض ـ مصالحهم الآنية التي تتصارع دائما وابدا مع مصلحة الكيان اللائق الشريف .

وما لبنان لدعاة الطائفية ، والمناصفة ، والحيادية التي لا معنى لها .

ومـا هو للوصـوليين ، والاطباء الدجالين ، والمنادين بالويل والثبور وعظائم الامور .

وما هو اخيرا ، للمرتزقة والمهاجرين اليه من شذاذ الآفاق .

انما لبنان للضمير اللبناني والارادة اللبنانية ـ النابعتين من الناموس الطبيعي لواقع الاشياء .

هذا الناموس الطبيعي هو الذي يرعى لبنان ويحرس لبنان .

انها العناية الالهية التي ابقت على هذا الشاطىء المشرقي موطىء قدم للحرية الانسانية والحق القديم .

ان المعركة الفاصلة في التاريخ الحديث لن تكون بين الشرق والغرب ـ او بين الشيوعية والغرب ـ بل بين الصهيونية من جهة ، وبين الشرق والغرب من جهة اخرى .

فالمسيح الذي صلبوه قام ، وهم يريدون ان يصلبوه مرة ثانية ـ هذه المرة لكي لا يقوم ابدا .

واذن ، فلبنان الذي يجاورونه اليوم ، كما جاوروه في قديم الزمن ، هو وحده في خط النار ، في هذه المنطقة كلها .

فالمعركة الفاصلة في هذا المشرق العربي ، لن تكون بين الصهيونية والعالم العربي كله ، بل بين الصهيونية وجزء منه فقط : لبنان .

ان الصراع الحقيقي ليس صراعا عسكريا ، والنصر الحقيقي ليس نصرا في معارك السلاح .

الصراع الحقيقي هو صراع العقـل والروح ، والنصر الحقيقي هو النصر في معارك المعرفة والنور .

فلبنان ، من حيث هو لبنان ، لن يغلب . ملكوته ليس من هذا العالم ، وقوات الجحيم لن تقوى عليه .

هنا موطن البطولة وملاذها الاخير .

بل قل : امتحانها الاخير .

* * *

نظرية غسان تويني الجديدة في موضوع الحياد اللبناني نظرية سريعة . فلو انه تمهل قليلا لرأى ان شيئا ما لم يتغير في هذه المنطقة ، حتى يتغير حيادنا التقليدي وفقا له .

بالأمس القريب صارت وحدة ، ثم صار انفصال . والآن يصير شيء آخر ، لا هو وحدة ولا هو انفصال : شيء غريب عجيب في تاريخ الاتحادات ، تماما كالاسس التي اقيم عليها .

اما « الدفع الثوري » الذي بنى عليه غسان نظريته ، فهو ليس وليد الساعة . فمن سنوات ونحن نسمع به وبشعاراته التي تتكرر مع بعض تبديل في اللفظ والصياغة . انه اليوم يعلن عن وحدة اتحادية يرافقها التسويف ، واشتراكية ما زالت حلم قطرين ، ان لم نقل ثلاثة ، من اقطار الاتحاد ، وحرية هي كالمرأة الفاضلة في نظر سليمان الحكيم .

ثم الا يرى غسان ان هذا « الدفع الثوري » الذي ابرقت البارحة ، نعم البارحة ، حكومتاه في العراق وسوريا ، داعيتين للملك سعود وشعبه بالعز والرفاه ، يجعلنا نشك في كون الحركة التاريخية الجذرية المنتظرة والمقدر لها ان تتناول المصير العربي بأي تغيير حقيقي .

هذا ، بالاضافة الى ما هو اعمق بكثير ، أعني ما أورده « الدفع الثوري » ذاته ، في بيان اعلان الاتحاد ، من مبادىء تتنافى مع اي دفع ثوري اصيل . أهمها قيام الدولة الجديدة على الدين في هذا القرن العشرين ، وعلى الاشتراكية المتطرفة التي تشل كل خلق وكل مبادرة فردية ، وعلى نوع من الحكم الطاغي الذي يعزل الخصوم ولا يسمح بأية حرية الا للمؤيدين والانصار .

فكيف يريدنا غسان تويني ، وهو الحريص على جوهر الوجود اللبناني ، ان نتخلى عن حيادنا التقليدي في سبيل « دفع ثوري » ينقض هذا الجوهر ؟ أليس في التخلي اضعاف للبنان وخيانة لمبرر وجوده ،

ولرسالته ، وللذين في هذا الشرق العربي يؤمنون به ، ويتطلعون اليه برجاء ، ويصلون من اجل بقائه ؟

وهل تشفع بنا « ميونيخيتنا » لدى انظمة تنظر الى الانسان والحياة نظرة تنقض وجودنا من الاساس ؟

الم نتعلم درسا من بعض قادة الرأي في بلدان اوروبا ، الذين حسبوا هتلر نبيا جديدا سيعيد الى اوروبا حيويتها ويرد عنها الخطر الشيوعي ويقيها من الانهيار ؟

ومن الناحية السياسية : اذا كان الحياد اللبناني يعني عدم الوقوف طرفا في المنازعات العربية ، فلماذا نلغي اليوم هذا الحياد ونقف طرفا مع جانب دون آخر ؟ هل ينهض هذا الجانب دون الآخر على ما ينهض عليه لبنـان من حريـة واحترام للشخص الانساني ؟ لو كان الامر كذلك ، لأصبحت نظرية غسان في تطوير الحياد اللبناني نظرية وجيهة .

أما الآن ، والحال على ما هو عليه ، فالتمسك بحيادنا التقليدي ليس ضرورة فقط ، بل اكثر ضرورة من أي وقت مضى . انه الحياد الفاعل ، المحب ، المتعاون مع الجميع على السواء .

٤	في الواقع وما وراءه

في الواقع وما وراءه

-١-

القطة السوداء المكحلة بالبياض ، التي اعطيت لابني وهي طفلة ، اغتنمت فرصة غيابنا ، البارحة ، عن البيت ، وولدت ثلاثة اطفال .

تركنا البيت خاليا الا منها ، وحين عدنا اليه ، من زيارة ، وجدناه ممتلئا بالمواء الصارخ الحزين .

وصفق ابني الصغير فرحا . كان في فرحه شيء كثير من الدهشة . لكنها تحولت ، بعد قليل ، الى تساؤلات شغلتنا ، انا وامه ، حتى نام .

« اين كانت ؟ وكيف خرجت ؟ وليش ملوثة بالدم ؟ الخ ... »

واخيرا : « ليش متصرخ وتبكي ؟ »

وحين اجبته لأنها بردانة ، ركض الى غطاء سريره يرد عنها البرد .

ليتني أعلم ماذا بصر بمنامه . اكيد ، بصر شيئا غريبا ، حلوا ، لا تصل اليه مخيلة شاعر .

عرفت ذلك من عينيه ، وابتسامته ، بل من وجهه كله ، حين افاق هذا الصباح .

وابى ، من كثرة اهتياجه ، ان يتروَّق كعادته . وكم تعبت امه بتلبيسه ، وبدفعه دفعا الى المدرسة .

وراح وقلبه وراءه .

ومن الآن الى حين ، سوف يعيش في عالم هذه القطط الصغيرة ، وسوف يراقبها تكبر .

وسوف يهدي بعضها الى أحب رفاقه اليه ، وسوف ينكسر قلبه عليها وهو يراها تفارقه .

انه لا يعلم بعد ان الهر الكبير لها بالمرصاد . رأيناه يروح ويجيء في الحديقة ، طوال الليل ، وعيناه تقدحان شرا . ومشكلتنا نحن ، الذين نعلم ، حمايتها منه .

فلو أكل الهر بعضها أو كلها ، فكيف نفسر لعقل ابني البريء هذه الجريمة ؟

وهكذا ترانا ، أنا وأمه ، ممسكين بقلوبنا فزعا على الهرة من الهر ،

رغم الحراسة الشديدة التي اقمناها .
ورجاؤنا ان لا يأتي يوم نلجأ فيه الى العنف مع هذا العدو الجديد ، فنرتكب الجريمة التي نحاول منع غيرنا من ارتكابها .

- ٢ -

في حارتنا كلب سطا على دجاجتنا البيضاء ونهش ذنبها . ثم راح ينبح .
ربما يريد الرأس . الا يعلم ان رأس الدجاجة شيء ، وان ذنبها شيء آخر ؟
لو كان يعلم ، أكان الكلب الذي هو ؟

- ٣ -

لكل وجه في البشر شبيه في الحيوان . فلو تأملت في وجوه الناس ، ذكرك هذا بالنمر ، وذاك بالحمار او الارنب او الهر .
واصحاب هذه الوجوه يتصرفون وكأنهم كذلك . الا ان اشباههم في الحيوان أرأف منهم وأحلى . فهم ، الى هذه الاشباه ، كالصور المزيفة .
وعبثا يتعب العقل في تمويه هذا الزيف .

- ٤ -

وعلى هذه السيرة ، كم حزنت عندما قرأت في الصحف ان السلطة منعت عربات الخيل في صيدا . وكانت قبلاً قد منعتها في مدينتي طرابلس .
لماذا هذا التجني على بقية من بقايا الماضي الجميل ؟ أضاق في عيون السلطة مشهد هذه الخيول المطهمة ، وهي تنطنط وتقرقع ، وتصهل وتفشك ، مزهوة بمن تجر ، اكانوا زمرة من السكارى ام شلة من الاحباب او الاطفال او الصبايا ؟
انه طغيان التمدن والعمران ، في الارجح . وهو طغيان لم يحرمنا عربات الخيل فقط بل حرمنا الكثير مما هو عتيق حلو : البيوت المقرمدة المحاطة بسياج من الياسمين والزهور . الدور الرافلة بالاشجار في قلب المدينة . الطرابيش والسبحات والاراكيل في كل مقهى . الشرفات التي

يتسامر فيها الناس ، عبر الازقة ، في الليالي المقمرة . هذا واشياء أخرى عالقة في قلوبنا من ايام الطفولة ، ولا قدرة لنا على نسيانها .

ولنعد الى العربات . لم أكن لأحزن عليها كثيرا لو لم يكن لي عنها ، في صيدا على الخصوص ، ذكريات « شبيلكية » . كانت هذه العربات مطيتي الوحيدة الهنيئة في الدروب الرومنسية المقفرة ، الى السمر والحب . وكأنما كانت خيولها تفهم مهمتها ، فتتباطأ كدبيب النعاس وتموسق وقع خطواتها في مثل الهدهدة .

وكم كانت تحزن حين يديرها العربجي رجوعاً . كنت أعرف ذلك من نرفزة لهاثها . بل كنت أحس حزنها كبعض من حزني .

فأين المدنية من هذا المشوار الحالم السعيد ؟

على ان لكل شيء نهاية . ونهاية الجميل ليست اجمل النهايات . ولولا ما يتركه من اثر ، كحمرة شفاه على مخدة او بقايا عطر على فراش ، لكانت فجيعتنا به قاتلة .

رحم الله العربات في صيدا كما في طرابلس ، وعوضنا عنها بالسيارات الهادرة والشوارع العريضة المرقعة بالزفت .

ورعى الله تلك الايام من طفولتنا الضاحكة ، وشبابنا الباهر .

- ٥ -

ولكم يستهويني موضوع الحيوان .

ففي هذه اللحظة ، وانا اكتب ، اشعر بسعادة . ولو اتسع لي المجال ، لأسهبت الى ما لا نهاية . ولرويت « كليلة ودمنة » جديدة .

على ان ضيق المجال ليس العائق الوحيد . هنالك العصر الذي نحن فيه : عصر دواليب المطاط ، والمحركات الزاخرة بروائح الشحم والزيت والبنزين .

الحيوان صار للتسلية والتفكهة ، وكان في الماضي فردا من العائلة .

وصار ايضا للفرجة ، وللصيد ، ولملء فراغ امرأة عاقر او رجل موروب .

ومن النفاق ان يدعي هذا العصر الرفق بالحيوان ، بينما يسرحه من وظيفته الحقيقية ويخترع له وظيفة تهينه وتحط من كرامته .

وكم يكون الكلب ، مثلا ، أسعد لو عوى قدر ما يشاء ، ونبح ، وسطا

على الدجـاج، ومص العظام على المزابل، عوض الاستسلام الى فراش وثير ، يأكل الحلوى ويشرب الحليب .

وأين الحمار الذي يشنهق ويبرطع على بيادر الضيعة ، في ماضيات الايـام ، من الحمار الذي يركبه الاولاد اليوم في « السيرك » ؟ بل اين حصان المعارك من حصان السباق ؟ وأسد البراري من أسد « الزو » ؟

تلك ايام غير هذه الايام . وأملنا أن لا يطرأ على الانسان ما طرأ على أخيه الحيوان !

• ٢ •

كان رجلاً عظيما ، لأنه كان خادماً للكلمة . حمل اثقال الحياة بايمان ورجاء ومحبة . أعطى اكثر مما اخذ . واعطى كثيرا جدا .

كان محـظوظا ، لأن والده كان فلاحا . لذلك عبق برائحة الارض ، وفاض بكرم الارض ، وعاش ببساطة الارض . وما احسب الا انه سيخلد بخلود هذه الارض .

لم يغـدق علي المال في حياته ، ولم يورثنيه في مماته . انما اعطاني وأورثني قلبه . ولسوف أورثه أولادي ، ويورثه اولادي اولادهم ، الى آخر جيل .

لا أحزن عليه لأنه أبي ، بل لأنني خسرته ، ولأنني سأفتقده واشتاق اليه ، ولأنه أعطى لحياتي معنى . فبقدوته ومثاله عرفت ان الله حي .

كان حنوناً ، وكان وديعاً مع الصغار . لذلك احبوه وجاؤوا اليه . كان يلاعبهم كرفيق ويفتح صدره لنزواتهم بلا تذمر . فكأنما كان بينه وبينهم سبب لا تقيمه الا المحبة .

وكم قيل في اسباب وفاته ان الفاجعة التي اوجعت طرابلس اوجعت قلبـه الضعيف . رأى في كل من اولادها الصرعى ولده ، فاحترق دمه عليه . وستذكر انه دفن في اليوم الذي دفنوا فيه .

أكان قادرا على غير ذلك ، وهو الذي عرف عنه حضوره ساعة الحزن وغيابه ساعة السرور ؟

سأقول فيه الكثير . سأقول انه كان يستمد من ضعفه قوة . فربّى أولاده على الصبـر والثقة بالنفس . كان يشعرهم بأنه موجود ، وبأنه الحصاة التي تسند الخابية . لذلك كنا نهرع اليه ، ولا نعود منه الا

قانعين .

فلنترحم عليه ، ولنحفظ ذكراه الى النهاية .

* * *

من لا يعرف الموت في اللحم ، اي ينام معه ولو ليلة ، لا يعرف شيئاً .

أي لا يعرف الحياة . ما أقسى الحياة وجها لوجه أمام الموت . انها تضحك في وجهه وتسخر منه .

الأن الموت نهاية ؟

الحياة هي كل ما نملك ، اعني في الاكيد الملموس . ولكنها ملك زائل . فأين الملك الذي يدوم ؟

وفي الحياة ظلم ، فمن يرفع عنا هذا الظلم ؟ العدالة الاجتماعية حق وضرورة . ولكنها ، اذ تعطي كلا منا حقه ، هل تنجينا من الموت ؟ هل تخفف عنا الآلام ؟ هل تلبي حاجتنا الى الحنان والحب ؟ هل تكفل لنا السعادة ؟ هل ترد عنا اخطار الطبيعة والصدف ؟ وهل تضمن اننا لا نولد كسحاء او عميانا أو معتوهين ؟

لو كان الانسان ، بما يقيمه من انظمة ، يرفع ظلم الحياة عن الانسان ، اكان لجأ الى الايمان بوجود العدالة وراء هذه الحياة ؟ اكان تعزى ؟ اكان وجد الحياة خليقة بان تعاش ؟

من يتجاهل هذه القضية يستسلم الى العيش . ومن ينكر وجودها بالذهن يغالبها بلحمه ودمه . ومن يقر بوجودها قد يجد او لا يجد لها حلا .

وكيفما كان ، فنحن مظلومون في هذه الحياة ، واذا كان الظلم لا يرفع عنا في هذه الحياة ، ايجوز ان لا يرفع عنا ابدا ؟

* * *

لم نأت الحياة بارادتنا ، ولكن بارادتنا نحياها . لذلك كان من واجبنا ان نحياها على خير وجه ..

وخير وجه نحياها فيه ، هو ان نحياها بلا تردد . ان نحياها بحماس ، بشجاعة ، بحرارة الدماء التي تسيل في عروقنا ، بضراوة الذئب ووداعة الحمل .

قد يكـون وراء هذه الحيـاة حيوات ، فلا يمنع ان نحياها بملء . ولنتـذكر اننا قد نموت في أية لحظة ، لا لأن التذكر يسعدنا ، بل لأنه يوقفنا عراة أمام الآخرين .

- ٣ -

اجلس . هذا النهار ، على بساط من العشب والزهر ، في بستان هنا ، على كتف الجبل . السماء ضاحكة ، والشمس ، رغم برود الهواء المتزلج على الثلج ، تعانقني بالدفء العظيم .

عن يميني راديو صغير ، وعن يساري بعض جرائد الصباح .

وبين يدي « ازهار الشر » لبودلير .

واغلقت الراديو لأسمع اصوات العصافير واغانيها . وطويت الجرائد لأنعم بكلمات بودلير الراجية ومعانيه المبدعة .

ففي هذا الطوفـان الكـلامي العـارم عن يميني وعن يساري ، كم يعوزني الوثوق من خشبة استعين بها على الغرق : الوجود والشعر .

* * *

امـامي بيت من القـرميـد ، عليه رف من الحمام : منه الابيض ، والاسـود ، والبني ، والمكحل بالبياض . يطير بعضه أو كله ، ثم يحط ليتشمس . ما في الرف الا ذكر واحد ، اسمعه يهدر ، بين الحين والحين ، ليثبت رجولته . تماما كما نفعل نحن ، بني البشر الذكور ، حين ننفرد بسرب من الاناث .

ولمـاذا لا . أليس من حق الضعيف ان يتـظاهر بالقوة ، حتى أمام مصدر ضعفه ؟

انا متأكد ان ذكر الحمام الذي يتمرجل الآن ، فوق القرميد ، على رفيقاته ، لا يقوى على اسقاط ريشة من جناحهن ، من دون رضاهن .

اما هن اللواتي يبضن ، ويفرخن ، ويبكين ؟

أما هن اللواتي يغرين بكل شيء ؟

* * *

ها أنا أرمي كل شيء ، وأنهض ، وأتمشى في الحديقة . العشب والزهر

طري تحت قدمي .
وخطر لي أن أقطف باقة من الاقحوان ، ففعلت . وخطر لي ان اكسر غصنا صغيرا مبرعما من شجرة اللوز ، فمددت يدي وقلبي اليه .
وخطر لي ان اجمع الغصون اليابسة المنتشرة هنا وهناك ، فجمعت منها الكثير .
وصدفت قطيعا من البزاق ، فتركته يرعى : كان صامتا وحزينا ، فأوجع قلبي . ولكنني رأيت فراشة ، فطاردتها حتى هربت مني وراء السياج . كنت أريد أن أتفرج عليها وأداعبها قليلا ، لا أن أصيبها بأذى .
وتطفل كلب الجيران ، فهولت عليه بحجر فهرب . ما أجبن الكلاب تقتحم جيرة الآخرين !
ثم بغتة هدرت طائرة ، فراقبتها تهبط قليلا قليلا وتحط في المطار . كانت تلمع في شعاع الشمس ، ولكنها لا تصفق .
وتذكرت ان من المطارات ما يغلق احيانا ، أما مطارنا فيبقى مفتوحا دائما . فنحن ، هنا في لبنان ، نحب الطائرات كثيرا . فهي مثلنا ، تريد الحرية وتعشق اللاحدود .
ومن يمتطيها ، كائنا من كان ، لا يخيفنا ابدا . فأهلا وسهلا به .
وبانت جارتي ام يوسف ، عبر السياج المهدم ، فابتسمت وحيت . ثم نادت تطعم دجاجاتها التي تزودني وتزودها بالبيض المليء الطازج .
وكان النهار قد انتصف ، فعدت الى مكاني . وإذ كان الهواء يقلب صفحات الجرائد ، وقعت عيني على عنوان عريض يقول ، بلسان احدهم ، « ليسقط الخونة العملاء ، ولتعش ... »
فأغمضت عيني ، ورحت أراجع في ذاكرتي ملاحم اليسقط واليعيش في تاريخنا العربي .
وما أفقت من ذكرياتي الا على صوت الجوع . فالجسد يفرض علينا حقه ، أما الروح فتتأنى وتصبر وترحم .

- ٤ -

ثم جاء المطر ، الكثير من المطر . دخل غرفتي الصغيرة في الجبل . دخلها من السقف ، من الحيطان ، ونام معي في الفراش .

وفي المساء ، كنت تمشيت مع حبيبتي في دروب القرية . كانت اقدامنا تغرق في المطر ، وكان المطر يغرق في ثيابنا .
وجلسنا ، في العتمة ، تحت جذع شجرة . قليل المطر يؤذي ، أما كثيره فيفرح القلب .
وحين عدنا الى دفء الموقد ، تعرينا . وبدا جسدانا زنبقتين عائمتين في ساقية .
وتعانقنا في صمت . وأخذنا ننمو ، واحدنا في الآخر ، ونزهو ، ونعقد ثمرا حلوا كالعسل .
وفي الصباح جلسنا على حافة السرير . كان الصقيع يتكسر تحت لهاثنا كالزجاج .
ومن الشباك رأينا الغيوم تنقشع قليلا ، وقوس قزح ينتصب عبر الفضاء .
قالت : « عند طرف هذا القوس كنز من ذهب » .
وتضاحكنا .
قلت : « لن نذهب نبحث عنه » .
وعدنا نحتمي بالغطاء . الحب يبدأ حيث تنتهي الرغبة في الأخذ .

* * *

غريب ، كيف يهرب الزمن حين تقعد عن اللحاق به .
في دارتي هنا ، في الجبل ، حائط من الصبير . ثماره الذهبية لا تزال ، رغم الشتاء ، عالقة على صدور امهاتها .
اشتهيت واحدة أمس فقطفتها . وفي البلوطة ، فوق ، سمعت زقزقة عصفور ، هل كان يضحك مني ؟
كانت بلا شوك . كانت صفراء ناعمة كقبضة من نحاس . كانت ايضا قاسية .
ولكن حين نزعت قشرتها ، تدفقت نبعا من اللذة .
ورحت اقطف ، والعصفور يزقزق ، فوق ، في عب الشجرة . وخطر لي أن أرميه بحجر . آه لو كان معي بارودة !
وفجأة ، وبلا سبب ، سقط ميتا عند قدمي .

لن أمس صبيرة بعد الآن ، لا في الشتاء ولا في عز الصيف .
سأترك الزمن يهرب .

* * *

الشعر كالمرأة ، يهجرك حين لا تعصر له قلبك .
الويل ، اذن ، للقلب الذي ينضب .
وليس ما ينضب القلب كالتعقل . فحذار ، ايها الشاعر (او ايها العاشق) ان تفكر !
اللعب بالجمال ، كاللعب بالنار . كلاهما يحرق ، لأن كليهما يطهر .
وفي صناعة الشعر ، كما في صناعة الحب ، عليك أن لا تفكر فتقي نفسك من الحريق .
احترق . دع رمادك يدخل العيون .
دعه يحتضن الشرر المتطاير من عروق الالهة .
الشعر ، الحب ، ماذا لنا غيرهما ، هما واحد ، نعم ـ كما ان الحارق والمحروق واحد ، كما ان الشمس ونورها واحد ، كما ان الجسد والروح واحد .
وكما ان الموت والحياة واحد .

* * *

زارني امس صديق مهموم بثروته . عينه دائما على السوق ـ على الأخبار ، على « هذا طلع ، وهذا نزل » .
كنت في عالم ، وكان هو في عالم آخر .
وعبثا أريته من دون أن يلحظ ، حذائي المهترىء وسترتي التي باض عليها الزمن وفرخ .
كان معه ابنه ـ صبي حلو في العاشرة .
اضفته ركوة من القهوة . ومن شدة نزفرته دلق بعضها على بساط الغرفة العتيق .
ثم نهض مودعا . لحقته الى الباب وانا اقول له : « بع ثروتك وتعال نجمع الحطب اليابس في أرض البستان ، ونخزنه ليوم البرد . هل رأيت اجمل من حطب يابس يحترق في موقد ؟ » .

ولكنــه ، حين اوشك ان يغيب عن مسمع اذني ، صاح : « اتذهب الليلة الى الستيريو ؟ »
فأجبت صائحا أيضا : « نعم ! »
أتراه سمعني هذه المرة ؟

* * *

في الصباح خرجنا من مدفئنا .
وفيما نحن نهبط الجبل ، عوى كلب على حافة الطريق . كان يتشمس .
وقالت حبيبتي : « ليتنا بقينا حيث كنا » .
وهززت برأسي .
ثم قالت : « السماء رمادية ، فالمطر لا بد أن ينهمر بعد حين » .
وهززت برأسي .
وساد الصمت لحظات . ثم سمعتها تقول : « هل نعود غدا ؟ » .
واخذت اسرع .. أين شوكتك يا موت ؟
وفجأة تذكرت شيئا ، قلت : « البحر ، اتحبين انت البحر ؟ » .
وكانت الغيوم السوداء قد أخذت تتجمع . وبدأ المطر يتساقط . وما ان وصلنا بيروت ، حتى طقت قلوبنا من القهر .
وفي بيروت قلت لحبيبتي : « لنبق معا حتى ينتهي الحزن » .
وعلى درج بيتها افقت من غيبوبتي .
وفي لحظة كنت على رصيف الشارع ، وحدي . المطر ينهمر وانا كعمود الكهرباء .
دع الموتى يدفنون موتاهم ، قلت في نفسي .. لن ابيع ثروتي واتبع احدا .
وفيمــا انــا اغــرق في المطر ، صاحت حبيبتي من الشباك ، فوق ، تدعوني الى الرجوع .
وها انا هناك أرقص في فراغ الدفء . السكون اثقل من الكف على ظهر أجرب .

- ٥ -

احب هذه المرأة .. أعبر اليها راكعا كل لحظة . أعدها برؤوس اصابعي .
انها ثلاثون من الفضة . تشنق صاحبها بذنب كلب .
رحم الله يهوذا .

* * *

عشيقتي ماتت من الوهم . سألتها ذات يوم : من أنت . ولما لم تجد جوابا ، سقطت كالخرقة .

* * *

الفن يقلد الطبيعة ، قال ارسطو . وحين دالت دولة ارسطو ، في آخر هذا الزمان ، قيل لا . الفن يخلق الطبيعة من جديد .
على رأسي . كنت حتى البارحة اعتقد هكذا . اما اليوم ، فلا . الطبيعة كما خلقها الله ، لا يطالها ابداع انسان .
اتريد دليلا : ضع يدك على خاصرتك .
لذلك صرت قابلا للعلم . اجلس عند قدمي الطبيعة كتلميذ .
تأملت يدي ذات مرة : رأيتها بسبع اصابع . كيف هاتان الاصبعان الزائدتان ؟
كان ذلك في الليل . واذا اصبح الصباح ، تأملتها ثانية بقلق : اصابعها لم تتجاوز الخمس .
وقلت لنفسي : اخطأت ، ليلة البارحة ، في العد . ام ترى كنت زائغا ؟
« الحرف يقتل ، اما الروح فيحيي » .

* * *

نسجد امام الحزن ونتهيب . أما امام السرور ، فنزم اردافنا ونرقص .

* * *

العمر له حق . نشيب شعرا ، فنشيب كذلك قلبا . او هكذا اظن . الا العقل ، فهو كريق الحبيبة ، يطيب مع كثرة الحب .

لكنه ـ يجب أن لا ننسى ـ يخرف.

* * *

أحضنها فأشم رائحة الثلج .
بيضاء هي ، كوردة طالعة في صنين .
ودافئة : جسدها عسل بشهد .
وفي الليل اغفو معها واصحو . الدقائق حصى تحت حوافر الخيل .
تقول : ضمني اليك ، ضمني . فافعل : احسني اقترب من النهاية .
ضمني اليك ، ضمني . السيل يصعد القمة ، يصل . الآهة تخترق جدار الصمت ، تموت على شفة الهاوية .
ضمني اليك ، ضمني .
ونبدأ ليلتنا من جديد .

* * *

الجموع تحتشد في الساحات . اما المطلوب فواحد .

* * *

مصائب الانسان كثيرة . أهمها أخذ الدنيا بجد .
لا اعني الجد تماما ، بل التزمت .
من ذلك اننا ، هنا في لبنان ، نعبس حيث يجب ان تتمزق جلدة وجوهنا من الضحك .
شهدت ذلك مرارا . واكثر ما شهدته ، في عرس جارتنا العانس .
كانت مبودرة ومحمرة . وكان الكحل حتى اذنيها الصغيرتين كقرش الفقير .
وكانت تقف ، بجانب عريسها الملتوي ، كعمود من الدخان الابيض .
لم ار كعب كندرتها . لكنني اؤكد انه كان مائلا الى الخلف .
ذلك ان انفها ، من شدة الزحام ، فات بين خديها المنكمشين وفمها الاعزل .
مع ذلك سيطر العبوس . كان الحضور يفكرون بأشياء اخرى ـ ربما بنسائهم !
ولكن القاعة ، حين خرجوا ، طقت من الضحك . كنت واقفا وحدي . فشمرت عن ساقي وهربت .
وفيما أنا راكض ، داست فوق جمجمتي تاكسي .

يبست لصاحبي شجيرة . حزنت عليها كثيرا ، وعليه حزنت أكثر .
كانت نبتة بستانه الاولى . وكانت ناجحة . منظرها حلو ، وطعمها احلى .
وحين صافحته أول أمس معزيا ، أحسست ـ من طراوة يده ـ ان في قلبه بقية سر .
كان رجلا امام الحياة ، فصار رجلا امام الموت .
بعد الآن ، سينحني قليلا على النبع . يطوي ركبتيه ويشرب بملء . وسيحيا .
وهـذه الشجيرة الغالية التي يبست أمس ، ستحيا معه . وستكون الكل الذي هو بعضه .
وسنرى بستانه وارفا بالاشجار ، مثقلا بثماره الشهية .
ومتى سيدعونا ، سنسرع اليه : نتفيأ ونأكل ونفرح كثيرا .

■ ٦٠ ■

كان كثيرا على الدنيا . كان كصخرة تتدحرج على السفح ، تسرع كلما اقتربت من الوادي . لذلك كنا نمسك بقلوبنا وننتظر .
وما طال انتظارنا : جاءت النهاية مع الصباح والرعد والمطر . جاءت من الفضاء . جاءت من البحر .
وجاءت بغتة وبعنف .
لهذا آلمتنا .
كانت ستؤلمنا كثيرا ، حتى لو هي جاءت في حينها . لكن ألمنا ، لو هي جاءت في حينها ، ليس كألمنا الآن : ذلك ينسى ، وهذا يبقى الى الابد .
كان دائم الحضـور . كنـا غير قادرين على ان نتصور كيف يكون غيابه . لذلك كنا ، نحن واياه ، في حلم .
والبارحة ، حين هوى في البحر ، هرعنا وراء الخبر مكذبين . واليوم ، وفي كل يوم ، لا نصدق . سنلقاه هنا وهناك وهنالك . بل نحن معه الليلة على موعد .
عرف النـاس منـه وجهه الضاحك . كان وجها ماهرا في الضحك . ولفرط مهارته ، اخفى وجهه الآخر ـ وجهه الحقيقي .
كان وجهه الحقيقي وجها باكيا ككل الوجوه . بل كان أبكى ، عاش

المأساة باخلاص . وكالوزنات الخمس ، دفنها في نفسه ورقص على قبرها .

وكان العالم واقفا يتسلى . وحده كان يتسلى .

وكان هو يقول : « لا تخبر سرك للناس . دعهم حائرين ، متسائلين ، متحرقين . ذلك يخفض من قدرهم ويرفع من قدرك » .

بعد نمر عبد الفتاح طوقان ، لم يعد شيء كما كان . كل شيء صار تساؤلا ، وحيرة ، وحسرة . صار ريبة . صار دعسة ناقصة .

نعم ، سيتابع كل منا طريقه . سيتابعه كما لو لم يحدث شيء . او هكذا سنتوهم .

وسنجد لأنفسنا العزاء . سنجده في صغائر الامور . لأن في صغائر الامور ، لا في عظائمها ، تصغر الحياة في أعيننا ويعظم الموت .

منذ الفاجعة وأنا أترنح . لم تعد ساقاي تحملانني . قلت لاخي ليلة العرس : « ايحيا الموتى الى الابد ؟ »

زهرة البنفسج أخذت ترقص . قامتها قصيرة كحبل الفرح . من يقول في حديقة الملك افعى ؟ صاحبتها البارحة فلدغت قلبي . قالت : « لا تذع السر لاحد . لن يخفق قلبك ، بعد الآن ، إلا لي » .

وصدقتها .

كنت رجلا ، آنذاك . كانت يدي ترتجف . وشفتي بلا صلاة .

وقلت لهذه المرأة بقربي : « صدقت . ضعي فمك علي . الهثي . قولي شيئاً . اضطجعي . صدري مدينة مفاتيحها في يدك . طروادة اخذت بخدعة »

وصاح الغراب : « ماتوا ولم أجد جيفة على اليابسة » .

وها أنا أصعد . الأزهار نائمة في حديقة الملك ، وها أنا ما ازال أصعد . كفاي مسمرتان ، وها أنا ما أزال أصعد . ببطء ، ببطء أصعد . الغبطة سلاحي الكاذب .

ومنذ الفاجعة ونحن نركض مع الريح والاحلام الميتة . ونحن نتوجع . ونحن نغرز عيوننا في الفضاء والبحر . ونحن نحوش الرعد والمطر . لم تعد لنا الكلمة . لم يعد لنا الصوت والحركة وصمت الاجنحة . لم يعد لنا غير السواد الآسن المقيم .

كم ستثقـل دروعنـا . كم ستهلث تحتنا جياد الدقائق . كم ستكل سواعـدنـا من الضرب . كم ستخور عزائمنا ونتمنى الموت . آه ، وكم سيجوع النهار بنا ، فيظلم قبل الاوان .

ومنذ الفاجعة ، والعمود مائل على جانب الطريق . وهناك ، في الساحة الصغيرة ، عجلات واقفة تنتظر .
كانـوا اربعة فصاروا كل لبنان . حتى في القفار والمجاهل النائية ، سقط المطر وسمع هزيم الرعد .
ونحن كذلك كنا قلائل ، فصرنا أكثر من الرمل . حتى على جمجمة الليل نبتت نرجسة .

الخمر سيفسد بعد نمر عبد الفتاح طوقان ، وستستحي الشفاه ان تتلامس . ولن يكون لنا بعده الا دقائق عارية من كل مسافة . سنقف في مكاننا كالمسامير ، وسنحدق في الارض كما لو انها جرح يابس .
وسيقول بعضنا لبعض اشياء كثيرة بغير كلام . وسيفهم بعضنا على بعض تمام الفهم .
وسنختصر كثيرا . فالكلام يكون ابلغ حين لا يخرج ، بل ييبس في الحلق .
نعم ، كان نمر عبد الفتاح طوقان كثيرا على الدنيا . وكنا نتوقع له هذه النهاية ، ولكن ليس بهذه السرعة ، كنا نريده ان يبقى معنا حتى ننتهي كلنا معا .

٣

في النّاس والأشياء

١ السائح والترجمان

في الثلاثينات، ظهر لتوفيق يوسف عوّاد مجموعات قصص «الصبي الأعرج» و «قميص الصوف» و «العذارى»، و «رواية الرغيف».
ومع أنه سكت ربع قرن، ظلّ رائد القصة اللبنانية وواضع حجرها الأساسي.
فقصص توفيق يوسف عوّاد قصص بالمعنى الصحيح. فلا هي ريبورتاج، ولا هي قصائد ركيكة منثورة، ولا هي سرد واقعة حال. انها اسلوب مشرق، وغوص الى أعماق النفس، وحياة تدبّ في الأشخاص. وهي مزايا تجيب بالإيجاب على سؤال رئيسي يمتحن كل قصة: هل هي مقنعة ؟
وحين عاد توفيق عوّاد الى الكتابة، عاد بنتاج يتساءل هو نفسه اذا كان مسرحية، ويضيف: «اذن تمنيت لها ممثلين على مستوى الآلهة الذين في الإنسان. وهم، على كل حال، أعظم من آلهة بعلبك».
وسواء كان هذا النتاج الجديد فناً مسرحياً أو غير ذلك، فهو نتاج أدبي على كل حال، توخّى فيه المؤلف أن يعبّر لنا عن تجربة حسبها من الفرادة بحيث تستحق التعبير.
فما هي هذه التجربة، أو هل هناك تجربة، وهل توفّق المؤلف الى التعبير عنها؟
السائد، في النقد المعاصر، أن التجربة لا تنفصل، في الأثر الأدبي أو الفني، عن أسلوب التعبير عنها. فهي ذات قيمة أدبية بقدر ما هي أسلوب يثير فينا العاطفة التي بفضلها «نصدق» التجربة على علّاتها، سواء كانت خطأ أو صواباً في الواقع. فهي، اذاك، تتجاوز الواقع العقلي الى اللاواقع الحدسي لتجد فيه التآلف الذي هو المعنى الحقيقي وراء كل معنى.
وبكلمة أخرى، فما العمل الأدبي مجرد تعبير عن أفكار. إنه أسلوب

يستخدم الكلمات والرموز والصور والاستعارات لإثارة العاطفة وتكثيفها بحيث «نـرى» الأفكـار، لا بعـين العقل، بل بعين المخيلة. نراها شيئاً محسوساً ملموساً، شيئاً نابضاً حياً يفاجئنا ويدهشنا، شيئاً ينتقل إلينا من وراء المألوف والظاهر ليعيش معنا في اللحظة، وليعيش الى الأبد.

فماذا نجد في « السائح والترجمان » ؟

نجد أن العمل الأدبي مسخّر لأداء أفكار. هم أداء هذه الأفكار بأية وسيلة. وهي أفكار مألوفة عن موضوعات مؤلفة: التاريخ، المرأة، الحب، الخيانة والأمانة، الخير والشر، المعرفة، الموت والبعث، الفرد والمجتمع، الخ..

كانت هذه الأفكـار الجليلة عن هذه المـوضـوعات الجليلة تكون في محلِّها، لو عبّر عنها بمقالة، أو خطاب، أو بحث. أما وقد اتخذت سبيلها إلينـا بأسلوب أدبي، بمسرحيـة أو ما يشبـه المسرحية، فكان أولى أن تتجسّـد في سلوك أشخاص هذه المسرحية وفي أقوالهم المثيرة والمكثفة لعواطفنا، فنلمسها ونحسّها بقلوبنا لا بعقولنا. وبذلك تفعل فينا ويكون لها معنىً لنا.

فرأي النحات، مثلا، ان الإنسان «لم يولد ليكون بالإمكان أن يموت» رأي اذا أطلق هكذا عارياً بارداً كعواميد بعلبك نفسها، يثير العقل الى الجدل، بدل أن يثير العاطفة الى التصديق. وحين يثار العقل الى الجدل، يقضي على العمـل الأدبي والفني كعمـل أدبي فني. فيصبح أطروحة، يصبح خاضعاً للخطأ أو الصواب، للرفض أو القبول.

فالمشكلة اذن، في «السائح والترجمان»، كما في أكثر نتاجنا العربي، هي في المفهوم القديم للعمل الأدبي أو الفني، هذا المفهوم الذي لا يزال سائداً عندنا والذي لم يعدم له أنصاراً في الأوساط المدرسية في كل مكان. وهـو ينـظر الى العمل الأدبي والفني كتجسيد لأفكار رؤيت في الذهن واتخذت من أشياء العالم «بديلا موضوعياً» لها. وبكلمة أخرى، فالعمل الأدبي أو الفني هو العمـل الذي يسخّر الأسلوب لتأدية أفكار ذهنية منفصلة عن تجربة الأديب أو الفنان.

على أن في «السائح والترجمان» لمعات إبداعية، خصوصاً في حديث التـرجمـان عن المغزى في معرض الرد على ماهية التاريخ، وفي حديث النحّـات عن الآلهة والعمود المكسور. وهي لمعات تشفع بهذا الحديث

الأدبي وتبرره.

ومهما قيل، فتبقى عودة توفيق يوسف عوّاد إلينا، الى الأدب، عودة من لم يفقد مكانه، عودة القائد المصمم على فتح جديد.

٢ نحو لغة عربية حديثة

عندما كتبت عن نهضة المسرح اللبناني رابطاً مصيرها بشرط إيجاد لغة مسرحية على أساس اللغة الحديثة المَحْكيّة، لا اللغة القديمة المكتوبة، تحرّك الدم في بعض العروق. فدعى أنسي الحاج في ملحق جريدة «النهار» الى الإقلاع عن استعمال اللغة «الميتة» (كلغة محكية حية) على الأقل في التلفزيون. وبلغ التأييد حد التفكير الجدّي بتمثيل مسرحية لكلوديل أو جورج شحاده أو سواهما مترجمة الى اللغة المحكية. بقي أن ينجح النموذج. إذ ليس من السهل تحويل اللغة المحكية الى لغة أدبية مكتوبة. فمسرحية «السفر»، كما ترجمها الأب يوحنا الكوكباني الى اللغة المحكية، نموذج ناقص، على ما فيه من جهد وبراعة. فنجاح النموذج اللغوي ضروري لنجاح المحاولة. وهذا ما يجب أن يجعلنا حذرين من الإساءة الى ما نعتبره أساس نهضتنا، لا في المسرح وحده، بل في مختلف فنون الأدب.

فقد سبق لسعيد عقل أن قدّم نموذجاً ناقصاً سواء في كتابة اللغة المحكية أو في حرفها اللاتيني، فأساء الى الموضوع من حيث لا يدري. ولا عجب، اذن، من هذا الإعراض الكاسح عن الأخذ بنموذجه. فالمحتوى ليس وحده الأهم، كما يقول يوسف حبشي الأشقر، بل التعبير أيضاً. فاذا كان أسلوب التعبير قديماً، فلا بد من أن يكون المحتوى كذلك.

وهنالك، عدا المسرح، نوع آخر من أدبنا تؤثّر فيه اللغة القديمة تأثيراً مخيفاً. أعني به أدب الصغار. فأدب الصغار، كالمسرح، يحاول النهوض لمواكبة نشاطاتنا الأخرى. بعد حسن كامل الصيرفي في مصر قطعنا، في هذا الميدان، بعض الشوط. فمن يقرأ حسن كامل الصيرفي اليوم، أو سواه من أعلام أدب الصغار في ذلك الزمان، لا يتمالك من الحزن. ألفاظ يعجز الكبار عن فهمها إلا بقاموس. تعابير وكليشهات بيانية ميتة، أين منها وسائل ابن المقفع. مواضيع صفراء عتيقة كجراب القاضي.

ولكن الشوط الذي قطعناه في السنوات الأخيرة لا يقدّم أو يؤخر في بلوغ الغاية، ما دام أعلام أدب الصغار في هذا الزمان يستعملون اللغة القديمة نفسها. التبسيط في المفردات لا يحل المشكلة. فالطفل، حتى

الثالثة عشر، يظل بحاجة الى ترجمان ينقل اليه ما يقرأ في مجلة أو كتاب. هذا اذا عرف أن يقرأ. من له أولاد يعرف تماماً ما أقول.

غاية أدب الصغار تسليتهم وإفادتهم وتعويدهم على المطالعة. أما الذين يؤلفون في هذا الأدب اليوم، فما زالوا يتوخون غاية أخرى: تعليم اللغة. فكأنما ما يتعلّمه صغارنا عنها في المدرسة لا يكفي. فنرى هؤلاء المؤلفين يستعملون التعابير والألفاظ القاموسية التي خرجت من الحياة، وكان في إمكانهم استبدالها بتعابير وألفاظ، هي قاموسية أيضاً، لكنها تدور على اللسان. فلماذا لفظة «ذهب» لا «راح»، أو «ذات مساء» لا «مرة في المساء» ؟ ولماذا «ليس لديّ مال» لا «ما عندي مال»؟ أو «أذهب مصعداً في الجبال والآكام باحثاً عن فريسة» لا «أصعد الجبال مفتشاً عن فريسة»؟

هذا عدا الركاكة والحشو، واللف والدوران. وهو ما تعير اللغة القديمة نفسها اليه براحة واطمئنان.

ولكن مهما بلغ التبسيط باللغة القديمة، تبقى غريبة على الصغير. لذلك ينصرف، بعد محاولات يائسة، عن قراءة المجلة العربية والكتاب العربي الى قراءة المجلة الأجنبية والكتاب الأجنبي. ففي المجلة الأجنبية والكتاب الأجنبي يقرأ ليفهم، أما في النص العربي فيفهم ليقرأ.

وهكذا يخاصم الكتاب العربي أولادنا منذ صغرهم فيعرضون عنه الى الكتاب الأجنبي. فلا عجب أن تكون صناعة التأليف والنشر عندنا هزيلة لا تشجّع المؤلف على التأليف أو الناشر على النشر.

وكم يكون طريفاً ومؤلماً معاً لو يقوم أحدنا، من الذين يعشقون الإحصاء، فيتحقق لنا بالأرقام عن نسبة قرّاء العربية الى عدد السكان العرب من «المحيط الى الخليج»، بالقياس الى نسبة قرّاء الفرنسية مثلا الى عدد سكان فرنسا.

والخلاصة التعيسة هي أننا شعوب لا لغة حية مكتوبة لها. اذن لا أدب لها. اذن لا قرّاء فيها. ولولا اعتمادنا على معرفة اللغات الأجنبية لكنّا أيضاً بلا ثقافة.

موضوع اللغة يثيرني الى أقصى حد. كيف أن الذين يبصرون أعوص مشاكلنا لا يبصرون هذه المشكلة. كيف أنهم يقبلون بهذه الازدواجية السخيفة في لغتهم، فيكتبون بلغة ويتكلمون بلغة. يفعلون هذا، أحياناً

كثيرة، بنفس واحد. فيلقي المحاضر محاضرته، أو المعلم درسه، بلغة عربية قديمة (يقال لها فصحى)، فما أن ينزل عن المنبر حتى يخلعها عنه، كوجبة الأسنان، ليعود الى طبيعته بلغة حديثة لا عيب فيها إلا أنها تريحه من أثقال النحو والإعراب.

وقد بلغ من طمر الرأس في الرمل، أننا نتناول بلغتنا الحديثة، جميع المواضيع الفكرية والأدبية. فما أن ندعو الى كتابتها حتى تقوم الصيحة: فهي لهجة، وهي ركيكة، وهي لا تستوعب الأفكار العميقة، وهي خطر على التراث العربي والوحدة العربية، وهي مؤامرة استعمارية، وهي الخ..

العقل الناهض والروح الناهضة لا يقفان في وجه الحياة وتطورها، بل يسايرانها. وإلا، فما معنى النهوض ؟ إلا أن يدرك العقل والروح جمودهما ازاء حركة الحياة، فينهضا للحاق بها ؟ والحياة العربية، من ناحية اللغة، كانت دائماً في حركة، فأوجدت هذه اللغة التي نحكيها في طول الوطن العربي وعرضه. وهي لغة حية، متطورة، طرحت عنها القواعد القديمة المرهقة واتخذت قواعد حديثة سهلة بسيطة كافية للفهم والتفهيم. لا إعراب، ولا ضمائر إلا ثمانية، ولا أسماء موصول إلا واحدا، ولا أسماء إشارة للقريب إلا واحدا وللبعيد إلا اثنين أو ثلاثة.

اللغة القديمة تجمع بين الأقطار العربية، نعم. ولكن على مستوى المتعلمين لا على مستوى الشعب. ولكن على حساب أدب حديث بلغة حديثة. ولكن على حساب ثقافة تتناول الصغير والكبير على السواء.

في الجاهلية، كان للعرب لهجات متعددة، وكانوا يكتبون بها. ولكنها توحّدت جميعها في لغة أدبية مكتوبة حين نزل القرآن بإحداها.

واليوم نحن أشبه ما نكون، في تعدد لهجاتنا، بالجاهلية. بقي أن ننتظر كتاباً ينزل، أو مؤلفات تكتب، بلهجة واحدة تصبح هي اللغة الأدبية المكتوبة للعرب أجمعين.

وقد يطول بنا الجدل في هذا الموضوع الخطير. وقد يضيع الوقت في التفتيش عن حل. والحل معروف. انه النموذج الصالح.

وبانتظار هذا النموذج، لا بد لنا إلا الاستمرار في التعبير باللغة الوحيدة الموجودة: اللغة العربية القديمة.

٣ لا مسرح بغير لغة حديثة

بعد الرسم والنحت والعمار والقصة والشعر، أخذ المسرح اللبناني يتلمّس طريقه، عربياً وفرنسياً وأرمنياً. فالخيط الذي انقطع، أو كاد، منذ مارون النقاش ينوصل من جديد على أيدي منير أبو دبس، وأنطوان ملتقى، وجلال خوري، وفازيليان، وسواهم من المخرجين والممثلين، وجورج شحاده، وأنطوان معلوف، ومن قبلهما سعيد تقي الدين وفريد مدور، من المؤلفين المسرحيين. ثم هنالك الترجمة عن شكسبير وسارتر وسواهما.

لمهرجان بعلبك بعض الفضل المباشر. فبرعايته فرقة المسرح الحديث لمنير أبو دبس، وبإنشائه جائزة سنوية للمسرح، مع إمكان تمثيل المسرحية الفائزة في هياكل بعلبك، أثار المواهب الكامنة وفتح لها المجال. حتى توفيق يوسف عواد، الذي عرفناه قاصاً بارعاً، يعود الينا، بعد ٢٥ سنة من الصمت الديبلوماسي، بمسرحية «السائح والترجمان». وكان أن بلغ بالجيل الطالع الاهتمام بالمسرح حد انشائهم «المسرح اللبناني المعاصر» باللغات العربية والفرنسية والأرمنية.

نعم، لمهرجان بعلبك بعض الفضل المباشر. أما الفضل العميق والحقيقي فيعود الى نهضة الرسم والنحت والعمار، ثم الى نهضة الشعر والغناء الفولكلوري والرقص، في السنوات العشر الأخيرة. فالمسرح لا يمكن أن يكون إلا تابعاً لهذه الفنون الرئيسية. ذلك لأنه يعتمد عليها جميعاً في الديكور والتأليف والإخراج. فهي فنون متشابكة، متحالفة، والدليل أن المسرحيات التي تمثلت حتى الآن وجدت في مواهب بصبوص، والريس، وهرير الفنية سنداً قوياً. كذلك كانت حالها، في التوجيه والنقد والمحتوى، مع أنسي الحاج، وشوقي أبي شقرا، ونزيه خاطر، وجلال خوري، وكريستيان غازي، وهاني أبي صالح، وسواهم.

ولكن المسرح اللبناني لم يجد طريقه بعد، لأنه لم يجد لغته. فحاله، في هذا، كحال الشعر وفنون الأدب الأخرى.

فما دام المسرح اللبناني (والأدب عموماً) يستعمل اللغة العربية القديمة، لا الحديثة (أي المحكية)، يظل مصطنعاً ومقهوراً. أعني يظلّ

قديماً لا حديثاً. يظل لا معاصراً إلا في الزمن. واذا كانت اللغة القديمة تجوز، حتى الآن، في أي لون أدبي، فهي لا تجوز في المسرح. فالمسرح يحكى ولا يقرأ. لذلك كان عيبه في أن لا يحكي ما يحكي أشد من عيب الفنون الأدبية الأخرى في كتابة ما يقرأ. ثم ان المسرح هو الحياة، أو جانب منها، يمثل على مسرح. والحياة، أو أي جانب منها، يجب تمثيلها على المسرح بلغة الحياة.

كل لغة أخرى هي اصطناع وزيف. وما لم يجد المسرح اللبناني لغته ـ ما لم يتجرّأ على اعتماد لغة أدبية مسرحية على أساس الكلام المحكي ـ فلا نستطيع القول ان المسرح اللبناني وجد طريقه تماماً، أو حتى أنه موجود بالفعل.

أنطوان ملتقى يقول: «لا اعتراض على ذلك. إنما أوجدوا لنا، أنتم الأدباء، هذه اللغة الأدبية المسرحية. والى أن توجدوها لناً، لا مهرب من اعتماد اللغة الأدبية القديمة، لأنها الوحيدة.»

هذا الموقف صحيح، لكنه لا ثوري. الموقف الثوري، في مرحلة نهوضنا الراهن، هو الذي يرفض ما هو كائن ليوجد ما يجب أن يكون.

وسيأتي يوم يثور فيه المسرح اللبناني. هؤلاء المشتغلون به في هذه المرحلة، من مؤلفين ومخرجين وممثلين، هم جسر لا بد منه لعبور ثوار المستقبل القريب أو البعيد. وقربه أو بعده رهن بقرب أو بعد العقل اللبناني (أو العقل العربي عامة) عن التحرر الكامل من الماضي وقوالبه السهلة الجبانة.

وحين يعبر ثوار المستقبل، في المسرح كما في فنون الأدب الأخرى، الى ضفة العصر الحديث، يصبح عندنا أدب (ومسرح) لبناني عربي حديث، بلغة لبنانية عربية حديثة.

٤ الثقافة في المجتمع التجاري

في المجتمع التجاري ترقّ الكثافة الثقافية، وإلا فلا يكون المجتمع تجارياً. ومن مظاهر ذلك:

أولاً، لا غذاء للعقل والروح. فما أن يلمع المفكر أو الأديب أو الفنان حتى يخبو: يصير تاجراً بفكره أو أدبه أو فنه. وهكذا تموت الأحلام الكبيرة ولا يبقى إلا أشلاؤها المحطّمة على الأوراق الصفر.

ثانياً، لا وجود للمؤسسة بمعناها الحضاري. فاذا وجدت لا تعيش طويلا. ومعنى المؤسسة الحضاري هو أنها هيئة تقام لغاية عمومية لا خصوصية. فيكون لها كيانها المستقل عن الأشخاص الذين أقاموها. لكن المجتمع التجاري لا يفهم ذلك. فهو يربط كل هيئة تقام بالذين أقاموها، فتبقى، ربما، ببقائهم. ثم تزول، أكيداً، بزوالهم.

ثالثاً، لا تمييز بين الجيد والرديء. فما أسهل ما ينقلب الرديء الى جيد والجيد الى رديء بعامل النفع. فالنفع يطغى على كل قيمة. لان القيمة لا وجود لها بحد ذاتها. وجودها أو عدمه يقاسان بالربح أو الخسارة. أي أن ما يجيء بربح فهو جيد، وما يجيء بخسارة فهو رديء.

رابعاً، لا بطولة. البطولة حماقة وقلة عقل. من أخذ أمك فهو عمك. جانب السلطان واحذر بطشه. محل ما بيعبدوا العجل حش واطعمه. لا تنام بين القبور ولا تبصر منامات. الحيط الحيط وقول يا رب السترة.

خامساً، لا حرية. اذن، لا كرامة. اذن، لا حقيقة. اذن، لا انسان. الحرية، لماذا ؟ خذ حريتي، يقول التاجر، وأعطني قرشاً. بالقرش يصير ثمني قرشاً، أما بالحرية فماذا يصير ؟

بالإمكان الإسهاب في تعداد مظاهر المجتمع التجاري، عديم الكثافة الثقافية. ولكن كلنا نعرفها، مظهراً مظهراً هنا، في لبنان. فنحن نعيشها. وهي جزء منا. بل هي نحن. وقديماً فضحنا أفلاطون حين قال: «أما الفينيقيون فأهل تجارة».

أقول ما أقول وصفاً لواقع. ما كان قد يبطل ان يكون. الصيرورة، كالكينونة، حقيقة أزلية.

من هذه الشرفة نتفاءل.

فالمجتمع اللبناني، وقد تكثّف تجارياً (في لبنان، كم مصرف ؟) وازدهر عمرانياً (كل يوم بناية جديدة)، فلا بد من أن يلتفت، عاجلا أو آجلا، الى جوعــه الروحي والعقلي. الجسد يشبع. وهو ما أن يشبع حتى يقرف. وليس كنتــاج العقــل والروح ما يزيــل القــرف، ويبهج النفس، ويعيد الإنسان الى إنسانيته.

٥ الحوار الأخرس

حين قرأت ليلى عسيران في «لن تموت غداً» أشفقت على هذه الموهبة القصصية من أن ترزح تحت ثقلين: ثقل الحساسية المفرطة، وثقل الأفكار المستبدة بالأسلوب والبناء القصصي.

واليوم، وأنا أقرأ لها «الحوار الأخرس»، أجدني على الحال ذاتها من الإشفاق، مع فارق أساسي جداً: فسحة الأمل.

ذلك أن موهبة ليلى عسيران القصصية، وان تكن لا تزال تحمل هذين الثقلين، هي من العمق والقوة بحيث لم ترزح تحتهما. يكفي، في هذه المرحلة، عدم الرزوح حتى تعطى هذه الفسحة من الأمل بالخلاص.

مشكلة ليلى عسيران، كقاصة، هي مشكلة كل قاص عربي ذي وعي اجتماعي: تسخير القصة لعرض المشاعر والأفكار عرضاً سينمائياً مسطحاً.

القصة فن أدبي. لذلك كان من شروطها، كفن، أن لا تسخر لأي شيء وأن لا تستهدف إلا ذاتها. للمشاعر والأفكار قيمتها في العمل الفني. لكن هذه القيمة تهزم ذاتها اذا كانت هدفاً. فهي يجب أن تظل على الهامش ـ أعني يجب أن تستقطر كنتيجة. الأسلوب في الفن أهم من الأفكار والمشاعر. وإلا لماذا لا نقتصر على المقالة ؟ لماذا كل هذا العناء في صياغة شعر، أو بناء قصة، أو رسم لوحة، أو توقيع نغم، أو نحت حجر ؟

المشاعر والأفكار عند الأديب أو الفنان الحقيقي تأتي عفواً، تأتي مع الكلمة أو اللون أو النغم. وفي القصة تأتي أيضاً مع الشخصيات. الفن كله تصوير لا وصف. الفن الذي يصف فن فاشل، وفي القصة، أنت لا تصف الشخصيات بل تصورها، تصورها بالكلمات التي تحمل في طياتها المشاعر والأفكار.

وكم يطيب لي الاسترسال في هذا الموضوع لأن أدب وفن هذه الأيام، خصوصاً عندنا، يبتعدان عن غاية الأدب والفن الأساسية، وهي إبهاج النفس وتثقيفها بالمثال عن طريق العاطفة والمخيلة، ورفع الروح الى التطلّع ما وراء الظاهر والعادي والزائل.

قد يكون مرد هذا الابتعاد الى طغيان العقائد الاجتماعية، بدءاً

بالشيوعية. هكذا جاءت فكرة الالتزام. فما دامت المادة هي كل شيء ـ هي التي تنشأ وتتطور بذاتها، دفعاً وسلباً، خلال التاريخ ـ فأي قيمة لأدب أو فن لا يخدم هذا الإله الجديد ؟ وبما أن لا عالم غير عالم المادة ـ عالم الظواهر والحياة العادية، والزوال ـ فأي نفع في ما يتخيله الأديب والفنان من عوالم بهية مسحورة تلهي الإنسان عن عالمه الواقعي، هنا على الأرض ـ هذا العالم الذي لا أمل بتحقيق العدالة فيه الا بكدن الرقاب، بعضها ببعض، تحت نير الكد والجهد والجماعية. فالله ذاته قد مات.

هذه مرحلة لا نزال نجتازها. ليس بيننا ـ بين البشر جميعاً ـ من لا يريد أن يشيل الزير من البير، من لا يريد أن يجعل الحياة أعدل وأرحم وأهنأ. لكن هناك طريقتان: طريقة تقتل الزير وهي تشيله، وطريقة تحرص على أن تشيله حياً، حتى لو لم تنجح (مع أن الأمل موجود دائماً). إذ ما الفائدة من شيله ميتاً ؟

في «الحوار الأخرس» مشاعر نبيلة وأفكار عريقة. فليلى عسيران أديبة موهوبة، رهيفة الحس، مثقفة تعشق التأمل والتفكّر.

لكن هل في «الحوار الأخرس» قصة ؟

الأدب الإبداعي، كالقصة، صراع بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، بين الظاهر والخفي، بين المثال والواقع. هذا الصراع يحتدم ويتأزّم متخذّاً الأشكال المختلفة التي تجتمع كلها تحت ما نسميه «بالأسلوب»، وهي تشمل الأنواع الأدبية جميعاً.

ففي القصة يتخذ هذا الصراع شكل السرد، متوسلاً شخصيات القصة، حريصاً على أن تكون هذه الشخصيات وأفعالها وأقوالها والأحداث التي تصنعها أو تواجهها مقنعة. ولكي تكون مقنعة يجب أن تكون، رغم أنها في الغالب من نسج المخيلة، صادقة ـ أي منتزعة من صميم الواقع.

اذن، فالشخصيات بما يصدر عنها ويدور حولها هي وسيلة القصة الى بلوغ غايتها. وما غايتها إلا أن تكون قصة. فلو كانت غايتها غير أن تكون قصة، أو أن تكون قصة إنما لغاية أخرى تتجاوزها، عندئذ تخون ذاتها خيانة لا تؤدي بها إلا الى الفشل.

فالقارىء، حين يريد أن يقرأ قصة، يريد أن يقرأ قصة لا شيئاً آخر. وهو يدرك، بعقله أو بحدسه أو بالاثنين معاً، اذا كان الكاتب مخلصاً

للقصة التي يكتبها أو أنه يسخرها لغرض آخر. قد يحب هذا الغرض الآخر، لكنه لا يحب أن يقرأه هناك، في ما ادعى لنفسه أنه قصة.

فأين «الحوار الأخرس» من هذا كله ؟ أين صراع شخصياتها بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وصدق هذه الشخصيات في ما يقولون ويفعلون ويعانون، ولزوم القصة بلوغ غايتها في أن تكون قصة ؟

أولاً، صراع الشخصيات موجود، لكنه ليس بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون، وإنما بين ما هو كائن وبين ما هو كائن أيضاً. فما من شخصية بين هذه الشخصيات التي تعمر بها القصة تصارع مثالاً أعلى (أو قدَراً، كما في القديم) يتحدّاها فتقف مع الخير، أو تتحداه فتقف مع الشر. لذلك اقتصرت الأحداث والوقائع على ما جرى لفلان مع فلان أو ضد فلان.

وثانياً، صدق هذه الشخصيات مقنع. فهي موجودة في تجاربنا مع الناس أو معرفتنا بهم. وهذه فضيلة كبرى من فضائل «الحوار الأخرس». لكن هذا الصدق المقنع ظلّ مفتقراً الى إثارة حماستنا. ظل معلومات نضيفها الى مجموعة ما لدينا من معلومات، لكننا لا نختزنها في ذاكرتنا ومنها في شخصيتنا. إنها لا تغنينا ولا تدخل في تاريخنا.

وثالثاً، لزوم القصة في أن تكون قصة غير وارد عند المؤلفة منذ البدء. لا لأنها حاولت ولم تنجح، بل لأنها لم تحاول على الإطلاق. وهي في ما حاولت أن تحققه ـ أي عرض مشاعرها وأفكارها ـ حققته بنجاح. حتى أنك تنسى القصة وشخصياتها وأحداثها وتغرق الى أذنيك في هذا الحوار الرائع بين بطلي القصة، حول موضوعات الساعة ومشكلاتها.

لم أتناول «الحوار الأخرس» هنا لغاية النقد، كما أنني لم أقصد اليه هو بالضبط، وإنما شئت أن أتخذه نموذجاً لتسعة وتسعين بالمئة من القصص التي أبدعتها، حتى الآن، مواهبنا الطريئة.

٦ لبنان ديك رومي

التجديد لرئيس الجمهورية نريده ولا نريده.

فمن يوم الاستقلال ونحن كذلك. فلماذا لا نعود الى عهد الإمارة ؟

فما أحلى لنا من أمير، نصعد اليه الجبل فلا نعود نهبط الساحل (وما أدراك ما الساحل)، فنلقاه في قصره المنيف، فوق إحدى مطلّات هذا الجبل، تحرسه كوكبة من الفرسان الأشاوس، وتحف به نخبة من أصحاب الحل والربط، ذوي الوجوه الأصيلة المشرقة والشوارب المعكوفة. ان قال: لا، قالوا: لا، وان قال: نعم، قالوا: نعم.

نعم، أمير كهذا ما أحلاه لنا. فلا برلمان ولا مجلس وزراء ولا من يحزنون، وإنما بضعة ممثلين، عن كل طائفة ونقابة ممثل، يصلون الحاكم الأمير بالشعب، فلا يضرب أصحاب الزعامات نطاقاً من النفاق والدجل حوله، تنفيذاً لمأرب أو اكتساباً لمغنم.

ولكي لا تعلق التحزبات بين أصحاب الزعامات على من يخلف من، سينص دستور الإمارة (الذي يجب أن لا يتجاوز الصفحة أو الصفحتين) على أن تكون الخلافة لأكبر أعضاء العائلة سناً، حتى لو كان إمرأة أو شيخاً طاعناً في السن أو ناقص العقل. فخير لنا أن نعرف من سيحكمنا، ولو كان قرقاش، من أن لا نعرف ، فنتخبط في الحيرة، ونعلق اليافطات فوق الشوارع والأزقة، معتدين في تطريز بعضها على حرمة الشعر.

نعم، ما أحلى لنا من أمير. ما أحلاه لنا حين يطل من شرفة قصره المنيف في الجبل، فيرى بيروت تحت ناظريه كالكف، تشع في الظلام كحقل من اللآلىء، على خاصرة بحر يلتصق بالسماء. خصوصاً اذا كانت في رفقته سيدة (كالست جهان مثلا) تعرف من أين تؤكل أكتاف الرجال في السلم كما في القتال.

عندئذ نخلص من نريد ولا نريد التجديد، ونجلس تحت صنوبرة في الجبل، أو فوق فيراندا في المدينة، نحلم ونتأمل في هذا الكون العجيب.

عندئذ نرقص التويست والهولي غولي والدبكة، غير عابئين بما يحمله لنا المستقبل في جيبته اليسرى أو اليمنى من مفاجآت، لأن زمن المفاجآت

يكون ولّي مع هذه الجمهورية الراكبة على ثور ذي ٩٩ قرناً، في حين أن الأرض بأمها وأبيها راكبة، هنيئة سعيدة، على ثور ذي قرنين لا أكثر ولا أقل.

آه ما أحلى لنا من أمير!

وأنا أول القائلين بأن الله خلق لبنان وكسر القالب.

لكن هذا لا يمنع من أن يكون لبنان ديكاً رومياً: ينفش ريشه فيكبر أكثر مما هو في حقيقته.

وهذا لا يمنع أيضاً أن يكون لبنان غير متمدن: أعني غير متمدن كأي بلد أوروبي.

قال لي أنطوان معلوف (الحائز على جائزة مهرجان بعلبك للمسرحية) حين لقيته في حفلة الباليه: «أحاول أن أتذوق هذه الباليه. لا أفهم. أحس بالعرق يتصبب من جبيني من كثرة الجهد. يا أخي، الآن وحين عرضت مسرحية موليير منذ أيام، يجب أن نشعر بالتواضع...»

قال أنطوان معلوف أكثر من هذا عن قلة تمدننا. وأنطوان معلوف لم يشاهد البلدان المتمدنة بعد، فكيف لو كان شاهدها؟

أعرف مهاجراً جاء لبنان، ففلقوه بجودة مناخ لبنان. كان مصطافاً في إهدن. وبعد أيام عضّه البرد، فقرر النزول الى طرابلس. وفي الصباح، حين لبس ثيابه وأحس أقرباؤه بنيته على الرحيل، سألوه: «أين رايح، خير إن شاء الله؟» أجاب: «رايح صيِّف».

وحدث لهذا المهاجر ذاته أن تورّمت قدماه حتى لم يعد قادراً على المشي إلا عارجاً. فكان يجيب كل من يسأله عمّا به: «هيدا المناخ»!

لا أمزح: الله خلق لبنان وكسر القالب. لكن لبنان، بعد أن خلقه الله، صار كالديك الرومي.

لذلك لا نجد في حفلات مهرجانات بعلبك من الحضور إلا خمسة وسبعين بالمئة من الأجانب الذين يعرفون شو الطبخة، وخمسة وعشرين بالمائة من اللبنانيين يتوزعون بين حشري يريد الاستطلاع، وجاهل يريد أن يعرف، ومخلوق ليس ذي أجنحة يريد أن يطير بأجنحة من ورق العملة.

وهذا، كما ترى، مؤسف.

٧ عودة الى المجتمع التجاري

في المجتمع التجاري لا حرمة للرأي الحر. وهو قلّما وجد. فاذا وجد كان مضطهداً ومقهوراً، وكان صاحبه حماراً لا يعرف كيف يستفيد.

الرأي، أو الفعل، لوجه الله، لا يصدقه المجتمع التجاري ولا يصونه. فهو، اذ لا يصدقه، يرد غايته الى النفع. فأنت على هذا الرأي أو ذاك بقدر ما تنتفع. لذلك كانت الكلمتان المفتاحان في المجتمع التجاري: «القبض» و «الدفـع». لذلك كانت «المصلحـة»، أو «الفـائدة»، هي المحرّك الأول والأخير. فنسمع هذه العبارات تتردد: «شو مصلحتك»، أو «شو فايدتك من هالعمل ؟» أو «شو جاييك منه ؟». هذا اذا انتصرْتَ لرجل أو فكرة. فاذا كان جوابك: «لا شيء»، كنت حماراً، وكنت لا تستأهل غير الفقر والتعتير.

وهـو، أي المجتمـع التجاري، لا يصون الرأي أو الفعل لوجه الله، لأنهما شهادة عليه، وفضيحة، وتبكيت ضمير. إنهما يذكرانه بما يعتبره في قرارة نفسه فوق النفع والمصلحة، ومبرراً لوجوده. فهو لا يجد الحياة، رغم انبطاحه تحت جزمة المال، إلا سقيمة عقيمة لولا الفن الذي يبني بيـوت أبنـائه، ويزين جدرانهم، ويبهج عيونهم، ويطرب آذانهم. ولولا العلم الذي يهذّب عقولهم ويعينهم على الطبيعة، ولولا الأدب الذي يوصل بعضهم الى أعماق بعض. وبكلمة: لولا نتاج أصحاب الرأي الحر والفعل الحر، أولئك الذين يضطهدهم ويحرمهم ويقهرهم ويستحمرهم، وهم ـ في حقيقة الأمر ـ كل شيء.

٨ ذكرى شكسبير

يحتفل العالم هذه السنة، ونحن منه على ما نطمح، بالذكرى الأربعمئوية لمولد وليم شكسبير.

أدخل هذا الشاعر الى طريقة كتابة الشعر في زمنه فنوناً لم تعرف من قبل. فتصرّف في الوزن وفي القافية، وبسط آفاق التعبير الشعري وأغنى مفرداته. حتى يمكن القول بأن للمذاهب الشعرية اللاحقة، كالرومنسية، والرمزية، والسوريالية، جذورها الأصيلة في شعره.

كذلك ابتكر في فن المسرحية قواعد خرجت على المتوارث المألوف منذ سوفوكليس.

ثم انه كان إنساني النزعة، نافذ البصر والبصيرة الى أعماق الكائن البشري، فاهم مدرك لطبائع الناس، محيط أشد الإحاطة بواقع المجتمع وأسباب الخراب والعمران. حتى لأمكن الشك بانعدام وجوده، فبقي، الى هذا التاريخ، كما بقي هومر من قبله، معجزة الأدب التي لا تصدق.

أشخاص مسرحياته من لحم ودم، تتحرك على المسرح كاشفة للمشاهدين أسرار الموت والحياة. وهو من البراعة في تعرية دخائل هذه الأشخاص أن بعضها دخل التاريخ البشري كأنه وجد بالفعل: هاملت، عطيل، روميو وجولييت، مكبث، الخ.. كما أنه دخل المعارف البشرية كنماذج للحب أو البغض، للغيرة أو السماح، للطموح أو القعود، للصغارة أو الشهامة، للبطولة أو الجبن، ولهذه أو تلك من طبائع الإنسان جميعاً.

وبشكسبير لم يعد المضمون الشعري أفقياً مسطّحاً يبث اللواعج والهموم، أو يصف الطبيعة شاكياً أو حامداً ظواهرها، بل صار أكثر من أي وقت مضى عامودياً معقداً ينفذ الى صميم الذات الإنسانية ويستنبش خفاياها.

وهو، اذا عاصر فرنسيس باكون، أبا العلم الحديث، جعل الإنسان محور الوجود وموضوعه الأوحد، بعد أن طمسته القرون المظلمة والوسيطة تحت موجة التعالية والتصعيدية والانسحاقية في حضرة الخالق العظيم.

فأثر شكسبير، في نهاية الأمر، أثر شاعر مبدع خرق أسوار التقاليد

ونقض أسـاسياتها. رأى اللغة وسيلة فطيّعها على هواه. ورأى التعبير الشعري حركة فأطلقه على مدى شعوره ومخيلته ورؤاه. فكان ذا وزن وقافية حينما وجب، وبلا وزن وقافية حيث لا وجوب. وكان بوزن وبلا قافية، بل كان منثوراً، اذا ما حَسُنَ في عينيه. فأعطى بذلك الدليل على أن الموهبة سيدة نفسها في الفن، تطرح وتأخذ، تهدم وتبني، تميت وتخلق. كما أعطى الدليل على أن القواعد تنبثق دوماً وأبداً من النص، لا النص يوضع دوماً وأبداً على القواعد.

كان شاعـراً حقاً. لذلك كان أحد عظماء الشعراء خلقاً، ان لم يكن أعظمهم جميعاً. فلا عجب ان هو لم يفْنَ. فآثاره لا تزال ماثلة في الأذهان وأمـام الأنظار في كل لحظة، وفي كل مكان من العالم المتحضّر. وهو في أساس كل فن من فنون القول، مهما تكن مذاهبه واتجاهاته.

ونحن، الناطقين بالعربية، اذا خرجنا من هذه الذكرى بالتصميم على ترجمة روائعه كلها ترجمة أمينة (تعنى بها شعوبنا لا حكوماتنا)، نكون قد أغنينا ثقافتنا وخدمنا أنفسنا، قبل أن نخدم شاعراً جعله خلوده بغنى عن الخدمة.

٩ النعمة اللبنانية

ترانا لا نأخذ من لبنان إلا وجهه الكالح. فكأنما بلغ طموحنا به، أو غيرتنا منه أو عليه، حد التضايق مما يشد به الى التراب. حتى لنصل، أحياناً، الى شفير الشتيمة ونفض اليد.

فإفلاس مصرف في البلد نذير، عند البعض منا، بإفلاس المصارف كلها، وتدخّل موظف أو جندي في ما لا يعنيه دليل على تدخّل الموظفين والجنود جميعاً، وسقوط سعر الأرض في منطقة من المناطق لا بد إلا أن يكون مقدمة لسقوطه في سواها، وارتشاء جريدة أو زعيم إعلان عن الرشوة في كل مكان، حتى لكأن الدولة بأسرها مشاع للعملاء والجواسيس ومسرح للفساد والإفساد.

ومع ذلك يبقى لبنان. فلو كان ما ينزله به أبناؤه من شتائم ويثيرون حوله من شؤم، ينزله أبناء أعظم البلدان ببلدهم لانسحق وزال من الوجود. حتى ليميل بعضنا الى الإيمان بأن للبنان من يحرسه من فوق. فهو في مثل الأعجوبة. وقد يكون.

إنما الذي يحرس لبنان أيضاً كونه قائماً على حقيقة. فلا هو مصطنع ولا مؤقت. فوراء شتيمة اللبناني وتشاؤمه شعور عريق بأن وطنه الصغير هذا يحضن شيئاً فريداً في الشرق، شيئاً مقدساً، شيئاً أزلياً خالداً. فهو لذلك ينسى الشتيمة والتشاؤم حين يجدُّ الجد وتنخز لبنانه شوكة. رأينا ذلك، منذ البدء، في الملمّات. ونراه في جالياتنا المنتشرة تحت كل سماء. فهي ما أن تتغلّب على قساوة الغربة، حتى تستفيق على جذورها اللبنانية، فتروح تسقيها بدموع الحنين ورجاء العودة.

على أن هذا الإيمان اللبناني الذي قد يبلغ درجة التأليه لن يدفعنا الى اللامبالاة والعقم والنوم على حرير. فالنعمة، حين لا تُستحق، تؤخذ. حتى «شعب الله الخاص»، حين أنكر نعمة المسيح، صار شريداً وملعوناً في الأرض.

هذه النعمة اللبنانية مسؤولية أزلية، سواء في الحفاظ عليها أو في تعزيزها وتعميم خيرها. والشرط هو الفعل. الفعل البطولي الخلّاق.

١٠ سوق عُكاظ

قرأت في أخبار المملكة العربية السعودية، الثقافية لا السياسية، أن مجلسها الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، أصدر، فيما أصدر من قرارات، «إقامة محاضرات ومواسم أدبية وشعرية»، وتخصيص جوائز تكفل نجاح هذه المواسم... وإحياء «سوق عكاظ».

إحياء «سوق عكاظ» ؟ يا له من خبر «يثلج» صدورنا، نحن الشعراء، وتقر له عيوننا. فغداً نتأبط قصائدنا، ونشمّر أذيالنا، ونشد رحالنا الى «سوق عكاظ» القرن العشرين، تماماً كما كان يفعل حسان بن ثابت، والخنساء، والنابغة الذبياني، والأعشى، وأبو المنخل البشكري، وسواهم من زملائنا، عليهم السلام، في العصر الجاهلي.

ولسوف نطمع، بالطبع، في الجوائز، وفي تعليق قصائدنا العصماء الفائزة على أستار الكعبة، الى جانب المعلقات السبع أو العشر الشهيرات في تاريخنا الأدبي.

لكننا هذه المرة، وقد مضى على «سوق عكاظ» الجاهلية عشرون قرناً، لن نقف نبكي على الطلول كأسلافنا، بل سوف نستهل قصائدنا بمديح هذا الملك أو ذاك الحاكم، ثم نسرد أمجاد الأمة العربية، ونهدد بقرب استرداد فلسطين، ونشيد بالوحدة العربية «من الخليج الى المحيط»، وستكون هذه القصائد العصماء، بالطبع، موزونة مقفاة على الطراز الذي يحط ألف بَخْصة لامرىء القيس، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شدّاد.

فإلى أن يحين ذلك اليوم الأغر، نمسك، نحن الشعراء، قلوبنا بأيدينا لكيلا يحدث ما يعكّر صفو المياه الآمنة ويمنع المجلس الأعلى لرعاية العلوم، الخ.. من تنفيذ هذا البند الخطير من قراراته الهامة.

نقول «الخطير» لأننا بإحياء «سوق عكاظ» نحيي الشعر الجاهلي وما طرز على غراره من شعر لاحق، بعد أن قضت عليه أو كادت هذه الأساليب الشعرية المستحدثة السائدة في أيامنا، والمسماة بالشعر الحديث حيناً، وبالشعر الجديد حيناً آخر. وما هي، في حقيقة الأمر، إلا مبتدعات مستوردة من الخارج، لا تعبّر عن «الروح العربية» الصافية

والتراث العربي المجيد !

وهو قرار «خطير» أيضاً لأنه يفتح أمام الشعراء الفحول باباً جديداً لتحـويل نشاطهم في ميادين النظم والتبحّر في أصول البلاغة والبيان. تمـامـاً، كما أتيح لناصيف اليازجي وابنه ابراهيم وسواهما من فقهاء اللغة، قديماً وحديثاً، أن يفعلوا.

وهو قرار «خطير» أخيراً لا آخراً، لأن الدولة العربية التي عزمت عليه هي، عدا كونهـا حارسـة الأماكن المقدسة والوريثة الفعلية لـ «سوق عكـاظ»، دولة ناهضــة، تسعى جاهـدة الى الأخـذ بأسباب الحضارة والعمران. خصوصاً، وقد أنعم المولى سبحانه وتعالى عليها بموارد طبيعية هائلة، تنفق جميعها على ما فيه خير العباد، ممن تحلّوا بمكارم الأخلاق وتنزّهوا عن كل فساد.

١١ الشيوخ صمّام الأمان

منـذ سنوات أصدرت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة مجلة «المجلة»، ثم عمـدت الى إحيـاء مجلتي «الرسـالة» و «الثقـافة» وأتبعتهما بسلسلة من المجلات الخاصة بالمسرح والقصة والشعر. وهو نشاط تُحمد عليه الوزارة وتُشكر.

لكننـا وقفنـا، في هذا النشـاط المحمـود والمشكور، عند ظاهرة تثير التساؤل. وهي أن رؤساء تحرير هذه المجلات هم جميعاً من الشيوخ، ان لم يكن في السن، ففي العقلية.

فرئيس تحرير «المجلة»، يحيى حقي، أديب حصيف، إلا أنه ليس من جيل الثورة في قليل أو كثير.

ورئيس تحرير «الرسالة»، أحمد حسن الزيّات، كان هو ذاته صاحبها ورئيس تحريرها منذ ٢٥ سنة. وكفى بهذا التعريف تدليلا على ما أقصد إليه.

ولمجلة «الثقافة» رئيس تحرير هو محمد فريد أبو حديد. ومن طالع لهذا الكاتب لا بد من أنه رأى كيف يقف الإنسان، والدنيا تسير.

وللقصة رئيس تحرير هو محمود تيمور. ومع احترامنا وتقديرنا لمآثره القصصية، فاننا لا نجد فيه القيّم الصالح على تطوّر القصة العربية المعاصرة.

أما مجلة «المسرح» فرئيس تحريرها رشاد رشدي. وأمره معروف.

تبقى مجلة «الشعـر» (بـأل التعريف، تمييزاً لها عن مجلة «شعر» اللبنـانية)، ورئيس تحريرها عبد القادر القط. وهو أديب ناقد لا ينظم الشعر. ومع أنه من جيل الشباب، فان مفهومه للشعر، وللأدب عموماً، متخلف عن المفاهيم الحديثة المعاصرة.

فما معنى هذه الظاهرة ؟

أيكون أن الثورة لا تأمن جانب الشباب المتحرر، فتسند رقابتها على المجلات الأدبية الى الشيوخ المحافظين ؟

أيكون أنها، وهي التي أزاحت الساسة التقليديين عن مسرح الحياة العامة وقلبت أسس المجتمع المصري رأساً على عقب، تتردد في إسقاط

شعرة من رؤوس الأدباء والمفكرين التقليديين ؟

وما نفع العربة الجديدة، مهما يكن سائقها فهيماً، اذا كان محركها عتيقاً بالياً ؟

في ثورة ١٩١٩ المصرية، كان الأمر بخلاف ذلك. كانت العربة عتيقة، والسائق بسيطاً، لكن المحرك كان جديداً بعض الجدة.

وبينما أطلعت ثورة ١٩١٩ رعيلا بارزاً من الأدباء والمفكرين كطه حسين، والعقاد، والمازني، وهيكل، وأحمد أمين، والحكيم - ومن الملحنين والمغنين كسيد درويش، وعبد الوهاب، وأم كلثوم، لم تطلع ثورة ١٩٥٢ حتى الآن أحداً من هذا الوزن، أعني من حيث أثره في الحاضر وفي المستقبل. فهل لهذا القحط علاقة باختيار الشيوخ، كصمامات أمان تمنع الحركة التي فيها البَرَكة ؟

يهمنا هذا الموضوع، هنا في لبنان، لأن الثقافة العربية تتخطّى الحدود الجغرافية والسياسية لتكون، هي وحدها اليوم، الجامع الفعلي المشترك بين الناطقين بالضاد.

١٢ جهالة العارف

للمستشرقين، أو في الأصح المستعربين، فضل لا ننكره على نبش بعض آثارنا الأدبية من جوف النسيان، والإهمال ودراستها ونشرها. حتى صرنا لا نعرف عن معظم تراث ماضينا إلا بما اكتشفوه هم وراحوا يدرِّسونه للمعنيين به من طلبة وباحثين عرب أو غير عرب.

وللطليان جماعة مستعربة مثمرة، على رأسها مارتينو ماريو مورينو، المدير المسؤول لمجلة «المشرق» التي يصدرها في روما «مركز العلاقات الإيطالية العربية».

وفي ربيع السنة ١٩٦٢ انعقد في لبنان «أول مؤتمر للدراسات الإيطالية ـ اللبنانية» الذي «دبّره»، على حد قول التقرير المنشور عن هذا المؤتمر، المعهد الإيطالي بلبنان بمعاونة بعض المؤسسات التربوية والثقافية اللبنانية.

في هذا التقرير عن المؤتمر، كما عرّبه البيديو يانوتا، تنقلب «الرابطة القلمية» الى «الرابطة الكلامية»، وأنسي الحاج الى أنيس الحاج، وخليل الحاوي الى خليل الحكيم، وخليل تقي الدين الى خليل تاج الدين (وهو تاج بالفعل، ولكن ربما لا للدين)، وجورج شحاده الى جورج شهادة!

نذكر هذه الأخطاء لا للانتقاد، بقدر ما نذكرها للإشارة الى أنها أحد الأدلّة على أن محاولة المستعربين الاطلاع على الأدب العربي في القرن العشرين لا تزال في مهدها.

فهل نلومهم ؟

النية طيبة. انما المصاعب كثيرة. منها أن من يستعرب يدخل في زنزانة لا مجال فيها لتنفس «الهواء الطلق» (ليسمح لنا أمين نخلة باستعارة عنوان مقاله الأسبوعي في هذه الجريدة)، وأعني بالهواء الطلق هنا، الاتجاهات الحديثة لا في العالم العربي فقط، بل في العالم كله أيضاً.

المستعربون، في واقع الأمر، ضحايا شغفهم باكتشاف المجهول الذي ربما كان خيراً له لو بقي كذلك. فهم أشبه بدودة القز التي تحيك حولها السجن الذي لا يحررها منه إلا انقلابها الى فراشة. وهذا، في صناعة القز، قلّما يصير.

لكن لهؤلاء المستعربين، من طليان وألمان وانكليز وفرنسيس وأميركان الخ... كل عطفنا، حتى لا أقول شفقتنا.

وكم كانوا أكثر سعادة، لو أنهم نذروا أنفسهم وترهّبوا لأي مجهول غير هذا المجهول!

١٣ الانقاذ من الضجر

نريد أن نصل الى الحكم. نعم، نريد أن نتسلّم الحكم، نحن المفكرين والفنانين والأدباء الصعاليك. لماذا لا ؟ ماذا ينقصنا مما هو عند غيرنا الحاكمين سعيداً جيلا بعد جيل ؟

مهما يكن ينقصنا، فلنا مزية واحدة فريدة، على الأقل، تغطي كل نقائصنا. هي أننا الوحيدون القادرون على إنقاذ الناس من الضجر. فالناس ضجرانون. ضجرانون حتى اللامبالاة، حتى الاستسلام، حتى الانتحار.

ونريد أن نصل الى الحكم بالمليح لا بالقبيح. واذا كان الشعب لا يسلمنا إياه، فأصحاب الحل والربط يفعلون. وهم يفعلون لصالحهم هم، اذا نظروا الى أبعد من أنوفهم. فماذا ينتفعون من زعامتهم ونفوذهم لو كان الناس ضجرانين الى درجة الانتحار ؟

المسألة بسيطة: بدل أن ينزل أصحاب الحل والربط الى ميدان الانتخاب بأسمائهم، ينزلون بأسمائنا. يعطوننا المال والرجال فنصير نوابا ووزراء عنهم.

واذا كان الأوان قد فات الآن، ونحن في وسط الانتخاب، فما عليهم بعد أن ينتهي إلا أن يستقيلوا فيجري الانتخاب من جديد.

نحن لا نمزح. نريد أن نتسلّم الحكم. نقول بالمليح لا بالقبيح. فنحن نؤمن بالديمقراطية. نؤمن لأننا نؤمن، لا أكثر ولا أقل. فمن السخافة تفسير أسباب الإيمان بالديمقراطية وهي عنوان الحرية.

الناس ضجرانون.. نقول لكم. نحن، المفكرين والفنانين والأدباء، نحس بضجرهم لأننا نحس أكثر، وإلا لما كنا مفكرين أو أدباء أو فنانين.

دعونا، إذن، ننقذ الناس من هذا الضجر المخطر والخطير. دعونا نكش ذبابه عنهم. نحرّك الدم في عروقهم. نقبب شعر رؤوسهم.

النوم على حرير مريح ولذيذ، لكنه، مع الوقت، يوجع الظهر.

وقد تسألوننا ما برنامجنا ؟ فنجيب أن لا برنامج مفصل لدينا. ولكن لدينا هدف نعد بإيصال البلاد والعباد اليه. هذا الهدف في منتهى البساطة هو أن نقلب عقلية الحكم رأساً على عقب، فنزيد ما كانوا

ينقصــون، وننقص ما كانــوا يزيـدون. ونمنع ما كانوا يسمحون به، ونسمح بما كانوا يمنعون. باختصار: نقول لا، حيث كانوا يقولون نعم، ونعم حيث كانوا يقولون لا.

المهم الحركة. المهم الخروج من الحلقة.

ذباب الضجر يتكاثر ويكاد يأكل وجوه الناس. لم يعد الناس يطيقون الجلوس على البالكونات فيهربون الى الداخل ويغلقون الشبابيك. حتى في الليل ينام معهم الذباب على المخدة.

مرة ثانية نقول نحن لا نمزح. نريد أن نتسلّم الحكم. وهذا أحسن للناس وللبلاد.

١٤ الابداع لا العقيدة

«هموم الأديب الخاصة تستعلي، وكذلك شخصه. قضاياه الصغيرة تفقد أي معنى. إنه وجد، إنه رأى ما يبحث عنه، عالم خرج الى حيّز الوجود، لكنه لا يبرهن على موجوديته إلا بكونه حياً. والأديب، وقد اندهش ومع ذلك لم يندهش تماماً، يحس بأنه لم يفعل أكثر من توفير الدفعة الأولى، وبأنه فتح، لا أكثر ولا أقل، الأبواب ليتاح لهذا العالم وقاطنيه أن يخرجوا من أعماق نفسه، أن يولدوا، أن ينموا ويعيشوا حياتهم. وهذا، ربما، يوضح أن عمل المخيلة، المستعلي على الحق والباطل، أو بالأحرى على الحق والباطل كما تواضعت عليهما الأنظمة الأخلاقية القائمة على العقيدة المجرّدة ـ هو العمل الوحيد من نوعه، المتأصل في الحقيقة الأساسية التي ندعوها «الحياة». وهو العمل الوحيد المستمر في الحاضر، لأن ديمومة طبيعته لا تتأثّر بعوامل الاضمحلال، ولأن بنيانه لا يتزعزع. وما ذلك لأن العوامل الدائمة التغيّر، بالرغم من تعدد وجهات النظر في تقديره، هي حساسية الجمهور وموقفه منه، في حين أن الأثر ذاته يبقى منيعاً، وصامداً، وبمنجاة من الأذى. من هنا كان في استطاعتنا أن نتحدّث، الى حد ما، عن «ديمومة» الأثر الفني، بينما أن الأشياء الأخرى الخاضعة للتغيّر ـ العقائد التي مرّ عليها الزمن، والنظريات التي تحققت صحتها ثم ظهر بطلانها، والأفكار المنهارة ـ تتقوض وتفنى.»

هذا الكلام لأونيسكو.

وهو موجه، أكثر ما يكون، الى أولئك الذين يخنقون الأثر الفني ـ هذا العالم الذي خرج من ذات الأديب الى حيّز الوجود ـ بإخضاعه الى «الأشياء الأخرى المتغيّرة» القائمة على عقيدة ما مجردة، أي التي لا جذور لها «في الحقيقة الأساسية التي ندعوها الحياة».

يساريون هم ؟ هكذا يدّعون. والحقيقة أنهم لا يفهمون كوع اليسارية من بوعها. فاليسارية استعلاء على الحق والباطل «كما تواضعت عليه الأنظمة الأخلاقية القائمة على العقيدة المجردة». أما

يساريتهم فتكريس لهذه الأنظمة التي تتغير مع هبوب كل ريح. لذلك كان الخائن في نظرهم، اليوم، صادقاً غداً. والعكس بالعكس.

فيا أبانا الذي في السموات، نجِّنا منهم !

١٥ حماة الأخلاق

« ما شاء اللـــه »

هذه العبـارة المعبِّـرة التي يطيب لبعض الأثـريـاء الأتقياء حفرها وتنـزيلها على صدور دورهم وقصورهم، لماذا لا يحفرها وينزلها حماة الأخلاق، في هذا البلد، على صدورهم وصدور مكاتبهم ؟

فكمـا أن الزهـد الممزوج بالتسليم لمشيئة الله لائق في حال الثراء المـادي، فكـذلك فهو لائق في حال الثراء الأخلاقي. مع أن الفرق بين الثرائين كالفرق بين قمة الجبل وأسفل واديه.

نحن أحرص الناس على الأخلاق، لكننا لا نطيق حماة الأخلاق هؤلاء، من كل فصيلة وقبيلة، خصوصاً في الأدب والفن. لا نطيق قانونهم. فهو، بخلاف ما نريده للبنان، وليد العقلية السائدة في الوراء.

على أننـا نشعر معهم. فهم يكشّون الذباب يوماً بعد يوم. الضجر يقتلهم. الفراغ يقتلهم. أيعقل أن تكون الأخلاق هنا، في لبنان، بمثل هذا الخير ؟

ها حمـاة الأخلاق والمراقبون في الديكتاتوريات القريبة والبعيدة لا ينامون الليل. الشغل يقتلهم لا الضجر. في كل ساعة، بل في كل دقيقة، امـرأة داخلة وامـرأة خارجة. أديب صاعد وأديب نازل. كتاب ممنوع وكتاب نصف أو ربع ممنوع. الغرفة قائمة قاعدة. مراجعات. هات قهوة، خذ قهـوة. الجرس دائم الرنين. الحارس على الباب لا تسخن الكرسي تحته. المدير نصف الدنيا، بل كلها. يدخن السيكارة بعد السيكارة. يعب فنجان القهوة بعد الفنجان. التلفون يرن ويرن ويرن. يسره أن لا يجيب، واذا أجاب فباختصار الغاطس الى قمة رأسه. يقرأ ويريحه أن لا يفهم. هذا يزيد في الحركة، في الضجيج والعجيج، في قتل الضجر !

أمـا في لبنـان الديموقراطي، فيا حرام ! الأخلاق في تدهور ولا من يســأل. الجـيران، والغـرباء، والزملاء هناك في الديكتاتوريات القريبة والبعيدة يكتشفون كم نحن هنا بلا أخلاق. يدلوننا على السم الزعاف في الكلمات النظاف. يا عيب الشوم ! هل بلغ بنا التغافل والتجاهل الى هذا الحد ؟

عليهم !

وفي هجومهم يصطادون فتاة هي أول من استرعت اليها انتباه العالم، فترجمت الى بعض لغاته وقرئت ونالت الإعجاب. فتاة صادقة مع نفسها ومع أدبها. تفضح الإنسان في أعمق أعماقه. تقول عنه أنه يشتهي !

يشتهي ؟ ممنوع !

الشعوب كلها تجاوزت هذا «الممنوع». الشعوب المتحضّرة أعني، وضحاياها معروفون منذ أقدم العصور.

ومع ذلك، عليهم !

وتحرّشوا بليلى بعلبكي، لا لشيء إلا لأنهم ضجرانون (والضجر، كما قلنا، قاتل)، وخائفون (والخوف، كما قلنا، عبودية).

الأخلاق، ثم الأخلاق، ثم الأخلاق.

على الأقل اليوم، في معركة الثورة والبناء، معركة التحرر من الاستعمار وطرد اسرائيل من العزيزة فلسطين !

الأخلاق، ثم الأخلاق، ثم الأخلاق.

تعالي، اذن، يا ليلى بعلبكي وادفعي الثمن. نحن نبيع جلد الدب قبل اصطياده.

ولن نصطاده ونحن أول العارفين.

ومع ذلك تعالي.

وتجيء ليلى بعلبكي وتروح.

أما قانون الأخلاق فواقف. واقف على رجل واحدة. رجل اصطناعية. رجل لا بد من أن تقع.

ويسلم القانون. لا هذا القانون الذي أمر ليلى بعلبكي بالمجيء وسمح لها بالرواح، بل القانون الذي لا يأمر لكي لا يضطر، في النهاية، الى السماح.

وليعش لبنان حراً، لا ممراً ولا مستقرا.

١٦ قمر الكويت الحزين

يحدثونك في الكويت (حيث قضيت بضعة أيام) عن النفط وملايينه، والتجارة وأثريائها، والشيوخ وخصوصياتهم.

ويحدثونك عن الصحراء التي تحوّلت، في عشر سنوات، الى مدائن منيرة، وطرقات عريضة مستقيمة تنساب فوق الرمال الهاجعة قرب البحر،

وعن قبيلة من الصيادين أقامت دولة كباقي الدول، لها أميرها وحكومتها ومجلسها النيابي، كما لها جيشها وعَلَمها وسفراؤها في كبريات العواصم،

وعن التسرب الإيراني الذي يشجِّعه الإنكليز وبعض أصحاب المصالح من الكويتيين، لإضعاف النزعة القومية العربية، والوقوف في وجه الوحدة والضم.

ويحدثونك أيضاً عن المدارس النموذجية التي لا مثيل لها، وعن المستشفيات المجهّزة بأحدث الأدوات،

وعن محطتي الراديو والتلفزيون، ومجلة «العربي» وسواها من الصحف الدورية،

وعن الغزو المصري،

وعن الفنادق المريحة والسلع الرخيصة،

وعن الكذب، والنفاق، والظلم الاجتماعي، والحَرّ، و«الطون»، والرطوبة اللامتناهية أحيانا،

ويحدثونك أيضاً وأيضاً عن الكرم والضيافة والعروبة،

وعن الأمن المستتب والنظام الوطيد،

وعن الحرية التي يصونها الدستور ويرعاها مجلس الأمة،

وعن أمير البلاد المثالي في النزاهة والزهد والحكمة والعدل،

وعن جيوش المرتزقة والأنكشارية في المؤسسات وعلى الأرصفة،

وعن الحرمان والكبت، والتحجر، وانهيار الكرامة الإنسانية أمام الدينار.

يحدثونك عن كل هذا، وعن غير هذا، ويسردون لك التفاصيل، ويستشهدون لإقناعك بالأرقام والوقائع.

وأنت أمام هذا الحديث المتناقض، المتنافر، العجيب، تحب الكويت، تحبه نكاية بالذين يشتمونه ويضطهدونه ويظلمونه.

وتتساءل: أمعتقل هذا البلد الخير أم وطن يقيم فيه الناس بملء ارادتهم واختيارهم ؟

وفي كل ليلة قضيتها هناك، كنت أتطلع القمر وأتأمله طويلا، فأُدرك سر نعته بـ«الحزين» في أشعار السياب والملائكة والبياتي، وهم من شعراء هذا الامتداد الصحراوي الرابض على الخليج.

القمر هنا حزين حقاً. حزين، ربما لأنه وحيد. وهو وحيد لأن السماء غبراء رمادية تحجب لمعان النجوم. حتى البحر حزين هو أيضاً. فلعل الحيوانات الغريبة التي يقال إنها تغوص في أعماقه، واللآلىء، والنفط، تُضفي على وجهه مسحة من الغموض والسر وصمت السنين العتيقة.

لكن القمر سيد الكون هناك. انه الشيء الوحيد المتعالي، المعبّر عن شقاء هذه الأرض.

إنه الرمز الأكبر ـ الحقيقة الظاهرة الوحيدة.

فهل يهلّ، فيكتمل، ثم يغيب. انه هو، لا الشمس، عنوان الزمن الضائع.

١٧ الركب العربي الصاعد

«ما لك ولانتلجنسيا الركب العربي الصاعد»، يسألني الناس ؟
ما لي ولهم ؟
اسمعوا هذه الحادثة الأخيرة من ملايين الحوادث، واحكموا:
منذ شهرين أو ثلاثة، ظهر لغالي شكري، الناقد المصري، دراسة عن «الأيديولوجية في الشعر العربي المعاصر» في مجلة «الشعر» الصادرة عن وزارة الثقافة الخ.. في القاهرة.
في هذه الدراسة يتخذ غالي شكري، لشرح وجهة نظره، مثالين: مثال عن الشاعر الذي ليس له قضية، ومثال عن الشاعر الذي له قضية.
وشاء غالي شكري أن يتمثّل بيوسف الخال كشاعر معاصر له قضية.
فتوقف عند نتاجه الشعري للتدليل على كيف يكون للشاعر قضية.
وهنا ثارت ثائرة من يحسبون أنفسهم شعراء انتلجنسيا الركب العربي الصاعد، الذين كل رأس مالهم الشعري أنهم شعراء انتلجنسيا الركب العربي الصاعد، وكل قضيتهم الشعرية انهم شعراء هذا الركب.
لماذا يوسف الخال، يا غالي شكري ؟
هيا، اذن، نأكله قبل أن يكبر.
وتنادى هررة انتلجنسيا الركب العربي الصاعد، من الخليج الى المحيط، وهجموا، بقيادة رجاء النقاش، على غالي شكري يريدون أن يأكلوه.
بدأوا بالمطالبة بإقالته من سكرتيرية مجلة «الشعر» الصادرة عن وزارة الثقافة الخ...في القاهرة. وبما أن الرجل كاتب ناقد وبحاثة لا يعيش إلا من قلمه، جرّدوا عليه حملة دس وافتراء في الصحف وغير الصحف، لكي يقطعوا رزقه، متناسين المثل العربي القديم القائل: «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق».
وبالطبع، رددت صحف انتلجنسيا الركب العربي الصاعد، في بيروت وغير بيروت، أصداء هذه الحملة.
لماذا يوسف الخال، يا غالي شكري ؟
ألا تعلم، يا غالي شكري، أن يوسف الخال عميل أميركي (محمد

يوسف نجم، مدير مؤسسة فرنكلين الأميركية للطباعة والنشر هو، مثلاً، من قادة الانتلجنسيا) وانه شعوبي (لويس عوض، مؤلف بلوتولاند قبل مجلة شعر بـ ١٥ سنة، حاولوا أن يأكلوه، لكنه كان قد كبر وصار صعباً، فجعلوه من قادة الانتلجنسيا... صحتان على قلبه) وانه سوري قومي (خليل الحاوي، سنة ١٩٥٧، كان يحاول إقناع يوسف الخال بالعودة الى صفوف الحزب السوري القومي الذي انسحب منه وطرد سنة ١٩٤٧، هو اليوم من شعراء هذه الانتلجنسيا) ؟

نعم، لماذا يوسف الخال، يا غالي شكري ؟

ألا ترى أن هذا الشاعر العميل، الشعوبي، القومي السوري، ليس من شعرائنا ـ شعراء انتلجنسيا الركب العربي الصاعد، وليست قضيته التي تمتدحها قضية هذا الركب ؟

فيوسف الخال يتغنّى في شعره ببطولة الموت على الصليب، لا ببطولات بور سعيد، والجزائر، وعدن، وثورات يوليو ورمضان ومارس...

وهو يتغنّى بحرية الشخص ومسؤوليته الأخيرة أمام خالقه، لا بحرية الجماعة، كجماعة، ومسؤوليتها أمام الحاكم والدولة...

وهو يدعو الى المحبة، لا الى الكراهية التي هي محرّك الجماهير الوحيد نحو الثورة والإبقاء على الثورة...

ويوسف الخال يتغنّى بالألم والتضحية طريقاً الى الخلاص من لعنة الخطيئة، لا بالماركسية والشيوعية والاشتراكية، ولا بالقومية العربية والوحدة وما الى ذلك من عقائد وأهداف مقدسة هي وحدها طريق الجماهير الى الخلاص من الاستعمار والفقر والجهل... وبلاش خطية...

وهو يقول بوحدة التراث الحضاري الإنساني، لا بفردية واستقلال وتفوّق حضارتنا العربية المنبثقة من عبقريتنا العربية منذ الجاهلية...

نعم، يا غالي شكري، ألا ترى كل هذا ؟

فكيف يكون يوسف الخال، من بين شعراء الانتلجنسيا العربية المعاصرين، نموذجاً فذّاً للشاعر العربي المعاصر الذي له قضية ؟

وقضية مثل هذه القضية ؟

ألا يعجبك نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وعبد الصبور، والحجازي والبياتي (هو اليوم في موسكو أو في جوارها) ونزار قبّاني (نعم، نزار قبّاني) وخليل الحاوي (نعم، خليل الحاوي)، وسلمى الخضراء

الجيوسي ؟...

ألا يعجبك عشرات الشعراء المعاصرين، وكلهم من النابتين حيثما حطّت حوافر خيل الركب العربي الصاعد ؟

كنا نحسبك علينا، يا غالي شكري، ففتحنا لك صفحات مجلاتنا وصحفنا، إن لم يكن صدورنا، وعملنا منك كاتباً موعوداً به.

وأنت اليوم تتآمر مع يوسف الخال. فأنت، اذن، عميل، وشعوبي، وقومي سوري (ولو كنت مصرياً)...

لذلك يجب أن نأكلك.

وأخيراً أكلوه. فنشر في مجلة «الآداب» الناطقة بلسان حالهم البيان الآتي نصه، فهنيئاً لهم ومريئاً:

«عندما تحيط الشبهات إحدى مؤسسات النشر من جانب التيارات الوطنيـة والاتجاهات التقدمية، يتعين على الكاتب الوطني التقدمي أن يلتزم جانب هذه القوى. لذلك أعود الى قراء «الآداب» وكلي أسف على فترة الانقطاع الطويل التي قضيتها في الكتابة لمجلات أخرى أحاطتها الشبهات من جوانب عديدة. وهذه المجلات هي بالتحديد «حوار» و«أدب» و«شعر» وحتى التزم اليوم بموقف القوى الوطنية والتقدمية ازاء هذه المجلات.. هذه المجلات، انما أدعو في الوقت نفسه كافة الأقلام الشريفة التي تورطت عن حسن نية في التعامل مع تلك المجلات، أن تتخذ نفس الموقف، حتى نقطع الطريق على كل محاولة تستغل أسماءنا في خطط وأهداف بعيدة المدى، منافية ومعادية لأهداف أمتنا.»

١٨ عودة الى الركب العربي الصاعد

هؤلاء المورروبون، الناعقون كالبوم، الجاثمون على صدورنا كالغربان، العاملون أنفسهم انتلجنسيا القومية العربية (ناصرية كانت أم بعثية أم...)،

هؤلاء الفارغون من أي مضمون، المحشوون بالحقد والكراهية والحسد، المتاجرون بالكلمة، المسيئون الحقيقيون للتراث العربي، البائعون أنفسهم للكليشيهات والشعارات الغوغائية المزيّفة،

هؤلاء الشيوعيون المنحرفون، الساقطون، المفلسون، الاشتراكيون بلا معرفة، المطالبون بالحرية وهم الصالبونها كل دقيقة في كل دار من ديار العروبة،

هؤلاء المحرومون علمياً وفكرياً وجنسياً، المغلوبون على أمرهم مركب ـ نقصياً،

هؤلاء نحن ضدهم.

نحن ضدهم لأنهم ضد الحرية، أي ضد الإنسان، وضد الحقيقة، أي ضد الله مسيحياً كان أم مسلماً، أم...

نعم، نحن ضدهم. المستقبل الذي يدعون اليه لا يهمنا. لا يهمنا لأنهم هم دعاته. فنحن نؤثر الموت في الحرية والحقيقة على هذا المستقبل الفارغ من كل حرية وحقيقة، الذي هم بناته.

إنهم يدّعون الثورية. آه، يدّعون الثورية وهم:

في الأدب: يتمسّكون بالأساليب الميتة، ويرقصون على الأوراق الصفراء، ويترحمون على حريم السلطان..

في السياسة: يدينون بالولاء للنظام الفردي الرجعي، ويؤيدون التعذيب والقتل والرشوة والقنابل والمؤامرات الظلامية..

في الثقافة: ينغلقون على أنفسهم من نور العقل المشع الفاعل في الحضارة الإنسانية، الواحدة المتراكمة عبر التاريخ..

في الفن: آه، في الفن. إيمانهم بالفن، كإيمانهم بالشعر، كإيمانهم بالحياة: أداة لتحقيق أيدويولوجية القشر.

نعم، إذا كان هؤلاء هم انتلجنسيا «الركب العربي الصاعد»، فبشّر

هذا الركب بهوان السقوط.

«نعم. هكـذا يقـول الشيـوعيون، والعروبيون القوميون، والشعراء الفاشلون في كل قطر ومصر. إنهم يقولون هذا منذ سنين، ألا تعلم ؟»

«أعلم. وأعلم أن هؤلاء شيـوعيـون، وعروبيون قوميون أنحس من الشيوعيين، وشعراء فاشلون يتمنون لو يقبضون ولا يدفعون».

وواقع الأمر أن الأديب الحقيقي، فجأة وبدون سابق إنذار، يتمخّض بفكرة ثم يلدها. يلدها لأنه تمخّض بها. أي عاناها وجاء وقت نقلها الى الآخرين.

هذا ما لا يفهمه جماعة الدفع والقبض والسُخرة. فإلى هؤلاء أقول: لكذا إن فهمتم أو لم تفهموا.

١٩ في التراث

التراث العربي الإسلامي تراث لبناني. وهو تراثي - أنا اللبناني - أكثر مما هو تراث أحمد بن جنقيط في قطر أو اليمن أو حضرموت. ذلك لأنني أفهم هذا التراث وأعيه أكثر منه.

ولأنني كذلك لا أقدسه - فلا هو ولا سواه جدير بالتقديس، ولأنني لا أخاف من أن ينقده أحد - أنا أو أياً كان - فالذي يخاف من النقد هو وحده الذي لا يؤمن بالشيء المنقود ولا يثق بقدرته على الصمود. فصاحب الحق، الواثق والمؤمن به، لا يخاف.

نعم. ثم ان التراث العربي الإسلامي تراثي أكثر مما هو تراث أحمد بن جنقيط، لأنني لا أجترّه ولا أخلط مفهومه بمفاهيم سياسية وقومية زائلة وزائفة معاً، ولا أتّهم أحداً بالتآمر عليه اذا هو دحرج عنه حجر الجمود والتقليد ونهض من قبره. فالتراث قبر إن هو ظلّ مغلقاً على الحياة - الحياة في تطوّرها وتجددها الدائم..

ولأنني أيضاً أثور عليه لأخلقه من جديد على صورة جيلنا ومثاله، هذا الخلق الجديد المستمر هو وحده دليل الثورة الحقيقية على الانحلال فالموت..

ولأنني، أخيراً، لا أجبن ولا أستكين الى واقع الحال، فأحرص على تكييف الحياة بحسب التراث لا التراث بحسب الحياة. ذلك انني اذا فعلت أكون عنوان الرجعية والتخلف.

فمن العبث شد الزمن الى الوراء، والبكاء على حائط التاريخ.

٢٠ الخاتمة المعهودة

من يشتري قلمي بقرش ؟

قلمي هذا المدرب، المجرب، المتعوب عليه، المصقول كحصاة النهر، الناعم كباطن اليد، الصامت، الضاحك، الغامض، الصائح دوماً وأبداً: يا هو، أين الحقيقة ؟

نعم، من يشتري قلمي هذا بقرش ؟

ففي هذا المجتمع التجاري هل يساوي قلمي، أي قلم، أكثر من قرش ؟ بل هل من يدفع به حتى هذا القرش ؟

فالناس، في المجتمع التجاري، يطمعون بما هو معروض للبيع. يقولون في أنفسهم: هذا محشور حتى يبيع. فلننتظر. في الغد نأخذه مجاناً.

وهذا، حقاً، ما سيصير !

بإمكاني أن أكسر هذا القلم، أن أطرحه في سلّة الزبالة. فما قيمة القرش حتى أبيعه بقرش ؟ لكن لا. للقرش عندي أهمية رمزية. أريد أن أَبَرْوزَه وأورثه لأولادي.

أريدهم أن يذكروا للناس فيما بعد هذا الحدث العجب: كاتب يبيع قلمه بقرش في القرن العشرين، وفي لبنان.

على أونا، على دُوّي، على تري.

قلم، ولا كالأقلام، بقرش واحد.

من يدفع ؟

أكون محظوظاً اذا وجدت الشاري.

ففي لبنان تكثر المجانين. لكن في التجارة، في البيع والشراء، ولا واحد !

وهنا عبقرية لبنان: كونه بلد الإشعاع ولا إشعاع.

هذه نهاية «في الناس والأشياء».

فكما ينتهي كل شيء يتحدى الرقم، تنتهي هذه الزاوية، هنا، في هذه الجريدة.

فالناس لا يقرأون، هكذا يقول عبيد الرقم، واذا قرأوا لا يهتمون، واذا اهتموا فكالدجاجة التي تقرق لتبيض.

والبيض غالباً ما يكون ممودرا.

فلماذا التعب ؟ في المجتمع التجاري تسود الأرقام. وللأرقام حكاية عجيبة، فهي تدور بالمقلوب. تضرب الجامع والطارح بكعب يدها فيطوش. يصيح: «يا ويلي، ضاعت ثروتي».

وهي من صياحه هذا تضيع، لا من أي بعبع آخر.

فالرقم، وأول من قال بذلك فيثاغورس الفينيقي كما يقال، هو أساس الوجود.

ومعه حق. تصور عالماً بلا أرقام. خصوصاً في المجتمع التجاري. من يعرف عندئذ من ؟ من يعد الأصوات التي تحرص على عدِّها الديموقراطية ؟

هذا مثل، والأمثال لا تحصى.

المقصود إليه أن المفكر أو الأديب أو الفنان لا مكان له. ومن الخير أن لا يكون له. فهو يثير الأعصاب المتبلِّدة، أليس كذلك ؟

هؤلاء المفكرون أو الأدباء أو الفنانون، يقول التجار، أي نفع منهم ؟ ليتنا بلا صحافة، بلا شعر، بلا مسرح، بلا موسيقى، بلا رسم ونحت !

ويقـول التجـار: «يطالبوننا بأن نقرأ أو نشتري. على افتراض أننا اشترينا تمثالا من خشب أو حجر (تصوروا تمثالا من خشب أو حجر !) فأي نفع فيه وفي استطاعتنا أن نقبض بأصابعنا الصغيرة على ألف امرأة من لحم ودم، أو على ألف رجل أو شجرة أو جبل أو طنجرة أو ما شئت من متاع ؟»

ويقـول التجار:« أرونا مفكراً أو أديباً أو فناناً لا يشحذ ؟ نعني في لبنان. في العالم لا نعرف، نسمع. نحن، هنا، متأخرون، فماذا تريدوننا أن نفعل ؟»

لا شيء. واحد + واحد = اثنين.

هذا ما نريدكم، نحن المفكرين والأدباء والفنانين، أن تفعلوا.

عاش لبنان.

وقد نعيش طويلا، وقد نتناسى. غير أن شيئاً واحداً لن ينسى: كوننا أهرقنا دم اللحظة البريئة على مذبح الوثن الأسود، هذا القابع في صدورنا.

كوننا كنا الصالبين.

والسماء قد تهبط الى الأرض بالمطر والنور والظل، إلا أن الأرض لا

ترتفع الى السماء إلا على النظرات السعيدة، النظرات الراكعة بخشوع.

فمن منا لا يحمل خنجراً في الظلمة ؟

من منا لا يغسل يديه كل لحظة من دم هذا الصديق ؟

«في الناس والأشياء» ستدخل في ذمة التاريخ. سيعثر عليها يوماً من يفتشون عن الأوراق المطوية. وسيقولون حين يعثرون عليها: «لم يكن موضوعها الناس ولا الأشياء، بل كاتبها. كان هذا الكاتب تعيساً حقاً، لأن الخيبة التي عاش بها لم تعش طويلا. أفاق حين كان من الخير له (لا للناس ولا للأشياء) لو ظلّ راقداً في سباته العميق. سنتشفّع به على كل حال، ونقيم على ذكراه شاهدة».

والآن، «في الناس والأشياء» ستخلي مكانها للرقم. قد تكون عالماً بكل شيء إلا بالرقم، فلا تكون عالماً بشيء.

ومأساة العقل والروح، في كل مكان وزمان، انهما لا يحصيان بعدد، فلا يعرف التجار كيف يبيعونهما أو كيف يشترونهما. لذلك يطرحونهما جانباً بامتعاض، كالنقد المزيف.

لكن العقل والروح، وحدهما، ما يبقى أبداً.

٤

يوميات ١٩٧٢

الاحد ، ٢ كانون الثاني

واخيراً ، ها هو السنجاب يقع من البرج .

ولسنوات مضت سميناه السنجاب ، استنادا الى مطلع قصيدة له في « خطوات الملك » :

« انا سنجاب ورجلاي احتضار »

وبالفعل ، شوقي ابي شقرا يشبه السنجاب . رجلاه طويلتان (انما دون احتضار) ، وشعره كثيف او هكذا يخيل اليك .

وكان شوقي أخانا المدلل لا لشيء الا لأنه مستطيل كالجسر بين ضفتين : ضفة القديم من الشعر وضفة الحديث .

وكنا نعبر عليه مبسوطين ، بل كثيرا ما كنا نظق من البسط .

لكنه كان واسع الصدر ، فلم يجد حاجة به الى الانكماش على نفسه ، كما يفعل اهل الموهبة الفنية ليوهموك بأنهم لا يوافقون .

فأهل الموهبة الحقيقية يتغذون بالسخرية والدعابة واللامبالاة احيانا ، والا فقدوا جوهر موهبتهم ، كما يفقد السنجاب حيله حين يشيخ فيقبع عند كعب الشجرة لعجزه عن الصعود الى غصونها .

وما هكذا هي الحال مع سنجاب الشعر الحديث . فهو يسخر من نفسه ومنا ويؤمن بأن هذا هو طريق الخلاص .

وقد يكون على حق .

وسواء وقع من البرج أو لم يقع ، فيظل هو اياه : مفتوح العينين ، يبصبص علينا من ثقب هناك ، في المكان الذي وقع فيه .

فنخاف ونرتعد ، كما من ملك يبصر مناما في الليل ويحققه عند اليقظة .

فشوقي ابي شقرا قلما يرحم .

قلمه مبضع جراح كم عانينا منه . حتى انه اختصر ، مرة ، الشعر الحديث في اربعين او اقل من الصفحات الصغيرة ، لم يكن فيها ، مثلا ، غير بضعة اسطر لبدر شاكر السياب ، وغير لا شيء لنازك الملائكة .

لذلك تعذر علينا نشر هذه المختارات ، ولو نشرناها ، لوقف شعر رؤوس الكثيرين .

كان هو السنجاب ، وكنا نحن السلاحف .

كنا نراعي واقع الحال ونشعر بشيء من المسؤولية امام الاجيال المقبلة . اما هو ، فلم يكن في قاموسه الا الحقيقة الشعرية التي أمسكها بعد عناء وربطها حول رقبته .

وحقيقته الشعرية ، كما افهمها ، يمكن تلخيصها بأن الشعر جمال وفن ، لا فكر وتفكير . فهو ، كالرسم الشرقي والبيزنطي ، يجب ان يكون ذا بعد واحد لا أكثر . لذلك كانت القصيدة عنده كاللوحة البدائية ، تجذبك بألوانها الطبيعية واشكالها الساذجة . فاذا صح هذا ، يكون شوقي ابي شقرا في الشعر اللبناني كخليل زغيب في الرسم .

لكن خطر هذه النظرة الى الشعر ، وهي نظرة شرعية لها مثيل في الآداب العالمية ، هو انحدارها عند أهل الموهبة والثقافة الشحيحة الى مستوى الفولكلور كما في الزجل ، أو كما في الرسم لدى امثال « ابو صبحي » الدمشقي . ولعل ماتيس في الرسم المعاصر قمة هذه النظرة ، وخامينيز الاسباني الحائز جائزة نوبل ١٩٥٧ قمتها في الادب .

لكن الفن للفن ، أو الفن كغاية في حد ذاته ، حكاية طويلة عريضة لم تعد في الواجهة بعد ماركس ، وفرويد ، والطاقة النووية ، والمراكب الفضائية ، والكومبيوتر ، وتصاعد « المشكلة اليهودية » في التاريخ الى مرحلة انفجار جديد ، نحن اولى ضحاياه .

لكن شوقي لا .

هو اياه ويريد ان يبقى . والله معه .

فهل يترأف بنا ، في ملكوته السماوي ، يوم الحساب ؟

الاثنين ، ٣ كانون الثاني

غبطة البطريرك الماروني ، في رسالته اليوم الى اللبنانيين ، غير مرتاح .
ومتى كان البطريرك ، من ثلاثين سنة أو أكثر ، مرتاحا ؟
كان دائما ينبه ويحذر ويوجه . وكان لبنان دائما يسير مع تطور الاحداث من سيء الى أسوأ .
تماما مثل العالم العربي ، تماما مثل العالم كله .
الا ان تساؤلات غبطة البطريرك اليوم تساؤلات خطيرة تجعل كل لبناني يقف حيالها بخوف ورعدة . وخطورتها في انها تساؤلات في الاساس والجوهر تصدر عن مقام هو ، بدوره في الاساس والجوهر .
فأين هو لبنان اليوم ؟
هل ان « ارضه مباح ، وجنسيته مشاع ، ومرافقه سائبة ، وابوابه مشرّعة ، وسياسته حائرة ، وعلاقاته مضطربة ، واتجاهاته غامضة ؟ »
وهل هو اليوم « على مفترق الطرق بين ماضيه المشرف وتراثه المجيد ، وبين مستقبل مجهول ؟ »
فاذا صح هذا ، وغبطة البطريرك لا يلقي الكلام جزافا ، فأي نظرة الى واقع لبنان اشد وأقسى من هذه النظرة ؟
وما نحن فاعلون ؟
هل نتجاوز كلام غبطته و نتجاهله كعادتنا من ثلاثين سنة ؟
وماذا علينا ان نفعل ، او ماذا يريدنا غبطة البطريرك ان نفعل ، اذا نحن لم نتجاوز كلامه ونتجاهله ؟
ماذا على كل لبناني ، من رئيس الجمهورية الى ابني طارق مثلا ، ان يفعل ؟
هل الدعوة ، مجرد الدعوة ، الى « التآلف والتضامن في المحافظة على القيم الروحية والقواعد الوطنية » تكفي ليصون الله القدير « لبنان ويفيض على بنيه خيراته وبركاته » ؟
الوجود ، كما يعرف غبطة البطريرك ، فعل . والا لماذا كان الصلب والموت والقيامة ؟ ولماذا كانت الكنيسة ؟ بل لماذا وكيف كان حتى لبنان ؟

الثلاثاء ، ٤ كانون الثاني

وزع وزير التربية والفنون الجميلة ستين الف ليرة على عشرة عاملين في الحقل الثقافي .

ولهذه المناسبة تذكرت الحادثة الآتية :

في اواخر سنة ١٩٥٦ كان شارل مالك وزيرا للتربية والخارجية معا . وقبل انتهاء السنة ببضعة ايام ، فوجىء الوزير بأن في موازنة وزارة التربية خمسة وعشرين الف ليرة مخصصة للادباء والفنانين ، وان الاصول تقضي بتوزيعها في الحال والا حذفت من الموازنة .

ورأى الوزير مالك ان يجمع في منزله بعض الذين يثق بهم من اهل الثقافة ويطرح عليهم المشكلة الآتية : كيف اوزع ٢٥ الف ليرة في مدى ٢٤ ساعة ؟

وراح كل من الحاضرين يبدي رأيه . واخيرا وقف سعيد عقل وأخذ يتمشى في الغرفة ، ثم قال : « أرى ان يعطى نصف هذا المبلغ لجورج شحادة ، والنصف الآخر ليوسف الخال » .

وشرح الأسباب التي دعته الى هذا الرأي ، ولا ضرورة لذكرها هنا . المهم أن الجميع وافقوا . وانفرط عقد الاجتماع .

وبعد يومين صدرت الصحف ، فاذا بالمبلغ يوزع على عشرين او ثلاثين ممن هب ودب ، كما على شحاذين .

فما اشبه الليلة بالبارحة .

السبت ، ٨ كانون الثاني

يظهر ان لبنان يدخل الآن مرحلة الصراع الجدي الحقيقي بين ماضيه ومستقبله .

فها هي قوى « اليسار » ، بقيادة الحزب الشيوعي اللبناني ، تنزل الى الساحة بكامل اسلحتها وتتحدى قوى « اليمين » الممثل ـ في نظرها ـ بالحلف الثنائي (الوطنيون الاحرار والكتائب اللبنانية) ، تاركة الكتلة الوطنية ، التي يسير عميدها في طريق الرئاسة ، مصلوبة على خشبة الاختيار .

فما هو « اليسار » وما هو « اليمين » في لبنان ؟
نطرح هذا السؤال لأن هذين التعبيرين ، أي اليسار واليمين ، يختلفان باختلاف البلدان ، مع العلم موجود قاسم مشترك أو خطوط كبرى تجعل اليسار يسارا واليمين يمينا في اي مكان .
نبدأ بالكلام على « اليمين » اللبناني .
اليمين اللبناني هو ماضي لبنان وحاضره . هو الدستور الموضوع في ١٩٢٦ ، وهو المؤسسات العامة والخاصة التي تستند الى هذا الدستور وتستمد تقاليدها منه ، نصا وروحا .
وهو مبدأ التطور التدريجي في مناخ حرية المواطن وحقه في القول والعمل ، ضمن حدود القانون . ووسيلة هذا التطور التدريجي نظام سياسي قائم على الانتخاب الشعبي والفصل بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، حيث يكون للسلطة التشريعية ، اي مجلس النواب ، اليد العليا في تقرير شؤون البلاد .
ومن شروط هذا النظام السياسي المعروف بالنظام البرلماني ، كوسيلة للتطور دائما نحو مجتمع افضل ، ان يفسح في المجال لصراع الآراء والمبادىء بالطرق المشروعة التي غايتها اكتساب التأييد الشعبي والوصول بهذا التأييد ، عبر عملية الانتخاب العام ، الى الحكم لتنفيذ تلك الآراء والمبادىء .
ويؤمن اليمين اللبناني ايمانا قاطعا بامكان التطور التدريجي ، وبأن هذا النوع من التطور هو وحده التطور الطبيعي . فكل تطور قسري ومفروض من فوق او من الخارج لا يحقق التغيير الجذري الحقيقي . لأن مثل هذا التغيير لا يأتي الا من الداخل ، من النضج العقلي والروحي . هذا النضج الذي هو حصيلة الثقافة والخبرة على ممر الايام .
وهناك الآية الكريمة : ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .
يستشهد « اليمين » بما جرى في البلدان القريبة والبعيدة ، حين اعتمدت نظاما ثوريا حاول فرض التغيير قسراً على المجتمع ومؤسساته . فكان الأمر أشبه بمن يعطى بندقية لا يعرف استعمالها ، او بولد في العاشرة من العمر يحمل مسؤولية قيادة جيش او رئاسة حكومة .
فالمهم ، في نظر « اليمين » ، أن لا تكوب القوانين أو النظريات حبرا

على ورق . ومن تتبع السياسة اللبنانية يتذكر الشعار الذي رفعته كلما جرى بحث تغيير نص من النصوص او تقليد من التقاليد ، كالطائفية مثلا ، وهو « النفوس قبل الطروس » . ومعنى هذا الشعار لا يخرج عن معنى الآية التي ذكرنا .

وهكذا نرى ان موقف « اليمين » اللبناني من قضايا التطوير والتغيير والاصلاح يقع في نطاق المفهوم الديموقراطي « الغربي » المستمد ، عبر التاريخ ، من الاغريق والرومان والمسيحية والعلم الحديث . وهو مفهوم تقليدي ، بالطبع ، تصدت له مفاهيم اخرى ، اهمها وابعدها أثرا النظرة الماركسية وما انبثق عنها في العصر الحاضر . وهذه كلها مفاهيم « ثورية » ، أي ثائرة على المفهوم التقليدي ، اطلق عليها تعبير « اليسار » .

والآن ، ما هو « اليسار » ؟

« اليسار » ، باختصار ، يرى ان التغيير لا يأتي من ضمن الانظمة التقليدية أو « اليمينية » الحاضرة ، لأن لا صالح لها في هذا التغيير ، بل في بقاء الحال على حاله . وهي تعتبر أن أي تغيير انما يتم على حسابها . ذلك لأنها تملك كل شيء ، فأي تغيير لا بد له من جعلها تتنازل عن شيء ما .

لذلك يرى « اليسار » أن لا أمل باقناع الطبقة الحاكمة بالحسنى ، ولا بجعلها تعي صالحها في التنازل السلمي والعطاء الطوعي . فالثورة « من فوق » ، في نظر اليسار ، كلام فارغ .

من هنا كانت وسيلة اليسار الى تحقيق التغيير والتطوير والاصلاح وسيلة « ثورية » تقوم على مبدأ الاكراه والعنف . واذا كان يلجأ كما في لبنان ، الى اعتماد وسيلة « اليمين » ، اي عملية الانتخاب الشعبي العام ، فما ذلك الا لأنه تدبير مؤقت أتيح له استغلاله .

فهو ، في الواقع ، لا يؤمن بالانتخاب الشعبي العام في ظل النظام اليميني ، لاعتقاده ان نفوذ الطبقة الحاكمة ، ماليا واقطاعيا وتجاريا وسياسيا ، يسلب الناخب حريته في الاختيار .

وعوضا عن ذلك ، يتوسل « اليسار » توعية الشعب مباشرة أو مداورة عن طريق النقابات العمالية . وشعاره في هذه التوعية يتبدل حسب مقتضى الحال . لكنه دائما يهدف الى اثارة العصبية الطبقية ، كما

تتجسد في العامل وصاحب العمل ، في المنتج والمستهلك ، في الدائن والمدين . وبعبارة اخرى ، كما تتجسد في الرأسمالي من جهة ، و « جماهير » الشعب « الكادحة » من جهة اخرى .

بقي ان نقول ان « اليسار » ، في اتخاذه الوسيلة « الثورية » القائمة على مبدأ الاكراه والعنف ، يعتمد النظام المطلق ذا الحزب الواحد . وهو النظام المعروف بـ « ديكتاتورية البروليتاريا » . وهذا ينطوي على الاعتقاد ان الطبقة العاملة وحدها لها مصلحة في التغيير ، لأنها لا تملك شيئا ، ولأنها لا تخسر ، كما قال ماركس ، « سوى قيودها » .

هكذا يتضح كيف ان الصراع في لبنان اصبح صراعا جديا حقيقيا ، لأنه صراع بين مفهومين في التطوير والتغيير والاصلاح : مفهوم اليسار ومفهوم اليمين .

وهذا الصراع محتوم في العالم المعاصر . وهو ضروري ايضا . وضرورته في أنه ، بقطع النظر من هو الغالب ومن هو المغلوب ، يظل السبيل الوحيد الى الحركة ، فالتقدم ، فالحياة .

ويكون من حسن طالع لبنان ان يؤدي هذا الصراع الذي يظهر انه بدأ اليوم الى توطيد الوطن اللبناني على اسس يقترب فيها اليمين من اليسار ، واليسار من اليمين ، في ظل الديموقراطية والحرية ، اي دون لجوء الى العنف .

فالبلدان العريقة في تقاليدها المستمدة من حقوق الانسان وحرياته الاساسية تسير اليوم في هذا الاتجاه .

ونحن نثق بأن لبنان في جملة هذه البلدان .

أما البلدان التي لا تقاليد كهذه راسخة في تراثها ، ومعظمها في ما يسمى بـ « العالم الثالث » ، فما زالت تميل الى الأخذ بفكرة الطريق المختصرة ، او القفز السريع ، وهي فكرة اذا نجحت بعد عناء وتضحيات في المجتمعات الأعمق نموا في المناخ الحضاري المعاصر ، كروسيا مثلا ، فمن المشكوك فيه كثيراً أن تنجح في المجتمعات التي بدأت تخرج من كهوف السنين .

الجمعة ، ١٤ كانون الثاني

عرفت جبران حايك . صاحب « لسان الحال » من يوم عهده بالدراسة في الكلية الثانوية بالجامعة الاميركية . كنت آنئذ معلما في الادب العربي ، ومشرفا على تحرير مجلة الكلية التي كان جبران حايك وجبران عكاوي يتوليان تحريرها .

والى اليوم ، لا يزال جبران حايك ، في الاخص ، يشرفني بالقول ، علانية وفي الخفاء ، انني اول من علّمه حرفا في الصحافة .

اتذكر هذا كله ، لمناسبة القنبلة التي القيت على مطابع جريدته اليوم . واحتار الجميع ، من دون استثناء ، في تفسير السبب الذي استدعى القاء هذه القنبلة على جريدة اخبارية ، مسالمة ، بناها صاحبها ، حرفا حرفا ، بجهده وعرق جبينه .

لماذا « لسان الحال » ؟

قنبلة « صيدلية الجميل » فيها ما يقال ، ولا تجوز ، أما قنبلة « لسان الحال » فما فيها شيء يقال . حتى صاحبها رفض أن يتهم أحدا .

قال للمحقق : « لا ادّعي على أحد . ولو على مجهول » .

ومعه حق . لأن جبران حايك لا خصوم له .

واذا كان له خصم ، فالحق على الخصم .

لأن جبران حايك . وأنا اعرفه جيدا ، كرس نفسه للصحافة ، للمهنة الشريفة ايا كانت .

له رأي في الأمور ، بالطبع ، فهو مش لوح من الزجاج يزحط عليه المطر من دون ان يترك عليه أي أثر . ورأي جبران في الامور دائما موزون ومعتدل ومعقول . لا يحاول أن يشيل الزير من البير أو يكسر مزراب العين .

لذلك أحبه الكثيرون وأقبلوا على جريدته .

واذن . فلماذا القنبلة ؟

أظن أن هذه اللماذا لا جواب عليها . كاللماذا الازلية التي لا يزال الانسان يسألها بغير جدوى .

وهذا أعلى وسام يمكن أن يوضع على صدر جبران حايك الانسان والصحافي .

السبت ، ١٥ كانون الثاني

يظهر ان في العراق أشياء أخرى غير الشعر والمهرجانات الشعرية .

ففي عدد اخير لمجلة « العاملون في النفط » التي يشرف عليها جبرا ابراهيم جبرا في بغداد ، حديث موجز مع طالب في جامعة الموصل « وضع تفسيرا جديدا للنظرية الكونية الحديثة »

بالطبع . لم افهم شيئا من هذه النظرية . فلا اقدر على تلخيصها هنا . يكفي ان نعرف من ناقل الحديث ان نظرية هذا الفتى ، واسمه محمد باسل الطائي ، تضيف جديدا الى « المبادىء العلمية الموضوعة أصلا » .

ويسأله : « هل وجدت تجاوبا من قبل الدولة وتعاطفا ؟ » ، فيجيب العلامة الصغير : « الواقع ان رئاسة جامعة الموصل أبدت كل اهتمامها بي .. والمعروف ان امكانات الجامعة غير كافية حاليا لالتزام ابحاث ضخمة . لذلك قد تجد ان هناك شيئا من النقص في دراستي وبحثي في هذا المجال . لكن التعاون الوثيق بيني وبين رئاسة الجامعة كفيل ان شاء الله بازالة المعوقات ... وبقي على المؤسسات الاخرى ان تلعب دورها في التشجيع ... وفي هذا اقول ان مديرية الرعاية العلمية للشباب قدمت لي في العام الماضي هدية متواضعة هي مجموعة كتب علمية » !

ويواصل العلامة الصغير كلامه . ومما قاله انه ارسل « مبادىء اولية للنظرية الى وزارة الشباب في الجمهورية العربية المتحدة ، فوجدت الوزارة ان هذه النظرية لا بد ان يكون طرحها في مجال وزارة البحث العلمي ... كما اني ارسلت نسخة من المبادىء الاولية الى المجمع العلمي العراقي (علمي بماذا ؟) فأعرب - ويالأسف - عن عدم استطاعته مناقشة النظرية لتعلقها بعلم الفيزياء ولبعدها عما يعنى به المجمع العلمي العراقي ! » .

والآن ، كيف طلع هذا الشاب الى العالم من تحت ركام الشعارات السياسية والعقائدية ؟ وماذا سيكون مصيره ؟ ومن سينشله من مجاله الضيق الى مجال يضمن له النمو والارتقاء ؟

ومن هنا ، من هذا الشاطىء اللبناني ، يهمنا كثيرا جدا هذا الفتى .

السبت ، ٢١ كانون الثاني

نزار قباني هو الجسر الاقوى بين ضفتين : قديم الشعر العربي وحديثه .

ذلك لانه اختار باصرار ان يخاطب الجمهور ، وطمح الى ان تصفق لقصائده ملايين الايدي .

فبورك له اختياره ، وليهنأ ببلوغ مطمحه .

فهو اليوم على كل شفة ولسان . يغني قصائده المغنون ، ويقتني مؤلفاته الاقربون والابعدون .

لكنه ، لقاء ذلك ، دفع الثمن . ودفعه باهظا . فالجمهور كالغول لا يشبع ـ وهو لم يشبع من نزار قباني .

فكلما ازدرد لقمة ، طالب بالمزيد .

ولقمة بعد لقمة بعد لقمة ، لم يبق من الفريسة الا لحمها الحي .

وهذا لم يتعفف عنه الجمهور ـ الغول ، بل راح يلتهمه بنهم .

وغدا ، ماذا يبقى بعد ؟

اخشى ما نخشاه ، نحن اصدقاء نزار قباني ومحبيه ، ان يلتفت الجمهور ـ الغول ، يوما من الايام ، فلا يجد ما يأكله . عندئذ يصح قول المسيح : « لا تطرحوا درركم امام الخنازير ، لئلا تدوسها بأقدامها وترتد عليكم وتمزقكم ! »

لذلك خطر لي ، انا شخصيا ، من باب الاحتياط والحذر ، ان اجعل احدى امنياتي اختيار مئة صفحة من شعر نزار قباني ، لا تصل اليها مخالب الجمهور ـ الغول وانيابه ، من الآن الى الف سنة . فهل تتحقق هذه الامنية ؟

وهي امنية تقع تحت عنوان « فعل محبة » ـ محبة نزار قباني . ومحبة الشعر . الشعر العربي على الاخص .

فتحت هذه السيرة ، لمناسبة صدور كتيب عن « منشورات نزار قباني » حوى نص الحوار الذي اجراه مع منير العكش ونشر في عدد آخر من مجلة « مواقف » .

الكتيب عنوانه : « الشعر والجنس والثورة » .

ويقـول نزار قبـاني في مقدمة الكتيب انه يعتبر هذا الحوار « أدق أحاديثي واخطرها واكثرها مسؤولية » .

وهو ، بالفعل ، هكذا .

فأنا الذي جايل نزار قباني في حياته وشعره أجد في هذا الحوار برعمة تفتحت وانعقـدت ثمـرا . فبـاستثنـاء وجهـة نظره في صلة الشـاعـر بالجمهور ، وهي وجهة نظر لا مجال لمناقشتها الآن ، يقف شاعر الحب في شعرنا المعاصر على مستوى من الفهم لا يشاركه فيه الا القليلون .

خذوا ، مثلا ، الافكار الآتية :

● المعـاصرة ليست الحـديث عن الاشياء التي نعاصرها ، ولكنها التغلغل في لحم هذه الاشياء ، والتناسخ فيها .

● الشكل لا يتحول الى قبر الا عندما يقبل الشاعر ان يقيم فيه اقامة ابدية .

● نحن مرهقون نتيجة عصور التخلف والانحطاط بتراكمات لغوية وقـوالب من الارابسك اصبحت تضغط على افكارنا واقدامنا وعواطفنا كالحـذاء الصيني ... ليس في الشعر مناطق حرام ومناطق مباحة ... الشاعر هو مصدر الشرعية ، وهو الحاكم الفرد المطلق الصلاحية على اوراقه وعلى ابجديته ... اللغة الاكاديمية زجاجة صمغ . اي انها مادة شديـدة الالتصـاق . والذين استسلمـوا لهـا من الشعـراء غرقوا في الصمغ ، او صاروا صمغا .

● من رحم الكلام اليومي تخرج القصائد ، وأية ولادة لا تحدث في هذا الرحم هي ولادة قيصرية ...

● الفعل الشعري فعل حر ، كما ان الله في تصوري هو حرية مطلقة قبل كل شيء ...

● الارض العربية حبلى بألوف المشاكل والعاهات التاريخية . لكن مشكلة الجنس هي رأس الأفعى ، وما لم يقطع هذا الرأس ، فسيبقى جسد العربي وفكره وسلوكه وعلاقاته بالحياة والاشياء جسدا متقيحا ومتورما وواقعا تحت مورفين الرغبات والاحلام .

● اننـا نتحدث عن الماركسية ، ولا يزال السيد البدوي يزورنا في الليـل بلحيتـه وجبتـه الخضراء ، ويعلق في رقـابنا تمائمه وحجاباته ، ويقنعنا بكراماته .

● الثـورة هي ان نغير جغرافية الانسان العربي بكاملها ، ونعيد تأليفهـا من جديـد . ان العقـل العربي في أزمة لأنه توقف عن الفعل والانفعال ... ومطلوب من الثوريين العرب ان يكتبوا كلاما جديدا على ورق جديـد ، لأن الكـلام القديم انفصل تماما عن دلالاته ورموزه .. والشمولية هي الشرط الاول للعمل الثوري .

● الكتابة الثائرة يصنعها انسان ثائر .. واذا كان الانسان العربي هو الموضوع الرئيسي لكل نظام ثوري يقوم في هذه المنطقة ، فلا بد من ايجاد صيغة جديدة لمخاطبته ... واي تصادم بين الثورة والكتابة ، كما يجري الآن في بعض الانظمة الثورية العربية ، سيحمل حتف الاثنتين معا .

● يجب ان ننتهي من ... ربط الحركات التجديدية في الشعر العربي بخيول الاجانب والامبرياليين والشعوبيين . فالاستعمار لا يرحب ابدا بجديدنا ، وانما يريد لنا ان نبقى مقرفصين ..

● بالحرية وحدها ندخل الى ارض الدهشة والمفاجآت ، حيث الجبال تتحرك باستمرار ، والاشجار تطول وتقصر على كيفها ، والاحجار تغير شكلها في كل ثانية ، والارض تضجر من كرويتها ، والارض حبلى بملايين الاحتمالات .

الاحد ، ٢٢ كانون الثاني

ومن بغداد جاءني كتاب شعر جديد لعبد الوهاب البياتي . اصدرته وزارة الاعلام . يقع في ١٦٥ صفحة مزينة برسوم للفنان العراقي هاشم سمرجي . عنوان الكتاب « قصائد حب على بوابات العالم السبع » .

للعراق شاعران معاصران عبثت فيهما ايدي الحكام ، على مختلف العهـود ، لآرائهمـا « اليسـاريـة » ونشـاطهمـا المتحرر من السلفية الاجتماعية والخضوع المسبق للسلطان . لذلك قضيا سنوات عديدة في المنفى ، هنا وهناك : الجواهري في براغ ، والبياتي في بيروت وموسكو ، ثم في القاهرة .

وكنا سمعنا ان الجواهري عاد مع الحكم الحالي الى بلده ، ثم سمعنا انه غادر بلده في الاشهر الاخيرة .

وكنا عرفنا من البياتي ، في آخر زيارة له لبيروت ، انه اختار ان لا يعود الى العراق في المستقبل المنظور . ولعله لم يعد . بل الذي عاد اكيدا هو شعره . ودليلنا هذا الكتاب الجديد الذي تصدره له وزارة الاعلام العراقية .

فوداع من هنا ، وفراق من هناك .

ولعل العراق الشقيق لا يتحمل شاعرين « شيطانين » في وقت واحد ـ احدهما ، او كلاهما ، يجب ان يكون بعيدا .

والآن ، ماذا نقول عن اخينا عبد الوهاب البياتي ؟

يمكن ان نقول الكثير . لكننا نكتفي الآن بالقول ان عبد الوهاب البياتي رائد اصيل من رواد الحركة الشعرية الحديثة . تجند لها باكرا ، وخاض معاركها على جميع الجبهات ، وكان باسلا في الكر والفر . وساعدته خبرته ومعاناته ، كما ساعدته بيئته ، على التحرك الدائم . فهو ذو عقلية مرنة ومنفتحة على الرياح الاربع . يعرف ما يريد ، وينصرف اليه بحرية مغلفة بتراث عريق من الحكمة والحذر والباطنية . كان هذا سيفه وترسه في عالم عربي ضاعت فيه الحقيقة ، واستزلم كل شيء فيه للسلطان ، فتقزم وتشوه حتى لم تعد له هوية تعرف فتوصف .

وكلما اتيح لي الاجتماع الى عبد الوهاب البياتي ، ترتسم أمامي صورة الانسان العربي الحاضر ـ صورته ككائن بشري ممزق ، ثم صورته كشاعر اصيل موهوب يدافع عن اصالته وموهبته بكل سلاح في متناول يده .

فالاستشهاد قد يكون واجبا عند بعض الامم ، لكنه عند العرب اليوم شيء تافه سخيف . فالموت لا معنى له عند الامم التي اضاعت الحقيقة . لأن المعنى كل المعنى هو في البقاء ، مجرد البقاء ، وبأية شروط .

من بغداد الى بيروت الى موسكو الى القاهرة الى بغداد الى ...

رحلة طويلة شاقة قام بها عبد الوهاب البياتي في فترة من الدهر تبدلت فيها معالم الاشياء . لكنه ظل صامدا لا يقهر . يكتب الشعر كما يشاء ، شكلا ومضمونا .

وشكله ومضمونه ، مع انهما وحدة لا تتجزأ ، لم يتبدلا الا قليلا . فشكله اقرب ما يكون الى النثر المسجع الموزون ، ومضمونه لا يخرج عن كونه تعبيرا صادقا عن تطورات الطليعة في هذا الجيل ، عربيا وعالميا ،

نحو عالم تسوده العدالة والحرية والسعادة .

لذلك لم يسلم هذا الشعر من السهولة ومن التكرار . وزاد في هذه السهولة وهذا التكرار وشجع عليهما ، ان الشاعر انصرف الى قلمه كوسيلة لاكتساب الرزق . وهي وسيلة صعبة في أيدي أصحاب القلم عند جميع الشعوب ، فكيف عند العرب ، وحال الكتاب على ما هو معروف ومشهور ؟

لكننا لا نقدر ، في حقيقة الامر ، الا أن نرفع أيدينا بتحية التقدير والمحبة لزميل لنا ، حمل قضية الشعر العربي الحديث في قلبه وحقيبته ، من غربة الى غربة .

الاثنين ، ٢٤ كانون الثاني

من الف سنة والتاريخ يصنع العرب ، فهل بدأ العرب يصنعون التاريخ ؟

وثبة طلاب القاهرة ، ويجب ان تتبعها وثبات مماثلة في دنيا العرب من المحيط الى الخليج ، دليل على ان الانسان العربي لا يزال انسانا . اي لا يزال يعي انه انسان . اي لا يزال يطلب الحرية التي بدونها لا كرامة ولا حقيقة ولا سعادة .

الباقي كله كلام في كلام .

لا الحرب مع اسرائيل ولا حتى الانتصار عليها ، ولا مكافحة الاستعمار من اي نوع ولون والتغلب عليه ، ولا النظام مهما تكن صبغته وشعاراته واسياده ، ولا شيء مما هو فوق الارض اوتحت الارض ، يكون له معنى من دون الحرية .

حرية الحياة ، وحرية الموت .
حرية القول ، وحرية الفعل .
حرية التعقل ، وحرية الجنون .
حرية الروح ، وحرية الجسد .
حرية الكينونة ، وحرية الصيرورة .
حرية السكوت ، وحرية الصراخ .
حرية الحزن ، وحرية الفرح .

حرية الحب ، وحرية البغض .
حرية الجلوس على الرصيف ، وحرية الوقوف على رؤوس المسامير .
حرية النوم ، وحرية السهر .
حرية العمل، وحرية القعود في عين الشمس.

نعم ، حرية كل شيء دون استثناء . فجلود العرب اهترأت من برودة الكهوف ، وعيونهم زاغت وباخت من كثرة الظلام .

فقوموا وانهضوا ايها العرب .

كادوا يجهضون العمل الفدائي المقدس ، فحذار ان ينجحوا في اجهاض وثبة الجيل الطالع . وثبته نحو الحرية ومعرفة الحقيقة . وثبته الى مجابهة العدو ، ايا كان ، وجها لوجه .

وثبته ضد التزوير ، والكبت ، والقعود على الهامش .

وثبته ضد العلاجات المنومة ، والمهدئة ، والمسوفة ، لأمراض لا شفاء لها الا بالانفجار . الا بالصراخ ، والاقتحام ، والنزول الى الميدان ، نساء ورجالا ، شيوخا وشبانا ، بصدور عارية ، ورؤوس مرفوعة ، واقدام حافية كما في حلبة .

نعم ، هل بدأ العرب يصنعون التاريخ ، هل بدأوا يحترقون الى رماد الانبعاث ؟ هل بدأوا يقيمون قواهم على ضوء الحقيقة وبتمام الحرية ؟

العالم كله ينتظر علامة ، كما في كوبا ، كما في فيتنام ، لكي يهب أحراره في كل مكان لنجدة العرب ومباركة العرب .

العلامة : قلب جديد ، وعقل جديد ، وجلد جديد ـ يدل عليها انفجار صاعق كالبركان .

الخميس ، ٢٧ كانون الثاني

في أواخر الخمسينات ، دخل عليّ عصام محفوظ في دار مجلة « شعر » ، فاذا أنا أمام شاب رفيع العود ، رقيق الوجه ، يتوكأ على عكاز هوائي كأنه « مريض العصر » .

قال : « أنا عصام محفوظ » .

ولم أكن سمعت بهذا الاسم .

وأخرج من تحت ابطه كدسة من الاوراق ووضعها أمامي على الطاولة

وقال: «هذه مجموعة شعر أريد أن أطبعها. عنوانها «أشياء ميتة»..».

وجلس واضعا رجلاً فوق رجل . وكأن الكلمات القليلة التي فاه بها ارهقته ، فراح يتنفس بصعوبة .

وأشعل سيكارة وراح يتلفت حوله بلامبالاة هي أقرب الى السأم والقرف .

وحين وقعت عيناه عليّ ، حاول جهده أن يبتسم ويكون ودودا ففشل .

ولاحظت فشله ، فأحزنني وشجعني على أن القي اليه بطرف الحبل لئلا يغرق .

قلت : « نقرأ هذه القصائد أولا ، ثم نرى » .

قال : « طبعا » .

لكنه راح يصف ، بإيجاز ، كيف يريد مجموعته ان تخرج في شكل كتاب ، وكيف انه لا يسمح بحذف فاصلة منها .

وبعد أيام ، عاد إليّ . وتكررت عودته . ودخلت مجموعته في طور التنفيذ ، فاقترحت بعض التعديلات ، كان يقاومها بعناد . من ذلك ان بعض أبيات قصائده كانت غير موزونة بحسب قوانين الاوزان التقليدية . لكنه رفض « دوزنتها » قائلا إنه حر في كسر ما لا يكسر . وكان عبثا اقناعه بأن حرية الشاعر مقدسة ولكن ضمن القانون . أما اذا شاء أن لا يخضع لقانون الوزن ، فعليه أن لا يعتمده أصلا . فيبدع أوزانا لنفسه ، أو يجري على طريقة الشعر المنثور .

لكن عصام محفوظ لزم موقفه في عناد ، الا في بعض التجاوزات الصارخة ، سواء في الوزن أو في التركيب الشعري . وكان من نتائج هذا العناد انني رفضت أن أتحمل مسؤولية الكتاب ماديا ومعنويا ، وان رفاقي في المجلة بدأوا بالنظر اليه في خفة واستعلاء . حتى أنهم رفضوا ، لشهور عدة ، قبوله بينهم . وكانوا كلما بدرت منه هنّة من الهنّات ، يلومونني على « حشر » هذا الخروف الاسود في قطيع من الخراف البيض .

وكنت ، في هذه الاثناء ، أكدت لعصام محفوظ ان اسم مجموعته « اشياء ميتة » يطابق مسماها ، وانه لذلك سيحرقها قبل أن ينزلها الى السوق . وهكذا فعل .

وظل عصام محفوظ بيننا . ويوما بعد يوم ، اخذ يتغير شكلا

ومضمونا . صار هندامه ارتب وانظف ، ووجهه ابهى وأشرق . وصارت عيناه تخرجان الذكاء الذي كانت تطمسه ليالي طويلة من الارق وحرمان المحبة والعشرة الصادقة . وتغير سلوكه فلم يبق رازحاً تحت شعور الاضطهاد والخيبة والمطاردة . صار حيوانا اليفا . صارت كلماته تتدفق من بين شفتيه بثقة متواضعة ، لا متعالية او متعجرفة ، بالنفس .

وهكذا انقلب الخروف الاسود الى ابيض .

ومرت السنوات . وفي أواخر ١٩٦٤ ، حين تقرر اعطاء مجلة « شعر » فرصة استراحة ، تلفّتُ حولي فلم أجد الا عصام محفوظ يساعدني على وداعها بشرف .

كان الرفاق جميعا ركبوا قطار الساعة ، كل الى مصيره . ركبوه من دون ان ينتظروا قبلة الوداع الاخيرة .

ومع انهم ارسلوا تحية الوداع بعد وصولهم ، إلا أن « الخروف الاسود » يبقى ذلك الذي وضع على عددها الاخير ، اللمسة الاخيرة .

حينذاك كانت صدرت له مجموعتان : « اعشاب الصيف » ، و « السيف وبرج العذراء »

وراح عصام محفوظ يتلمس طريقه صعودا . وفيما هو يفعل ، اغراه المسرح اللبناني وكان في بداية نهضته الجديدة . وكانت لجنة مهرجانات بعلبك قد ساعدت على انشاء معهد للتمثيل أوكلت أمره الى منير أبو دبس . ولا أعلم كيف خطرت لعصام محفوظ فكرة الكتابة للمسرح . ربما لأن النهضة المسرحية كانت تبحث عن مؤلفين ومترجمين . فالعمل كان كثيراً ، لكن العمال كانوا قليلين .

وهكذا خرجت « الزنزلخت » الى حيز الوجود .

ولم يكن خروجها الى حيز الوجود كافيا . فالمسرحية تكتب لتمثل ، لكن من أين وكيف ؟

وبقيت « الزنزلخت » في الادراج سنتين او ثلاث ، مرة في درج منير أو دبس ، ومرات في درج مؤلفها .

وحين أخرجها فازليان على « مسرح بيروت » ، أجمع النقاد والجمهور على أنها ، حتى ذلك الحين ، المسرحية اللبنانية ، الاولى بامتياز .

وتلا « الزنزلخت » مسرحيات أخرى ، أذكر منها « القتل » ، و « كارت بلانش » و « الديكتاتور » ، و « لماذا قتل سرحان سرحان فرج

الله الحلو في ستيريو ٧١ » .

وهاتان الاخيرتان ظهرتا ، في الأيام الاخيرة ، في كتاب على حدة . من « أعشاب الصيف » و « السيف وبرج العذراء » ، أي من الشعر السيريالي المشوب بمسحة من الرومانسية الحديثة ، الى الانسان المعاصر ، كتب عصام محفوظ صفحة باهرة في تاريخ ادب هذا الجيل .

الاحد ، ٣٠ كانون الثاني

تلقيت اليوم رسالة من منير العكش جاء فيها ما يأتي :

« حين قرأت « يومياتك » اليوم ، عتبت عليك لأنك ، حين تحدثت عن لقائي مع نزار قباني ، من خلال الكتاب الذي استقل بطبعه منفردا ، دون علمي ، وبدون اذن من المجلة صاحبة الحق في النشر ، انما اعترفت بشكل غير مباشر بأحقية ما فعله نزار .

« عتبت ، لأنك تعرف الغاية التي أجريت من أجلها الاحاديث ، اذ اشتركنا معا في حوار مماثل ، ولانك صاحب مجلة ، نشرت أكثر من لقاء ، مع أكثر من أديب عربي وغربي ، وتعرف جيدا أحقية مجري الحوار ، وأحقية المجلة في مثل هذه اللقاءات .

« وتذكر أننا حينما بدأت الحوار معك ، كنا نضع في أذهاننا ان ما سنقوله هو مادة علمية بحتة ، تشكل وثيقة تاريخية بين الوثائق التي تخدم بحثي عن الشعر ، هذا البحث الذي أعتبره استمراراً لحركة النقد التي ركزت أسسها مجلة « شعر » .

«وأظنك قرأت تبرير نزار قباني لتفرده في نشر الحديث مستقلا، وتبريره لسبب اغفاله لمصادره الاولى ، وتبديله اسمه الاصلي . فهو يقول : انه نشره لأن « مواقف » لم تدفع له ، ولأنه يعتبر نفسه تصرف بأفكاره . ويقول : انه اغفل اسم « مواقف » ، وجر اسمي الى الداخل في صفحة مهملة ، حتى لا يمنع الكتاب في البلدان العربية ، ويحرم جمهوره من أفكاره . ترى ، ألا يحق لنا أن نتساءل : هل يستحق « السوق » مثل هذا التصرف ؟

« هنا أحب أن أذكر نزار قباني ببضع حقائق ، تعرفها أكثر مني ، باعتبارك شيخا من شيوخ الادب والنشر والعاملين في حقل الصحافة ،

وباعتبار اننا اشتركنا معا في حوار مماثل :

« ١ ـ اذا كان لأية مجلة أن تدفع ثمن الحوار المنشور فيها ، فان المتعارف عليه ، في كل البلدان ، انها تدفع لمجري الحوار ، لا للذي أجري معه الحوار . وان حق المجلة في الحديث المنشور فيها لا يتم بالدفع ولا بالقبض وانما يتم بمجرد القبول .

« ٢ ـ ليس في تاريخ العمل الادبي كله أديب أجريت معه مقابلة وطالب بأجرتها ، خصوصا تلك المقابلات التي تكون مادة للبحث العلمي . كما انه ليس في تاريخ العمل الادبي أديب تصرف بحديثه على الشكل الذي فعله نزار قباني .

« ٣ ـ يعرف نزار ان اللقاءات التي أعدها لمجلة « مواقف » ، غير معدة للنشر ، مجزأة ، في كتيبات مستقلة . وكنت أفهمت نزار شفهيا وكتابيا (من خلال البحث المنشور) ان ما أقوم به ليس الا وثائق متكاملة لبحث نظري عن الشعر .

« ٤ ـ يقول نزار ، إنه استكتب بالمجان . والحقيقة انه لم يكتب ، ولم يستكتب . فالحوار مشروعي ، انا الذي نفذه : كتابة ، وصياغة ، وتنسيقا ، ونشرا . وقارىء الحديث يدرك ذلك من خلال مقارنة بسيطة بين الاحاديث التي أجراها نزار خلال ٢٥ سنة وبين هذا الحديث . ان ذلك مثال على اصرار نزار قباني على طبع هذا الحديث دون غيره .

« ٥ ـ لنفرض انني كنت أعمل عند نزار قباني أجيرا ، وأنتجنا بذلك عملا مشتركا ، أليس من باب اللياقة والادب ان يطلعني على رغبته في نشره ، بدلا من أن يعمل ذلك في الظلام ؟ » .

الثلاثاء ، ١ شباط

لو كنت محل تسعين في المئة من المرشحين للانتخابات ، لعدلت عن تعليق صورتي على الحيطان ، خصوصا بالريشة والالوان .

لأن هؤلاء التسعين في المئة ينطبق عليهم المثل القديم : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » .

وعلى فكرة : أروع « أفيش » أو ملصوق انتخابي قرأته حتى الآن على الحيطان هو « محمد مغربي هو البديل » .

هيك بكل اختصار ، وبكثير من المعنى ، ومن دون صورة .

هذا مع الاعتراف بأن محمد مغربي مش من أولئك التسعين في المئة . فمحمد شاب أشبه ، مشرق الوجه ـ أو هيك عرفته في عهد الدراسة في الجامعة الاميركية .

وعلى ذكر عهد الدراسة ، هناك زميل لي ، ايضا في الجامعة الأميركية ، علمت بأنه ينوي ترشيح نفسه عن قضاء مرجعيون ، هو حنا حوراني .

لهذا الزميل قصة تعود الى ذاكرتي كلما رأيته وسمعت اسمه . وخلاصتها انه كان يدرس قليلا ويعيش كثيرا . وكان ، قبل مجيء وقت الامتحان بيوم او يومين ، يطوف على النابهين من زملائه الطلاب فيجالسهم ويتحدث اليهم في موضوع مادة الامتحان ، كل واحد حسب اختصاصه . وكنا نستغرب كيف كان دائما ينجح مثلنا او أكثر .

وراحت الايام الى ان جاء يوم سمعت فيه أنه يدرس في جامعة اكسفورد في انكلترا .

وجاء يوم آخر ، فاذا هو في بيروت مستشارا قانونيا كبيرا لشركة نفط العراق .

ومن نحو سنة او أكثر قليلا ، فتح لحسابه مكتبا للاستشارات القانونية والبترولية في بيروت .

واليوم علمت انه يطمح الى خدمة بلاده عن طريق النيابة . وهذا مطمح شريف لمواطن شريف ..

الاربعاء ، ٢ شباط

« مع انطون سعادة » كتاب صدر أخيرا لجبران جريج ، احد البناة الاوائل في الحركة القومية الاجتماعية التي نشأت في مطلع الثلاثينات وكتبت ، سلبا وايجابا ، فصولا حاسمة في تاريخ العرب الحديث .

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب : « ان هذا الكتاب سيفتح الباب لزيادة التعرف وتعميق المعرفة الشخصية بأنطون سعادة الشخص والزعيم في آن واحد . وذلك بالدرس والتحليل والاستقراء ... وانه سيزيد القناعة العملية الواقعية ان انطون سعادة الذي كان زعيما عزّ نظيره ، زعيما فكريا وتطبيقيا في آن واحد ، كان أيضا شخصا من لحم ودم ، وان

يكن شخصا غير عادي » .

فالذين منا حظوا بمعرفة انطون سعادة « الزعيم والشخص من لحم ودم » ، يطالعون صفحات هذا الكتاب كمن عاد الى مسقط رأسه بعد سنوات من الغربة .

الكلام على انطون سعادة عويص وشاق ، خصوصا والعالم العربي لم يجد شخصيته الحقيقية بعد . فالى ان يجد شخصيته هذه ، سيكتشف ان انطون سعادة كان الرائد الاول في مساعدته على ايجادها .

كان ، في تاريخ العرب الحديث ، اول من وجه العقول والاذهان ، نظريا وعمليا ، الى حقائق ، اهمها الآتية :

أولاً ـ الوطن هو البيئة الجغرافية التي انشأت طريقة في الحياة مستمدة من نظرة معينة في الكون والوجود الانساني ، بقيت مستمرة عبر الاجيال فطبعت سكانها بطابع مميز .

ثانيا ـ الوطن ، اذن ، هو المواطن . فحين يدين المواطن بالولاء لوطنه ، ويدافع عنه ، ويعمل في سبيل سيادته وعزته وكرامته ، بل يموت حفاظا عليه ، فانما يفعل ذلك لنفسه في نطاق مجتمع هو أحد افراده .

ثالثا ـ الوطن ، عندئذ ، فوق كل مصلحة . « فماذا يفيد الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه ؟ » .

رابعا ـ هذا الاقتران بين الوطن ـ البيئة الجغرافية او الارض ، وبين المواطن او الانسان ، عزز وعي الانتماء الى تراث معين ، يحده مكان معين وزمان معين .

خامسا ـ هذا الوعي هو شرط أساسي ، بل هو الشرط الاساسي ، لكل نهضة وكل تقدم . فمن دونه يتعذر الفعل والتفاعل في الحضارة الانسانية التي هي النهر الكبير الذي تصب فيه ، ثم تستقي منه ، كل التراثات .

سادسا ـ هذا الوعي ايضا هو الشرط الاساسي للشعور بالكرامة ، بل بالتفوق والاعتداد بالنفس . فالشعب الذي لا يعي تراثه كخلاصة خبرة آبائه وأجداده المجبولة بالدم والآلام ، عبر أجيال من الصراع بين الحياة والموت ، كيف له ان يقول « ها أنا » في حلبة السباق نحو الفتح والظفر والبناء ؟

سابعا ـ هذا الشعور بالكرامة والتفوق والاعتداد بالنفس لا بد من ان يقترن بمناقبية صارمة تبلغ حد التصوف . وهنا منشأ « المستيك » الذي هو جوهر كل حركة تهدف الى التغيير الجذري في ما هو كائن . فمن دون هذا « المستيك » تبقى أية حركة على هامش التاريخ . وفي هذا « المستيك » يبرز الانضباط والنظام والطاعة والبطولة والشهامة في طليعة الفضائل .

والى جانب ذلك ، كان الحزب السوري القومي ثم الاجتماعي اول حزب سياسي بالمفهوم الحديث . وبلغ من « ثوريته » انه استحوذ على مخيلة جيل بكامله في الثلاثينات ، والى حد اقل في الاربعينات . وكانت الطاقة التي فجرها في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية وردود فعل هذه الطاقة علامة فارقة في تاريخ العرب المعاصر .

الا ان هذا الحزب ، وقد نشأ في عزّ الفاشستية والنازية والستالينية ، تأثر بمبدأ « الزعامة » بمفهومه النازي على الاخص . وهو المبدأ الذي يعتبر « الزعيم المؤسس » نفسه تجسيدا لحتمية تاريخية هي اشبه ما تكون بالقضاء والقدر اللذين لا مرد لهما . لذلك كان « الزعيم » مصدر كل سلطة ، وكانت اعماله واقواله وحدة لا تتجزأ من عقيدة الحزب الذي أسسه وتعاقد مع الآخرين على تعزيزه ونشره ، بحيث « يهتدي » به الشعب بعد عصور من الضلال . فهو وحده التعبير الصادق الاوحد لمطلبه في العزة والكرامة والسيادة .

وإذن ، لا حرية ولا حق لأي مواطن خارج العقيدة ، تماما مثلما ان خير ولا حب ولا جمال الا في العقيدة .

ومن نتائج هذه النظرة المغلقة التعصب ، تعصب الذي يدعي القبض على الحقيقة المطلقة التي في سبيلها يستحيل كل وسيلة . (كما في الفصل الخامس من رواية « الاخوة كارامازوف ») . وأجدى الوسائل في نظر كل متعصب من هذا النوع هو العنف . فكل ذي سلطان مطلق ، كالإله العبراني مثلا ، يتوسل الحرب والتدمير والقتل والحريق للاقتصاص من اعدائه والخارجين على طاعته .

والمثال على ذلك ، قيام الحزب ضد الدولة اللبنانية في ١٩٣٨ ، و ١٩٤٩ ، و ١٩٦١ .

وفي المفهوم السياسي ، كل حزب لا يصل الى السلطة في اربعين سنة

هو حزب ميت ومن العبث احياؤه .
ذلك لأن التاريخ تخطاه ، لأنه بعدم نجاحه لم يستطع ان يصنع التاريخ كما يشاء .
والتاريخ اذا لم تصنعه في فترة من الزمن يدوسك ويجتازك .
لأن التاريخ حركة وتغير دائمان . فما يصح اليوم قد لا يصح غدا .
وكان من الطبيعي للعقيدة القومية الاجتماعية التي ارادها مؤسسها نظرة شاملة الى الحياة والكون والوجود ان تصطدم ، خصوصا ضمن اطارها السياسي والجغرافي ، بنظرتين هما ايضا شاملتان : القومية العربية بمحتواها الاسلامي ، والكيان اللبناني بمحتواه المسيحي . فما هو بمستغرب ، اذن ، ان تناصباه العداء ، حتى سلمته الاولى للثانية ، كما فعل يهوذا بالمسيح .
وما فعله يهوذا ، بشهادة المسيح نفسه ، كان قضاء وقدرا لخلاص الجنس البشري .
وهذا ، مع فارق القيمة والجوهر ، طريق الانبعاثيين الى الجلجلة .

الاثنين ، ٧ شباط

من حين الى آخر تجيء مناسبة نتذكر فيها ان بين لبنان وفرنسا صلات تتميز عن أية صلات أخرى بين لبنان وبلدان العالم الاخرى .
وربما كانت كلمة « نتذكر » مش هي الكلمة الصحيحة . فاللبنانيون دائما يتذكرون ما يربط بينهم وبين فرنسا . ولعل كلمة « نتأكد » أصح . فنحن نريد أن « نتأكد » ، كلما مسّت الحاجة ، ان هذه الصلات لا تزال موجودة .
وهذا « التأكد » ، على ما يظهر ، ضروري لنا ، فلماذا ؟ لماذا نحن ، بالنسبة الى فرنسا ، نرى من الضرورة ان « نتأكد » ، بينما نحن ، بالنسبة الى أميركا مثلا ، نكتفي بالاطمئنان الى وجود « ضمان » من جانبها ، هو بمثابة ضمان القوي للضعيف ؟
وبعبارة اخرى ، لماذا يشعر اللبنانيون ، حيال فرنسا ، بنوع من الحق المكتسب لهم عليها ، بينما هم لا يشعرون حيال اميركا الا شعور الضعيف الذي يلجأ الى القوي طالبا حمايته ورفع الظلم عنه ؟

وبعبارة أخرى أيضا ، لماذا يتوسلون الحجة والمنطق القانوني مع أميركا وسواها ، ولا يتوسلون مع فرنسا الا العاطفة والدالة التي لهم عليها ؟

خطر لي هذا اليوم ، لمناسبة عودة رئيس الحكومة من زيارته لفرنسا . وانا لا أنوي أن أجيب على هذه الاسئلة الآن ، وانما اريد ان اطرحها للتأمل والتفكير .

الثلاثاء ، ١٥ شباط

الاسبوع الماضي لم اكتب يومياتي ، لا لسبب الا لأن الانسان يشعر أحيانا ، بأنه يريد أن يطفش ، أن يهجّ ، أن يخرج حتى من ثيابه . في حال كهذه تصير الكلمة بلا معنى ، أو يصير المعنى خارج الكلمة ـ في شيء لا هو الفعل ولا هو حتى الصمت .

ولمثل هذا الشعور اكثر من مصدر . بل قد تكون مصادره مختلفة الى حد التناقض . فهو الضجر ، أو هو الشغف المفرط ، بالناس والاشياء . هو القنوط ، أو هو الامل المتفجر بالوعود . أو لعله الحزن الذي يبلغ به العمق قرارة الفرح .

وكيفمـا يكون ، فالنتيجة واحدة : وقوف فيما العالم يمشي ويدور ، وسكون فيما الحجارة ، حتى الحجارة ، تتحرك .

وها انا الآن أمسك القلم ، لا لشيء الا احتماء من الرعب . فأنا انسان أخاف الرعب الى حد الجنون ، ولا أجد غير الوصول الى الآخر أملا في النجاة منه .

الآخر ، كائنا من يكون .

فيا أنت ، أعطني يدك !

الاربعاء ، ١٦ شباط

الى جوزف صايغ :

بمفهومك للشعر ، وهو المفهوم الذي ساد لبنان بين الحربين العالميتين وعـرف بالرمزية اللبنانية ، يقف ديوانك « المصابيح ذات مساء » على

قدمين فولاذيتين جبارتين .

ففي شعرك نقاء ، وفيه فرادة تنأى به عن التذكير بشعر أحد ، حتى الذي كتبت فيه باكورة نتاجك .

وفي شعرك حضارة . فيه فرنسا كلها وبحرنا المتوسط . فيه الانسان ضائعا بين عالمين ، وضائعا حتى في أحدهما . فكأنه مصباح أصفر اللون على ضفتي نهر ، هو « السين » رمزا ، يجري الى اللامكان .

فجدير بك أن تنشر « المصابيح .. » ولو متأخرا . فيه أغنيت شعرنا الحديث في مرحلة من أهم مراحل تطوره .

لكني لا أحسبك ، بعد الآن ، الا عابرا الى الضفة الاخرى ـ ضفة الحداثة بمفهومها المعاصر في العالم . وما في هذا القول ، بالضرورة ، تفضيل بين المفاهيم السابقة واللاحقة . انما هنالك قول بأن التاريخ ، أي الانسان ، لا يعود الى الوراء . فبعد الكهرباء لن تكون عودة الى الفحم الحجري ، الا عن حاجة واضطرار .

فالشعر ، بما هو فن ، زي من الكلام مستمد من روح الجيل . فأنت لا تلبس الطربوش الآن ولا تركب الدابة في التنقل والسفر . كما انك لا تحب المرأة كما كان يحبها أجدادك ، ولا تقف منها الآن موقفهم من قبل . أو هكذا يجب أن يكون . الا اذا كنت ، في عنادك ، تأبى الا الثبات في وجه التيار ، متمسكا برواسب الصخور .

وعنادك هذا لا يفيد ، لا يفيدك أنت ولا يفيد الشعر . فلك من الموهبة الشعرية ما يجعلني اقف أمام « المصابيح ذات مساء » وقوفي أمام صرح رائع الجمال . هيكله قديم ، أما حجارته فمن مقلع جديد .

قفزة قصيرة تكفي .

انها القفزة بين المثال في الذهن ، والمثال في عالم الواقع .

الخميس ، ١٧ شباط	

الى نقولا قربان :

قرأت كلمتك في « الحوادث » عن حال الشعر اللبناني البائسة هذه الايام ، اذا قيست بحال الفنون الجميلة الاخرى .

سمعت ان « جحا في القرى الامامية » التي أخرجها جلال خوري

وقام بتمثيل الدور الرئيسي فيها نبيه أبو الحسن بلغت أرباحها الصافية مئة الف ليرة . كما سمعت ان « المهرج » لمحمد الماغوط ، وهي الآن في اسبوعها الثالث عشر ، بلغ من اقبال الناس عليها انها تعاقدت مع احدى دور السينما للانتقال اليها من مسرح مهرجانات بعلبك .

واليوم علمت من محمد الماغوط وعصام محفوظ ان النية معقودة على استئجار قاعة للتمثيل على مدار السنة .

وفي بيروت ، كما تعلم ، المسرح الشعبي ، حيث لا ينتهي شوشو من مسرحية حتى يبدأ بأخرى .

أما بشأن الرسم والنحت ، فيكفيك أن تنفتح في غضون سنة ثلاث صالات للعرض ، وأن لا ينقضي الموسم من كل سنة الا بعد أن « ينطوش » هواة الفن في هذا البلد من كثرة الدعوات التي تصلهم لحضور المعارض .

وهكذا الحفلات الموسيقية ، ولو على نطاق أضيق .

أما الشعر ؟

أنت على حق في صرختك الصادقة والعاتبة ، لكني أود لها أن لا تفرط في التشاؤم . أما سمعت بالسكون الذي يسبق العاصفة أو الذي يليها ؟ فالشعر اليوم ، لا في لبنان وحده ، وانما في العالم العربي كله ، يعاني مثل هذا السكون . فهو ان لم يكن يسبق العاصفة ، فانه يليها . وأعني بالعاصفة هنا تلك الحركة التي عرفت بحركة الشعر الحديث ، والتي أشرت اليها حين أشرت في كلمتك الى مجلة « شعر » . ذلك أنها زعزعت كيان الشعر العربي من الجذور ، فحطمت القوالب واطلقت أجنحة الابداع . لذلك لم يبق مجال الا للمواهب التي تستطيع أن تتجاوز وتتخطى . وهو أمر نادر وعسير .

فيا أخي ، قليلا من الصبر والترقب والتأهب !

الجمعة ، ١٨ شباط

الى نبيل أحمد :

أحس ، كما أحس بلند الحيدري ، ان في مجموعتك الشعرية « نبوءة في زمن الاحجار » موهبة تستطيع أن تتجاوز وتتخطى . ومن ما أعلمه عن وعيك واجتهادك في تحصيل العلم والعرفان من ينابيعه الصافية ، يزداد

أملي بأن يتحول احساسي هذا ، في يوم ما ، الى يقين .
واذا كنت أخاف عليك من شيء ، فانما أخاف من اغراقك في اصطياد الالفاظ والعبارات الى حد الوقوع في خطر الوله بها واعتبارها غاية في حد ذاتها . فبذلك تترمد نار العاطفة ، أو تنطفىء الشرارة التي تفجر العاطفة في صميم اللغة .
أقول ذلك لأن سواك ممن نحوا هذا النحو لم يسلموا من هذا الخطر ، فصار شعرهم لوحا من الزجاج البراق الجميل الذي لا يقف عليه حتى الهواء .
الجدة والغرابة ، نعم . لكن لا على حساب البساطة والعفوية والغوص الصادق الى أعماق الذات .

السبت ، ١٩ شباط

في الصور الملصقة على الجدران لا تجد الا وجوه المرشحين الرصينة المتجهمة ، ولا يشذ عن ذلك غير صورة باسم الجسر . فكأنه أدرك أن اسمه يجب أن ينطبق على مسماه .
ونحن نتمنى لباسم الباسم كل النجاح .
هذا للمناسبة .
ويعجب الانسان لماذا زهد أقطاب المرشحين المزمنين في نشر صورهم على النــاس . هل لأنهم يعتبــرون ان الناس تحفظ وجوههم حتى أدق تفاصيلها ، أم لأنهم يأنفون الظهور ، جنبا الى جنب ، مع هذه الوجوه الطارئة ؟
أم تراهم لا يؤمنون بأن للناخبين أية علاقة بانتخابهم . فالناخبون وسيلة لا أكثر ولا أقل ، بطاقات هوية تحصى وتعد ، منافع متبادلة هي أشبه بتلك التي بين الراكب والمركوب ؟
وســواء هذا أو ذاك ، يظل القانون الانتخابي الذي نمارسه قانونا مجحفــا وظالما بحق المرشحين والناخبين على السواء . فكيف لا يكون كذلك ، حين يعرف الناخب في قرارة نفسه انه يساق الى انتخاب زيد من المــرشحــين عن اضطرار لا عن اقتناع ، وحين يعرف المرشح في قرارة نفسه ، هو الآخر ، بأنه ان فاز في الانتخاب فلا يكون فوزه عن جدارة

واستحقاق و « شعبية » ؟

ولماذا لا يغيرون قانون الانتخاب هذا ؟

لماذا يقبل المرشحون الجدد بهذه الخديعة ، وهم يعلمون بأن لا حظ لهم في النجاح الا اذا رضي عنهم أصحاب الخديعة ؟

وهل لا تقاس « قامة » المرشحين الجدد أو المستجدين بمقياس قبولهم بقانون الانتخاب البالي الذي يكرس الجمود ، فالموت ؟

فبدلا عن مطالبة « الاكثرية الصامتة » بالاقبال على الانتخاب ، علينا أن نطالب بنزول « مرشحين صامتين » الى الميدان .

وهذا لا يكون ما لم نهيىء لهم أسباب النزول التي هي قبل كل شيء اشتراع قانون للانتخاب يحفظ للمرشح « الصامت » كرامته المستمدة من كرامة ناخبيه .

ولا عجب ، اذن ، ان نجد لبنان في كل دورة انتخاب منقسما قطاعات ، على رأس كل منها زعيم قائمة من المستزلمين والانصار . ثم تجمع هذه الرؤوس على شاكلة هرم من الحكام الصغار ، يجلس على قمته الحاكم الاكبر .

فما أقل عقول المرشحين « الجدد » وما أعتقها . وهي لو كانت « جديدة » بالفعل ، لاشترطت تغيير قانون انتخابي لا يسمح للجديد بأن يتسرب الى دهاليز القديم .

هكذا ، والا فلا .

ولو كان في عروق المرشحين « الجدد » دم ، لتنادوا الى اجتماع في ما بينهم وأعلنوا فيه مقاطعة « الترشيح » ، تاركين القديم على قدمه صراحة وجهارا ، الى أن يقضي الله امرا كان مفعولا .

وعندئذ تكون ، بالفعل ، بداية النهاية .

نهاية التدجيل والتضليل في حياة لبنان السياسية .

الاثنين ، ٢١ شباط

اليوم تلقيت دعوة لحضور حفلة تذكارية تقام ، بعد بضعة ايام ، لعبد الله عادل عسيران .

لن أحضر هذه الحفلة .

لن أحضرها احتجاجا على الذين أقاموها ، وعلى الذين قبلوا الكلام فيها ، وعلى الجموع الغفيرة التي لا شك في أنها ستهرع الى حضورها .

فما هكذا نظهر ، أيها الناس ، لوعتنا على فقدان هذا الشاب النبيل ، واستنكارنا لهذه الجريمة التي لا حدود لفظاعتها .

أما كان أجمل وأروع أن يتنادى الداعون الى الحفلة ، والمتكلمون فيها ، والذين سيحضرونها ، الى قبر عبد الله عادل عسيران ، فيضعون اكليلا واحدا من الزهور ، ثم يعودون الى بيوتهم من دون كلام أو ضجيج أو هتاف ؟

فمتى ، أيها الناس ، نتعلم الصمت والخشوع والوقار ؟

متى ننهي حكاية التظاهر والكلام المناسب في الوقت المناسب .

متى نخـرج عن المـألوف والمعروف وندخل قدس أقداس نفوسنا ، سعيا وراء الحلم الغريب الناطق بوحي الساعة التي نحن فيها ؟

فالى عبد الله عادل عسيران ، في عليائه حيث هو ، نرفع قلوبنا في يوم ذكراه ، وفي كل يوم .

نفعل ذلك راجين أن تمحى الجريمة عن وجه الارض .

الجمعة ، ٣ آذار

هذا الوطن الصغير ، على حد تعبير ميشال أبو جودة ، الى أين ؟

هل صار ينطبق عليه قول طارق بن زياد المأثور : العدو من أمامكم والبحر من ورائكم ؟

من ١٩٤٨ حتى اليوم ، استطاع لبنان أن يتلطى بخيال اصبعه في قضيـة الحـرب والسلم مع جارتـه الجنوبية المغتصبة . فكان محاربا بالكلام ومسالما بالفعل .

وظن أنه ، بعد أن طورد الفدائيون فأقاموا قواعدهم على حدوده مع العدو ، يستطيع ان يستمر في هذه اللعبة .

لكن لابراهيم لنكولن قول يردده حتى طلبة المدارس الصغار ، هو : « تستـطيع ان تغش بعض الناس بعض الوقت ، لكنك لا تستطيع ان تغش كل الناس كل الوقت » .

فالآن جاء يوم الحسـاب . وعـلى هذا الوطن الصغير ان يختار بين

الوقـوف قلبـا وقالبا في صف الفدائيين ، وبين لبننة قواتهم كما فعلت سوريا ومصر ، وأخيرا الاردن .

فليش الذي يجوز هناك لا يجوز هنا ؟

هذا السؤال ، وكل سؤال طرح او لم يطرح بعد ، لا لزوم له لو ان لبنان اقتطع منطقة الحدود الجنوبية وتنازل عنها للفدائيين قائلا : « هذه لكم ، دافعوا عنها بسلاحكم لا بسلاحي . والله يوفقكم » .

لكننا نعلم أن الأمر غير ذلك . فلا لبنان اقتطع وتنازل عن شيء ، ولا هو مستعد أن يفعل .

كل ما في الامر ان هذا الوطن الصغير يتذرع ، برغم صغره ، بالايمان والثقة بالنفس . وهو ، الى جانب الحكمة ، يتسلح بالصبر عن اقتناع بقضية الفلسطينيين التي هي قضيته أيضا .

ثم أنـه ورث ، منـذ القـديم ، طريقـة العيش مع واقعـه بالتجربة والتقسيط . وهو غالبا ما نجح وزمط بريشه ، كالطائر الملون الجميل .

وما دام الامر كذلك ، فلا حاجة به الى استبدالها بطريقة أخرى .

فالقوة سلاح القوي ، أما الحسنى فسلاح الاقوى .

السبت ، ٤ آذار

يظهر أن المسؤولين عن الجامعة الاميركية في بيروت تراودهم من جديد فكرة اغلاق الجامعة ، وربما نقلها الى مكان آخر في هذا الشرق الاوسط : ايران مثلا ، أو قبرص ، او أثينا ..

كل ذلك من أجل القلق الذي يتفجر من صدور الطلاب كلما هبت ريح الاحداث ، صغيرها وكبيرها .

ونحن نريـد أن نتساءل : هل ايران أكثر استقرارا من لبنان ؟ أم قبرص ؟ أم أثينا ؟ أم حتى اسرائيل التي لا نستبعد أن تكون طامحة في السعي الى اغلاق الجامعة وفتحها في أراضيها المغتصبة أو في بلد تضمن دورانه في فلكها ؟

وهـل طلاب تلك البلدان أمـوات لا يقلقون ولا يتأثرون بما يجري حولهم ؟ واذا كانوا اليوم نائمين ، فهل يبقون نائمين الى الابد ، نومة أهل الكهف ؟

وأي بلاد في العالم تنام جامعاتها على حرير الاطمئنان من المشاكل التي تعصف بالاجيال الطالعة ، بل بالجميع ، نساء وشيوخا وأطفالا ؟

أميركا ؟ فرنسا ؟ بريطانيا ؟

لا ، أيها المسؤولون عن الجامعة !

مجابهة مشاكل العصر لا تكون بالهرب منها واظهار العجز عن حلها بالتهديد وقطع الانف نكاية بالوجه .

ومع أننا مش مع الطلاب في الكثير مما يقولونه ويفعلونه ، ومع اننا نعلم أن هناك أيد خفية تلعب دورها في الاثارة والتهييج ، الا اننا لا نجد مبررا لأي موقف سلبي لا يكون باعثه الا نفاد الصبر وتجاهل الريح السائدة التي تعصف بروح العصر .

ولبنــان الذي حضن هذه الجامعة أكثر من مئة سنة ، حان له أن يعتبرها ، بالفعل لا بالقوة ، منه وله . وهو يعتبرها كذلك ، وهذا من حقه .

واذن ، فلا أحد حتى الولايات المتحدة نفسها ، حيث يعود الفضل لأبنائها بتأسيسها ودعمها ماديا وروحيا ، أي قول أخير في شأن ابقائها او الغائها . فلبنان لم يكن ، طول هذه السنين الطويلة ، مجرد « مكان » صدف أن وجدت فيه هذه الجامعة . وانما كان شريكا فاعلا يعود اليه الفضل ، هو أيضا ، في بقائها الى الآن واستمرارها على ما هي عليه . والبرهان الدامغ على هذا الفضل ما حلّ بالمؤسسات التربوية المتصلة بأميركا ، ولو أوهن اتصال ، في بعض بلدان المشرق العربي .

فاذا كان المسـؤولون عن هذه الجـامعة يظنون أنهم « أحرار » في تقرير مصيرها ، فهم واهمون . فهناك لبنان ، وهو شريك فعلي ، لا « رجل كرسي » ، في تقرير هذا المصير .

وكمـا يدافـع لبنـان عن سلامـة كيانه وحدوده ، هكذا يدافع عن مكتسباته . والجامعة الاميركية أحد هذه المكتسبات : كالجامعة اللبنانية تمـاما ، وكالجامعة الكاثوليكية تماما ، وكالمؤسسات العمرانية تماما ـ على اختلاف أنواعها وغاياتها .

وبحكم القانون ، تعد المكتسبات ، بعد مرور كذا من السنين ، من الممتلكات .

وفي ما يتعلق بالجـامعـة الامـيركيـة ، أصبحت هذه الجـامعة من

ممتلكات الدولة اللبنانية والشعب اللبناني .
والدولة اللبنانية ، والشعب اللبناني ، مسؤولان عن ضياعها ، كما هما مسؤولان عن ضياع شبر واحد من ارض لبنان .

الاربعاء ، ٨ آذار

اراهن على ان تسعين في المئة على الاقل ممن وقعوا بامضاءاتهم الأدبية والفنية على عريضة الاحتجاج ضد مشروع قانون الاحزاب ، لم يقرأوا نص القانون ولا وقعت عيونهم عليه . كفاهم انه « قانون » ، وانه عن « الاحزاب » ، وان الحكومة ـ اي حكومة لا فرق ـ عزمت على اصداره ، حتى يتعالى صياحهم بالغيرة على الحرية وبالحسرة على غروب شمسها في لبنان .

أقول ذلك لا دفاعا عن هذا القانون . فأنا ، كالتسعين في المئة من أصحاب العريضة ، لم أقرأه ولم تقع عيناي عليه . انما أقول ما أقول تدليلا على ان في لبنان ثلاث فئات :

فئة تتمنى لو تفرغ الحرية اللبنانية من معناها الحقيقي ، فلا يبقى منها سوى الشكل الفارغ ، حتى تستمر المؤسسات اللبنانية على اختلاف أنواعها من دون تغيير ، خوفا على التوازن السياسي والاجتماعي والطائفي من جهة ، وتهربا من حمل مسؤولية التغيير من جهة ثانية ناهيك بأن من الصعب على هذه الفئة أن تبرىء ذمتها من الرغبة في ابقاء الحال على ما هي عليه ، ما دامت في مصلحتها .

وفئة ثانية بلغ من غيرتها على الحرية اللبنانية انها صارت كالملسوع الذي يخاف من جرة الحبل . والافراط في الغيرة ، كالافراط حتى في الحب ، يقتل . فهي تمقت القوانين والانظمة ، لمحض كونها قوانين وأنظمة ، وتجد في الفوضى برغم مساوئها مصدرا للامان والاطمئنان .

أما الفئة الثالثة ، فهي تلك التي لا تؤمن بالحرية ، خصوصا الحرية اللبنانية ، الا كأداة لبلوغ أهدافها . حتى اذا ما بلغت هذه الاهداف ، ويل عندئذ للحرية .

وما أحسب هؤلاء الأدباء والفنانين الا من الفئتين الثانية والثالثة .

والى أن تنهض الى الوجود اللبناني فئة رابعة لا تمنح الحرية بيد

وتسلبهـا بيد ، كالفئة الاولى ـ ولا تجعل الحرص على الحرية هاجسا يغرقها في خضم الفوضى وعدم المسؤولة ، كالفئة الثانية ـ ولا تستغل الحرية وتسخرها ، كالفئة الثالثة ـ بل تنظر الى الحرية ككيان حي لا ترويه الا الدماء والدموع ، ولا تقيته الا العقول النيرة والقلوب المؤمنة ، ولا ينميه ويحرسه ويبقيه الا السواعد المفتولة والرؤوس العالية ـ نعم ، الى أن تنهض هذه الفئة الرابعة ، يظل لبنان تلك اللذة السرمدية الغارقة في بحر من الاوجاع .

الجمعة ، ١٠ آذار

بعد أقل من عشر سنين ، خرج المسرح اللبناني من طور الهواية الخاسرة الى طور الاحتراف الرابح .

وهو لا يزال في بداية الطريق .

ففي غضـون السنين العشر المقبلة ـ وهذه نبوءة ـ سنشاهد على خشبة هذا المسرح تمثيلية شبيهة بـ « هير » أو « يا كلكوتا » .

ذلك ان اللبناني طموح في المضمون كما هو طموح في الشكل . والمضمون دليل ، منذ الازل ، على عالمية هذا الشاطىء المتوسطي . أما الشكل فدليل ، هو الآخر ، ومنذ الازل أيضا ، على المبادرة والمغامرة في ميدان السبق التجاري .

وها نحن نرى علامات تحقيق نبوءتي هذه .

العلامة الاولى : « كارت بلانش » لعصام محفوظ .

العلامة الثانية : « لماذا قتل سرحان سرحان ، الخ . » لعصام محفوظ أيضا .

العلامة الثالثة : « اضراب الحرامية » لنضال أشقر وروجيه عساف .

أما العلامة الرابعة والخامسة اللتان ظهرتا ، حتى الآن ، فأمرهما أهم . أعني بهما : « المهرج » لمحمد الماغوط ، و « كاباريه » لشكيب خوري .

ففي العلامات الثلاث الاولى ، كانت التمثيليات ، برغم محتواها السياسي ، موضوعة على أساس استعراضي من شأنه ابهاج الحس . أما

في العلامتين الرابعة والخامسة ، فالتمثيليتان انما استغلتا ابهاج الحس كعنصر جانبي لا يقدم ولا يؤخر في الموضوع ، غايته استجلاب الجمهور . واذا كان « المهرج » توخى ابهاج الحس لبلوغ هذه الغاية ، وهو قادر على بلوغها بالمضمون السياسي ، فما حال « كاباريه » ، وهي تمثيلية يغلب عليها الشعر والفكر ؟

اذن ، ناديا جمال .

وهي ضربة بارعة من شكيب خوري ، هذا الذي علمته الخسارة المادية ، تمثيلية بعد تمثيلية ، ان الاعماق ضرورة لحمل البواخر الضخمة ، لكنها لا تكفي وحدها لتحريكها . فهناك الامواج المتعالية ، الزافرة ، المتلاطمة .

خذ « قبضاي » لجلال خوري .

« جحا في الخطوط الامامية » حملتها أمواج النكتة وبراعة التمثيل ، فماذا يحمل « قبضاي » ؟

الاعماق ؟

وحين فطن جلال خوري ، حاول الاستدراك . الم يأت بأوتار مطر محمد ، لا بالرقص وهز البطن ، وهي مخرجه اللائق الوحيد ؟

بدأت هذه « اليومية » هكذا ، وغايتي الكلام على تمثيلية « كاباريه » التي شاهدتها ليلة البارحة على مسرح « مهرجانات بعلبك » . والحق على هذه التمثيلية ، فهي التي اوحت إليّ بهذه الخاطرة .

أما عن التمثيلية ذاتها ، فيكفي ان أذكر ما أجبت به مندوب الاذاعة اللبنانية ، بعد نهاية التمثيل ، وهو انها تضيف بعدا جديدا آخر على تجربة المسرح اللبناني ، تأليفا واخراجا وتمثيلا . وهي عمل مسرحي ناجح ومشكور ، يضاف الى تراثنا الابداعي .

الاثنين ، ٦ آذار

منذ الازل ، والجنس شغل الانسان الشاغل . الا انه في العصر الحاضر ، خصوصا بعد فرويد وازدهار التحليل النفسي ، اتخذ ابعادا جديدة . فتحرر ، شيئا فشيئا ، من الدين كعقيدة ، ثم من الدين كضابط للاخلاق والسلوك الاجتماعي . وبلغ من تحرره في ايامنا ان هنالك من

يعتبـره غاية في حد ذاته ، لا امتدادا للحب او غريزة طبيعية يفرضـها وجوب التناسل واستمرار الحياة .

وفي مثـل هذه الحال ، اختلطت المفاهيم وغرق موضوع الجنس في فوضى النـظريـات . وعزز هذا كله ان الانسان المعاصر يزداد اختناقا وانسحاقا تحت وطأة الهموم الوجودية في مجتمعات فرغت قلوب افرادها من الايمان بالماضي والهه ، وراحت تتيه في مفازة العزلة والعنف واليأس من المستقبـل . ثم وجـدت في الجنس وما يتصل به من دوافع الاثارة والحذر والنسيان محط عزائها الوحيد .

ومن حسن حظ القارىء العربي أن يصدر ، في الايام الاخيرة ، كتاب في « الجنس ومعناه الانساني » ، لكوستي بندلي ، في بيروت . ومع انني لم أحـظ بمعـرفة المؤلف أو أتيح لي قراءة مؤلفاته السابقة ، الا انني وجدت نفسي أمام عقل راسخ في معرفة الاسس والاصول ، متحرر من التزمت والتقليد ، منفتح على التيارات المعاصرة في مجمل تناقضها . وهذا له شأنه في كاتب ديني النزعة والاتجاه ، ككوستي بندلي .

وكم افـادني كتـابه هذا عن الجنس . فمنه تعلمت مرة أخرى أن الجنس ، وأقل منه الجوع والعطش ، ليس حاجة بيولوجية بحتا . فليس للانسـان مثـل هذه الحـاجـة . فحتى الطعام ، مثلا ، مرتبط بحاجة معنوية ، كأن يكون مظهره جذابا أو كأن يؤكل مع شلة ممن يؤنس لهم . أمـا الجنس ، فمـرتبـط ، على الأخص ، بالشخصية ككل ـ بالشعور والخيـال ، وبالسعي الى اقامة شراكة مع الآخر لا يكتمل الانسان ولا يحقق ذاته من دونها . وهو ، اذن ، لا يهدف الى ازالة توتر عضوي فقط . انـه « وصال » و « جماع » مع الآخر ، يزيل العزلة التي يشكو منها الانسان ابدا .

وتعلمت من الكتـاب ان اللذة اذا اصبحت الغـايـة الوحيـدة من الجنس ، فقد الآخر أهميته كشخص وصار اداة أو شيئاً . وهكذا يخفق الجنس ، اذ يستهلك الآخر من دون أن يتحد به كي يخرج من عزلته .

وتعلمت أيضـا أن « تحرير » الجنس في المجون المعاصر ما هو الا « عبـوديـة » أقسى من عبـودية الصمت والجهل والخوف . فبه تحول الجنس ، كما يقول ماركوز ، الى اداة انتاج واستهلاك ، فأصبح آليا ، مجزءا ، لا طعم له ولا معنى ، أسيرا لعزلة من نوع آخر ، أي عزلة وسط

الجمـاهـير وفي مجتمـع صناعي متضخم . وبذلك انقلب المجون على الجنس نفسه وتهدده بالانحلال . وكيف لا يكون ذك حين يبطل الشخص الآخر ويصير التركيز على اللذة الجنسية والتهالك عليها كمية وتفننا ، لا نوعا وعاطفة . وهنا يدب السأم والفراغ ، ويبدأ الانصراف الى ما هو أكثر اشباعا واثارة من الجنس .

وتعلمت من الكتاب ان الحب لا يبطل العلاقة الجنسية ، لكنه وحده يجعل منها « وصالا » لا احتكاكا خارجيا بين عزلتين متقابلتين . فالحب اكتمال وتجاوز في آن واحد ، يتخذ العلاقة الجنسية « لغة تخاطب » بين كائنـين بشريين يسعيان لتحقيق اللقاء الانساني الاصيل . وما العفة سوى الحرص على ان يحتفظ هذا اللقاء بمرماه الاتحادي ، وبأصالته ، وبممـارستـه في خط الحب دون سواه . فالعفـة ليست سلبية تعني ، بالمفهوم التقليدي الموروث ، الخوف من الجنس ، والنرجسية ، والكبت بجميع معانيه وابعاده . فما هذه الا عفة زائفة . أما العفة الحق ، فهي لا تعـرف الخـوف من الجنس ، ولا الانطواء عن الآخر ، بل الاقتناع والمواجهة والتعبير عن الاندماج في شخصية متكاملة موحدة .

وتعلمت آخرا ، وهو الاهم ، ان الجنس سعي الى المطلق عن طريق الحب الذي فيه يتبلور الجنس ويتسامى الى حد التأليه . وهنا اتصاله بالدين وبشعائره المقدسة منذ القدم . بل انه ، حتى عند « الهيبيين » ، واسطة يعطي بها الله ـ الحب ذاته . على ان المطلق لا يدرك بالحب الذي يستقـطبـه . فهنـاك حواجـز تنتصب دائمـا بين العاشق والمعشوق ، فتفرقهما وتدفعهما الى الانطوائية والجفاء . ثم ان الزمن لهما بالمرصاد فيفسد حبهما التائق الى الخلود . لذلك لا يقترن الحب بالسعادة فقط ، بل بالكـآبـة والحنـين أيضـاً . وهنا يجيء دور الله . فهو « المشتهى بالحقيقة » كما تقول طقسية بيزنطية ، واليه تسعى في آخر المطاف حركة الجنس عند الانسان . وقديما قال أفلاطون : « العشق هو اشتهاء الابدية » .

وبإيصالنا الى الله ، ينهي كوستي بندلي رحلته البهيجة الهانئة في مجاهل الجنس وآفاقه الرائعة .

وهي رحلة فريدة في نوعها ، على الاقل في تراث اللغة العربية .

الجمعة ، ٣١ آذار

-١-

أجلس عند قدميك ، يا يسوع ، في هذه الليلة الحزينة ، أتذكر قبلة الخيانة . أتذكر آلامك على الصليب . أتذكر الهزء والسخرية من موتك . أتذكر دفنك وقيامتك . أتذكر ظهورك وآثار المسامير في راحتيك .

كان الله غائبا ، فصار بك حاضرا بيننا . صار جسدا يحيا ويموت . صار بعثا وحياة أبدية .

ها أنا أتضع ، فأرتفع بك . انكسر ، فيجبرني حنانك . أسقط فتمتد الي يدك .

في محبتك منيع أنا كالفكرة ، عصي كدمعة الفرح ، شامخ ووديع كزنبقة في الفجر .

اعرى ، فيسترني ظلك ، أجوع وأعطش ، فيكفيني حضورك .

في الشدة التجىء اليك ، في السعة والرخاء تلتجىء انت اليّ

من الأزل إلى الأبد هكذا يكون .

لأنك الانسان الذي أنا ، والاله الذي أنت .

السبت ، ١ نيسان

جاءني النهار كحدقة العين التي استضاقت من شدة الذعر . لا بياض . صباحه وظهره ومساؤه كالجفون المقرحة .

أنا الآن هائم ومهزوم ، أنا الآن لا أسمع ولا أرى . أنا الآن لا أقدر على النطق . أنا الآن ولادة جديدة تحبو .

وأمامي الدقائق التي تحركها عقارب الساعة .

بطيئة هي ، بطيئة كالشيخوخة .

-٢-

أنا واحد ، فأين جيوشك يا جنكيز . أنا البحر ، فأين أساطيلك يا روما .

عرفت اللذة ، فخارت قواي ،

الوجع . فتحجرت دموعي ،
الامل ، فأطبقت جفوني ،
الحب ، فنام في ذاتي الموت ،
البغض ، فصار لي أصدقاء .
بل عرفت كل شيء ، فلم أعد شيئا . الظلمة ابتلعتني كأيوب . العدم لبسني كما في « فاوست » ، كما في هاملت .
كما في الحروف والرسوم على الورق والصخور وشواطىء التاريخ الحافلة بالرمل .

- ٣ -

أنا عابر ، أيها الفرح .
أنا هنا جاثم ، يا غراب الحزن ، لكنني أعود .
طريقي لا نهاية لها ، طريقي هي الصفحة البيضاء في دفتر الفارس المهزوم .

- ٤ -

الزمن واسع ، كما الفضاء واسع ، كما المكان واسع ولو على فراغ ،
واسع هو الكون ، واسع وعميق كما الجرح الذي من حبيب .
كما الجرح الذي لا يندمل .
لذلك انا الصارخ الوحيد في برية من الافاعي .

- ٥ -

في المصاعب أرتجف قليلا وأهدأ .
كالدمعة التي تترقرق .
وحين يطل الهناء ، كما في الحلم ، أجلس وأعد أصابعي .
واحدة واحدة الى العشرة .
كأنك أيها الفناء، رفيقي الأوحد.

الثلاثاء ، ٤ نيسان

في بيتنا قطتان ، الأم وابنتها .
ففي يوم من الايام دخلت علينا الام ، هكذا فجأة ومن دون انذار ، وحلّت بيننا على الرحب والسعة .
كانت سوداء فاتحة ، ونبيلة الحسن . وتأكدنا ، فيما بعد ، انها سيامية الاصل ، هجرها صاحبها الفرنسي وعاد الى بلاده .
فأحببناها .
وكان لها عشيق في الحي ، يزورها وتزوره كعادة اهل العشق ، فتحمل منه ، بين الحين والحين ، جيلا من القطط .
وطاب لنا مرة أن نحتفظ بابنة لها رمادية اللون على بياض ، سميناها « ميمو » .
وميمو اليوم لم تبق عذراء . صارت اما لخمسة بطون .
ولم نر أحدا من أولادها في الطريق أو في أرض خراب . كان طالعهم حسنا . فمعارفنا يحبون القطط ، حتى سهى طوقان . بل حتى نزار وبلقيس قباني .
لكنهما لم ينجحا معنا .
ففي مرة من المرات ، حملا قطة الى دارهما . كانت تجاوزت حد المراهقة ، لسوء طالع نزار ، فاخذت تصيح وتبكي طول الليل .
وفي الصباح اعاداها الينا .
قالا : « هذه القطة لم تتركنا ننام . وهي تصر على العودة الى امها » .
ومن لا يصر على العودة الى امه ، قطة كان أم بشرا سويا ؟
واليوم، في هذا اليوم، ولّدت الأم ثلاث قطط. وكانت «ميمو»، قبل أيام، ولّدت ثلاث قطط أيضاً.

وهكذا صار في بيتنا ست قطط صغيرات ، بالاضافة الى القطتين الكبيرتين .
فمن كان بحاجة الى قطة ، فليتفضل ! بلاش . مع الدعاء له بالتوفيق وطول البقاء .
لكننا نرجو أن لا يعيد القطة التي يختارها الينا . فعندنا من القطط

أكثر مما يحتمل مبدأ الاعارة أو التأجير ، وخصوصا مبدأ الاعارة مع الشكر .

وفي أية حال ، فالقطط كلهن في أمن وسلام ، فلا داعي للقلق . وكل ما في الامر أن مصيبتهن ، كمصيبة البشر ، نابعة من هذا العصر . أي أن لا مكان لأحد آخر ، وخصوصا الحيوان ، في شقة قيست جدرانها بالمسطرة ، فضاقت حتى على الآدميين .

واذا استمرت الحال على هذا النحو مع ازدياد ، سرعان ما ينقرض الحيوان من المدن ، كما ينقرض الانسان .

وهناك البكاء وصريف الاسنان ؟

الاربعاء ، ٥ نيسان

جاءني اليوم من قال لي : « من تقاليد العرب تقديس الشخصية » .

ولم يشرح بل اكتفى من الشرح بابتسامة من اكتشف البارود .

ولزمت الصمت .

ولو شئت أن أقول شيئاً لقلت : « عند العبرانيين اقام الله حوارا مع الانسان ، فكان ابراهيم وموسى وسائر الانبياء .

وفي المسيحية تجسد الله في الانسان ، فكان المسيح وسائر القديسين .

أما عند العرب ، فلم يقم الله حوارا مع الانسان ولا تجسد فيه ، وانما أرسله .

وأنا كانسان ، افضل أن يسكن الله في جبتي على أن يخاطبني من علياء سمائه ، أو يرسلني عبدا له .

فانا والله واحد . هكذا قال المسيح .

لذلك لا تقديس للشخصية في المجتمعات المسيحية التقليدية .

فهذا التقديس نجده في المجتمعات المسيحية الخارجة على المسيحية التقليدية ، كالفاشية والنازية والشيوعية .

كما نجده في المجتمعات اللامسيحية ، ربما باستثناء البوذية ومشتقاتها . وربما أيضا باستثناء المتصوفة في الاسلام .

فحيث يتجسد الله ، يبطل كل سلطان الا سلطان الانسان .

هذا الانسان الذي خلقه الله على صورته ومثاله » .

الجمعة ، ٧ نيسان

اتفرج على العالم واضحك .
هكذا قال وولت ويتمان ، الشاعر الطليعي الاميركي في القرن التاسع عشر .
فهنيئا له ولي .
والا ، فكيف نقطف حتى ثمرة واحدة من شجرة الحياة ؟

السبت ، ٨ نيسان

اتخذت قضية الانتماء بعدا فلسفيا عميقا في هذا العصر .
اللاجئون ، المقتلعو الجذور ، خصوصا في وطنهم وبين أهلهم ، هؤلاء هم الذين في طليعة من يتهددون البشرية في أمنها وسلامها .
ومن مفارقات هذه الحقيقة ان اليهود وهم العنوان الصارخ للجوء والاقتلاع ، صاروا الآن العنوان الصارخ لاقتلاع شعب من ارضه ، وحمله على اللجوء الى بلدان اخرى .
وبعدما كان العالم كله ، جيلا بعد جيل ، معنيا بقوم لا وطن لهم ، سواء يستحقون هذا الوطن أو لا يستحقونه ، صار العالم اليوم معنيا بقوم آخرين طردهم من وطنهم أولئك الذين كانوا بلا وطن .
فكأنما فلسطين مقضي عليها بأن تكون وطنا لشعب حينا من الزمن ، ووطنا لشعب آخر حينا من الزمن أيضا .
وعند نقطة معينة في التاريخ ، أي في ١٩٤٨ على وجه التحديد ، ظن العالم أن العدالة تقضي بأن تكون فلسطين ، على صغرها ، وطنا لشعبين . فلم يرض الشعبان فتحاربا . ثم انقسما . ثم اعتدى أحدهما على الآخر وانتزع منه حصته ، هكذا بقوة السلاح .
والآن أصبح الوطن كله لشعب من دون الشعب الآخر .
اي أن المشكلة انتهت حيث بدأت في الاصل : وطن واحد لشعبين : الواحد فيه ، والآخر يسعى للعودة اليه .
واذا كان الاقتسام برهن عن فشله ، فالمشاركة لا حظ لها أيضا من النجاح .

فلا هذا ولا ذاك يرضى بالاقتسام ، ولو تظاهر برغبته فيه . كما انه لا يرضى بالمشاركة ، ولو تظاهر برغبته فيه أيضا .

فكلاهما يريد الوطن كله لنفسه ولا لأحد سواه .

ولنعد الى مبدأ كلامنا عن اللجوء والاقتلاع ، وما ينطوي عليه من سوء يتهدد البشرية في أمنها وسلامتها وراحة ضميرها .

فنحن نعلم ان اليهود ، من يوم خروجهم من فلسطين ، وهم يحللون كل وسيلة للعودة اليها . فهل يفعل الفلسطينيون مثلهم ؟

نأمل ان لا . وأملنا هذا يستند الى الفارق في وجاهة القضية لدى الشعبين . وهو ان قضية اليهود قائمة على فكرة تصطنع بها جذورا في الواقع ، بينما ان قضية الفلسطينيين قائمة على واقع ماثل للعيان : وطن سمي باسمهم ، وتوالدوا فيه وماتوا ، جيلا بعد جيل بعد جيل .

فلو لم يكن اليهود دخلاء عليه ، حتى في البداية ، فهل كانوا طردوا منه عن بكرة أبيهم ؟ وأي شعب اقترن منذ البداية بوطن وكان حظه كحظهم ؟

فالتاريخ عرف النزوح والسبي الجزئي ، لكنه لم يعرف النزوح والسبي الكامل كما جرى لليهود . فمن كانت له الارض من البداية ، تظل له حتى النهاية .

وما هذه حال اليهود .

فهم لم يكونوا في فلسطين من البداية ، اذ دخلوها في فترة من الزمن وقاتلوا أهلها وتغلبوا عليهم الى حين . أما الفلسطينيون ، فكانوا دائما هناك . والدليل ، ولو في الظاهر ، ان الوطن عرف ، وما زال ، باسمهم ، ولن يقوى شيء ، لا جبروت اليهود ولا بؤس الفلسطينيين ، أن يطمس هذه الحقيقة وان يحول بينها وبين الانتصار الاخير .

الاحد ، ٩ نيسان

في هذا اليوم الذي لا حديث فيه الا حديث القنابل التي انفجرت مساء البارحة في بعض أبنية بيروت ، وردتني هذه الرسالة من عبد الله القصيمي ، المفكر السعودي المتمرد اللاجىء الى القاهرة .

وهذه هي الرسالة :

« الصديق الاستاذ يوسف الخال
تحية وشوقا وشكرا
جاء في الرسائل القادمة إليّ من بيروت ما معناه :
لقد حدث شيء عجيب جدا ، شيء لم يكون حدوثه متوقعا . ذلك ان الانسان العربي قد أصيب بموهبة الذكاء أو بما يشبه موهبة الذكاء أو بما قد يحسب ذكاء عجبا . الانسان العربي يمكن أن يصاب بذلك !
لقد عوملت كتبك الاخيرة بالصمت الشامل . إنها لم تشتم ولم تتهم ولم ينطلق صوت واحد يطالب بايقاع اقصى وأقسى العقوبات بها وبصاحبها .
عجيب جدا ... بمــاذا يمكن تفســير ذلك في سلوك مجتمع عربي ؟ مجتمع عربي لا يشتم ولا يهتم ولا يضج استنكارا وتقبيحا وتحريضا على أفكار لم تؤمن بها ولم تدع اليها محاربيه ولا قبور آبائه ولا محفوظاته القديمة ، القديمة ولا مذاهبه أو شعاراته أو مستورداته الحديثة ... الحديثة ...
مجتمــع عربي يصاب بالوقار وبما يشبه أقصى مستويات التسامح أمام أفكار تتحدى بكل القسوة والجرأة كل ما حفظ وتعلم وسمع وقرأ واعتقد وورث من كل قبوره وتوابيته ومنابره والواحه القديمة والحديثة .
كيف يمكن تفسير ذلك ؟ هل يمكن تفسيره بغير الزعم بأن الانسان العربي قد أصيب ـ في موقفه هذا ـ بموهبة الذكاء ! وبما يشبه موهبة الذكاء أو بما هو أمكر من موهبة الذكاء ، بمكر هو أعظم من كل ذكاء ؟
أجل . لقد كانوا يريدون مقاومة كتبك ، وقد أدركوا بموهبة الذكاء هذه أو بهذا المكر الذي هو أذكى من كل مواهب الذكاء فيهم ان أقوى وأجدى أساليب المقاومة لها هو الصمت الشامل عنها .
أليس هذا ذكاء لم يمارسوا مثله ولم يجرب عليهم أو يقرأ عنهم أو ينتظر منهم مثله أو شبهه ؟
اذن لعل هذا بداية ذكاء سوف يصاب به الانسان العربي .
لعل في موقفهم هذا من هذه الكتب بشرى ضخمة أو علامة ضخمة .
لعله يعني انهم قد بدأوا يصعدون الى طور من الذكاء والدهاء كان التاريخ وكان كل العالم يسأل عاجزا عن ان يجد جوابا : لماذا لم يصعدوا اليه ، لماذا تأخر بلوغهم الرشد ... لماذا لا يكبر الانسان فيهم مهما كبرت

الطبيعة تحتهم وكبرت الاحداث فوقهم وحولهم ؟
اذن أليس شيئا جيدا أن تعلن التهنئة لهم وبهم .
الا توافقون انتم على ذلك وتعلنون هذه التهنئة ؟
محبا ومشتاقا وشاكرا ذاكرا متمنيا :

القاهرة ـ عبد الله القصيمي

ملاحظة : « أيها الصديق ، قبل ان اغادر بيروت الحبيبة حمّلت صديقا في دار الكاتب العربي مجموعة من الكتب الثلاثة الاخيرة لكي يسعدني تقديمها اليك ... أرجو انه فعل ذلك . وشكراً »

الاحد ، ١٦ نيسان

أسفت . أشد الأسف ، لسقوط بعض الوجوه في هذا الانتخاب .
وجوه أعرف بعضها واجهل البعض الآخر . لكنها كلها وجوه مشرقة كنت أحب لها أن تمثلني ، أنا المواطن ، أكر مما أحب أن يمثلني سواها من الوجوه القاتمة .
لا أريد ان اسمي احدا . وما من ضرورة ، فالقبس يضيء في الظلمة ، فتراه العيون .
لكن الديموقراطية هي تمثيل الشعب ، لا تمثيل الافكار والمثل العليا .
والشعب هو الشعب ، بكل عظمته وحقارته ، طموحه وخنوعه ، سماحته وانانيته ، تفاؤله وتشاؤمه ، محبته وبغضه ، تمرده وابائه في وجه الحاجة ، ثم خضوعه واستسلامه اليها .
فلو رشح افلاطون نفسه في باريس ، حتى لا أقول بيروت ، لسقط في الانتخاب . اذن من هو هذا الافلاطون الخارج من الكتب ، مهما سمت نظرياته ومفاهيمه ، لأهالي باريس ؟ هم يريدون أن يمثلهم واحد على مستواهم ـ على مستواهم العادي اليومي ، بكل همومه وتطلعاته الصغيرة والكبيرة ؟
فلما اراد الانكليز احدا يقودهم في الحرب ، اختاروا تشرشل . أما في السلم ، فلم يجدوا فيه رجل الساعة .
فالظروف ، بمعنى من المعاني ، تخلق الرجال . كما ان الرجال ، بمعنى من المعاني ، تخلق الظروف .

واذا كان للديموقراطية ان تعمل بنجاح ، فعلى المواطنين ان يجمعوا بين هذين المبدأين : فيختاروا رجالهم حسب الظروف الراهنة ، وفي الوقت ذاته يمهدوا السبيل الى خلق ظروف افضل .

فمن سقط اليوم من المرشحين لا عار عليه ، لكن العار في ان لا ينهض في المعارك المقبلة .

الاثنين ، ١٧ نيسان

يصعب على القلم ان يجري ، هذه الايام ، في غير موضوع الساعة : الانتخابات .

كما انه يصعب على اللبناني ان يقرأ عن غير هذا الموضوع .

ومع الكاتب والقارىء كل الحق .

الا انني ، في هذا المساء ، شعرت بميل الى تجاوز هموم الحاضر . فشرد بي الفكر الى مجاهل غريبة لم اتبينها اول الامر ، ولكنها اخذت تتضح شيئاً فشيئاً الى ان تجلت وسط هالة من النور الساطع .

فهل كنت في حلم ؟

هذا أغلب الظن . والا ، فكيف افسر عجزي ، حين امسكت القلم ، عن حصر مضمونها والتعبير عنه ؟

لذلك تجدني الآن حزينا أسيفا . فكأنما أضعت الشيء الذي كنت أبحث عنه من زمن بعيد .

لكن عزائي انني ما فقدت الامل في البحث . كما انني ما فقدت الصبر .

وكلما نظرت الى الشيب في رأسي ، حمدت الله على انني ما زلت احتفظ بكليهما . فالايام ، وهي تنحدر الى نهايتها ، غالبا ما تؤدي بالانسان الى فقدانهما .

الأمل ، ومع الأمل يأتي الصبر .

لكني ما لم اتوفق يوما الى التعبير ، على نحو ما ، عن تلك المجاهل الغريبة التي تراودني دائما ، والتي تجلت لي اليوم بمثل وضوح الحلم ، لن أصبح شيئاً .

فالوجود الذي لا يكتمل ، لهو كاللفظة التي احد معانيها خلوها من المعنى .

الاربعاء ، ١٩ نيسان

في « يومية » سابقة ، نشرت الرسالة التي تلقيتها من عبد الله القصيمي . نشرتها من دون اية ملاحظة .

الا ان لي ملاحظة عليها ، اريد ان اسجلها هنا .

خلاصة ما جاء في هذه الرسالة ، اعرب عنه الشاعر المتنبي في شطر بيته المشهور : « ما لجرح بميت ايلام » .

هذه هي التهمة التي وجهها القصيمي الى عرب اليوم . فهو يعتقد ان كتبه الثلاثة الاخيرة يجب أن تجرح الجسم العربي . فهاله ان هذا الجسم لم يتألم . اذن ، هو ميت .

ولعل القصيمي لم يكن متأكدا بعد ، او كان عنده بقية من امل . والا ، هل كان يصرخ صرخة من فوجيء بحدث لم يكن يتوقعه ، او كان يتوقعه على غير هذه الضخامة وتلك الفجيعة .

وفي هذا ما يبرره عند اي كان . فكيف عند القصيمي ، وهو الذي افنى حياته في معالجة الجسم العربي وحمايته من الموت ؟ وهل اشق على الطبيب ، خصوصا اذا كان ماهراً ومخلصا ، من ان يموت المريض بين يديه ؟

فالى اخي عبد الله القصيمي اقول :

العرب لا يقرأون ، وان رأوا لا يفهمون .

والعرب لا يرون، وإن رأوا لا يبصرون.

والعرب لا يسمعون ، وان سمعوا لا يصدقون .

انما العرب عرب ، وهم اموات أحياء يرزقون .

ولولا هذا ، لماذا نصر على الكتابة لهم ، عالمين بانهم لا يقرأون .

لماذا لا نموت معهم ، وكان الله يحب المحسنين .

بل لماذا نواظب على ايلامهم ، مع انهم لا يحكون ولا يشكون .

ألا ترى اننا لا نزال نؤمن بمجيء يوم فيه يبعثون ؟

فلنتذرع بالصبر ، لئلا نضل ونسقط ونكون من الكافرين .

الاحد ، ١٦ أيار

ترددت في قبول العودة الى الكتابة الاسبوعية لعوامل عديدة ، منها ما اتصل بما انوي عليه في المستقبل القريب أو البعيد ، وهو عامل شخصي محض ، ومنها ما اتصل بالمناخ الروحي والفكري الذي يسود حياتنا اليوم . هل هذا المناخ صالح لما أريد حقيقة ان أقوله ؟ هل لي القدرة والشجاعة على قوله ؟ هل ما أريد أن أقوله يستحق القول ؟

لم أجد ردا على هذه الاسئلة ، الا أنني شعرت في داخلي بالرغبة في الاقدام على أمر تهربت منه لسنوات ، حتى انني لم أعد أسمع تكرار هذا السؤال : « لماذا لا تكتب ؟ »

الاثنين ، ١٧ أيار

أخرجت حبيبتي من المستشفى . حضنتها في هزالها الطارىء وصبرها الدامع في سكون . كانت تئن شوقا وهي في طريقها الموجع الى البيت . قالت : « ما أثمن الصحة . كل شيء ، ما عداها ، لا قيمة له » .

لكنها كانت تبتسم ، برغم وجعها ، كلما تحرك الجنين .

كفاها انه يحيا . كفاها اننا نحيا .

الثلاثاء ، ١٨ أيار

البارحة ليلا أخذت أقرأ بعضا من نيتشه . أذهلتني تنبؤاته . منها قوله بقيام الديكتاتورية في روسيا وايطاليا والمانيا ، وبسقوط بريطانيا الى المرتبة الثانية ونهوض روسيا الى مرتبة دولة عظمى . وقوله بموت الله لأنه أصبح خطرا على سلطان الانسان ، وبأن موته وضع الانسان وجها لوجه أمام عالم من الشك ، ومن ما لا نهاية له من الفراغ وقوله بسيطرة الجماهير وخضوع الفرد لها ، وبظهور البربرية وطغيان الدولة . « كل شيء ستتحكم به الغوغاء ... الكافرون ، والفاسقون ، والاباحيون من كل نوع ، والفنانون ، واليهود والمقامرون » ، لكن الأقوياء ، حقا ، ينتظرون بهدوء ، ويراقبون ، ثم يخوضون الحرب التي لا عهد للبشرية

بمثلها من قبل .

وقال إن الولايات المتحدة الأميركية ليست دولة عظمى الا في الظاهر ، وأن الحاجة تدعو الى اتحاد أوروبا للصمود في وجه روسيا . وقال إن الاشتراكية هي نهاية التقدم ، لأنها لن تجلب الا الترهل ، ولأن الاشتراكيون يتجاهلون ان الناس ، في الاساس ، غير متساوين . وقال إن الثورة تأتي بالغباوة الباعثة للضجر وبالطغيان الذي يمارسه صغار الرجال . فالاشتراكية تقضي على كل فردية ولا تقوى على البقاء الا بالارهاب لأنها تريد أن يكون للدولة سلطان لا يتوافر إلا للطغاة . وما الديموقراطية الا سياجا ضد المطامح الطاغية . واذا كانت المؤسسات الديموقراطية نافعة ، فهي في الوقت ذاته مملة .

ولنيتشه آراء غزيرة في معنى الحياة والموت تجعله ثوريا حقيقيا في تاريخ الفكر . أهميته انه دعا الى اعادة النظر في القيم الموروثة ، وابتداع قيم جديدة ، والتطلع الى ما وراء الخير والشر .

وأهميته الكبرى لنا نحن أنه كان مجنونا .

الاربعاء ، ١٩ أيار

انتهيت اليوم من قراءة كتاب بدأت بقراءته من بضعة ايام ، عنوانه « ولادة الله » .

مؤلفه ، جيمس كافانو ، راهب كاثوليكي أعاد النظر في الكنيسة وفي التقاليد الدينية الخاصة بالعالم الغربي ، ووجد ان الظاهرة الدينية طبعت الحضارة الانسانية بطابعها ، وانها حرمت الانسان حريته ونموه . وحاول المؤلف الكشف عن منشأ الاساطير الدينية العريقة في القدم ، التي منعت الانسان من أن يكون ذاته ، ورأى ضرورة تحرر الانسان من العبودية التي أخضعته لها التقاليد الجامدة والخرافات ، وهو في هذا كله يستهدف ، كما يقول ، اكتشاف الاله الذي يعطي الحياة معنى ، ويضع الانسان حرا ومسؤولا عن سلوكه ، فلا يختبىء وراء بطل ، ولا يتذرع بالحجج والمبررات التي يقدمها التقليد الديني . عليه أن يحمل عبء الالم الانساني بنفسه ، ويتوسل قلبه لفهم الشر ، ويعتمد على عقله وقواه في ايجاد الطمأنينة والمعنى الخاص لحياته . ففي اعماق

مثل هذا الانسان يولد الله ولادة حقيقية .

والمؤلف ، في سعيه هذا ، يصر على انه لم يترك الدين ، انما نضج فيه . فمثلا ، صار قادرا على ان يقول لزوجته إنه يحبها ، وهو عارف ان الحب ليس العاطفة الشعرية التي يشعر بها نحو العذراء مريم . وكان من قبل يمجد سر الله بتكريمه في الثالوث ، أما الآن فأصبح يشعر بسر حضور الله في الانسان وهو عارف بعذاب الشك والايمان الاعمى . وكان من قبل يحتاج الى جهنم لتخبره عن آلام الانسان وعن ظلمه لأخيه الانسان ، أما الآن ففي وسعه أن يشعر بفظاعة الالم البشري ، وببؤس الحياة الخالية من الحب ، وبالقلق الذي تولده الوحشة . وكان من قبل يحتاج الى السماء لتشجعه وتشدد عزيمته ، أما الآن ففي استطاعته أن يواجه الموت بالقليل من المعنى الذي يستمده من الهنا والآن .

وفي سياق كتابه ما يبعث في دمك الحرارة . كقوله ، مثلا ، أن لا نظام عقائديا له ، بل قليل من الافكار ، وان لا كنيسة ينتمي اليها غير بضعة اصدقاء ، وان لا طقوس يتبعها سوى ضمة هنا ، ومصافحة هناك ، وحوار هادىء هنالك . وكقوله ، مثلا ، ان لا سلطة هبطت عليه من فوق ، وان كل ما لديه هو قلب ينبض ، وعقل يعي ، وابتسامة تشرق ، ودمعة لا تتمالك من السقوط . وهو لا يزعم ان في جعبته مخططا لاعادة بناء الدين ، وانما يزعم ان له ثقة لا تحد بأن الانسان الذي يترك خرافاته الدينية ويتحرر من عبادة أصنامه . يكتشف الله في نمو النزاهة والحرية وازدهارها في حياته .

قد يكون في هذا الكتاب شيء من التبسيط ، انما الذي استوقفني فيه غوصه الى الجذور ، لا كعالم اجتماعي او سياسي ، بل كانسان رأى وشهد صادقا بما رأى .

ونحن ، من المحيط الى الخليج ، في حاجة الى مثل هذه الرؤيا ، أكثر منا الى ماركس ، مثلا ، أو ماو تسي تونغ . فعبثا نبني حياتنا الجديدة الا بعقل جديد وروح جديدة ، أي بإله جديد .

السبت ، ٢٢ أيار	

لكل جيل نكهته وطعمه .
أشعر أحيانا ، وأنا في مطلع الكهولة ، بالامتعاض من الشباب ، كما يمتعض الانسان من ثمرة فجة لا تؤكل بعد .
وما أحسب الا أن الشباب ، هم بدورهم ، يمتعضون من جيلنا ، كما يمتعض الانسان من ثمرة نضجت وآذنت بالسقوط .
وكثيرا ما يضيق صدرهم من نضجنا ، كما يضيق صدرنا من فجاجتهم ، فيحدث ذلك التجاذب الذي يكاد اليوم ، أكثر من أي عصر مضى ، يمزق المجتمع كله ، من العائلة الى الدولة .
هم لا يثقون بنا ولا يجدوننا أهلا لاحداث التغيير « الجذري » الذي ينسجم مع تطلعاتهم الرومنسية ، حتى لا أقول الفجة ، في الحياة .
ونحن أيضاً لا نثق بهم ولا نجدهم اهلا لحمل المسؤوليات (مثلا ، حكومة الشباب !) فنحاول اتقاء خطرهم بمختلف الوسائل الصحيحة أو الباطلة ، والمستندة الى « النضج » أحياناً أو الى « الاهتراء في النضج » أحيانا أخرى .

ومع أن هناك كهولا أين من حماستهم واندفاعهم و « طليعيتهم » حماسة الجيل الطالع واندفاعه و « طليعيته » ، ومع ان هناك من الجيل الطالع من هم « كهول » أكثر من الكهول ، وبالعكس ، فالواقع ان السنين تلقي على عاتق الانسان ، يوما بعد يوم ، مسؤوليات وواجبات خاصة وعامة تجعله أقل شجاعة ، وأكثر حذرا ، ازاء رياح التغيير التي تهب من هنا وهناك فتعطي دليلا على الحياة .

والواقع ، من جهة ثانية ، ان الجيل الطالع ، وقد خلا من المسؤوليات والواجبات التي يلقيها مرور السنين على عاتق الانسان ، ألقى هو بنفسه على عاتقه مسؤوليات وواجبات من نوع جديد ، وهو ذلك النوع الذي يأبى التراكم والاستمرار ، لمجرد التراكم والاستمرار ، ويتخذ « الهدم » طريقا الى البناء .
من هنا ان هذا الجيل يعتبر نفسه « ثورياً » ، ربما أكثر من أي جيل مضى .

واذا صدق في هذه « الثورية » وأخذها بعين الجد ، فنحن ، اذن ، مقبلون في الخمسين سنة المقبلة الى عالم جديد ينهض على أنقاض عالم قديم .

الثلاثاء ، ٢٥ ايار

كالحمامة الزاجل ، عبرت فدوى طوقان سماءنا عائدة الى نابلس . ذرفت بعض دموعها وقالت لنا اشياء كثيرة .

لا تكتب شعرا هذه الايام . لماذا ؟ لأنها ، وهي الصادقة مع نفسها ، ستكتب شعرا يائسا وحزينا . وهذا غير ما نحن بحاجة اليه . فنحن بحاجة الى شعر البطولة والفداء والفرح والامل بالانتصار .

كانت عيناها السوداوان الساحرتان ترسلان النظر كما البصيص من خلال العتمة ، لكن ابتسامتها ظلت ، كعهدنا بها ، منارة هادية الى مرافىء الحنان والدفء .

فدوى طوقان الشاعرة والانسان هي كالقدس ، كفلسطين كلها ، أكبر من الاحتلال .

الخميس ، ٢٧ أيار

جميل أن يؤخذ الشعر بجد .

ومن الذين يأخذونه بجد ، هدى نعماني . تلك المرأة المترفة في الحس والذوق .

تصفحت كتابها الثاني « انامل لم » (كتابها الاول « اليك » صدر في السنة الماضية) فعثرت فيه بألوان جديدة غير مألوفة في الشعر العربي . ومن أهم هذه الالوان لون السخرية .

ففي هذه الايام التي لا يقال فيها سوى الجد (ولا يفعل فيها سوى الهزل !) تطلع علينا هدى نعماني بقول ساخر ، لا سخرية عادية مسطحة ، انما سخرية من النوع الذي لا يؤتى إلا للنفوس التي غاصت الى اعماق التجربة الكيانية فعبرت عنها تعبيرا ، اجمل ما فيه سذاجته الظاهرة وعمقه المكنون .

وفي الكتاب الوان اخرى ، لكن الذي استوقفني هو هذا اللون الذي ذكرت . وكم تمنيت لو انه انعكس في أكثر من بضع قصائد .

واذا صح قولي إن هدى نعماني تريد أن تأخذ الشعر بجد ، إذن وقعت على عاتقها مسؤولية جسيمة . فماذا أعدت لها ؟ هل تعيش الشعر ؟ هل تحاول كتابته بأحاسيس الانسان كانسان ، لا بأحاسيسها هي الخصوصية المحدودة في الزمان والمكان ؟ هل تقع عيناها كل يوم ولو على صفحات قليلة من الشعر العالمي الرفيع ؟

وما هو الاهم : هل تحب ؟ هل يملأ الفرح الكياني (والحزن العظيم صنو الفرح الكياني) قلبها وحياتها فيفيض منه على الآخرين ، قبل ان يجد تعبيرا له على الورق ؟

	الجمعة ، ٢٨ ايار

يظهر ان الكتائب اللبنانية جادة ، هذه المرة ، في طلبها ، وهو أن تعود الحكومة اللبنانية الى منع الاحزاب « الممنوعة » ، أي الاحزاب التي تمد نظرها الى أبعد من الحدود اللبنانية ، بما فيها الحزب الشيوعي .

ولا نظن الا ان الكتائب اللبنانية معنية ، أكثر ما يكون ، بالحزب القومي الاجتماعي الذي كان مسموحا به لفترة سبقت محاولته المشؤومة في ١٩٦١ ، حين أصبح ممنوعا الى ان شمله قرار الترخيص الذي اصدره وزير الداخلية ، كمال جنبلاط ، في عهد الحكومة السابقة .

فبين الكتائب اللبنانية وبين الحزب السوري القومي الاجتماعي خصومة قديمة ، بل ان الكتائب اللبنانية انما خرجت الى حيز الوجود في ١٩٣٦ كردة فعل « لبنانية » على دعوة ذلك الحزب الى الوحدة السورية .

كانت ردة الفعل هذه طبيعية لأن الحياة كانت تنبض في الكيان اللبناني ، كما كان طبيعيا هذا الصراع الذي استمر بين الفريقين حتى اليوم ، ولو تخلله ، في ظروف معينة ، فترات تفاهم او مهادنة ، كما في احداث ١٩٥٨ مثلا .

ولو كنا في لبنان تحت نظام الحزب الواحد، لما سمح لهذا الصراع بأن يستمر من البداية ، سواء في الخفاء أو في العلن. لكننا تحت نظام برلماني

ديموقراطي ، ومن أهم قواعد هذا النظام هو السماح باصطراع مختلف الاتجاهات والنزعات الاجتماعية والفكرية والسياسية . فالذي يقرر الغلبة لهذا الاتجاه أو ذاك هو الشعب بأغلبية الأصوات التي يطرحها في صناديق الاقتراع .

هذه القاعدة واضحة وصريحة وجوهرية في النظام الديموقراطي البرلماني ، وهي من أقدس القواعد الدستورية التي ينهض عليها الوجود اللبناني والحياة اللبنانية حاضراً ومستقبلاً . وما أحسب إلا أن الحكومة السابقة ، مهما يكن الدافع الحقيقي ، إنما استندت اليها في السماح لكل الأحزاب بالعمل الحر في لبنان .

غير أن القضية، خصوصاً بالنسبة الى الحزب القومي الاجتماعي، ليست بهذه البساطة. فلو كانت كذلك، فلا أظن أن الكتائب اللبنانية التي تعي، ومن المفروض فيها أن تعي، قدسية اصطراع الاتجاهات والأفكار في الحياة اللبنانية، كانت تسمح لنفسها بأن تسيء الى هذه القدسية وتجعل من منع حرية العمل الحزبي شرطاً سياسياً أساسياً لتأييد الحكومة، أية حكومة، أو عدم تأييدها، لو لم تكن تستند الى مبررات تلغي هذه القدسية.

للكتائب اللبنانية أن تشرح هذه المبررات، ولعلها فعلت في مناسبات عديدة. لكن هنالك مبدأ أساسي في العلاقات البشرية، وهو أنك لا تقدر أن تتعايش ولا أن تتحاور مع من يؤمن بأن لا وجود له إلا بعدم وجودك، أي أنه ينقض وجودك من الأساس. فهل هذا المبدأ، الذي قد يحتمل الأخذ والرد، وراء مبررات الكتائب، مهما يكن نوعها، وحرصها الدائم على إلغاء وجود الوحدويين السوريين، والوحدويين العروبيين، والوحدويين العالميين، للحؤول بين هؤلاء وبين إلغاء الوجود اللبناني ؟

كلنا يعلم أن الوحدويين العروبيين فشلوا في محاولة ١٩٥٨، وأن الوحدويين السوريين فشلوا في محاولات ١٩٣٦ و١٩٤٩ و١٩٦١، وأن لبنان ازداد قوة ومناعة بعد هذا الفشل، وربما بسبب منه، واذن، أمامنا وجه آخر للمسألة، وهو ما أتمنى على الكتائب اللبنانية، وهي العزيزة على اللبنانيين، أن تمعن النظر فيه: أيهما يزداد نمواً وقوة وصموداً في الحق لا في الباطل، هل هو الوجود المجرب، الواثق من نفسه، المؤمن بحقيقته، أم هو الوجود الظليل، الخائف، المستنجد بغير حقيقته التي لا تقهر ؟

السبت ، ٢٩ أيار

عدت الليلة من بشرِّي.

كنت صعدت اليها في الصباح تلبية لدعوة الشيخ حليم العازار.

والشيخ حليم العازار شيخ حقيقي، لا لأن والده الشيخ سليم العازار، كان كولونيلا في الجندرمة اللبنانية في زمن العثمانيين، ولا لأنه من عائلة آل العازار التي ورثت المشيخة أباً عن جد.

إنه شيخ حقيقي في السن وفي الشخصية معاً.

تعرّفت اليه من نحو سنة، حين جاء «دار النهار للنشر» حاملا الينا مخطوطاً عن انطباعاته في الصين، حيث أقام لسنوات عديدة امتدت من أواخر العشرينات الى أوائل الستينات.

لم ننشر هذا المخطوط لعدم قيمته، فهو في نظري قيّم جداً، وإنما لعدم ثقة الإدارة بأن للقيمة الأدبية والفكرية أي علاقة بالنجاح المادي. قد يتلاقيان أحياناً في كتاب، وقد لا يتلاقيان. والكتاب الذي يستحق النشر هو الكتاب الذي تتلاقى فيه القيمة المعنوية بالقيمة المادية. وهذا حق من حقوق الناشر بصفته تاجراً، لا معلماً ولا مرشداً ولا محسناً.

بقي مخطوط الشيخ حليم العازار من دون نشر، لكن الصلة بيني وبينه لم تنقطع. صار يتردد عليّ بين الحين والآخر، حاملا في جسده كله أعباء السنين، فلا يطيل جلوسه، وإذا أطاله أكثر من عشر دقائق، أغرقني بالاعتذار. ذلك انه، وهو رجل أعمال كبير (لم يعد كبيراً لأنه خسر أمواله كلها لا لسوء ادارته انما، كما فهمت من سواه، لطيبة قلبه وكرمه)، نشأ على أن للوقت قيمته التي لا تعوّض.

لذلك لا أعرف حتى الآن إلا القليل عن سيرة حياة الشيخ حليم العازار. كل ما أعرف من عمومياتها أنه كان في نيويورك أيام عز «الرابطة القلمية»، وأنه عرف جبران وسائر أعضائها معرفة جيدة، وأنه اشتغل في تحرير «الهدى» مع نعوم مكرزل، وأن نسيب عريضة خلفه في هذه المهمة بعدما خلف صديقه اسكندر اليازجي كممثل لشركة تجارية في الصين، وأن سنواته في الصين أذابت، شأنها مع الفاتحين، زهوة شبابه. وطبعاً، أعرف كذلك أنه اختار بشرِّي مقراً له، لأنه يريد أن يبتعد عن الناس ما

أمكنـــه الابتعـــاد، ولأنـــه يحب أهـــالي بشرِّي وبلدتـــه التي كان لوالده الكولونيل، بحكم وظيفته، صلة بها.

لا بد أن أكتب مطولا، يوما ما، عن حليم العازار. أما الآن فأريد أن أدوّن في هذا اليوم انني تغديت في منزله، وانني تعرفت الى وجوه كريمة من جيرانه وخلّانه، وانني سعدت بهذا كله.

وفي طريق العودة (وكنت لحسن الطالع وحدي) أتيح لي أن أغزو جمال لبنان الشمالي بنظراتي، وأن أتنشق عطر ورده وأزهاره وترابه.

وتـأملت وادي قاديشـا وقنوبين، وأرسلت نظري عبره الى حدشيت الرابضة على كتف هوة يخفق لها القلب. ومررت بحصرون والحدث، ثم هبـطت الى الكـورة الخضراء، فسـاحـل شكـا، وشربت من ليموناضة البترون، واشتريت بعض السمك الطازج من فدعوس. وكنت في الطريق بين حصرون والحـدث قد قطعت بعض أغصـان الزيزفون وملأت بها سيارتي. وها هي الآن في بيتنا، في بيروت، تملأبعبيرها أرجاءه وتذكّرني بطفولتي «تحت ظلال الزيزفون».

ما كان أجمـل هذا النهار. وكنت توسلت الى أربعة من أصدقائي، الواحد بعد الآخر، أن يرافقوني فاعتذروا، لا لأن «المشوار» لا يستحق بل لأن هموم العالم ومشاغله تحرمهم منه.

مساكين هؤلاء الأصدقاء وأمثالهم.

فمن لا يستطيع أن يترك هموم العالم ومشاغله ولو يوماً واحداً، ألا يكون في خطر أن يتركه العالم ؟ ألا يكون في خطر وكفى ؟

الأحد، ٣٠ أيّار

أسلمتُ جسدي اليوم لشعاع الشمس وأطبقت جفنيَّ.

لكن عقلي بقي مفتوحاً على مصراعيه.

وهكذا تواردت عليه الأفكار من كل صوب، وما أكثر ما تتوارد هذه الأيام.

وحاولت أن أصدها عني بالموسيقى فما نجحت. فأنغام فيفالدي التي كانت تنطلق من اذاعة لبنان أطلقت في عقلي من الأفكار، بقدر ما أثارت في قلبي من الأحاسيس.

وفجأة وجدتني في عالم غريب. لم أكن في حلم، بل كنت في يقظة أعمق

من الحلم.

ولمرة من المرات النادرة شعرت بنشوة الفرح. لكن سرعان ما تلاشت. ونشوة الفرح، حين تتلاشى، تترك من الفراغ ما يتركه الحدث العظيم.

وكالعادة نسيت تلك الأفكار التي راودتني، ولم يبق إلا انطباعها في ذاكرتي. فلو أن الإنسان لا ينسى حتى أفكاره، لكان رزح تحت وطأة الزمن. فلحظة واحدة من الزمن، لو علقت كلها في الخاطر، لتعذّر على الإنسان أن يعيش إلا قليلا. وبكلمة أخرى، لكان عمر الإنسان أقصر مما هو بكثير. فالنسيان يخفف مفعول اللحظة الزمنية، كما يخفف الماء نقطة من السم.

كل هذا أقوله على هامش تلك الفترة الصباحية التي أسلمتُ فيها جسدي، للمرة الأولى في هذا الفصل، لشمس أيار الحائرة بين الربيع والصيف.

وغداً نبدأ أسبوعاً آخر، والجامعة الأميركية لا تزال تعاني المحنة التي وجدت نفسها فيها من ١٨ يوماً.

وفيما نأمل جميعاً في أن تخرج الجامعة من هذه المحنة، فتعود الى تأدية رسالتها التعليمية، أود أن أغتنم الفرصة لأشير الى وجه من وجوه القضية لم يشر اليه احد من الذين عالجوها. وهو أن في أساس القلق الذي نزل بالجامعة بعد اعتزال بيارد ضودج ووفاة بنروز، ثم أخذ يتزايد مع الأيام، زيغان هوية الجامعة.

هل هي أميركية، أم لبنانية، أم مشرق ـ عربية ؟

قبل بيارد ضودج كانت أميركية أولا، ولبنانية ثانيا، ومشرق ـ عربية ثالثا. ثم مع مرور الأيام مالت الى أن تصبح مشرق ـ عربية أولا، وأميركية ثانيا، ولبنانية ثالثا. وكان التشديد يقع على هذه الصفة أو تلك استناداً الى ظروف الحال. وظروف الحال هنا متأتية من عاملين: عامل المال، وعامل السياسة.

فكانت الجامعة تساير الجميع. فهي أميركية مع المتبرعين الأميركيين، وهي عربية مع المتبرعين أو المتزعمين العرب، وهي لبنانية مع القوانين اللبنانية والسلطة اللبنانية.

وهكذا وجدت نفسها، في أيام المحن، لا مع ستي بخير ولا مع سيدي بخير. أي وجدت نفسها معزولة.

فالأميركان يقولون لها: اذا كان العرب لا يدفعون ولا يرضخون فهم لا يستحقونك ؟ والعرب يقولون لها: ما دمت جامعة أميركية فليهتم بك الأميركان. واللبنانيون يقولون لها: لو كنت جامعة وطنية لبنانية فلك حق علينا، ثم اننا فقراء وعندنا جامعة وطنية لبنانية لا نعرف ما نفعل بها.

وفي أيام المحنة الأخيرة هذه، توسطت الحكومة اللبنانية ثم انسحبت ووقفت على الحياد، وتوسط الأميركان بشخص رئيس مجلس الأمناء ثم قفل راجعاً الى بلاده من دون جدوى. أما العرب، كعرب، فلا هم في العير ولا في النفير.

بقي سعيد عقل، طبعاً، وهو الذي تدفعه، الى جانب عاطفته الطيبة، ثقته بأن في المال علاجاً لكل داء. فهو، مثلا، بألف ليرة في الشهر، يدفعها لأحدهم، ينتظر أن تفيض البلاد ثقافة وعلماً. فلا غرابة، والحالة هذه، أن يحصر المحنة التي تتخبط فيها الجامعة في نطاق مظهرها الخارجي: زيادة ١٠٪.

واذن، فالحل بسيط: تعالوا نجمع هذه ١٠٪، وكفى الله المؤمنين القتال. وجمعها بسيط في نظره: أليس في لبنان ستمئة واحد يدفع كل منهم الف ليرة لبنانية ؟ «نعم»، صاح الدكتور ابراهيم مفرج، أول من صاح، ولحقه، ولا نستغرب، كثيرون.

واذا استمرت المحنة فقد يجمعون أكثر من ستمئة الف ليرة، لكن هل هذا العلاج يشفي الداء ؟

الداء أعمق بكثير مما يقتضيه هذا العلاج.

فهنالك، الى جانب زيغان هوية الجامعة، ما يسود المنطقة من خيبة وقرف وقلق على المصير، بل ما يسود العالم كله من تناقض تعززه رياح التغيير. فالعلاقات البشرية ـ سواء علاقة الحاكم بالمحكوم، او علاقة الرئيس بالمرؤوس، أو علاقة الآباء بالابناء ـ تتغير يوما بعد يوم، ويتغير معها مفهوم السلطة. ففي الامس كان مصدرها الله، ثم الوراثة، ثم الشعب. ولعلنا نشهد اليوم ولادة مصدر جديد للسلطة هو اللاسلطة. واذا شئنا الحفاظ على التوازن، أو على انقاذ ما يجب انقاذه، علينا ان نعالج علاقاتنا البشرية بعقلية جديدة منفتحة على ما أصاب مفهوم السلطة من تغيير، خصوصا عند الاجيال الطالعة. فكما انك لا تستطيع

ان تتذوق لوحة تجريدية بمفهوم الفن في عصر النهضة، كذلك لا تستطيع ان تتفهم سلوك الأجيال الطالعة بمفهوم السلطة المألوف.

هذا هو التحدي الكبير الذي يواجه الجامعة الاميركية، كما يواجه المؤسسات القائمة في العالم كله.

الثلاثاء، ١ حزيران

هذا الأسبوع أسبوع غزة. وهو، في الوقت نفسه، أسبوع الهزيمة.

غزة، أو «قطاع» غزة، جزء من فلسطين، تماما كما يافا جزء من فلسطين، وحيفا، والقدس، والرملة، وحتى تل ابيب نفسها.

ولم يطلق عليها اسم «قطاع» الا لأنها كانت مرشحة للاقتطاع.

هكذا لواء الاسكندرون، هكذا الجولان، هكذا الضفة الغربية. واخشى ان يكون هكذا «الجنوب».

فالاستعمار (ربما فيه الصهيونية) كان ولا يزال يعمل على جبهتين: الجبهة العلنية والجبهة الخفية.

الجبهة العلنية معروفة ولا لزوم لشرحها. لنكتفي بالقول إنها الجبهة الأقل خطورة. فهي تحصد ما تزرعه الجبهة الخفية.

ومن أساليب الجبهة الخفية ما قد نسميه «الايحاء». والايحاء سلاح بسيكولوجي مشهور ومعروف على الصعيد الفردي، كأن توحي لأحدهم بأنه «كذا» حتى يدخل في ذهنه، مع مرور الزمن وكثرة التكرار، انه «كذا» في الحقيقة والفعل.

وهذه حال الايحاء على الصعيد الجماعي. فاسكندرون، مثلا، «لواء» له وضعه الخاص، والجولان «منطقة» ملحقة بسورية!

وتبدأ عملية الايحاء باعطاء اسم «اقليمي» للجزء المرشح للعزل والاقتطاع. فاذا لم يكن موجودا وفي التداول، نبشوه من بطون التاريخ أو غرسوا له اسما جديدا في الاذهان. وهم في ذلك «يوحون» لاصحابه بأنه ليس من بلادهم في الصميم، حتى اذا «انسلخ» عنها لا يشعرون بان كيانهم زال او كرامتهم تمرغت في الوحل.

خذ الضفة «الغربية».

آه، الضفة الغربية!

فمنذ ١٩٤٨، صارت الضفة الغربية ضفة غربية تقابلها ضفة شرقية.

و«أوحى» الاستعمار الصهيوني بأنها انضمت الى جسم غريب. ثم اخذ يعمق هذه النظرة، حتى اشتد الخصام بين الضفتين وراحت كل ضفة تتهم الاخرى بانها تحاول فرض السيطرة عليها. وكان هنالك دائما «الضفة الغربية» المسكينة الواقعة تحت سيطرة الاردن، والملك حسين «البعبع» الذي يحاول افتراسها! وهكذا صار للضفة الغربية، وهي والضفة الشرقية جزء لا يتجزأ من المملكة الاردنية (ناهيك بالوحدة العربية والوطن العربي!) «هوية» مستقلة، واذن موضوع قابل للاخذ والرد.

وهناك سيناء، وأمرها معروف. والاستعمار الصهيوني يوحي، من دون كلل أو ملل، بأنها اذا لم تكن، جغرافيا، جزءا من فلسطين (أي اسرائيل طبعا)، فهي بلا ريب ليست جزءا من مصر. ولعبة ارتداد اسرائيل وراء ضفة القناة الشرقية، تمهيدا لفتح هذه القناة، لا تخفى، كما يقولون، على القارىء اللبيب!

بقي «الجنوب». ولم يسىء عدو الى الجنوب كما اساءت اليه اليافطات التي انتشرت، يوم العدوان عليه، في شوارع بيروت، والمقالات التي كتبت، والمجالس والهيئات التي انشئت في لبنان «دفاعا» عن الجنوب. فالى هذا الحد برعت أساليب العدو الصهيوني في «الايحاء». ولو تنبهنا، ولو اننا حتى اليوم نتنبه، لنجونا من السقوط في شرك هذه الاساليب. فعندما يقع العدوان على الجنوب، يجب ان لا نصيح وقع العدوان على الجنوب ، وانما يجب ان نقول وقع عدوان على لبنان. فليس في لبنان جنوب وشمال وشرق وغرب، وليس فيه «قطاع» جنوبي «مرشح» للعزل والاقتطاع. هناك فقط لبنان: كل قرية فيه مثل كل قرية، وكل تلة فيه وكل حجر ككل تلة وكل حجر.

وعوضا عن معاملة اللبنانيين على الحدود الجنوبية (انتبه، لا تقل «ابناء الجنوب» كما تنشر الصحف والمناشير واليافطات!) كمنكوبين أو لاجئين أو شهداء، علينا ان نعمد في الحال الى بناء قرى جديدة على الحدود، لا الاكتفاء بترميم القرى القديمة. وبذلك نوحي للبنانيين جميعا، لا لاسرائيل وحدها ولا حتى للعالم وحده، بخلاف ما يوحي لهم العدو: وهو ان لا «جنوب» في لبنان، وان اقصى شبر ارض في الطرف الآخر من لبنان هو على حدودنا مع العدو.

الابعاء ، ٢ حزيران

جاءني اليوم من قرأ لي «قصيدة» طويلة استغرقت قراءتها أكثر من نصف ساعة.

وظهر، عند الصفحات الاخيرة، على صاحبها التعب والملل (ربما لأنه قرأها مرات عديدة لنفسه وللآخرين). وعندئذ فقط توقف لحظة ليعتذر ويقول «اتعبتك... رح اخلص».

والواقع انني لم أشعر بالتعب والملل. كنت اصغي بانتباه وأنا فوق التعب والملل، لا لأن «القصيدة» لا تتعب ولا تملل، بل لأنه سرني ان أجد هذه الأيام «شاعرا» بلغ من اهتمامه بما كتب ومن حماسته له ان يتحمل عناء المجيء من الطرف الآخر للمدينة لقراءته على أحدهم، كائنا من كان، واستطلاع رأيه فيه. كان هذا كافيا، في نظري، لأن «يشنف» اذني ويبعث النشاط في ذهني.

لكن، الى متى يظل في ربوعنا أمثال هذا الشاعر؟

تصور: ان يقطع مسافة طويلة، وان يفرض عليك سماع قصيدته التي هي بدورها طويلة، وان لا يعتذر لك الا بعد ان شعر هو بالتعب والملل!

هذه «مونة» المبدع. فهو يشعر بأنه «يمون» على نفسه فيرهقها، وعلى الآخرين فيسلبهم ساعة من وقتهم، سواء كان وقتهم ثمينا أو غير ثمين.

فهل قلَّ «المبدعون» في هذه الأيام، أم ان هذه الأيام تضيق خناقها على «المبدعين»؟

وعلى فكرة: كان ذلك «المبدع» راهبا.

فهل هذا يقدم أو يؤخر في صواب نظرتي هذه الى واقع الحال؟

الخميس ، ٣ حزيران

جمعتنا الليلة سهرة عند منوال وليلى يونس.

كان ضيف الشرف فيها وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة.

طبعا، شربنا أفخر الشراب، وأكلنا أطيب المآكل.

وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل، ماذا يبقى عالقا في ذاكرتي مما رأيت وسمعت؟ بلى، علق في ذاكرتي شيء، ربما لأن له صدى من الماضي.

وهو ان فؤاد افرام البستاني صاح في وجه جوزيف مغيزل، ردا على فكرة ساقها في أثناء الحديث: «أنت لا تعرف تاريخ لبنان! انتم لا تعرفون تاريخ لبنان!».

اما صدى هذه الصيحة من الماضي، فهي الواقعة الآتية:

في أوائل ١٩٥٨، دعا شارل مالك، وكان وزيرا للخارجية، نخبة من اصدقائه الحريصين على لبنان، حاضرا ومستقبلا، وشرح لهم ما كان يتهدد لبنان من أخطار. ثم رغب اليهم، كمواطنين ومفكرين كبار، ان يتدارسوا الأمر وينتهوا منه باقتراح الطرق والوسائل الكفيلة بمساعدة الحكومة على دفع تلك الاخطار.

وفي نهاية السهرة نهض الحاضرون مودعين، من دون ان يتقدم أحد بأي اقتراح «عملي».

وفي الطريق الى الباب، وضع فؤاد افرام البستاني ذراعه حول الوزير مالك وقال له على مسمع مني: «لا تقلق يا دكتور، رح نام ومد رجليك. لبنان ما بيصر له شيء!»

وفي الحال امسك شارل مالك بذراعي وشدني الى الوراء، ففهمت انه يريد أن يستبقيني.

وخرج الجميع. وما أن أغلق الباب وراءهم حتى عمل شارل مالك بخلاف نصيحة فؤاد البستاني، فبدل ان لا يقلق اشتد قلقه. وبدل ان يمد رجليه راح يذرع الغرفة ذهابا وايابا كالسجين الغاضب.

وأخذ يصيح: «اذا كان هيك بيقول فؤاد البستاني، راحت على لبنان! شو هالانخذالية، شو هالاستسلامية...»

وما أحسب الا ان فؤاد افرام البستاني كان يقصد من تطمين الوزير الى القول له، كما قال الليلة لجوزيف مغيزل: «انت لا تعرف تاريخ لبنان! انتم لا تعرفون تاريخ لبنان!».

أظن انني أفهم ماذا يعني هذا الكلام. لكنني أريد ان أترك شرف تفسيره لصاحبه. فهل يتفضل فؤاد افرام البستاني، خدمة للبنان وحقيقة لبنان وفهم تاريخ لبنان، ان يفسره لنا؟ وعلى وجه التحديد ان يفسر لنا «ما هي علاقة فهم تاريخ لبنان بعدم وجوب القلق عليه في ١٩٥٨، وكذلك في ١٩٦١، و١٩٦٧، و١٩٧١، وفي مستقبل الأيام؟».

الخميس ، ١٠ حزيران

لا أعرف عن الادب الروسي الا القليل. قرأت كثيرا لديستيوفسكي، ثم لتولستوي، وقليلا لهذا أو ذاك، كباسترناك مثلا.

وأخيرا قرأت لسولجنتسين.

قرأت له «جناح السرطان» في جزئه الأول، والآن في جزئه الثاني.

لسولجنتسين، كما لكبار الأدباء الروس الذين عرفتهم، ميزة رئيسية واحدة تجمع في ما بينهم: اعتبار الشخص عالما قائما بذاته ـ عالما واسعا، متناقضا، مجهولا، معلقا بين الفناء والبقاء. وهو عند البعض، كديستيوفسكي، لا يخلص الا بالنعمة، وهو عند البعض الآخر، كسولجنتسين، لا خلاص له يعرف فيوصف.

لذلك تجد رواياتهم بمثابة سيرة حياة أشخاص يتحركون على مسرح الزمان والمكان ـ يتحركون عموديا لا افقيا، أي يتحركون في عمق اعماق انسانيتهم التي لا غور لها.

من هنا الاسهاب والاسراف في وصف دقائق الأمور وتفاصيل الأشياء، فاذا بأشخاص الرواية ينبضون بالحياة، واذا بكل منهم نموذجا تاريخيا حيا لفكرة او لفعل، أو لفكرة وفعل معا.

صحيح ان هذه الميزة قاسم مشترك بين كبار الروائيين الاوروبيين جميعا، غير انها عند الروس ميزة صارخة.

اما عند الروائيين العرب، كبارا وصغارا، فلا وجود لها. أي لا وجود حقيقياً لها.

ذلك ان في طبيعة الشعوب السامية، كما يزعم البعض (ومنهم توفيق الحكيم)، ميلا عن الجزئيات الى العموميات، وعن الشخصي والذاتي الى الكلي والشمولي، وعن الواقعي والارضي الى الخيالي والسماوي. فلا غرابة، وهذه طبيعتها، ان تبدع عبقريتها الاساطير والأديان، وان تصارع الطبيعة بالتعاويذ والرقى والخرافات، لا بالعقل والعلم.

واستطرادا، لم تعرف الشعوب السامية من فنون الأدب الا الشعر، والا الأقوال المأثورة. اما الفنون الاخرى التي يقتضي لها البناء والنظام، وتتوسل الجدل والحوار والتناقض الفكري والحياتي، وتدور حول أشخاص يعيشون الحياة بكل آلامها وافراحها، جدواها وعبثها، نجاحها

وفشلها ـ اما هذه الفنون فلم يكن لها من أثر.
فهل تبقى حالها هكذا؟ هل في طبيعتها ان تكون ابدية سرمدية لا تتغير؟
الى الآن لم تتغير .
فهل تتغير في مستقبل الأيام، في عالم أصبح يتغير فيه كل شيء؟

الجمعة ، ١١ حزيران

الى مي الريحاني:
لا يا مي، ما هكذا تكون البداية.
الادب تعرية امام القراء، «دون ستار، ودون سلاح».
أشياؤك الصغيرة؟ اسرارك الصامتة؟ هذه هي التي تصنع الادب الصحيح.
فالاديب الذي يضع بينه وبيننا ستارا، ولو شفافا، يضحك على ذقوننا، ويحتقرنا، ولا يثق بنا.
والادب صلة حميمة بين الكاتب والقارىء ـ صلة قائمة على الجد، والاحترام، والثقة.
واطلالتك في كتابك الاول «حفر على الايام» من وراء حجاب، كما تقولين في المقدمة، لا يقيم مثل هذه الصلة بينك وبين قارئك، فكيف تثيرين اهتمامه وشغفه بما تكتبين؟ كيف تكسبين ولاءه وحبه؟
لا، يا مي، ما هكذا تكون البداية.
فابدئي من جديد. اعطنا «اشياءك الصغار» كلها، و«اسرارك الصامتة» كلها، دون ستار ودون سلاح.
تعري، ولا تخافي من الفضيحة.
ففضيحة الادب ليست فضيحة. الفضيحة قلة الادب.

السبت ، ١٢ حزيران

كان هذا اليوم يوما عاصفا.
اكتفي من احداثه بجلوسي، حينا من الوقت، في مكتب وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة.

كان في ورشة عمل.
قال: «انظر».
فنظرت الى الطاولة المستطيلة، فاذا عليها كدسة من الرسوم والخرائط.
قلت: «ما هذا؟».
قال: « مدارس . مدارس في مختلف انحاء الوطن اللبناني ».
ورحت اقلب التصاميم الملونة، واحدا بعد الآخر، فاستولت علي الدهشة.
وسكت. فقال: «ما بك؟»
قلت: « لماذا لا نعرف شيئا عن هذا؟ نحن، المواطنين، نظن ان الوزراء، خصوصا في «حكومة الشباب»، يجلسون وراء مكاتبهم في انتظار الرحيل».
فضحك وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة.
وضحكت معه.
وفي هذه الاثناء دخل موظف كبير وقال: «يا معالي الوزير، المادة كذا من القانون كذا لا تجيز كذا».
فصاح : «كان هذا في الماضي، اما الآن فأنا وزير، وانا اضع القوانين في وزارتي».
فغاب الموظف الكبير عن الغرفة.
وشئت مداعبة الوزير، فقلت «نشروا لك صورة تحمل فيها عصا تفرق بها المتشاجرين من الطلاب!».
قال: «نعم. كانوا يحملون العصي، فحملت انا ايضا عصا. فمن يحمل عصا، أحمل انا ايضا عصا، ومن يحمل رشاشا أو مدفعا، أحمل انا أيضاً رشاشا أو مدفعا، ومن يحمل العقل والمنطق أتسلح أنا بالعقل والمنطق. وبكلمة، أخوض المعركة بسلاحها».
وبعدما ودعت الوزير، علمت من بعض اصدقائي العاملين في وزارته ان هذا الوزير هو وزير بالفعل ، وزير عمل وتنفيذ.
وزير قبض الوزارة عن جد، فلا هي مرحلة في حياته السياسية، ولا هي وجاهة، ولا هي شرب قهوة وصف كلام.
على فكرة: لا فناجين قهوة ولا قناني، حتى ولا سكاير في غرفة الوزير.

وحين أخرجت من علبتي سيكارة، مد يده واخذ منها واحدة.

وفي طريق عودتي، رحت أفكر طويلا في الاعلام الرسمي:

مهمته كصلة وصل بين الحاكم والمحكوم، فينقل بصدق وأمانة، ما يفعله الحاكم من أجله، وينقل الى الحاكم، بصدق وامانة ايضا الى المحكوم، ما يراه المحكوم في ما فعل الحاكم وفي ما لم يفعل.

وخرجت من تفكيري بنتيجة: لا اعلام رسميا في هذه الدولة، لان لا ثقة للاعلام الرسمي بالشعب، ولا ثقة للشعب بالاعلام الرسمي.

فالاعلام الرسمي في نظر الشعب كذب وتدجيل، والشعب في نظر الاعلام الرسمي لا يستحق الاعلام.

لماذا العناء والتعب، يقول الاعلام الرسمي؟ الحكومة تستمد وجودها من رئيس الجمهورية، ورئيس الجمهورية يستمد وجوده من رئاسة الجمهورية.

واذن، الشعب لا يقدم ولا يؤخر.

و«بعض الصحف» لا يقدم ولا يؤخر.

فلماذا العناء والتعب، يقول الاعلام الرسمي؟

وعادت بي الذاكرة الى حديث جرى في هذا الموضوع منذ ايام، قالت فيه احدى السيدات العاملات في الحقل العام انها عثرت في مكان ما على كراس وضعته وزارة الانباء باللغة الانكليزية عن لبنان، فأعجبها الى درجة طلبت من الوزارة مئتي نسخة لتوزيعها في الخارج.

مئتا نسخة؟ قال مدير الانباء سابقا. من أين أجد لك مئتي نسخة؟ كل ما طبعنا من هذا الكراس ألف نسخة فقط!

ولم يكن ذلك للتوفير.

فتكاليف الف نسخة لا تقل سوى بضع مئات عن تكاليف عشرين الف نسخة، هي في الأكثر ثمن ورق.

ولا أظن ان الاعلام الرسمي يبخل بالورق كورق، لكنه يبخل به، على ما يظهر، حين يملأ بياض فراغه الحبر!

الاثنين ، ١٤ حزيران

فيما الناس على هذه الارض يأكلون ويشربون وينامون، يدور حولهم في الفضاء، منذ ثمانية أيام، ثلاثة مواطنين سوفيات.

يأكلون ويشربون وينامون، هم ايضا.

الفارق: هم الآن روح الارض، ونحن جسدها.

الثلاثاء ، ١٥ حزيران

خضعت، وفي مطلق الأشياء. خضعت، فلا أعرف أين. خطوتي واسعة لا تضيق. تعلمت ذلك من الفجر ومن مد النظر اليك.

جئتك، فالعسل على لساني. جئتك، فحسدني الورد. جئتك هكذا بريئا وجائعا ومستسلما بفرح. لم يكن أحد. كان هادئا ومحرورا معا. انه بهاؤك وعناقك وظلال جسدك الناصع الحميم.

وكم اشتهيتك لأنك الأقل. بذلك تكثرين وتمتلئين وتفيضين فلا يكون مكان بعد.

ولا يكون لي هاجس، فأغيب وأنا حاضر في استباق بسمتك والشغف بامتداد يقظتك بي ولو الى حين.

الاربعاء، ١٦ حزيران

كلما جاءنا مسؤول افرنسي نفيق ونتذكر ان بيننا وبين فرنسا تاريخا طويلا من الحب والمصالح المتبادلة، ناهيك بالثقافة المشتركة بين بلدان البحر المتوسط التي تعتبر فرنسا أهمها، ويعتبر لبنان ومن ورائه سوريا وفلسطين آخر قلاعها في المشرق.

ومن نكد الدهر على لبنان ان تضعف هذه البلدان أمام جبارين غريبين عن البحر المتوسط، هما اميركا وروسيا. وكان لنا من قبل خبرة مؤسفة مع جبار لا متوسطي هو انكلترا، فعل فينا، فلم يترك في ديارنا الا الصهيونية، والا الانظمة السقيمة التي انهار بعضها، وما زال بعضها الآخر على حافة الانهيار.

وأسـطع برهـان على ان فرنسا المتوسطية، مهما انغلبت على أمرها يهـوديا، تظل تشعر في صميم وجدانها بأنها، مع الفاتيكان، ولية أمر الروح على امتـداد الشـواطىء الحضارية الاولى. فموقف ديغول من عدوان ١٩٦٧، ومـوقف الفـاتيكـان منـذ ظهـور الكتـابة على الجدار الفلسـطيني، دليـل على ان القلب لم يتـوقف بعد عن الخفقان، برغم الجراثيم الفتاكة التي نشرتها الصهيونية العالمية في الجسم الاوروبي.

وبصراحة: هل نريد الخلاص؟ اذن، نحن في لبنان وسورية وفلسطين ومصر والاسكندرية والمغرب العربي كله حتى مشارف الاندلس، جزء لا يتجزأ من اوروبا البحر المتوسطية، الوارثة الفاعلة للتراث الانساني منذ بدء الخليقـة، مرورا بالاشـوريين والكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين والاغريق والرومان والمسيحية والاسلام، حتى يومنا البائس هذا.

وهـو يوم بائس حقـا، لأن العهـد اليهودي على الابواب، ولأن آلام البشرية التي جسدها المسيح منذ ألفي سنة، قد لا تجد من يجسدها اليوم.

الخميس ، ١٧ حزيران

في معرض الكلام على «مهرجان مربد الشعري» الذي أقامته الحكومة العراقية في أوائل نيسان، في مربد، ودعت اليه من هب ودب من كتاب الشعر في مختلف الاقطار العربية، تبين ان ما توقعناه منذ سنوات قد وقع.

وما توقعناه أمر طبيعي. وهو ان الصراع الازلي بين القديم والجديد، وفي هذه الحالة بين الشعر القديم والشعر الجديد الذي نشأ في أوائل الخمسينـات، آذن بالزوال، ليحل محله صراع ديالكتيكي بين الجديد الذي أصبح بدوره قديما، وبين الجديد الذي يدعي انه هو الجديد حقا. وبما ان التصنيف أداة لا بد منها، قيل عن القديم ـ الجديد انه «جيل الرواد»، أو «شعـراء الخمسينات»، وعن الجديد ـ الجديد انه «جيل الشباب» أو «شعراء الستينات».

هذا، كما ذكرنا، أمر طبيعي. وهو يدل على ان الحياة لا تزال تنبض، على الأقل، في جسدنا الشعري.

غير ان طبيعية هذا الصراع وحتميته الدياليكتيكية، يجب ان لا تصرفا النظر عن مضمونه.

فاذا كان «جيل الرواد» قد توقف، في نظر «جيل الشباب»، عن العطاء المبدع، فهذا لا يعني ان «جيل الشباب» يفوقه، حتى الآن، ابداعا في العطاء . فالناقد المنصف لا بد من أن يرى ان «جيل الشباب» لا يزال صدى لجيل الرواد، يجتر تجاربه الشعرية، وفي أغلب الاحيان يزيفها ويشوهها ويفتعل «مبتكراته» افتعالا.

فالواقع ان جيل الشباب، في معظمه، هزيل الثقافة، ضيق الاطلاع على التجارب الشعرية العالمية المعاصرة التي أفاد منها جيل الرواد واستقاها من منابعها. فهو، اذ يفتقر الى اتقان، حتى لغة اوروبية حية واحدة، اكتفى بالترجمات على جودتها وقلتها وبالتتلمذ على «مجلة شعر» وعلى دواوين الشعراء الرواد وآرائهم. فمن أين يأتون بالجديد «الاضافي»؟

كنت دائما، ولا ازال، أوجه السؤال التالي الى كل ناشىء: «هل تقرأ شعراً أوروبياً أو أميركياً معاصراً بلغته الأصلية ؟ هل تتابع الحركات الشعرية المعاصرة في العالم؟».

فاذا أجاب: «لا»، قلت له: «اذن، كيف تغني تجاربك أنت الخاصة وتجارب من سبقك من الشعراء العرب؟ فان كان مثالك الاعلى نزار قباني، مثلا، فكيف تأمل ان تتفوق عليه وتضيف الى التراث الشعري؟ فمن يريد ان يتفوق على نزار قباني، يجب ان يكون مثاله الأعلى شاعرا أعظم من نزار قباني، بل أعظم شاعر على الاطلاق».

هذه ملاحظة بسيطة أبديها، كأحد الشعراء الرواد، لفائدة «جيل الشباب» الذي أتمنى له التفوق. فبهذا تستمر حركة الشعر الحديث في سيرها الى الامام.

الاثنين ، ٢١ حزيران

... وها هو الوزير الياس سابا يرى أيضا رأينا في الاعلام الرسمي، من حيث دوره الكبير والاثر الذي يتركه في الرأي العام، ومن حيث تقصيره (سابقا) في تنوير الحاكم والمحكوم معا، وعجزه عن مساندة الحكم، حين يكون الحكم جديدا وهادفا الى تغيير أوضاع بالية، لها مؤيدوها

والمستفيدون منها.

فالتغيير، في أغلب الاحيان، لا يستقبله عامة الناس بسهولة، خصوصا حين يستثيرهم ضده اولئك الذين يتناولهم.

واذا كان التغيير الثوري يستند الى السيف، فعلى التغيير الدستوري ان يستند الى القلم. فأين هي الاقلام المبدعة، العاقلة، النيرة التي يحشدها الحكم الجديد ويتوسلها ترسا له ومجنا؟ الحكم الجديد، على ما نعلم، يريد القول الصادق فيه وفي ما أنجزه وينجزه ويعمل على انجازه. فبالامس تعودنا ان يكون الاعلام الرسمي وسيلة لستر عجز الحكم واخفاء معايبه، أو مطية لفئات، غالبا ما تكون خارج الحكم. اما الآن، فحان ان يكون الاعلام الرسمي وسيلة لا لستر العجز، بل للكشف عن المنجزات، ولا لاخفاء المعايب، بل لتعداد المحاسن بتواضع، وعمق، ونقد ذاتي.

الثلاثاء ، ٢٣ حزيران

فيما انا أطالع، وقعت على هذه العبارة للمفكر الفرنسي الكسي دو توكيفيل، في بيان القاه أمام اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية في ١٨٥٢: «فمما لا شك فيه ان الادباء والقضاة، من بين كل طبقات الشعب، هم الذين فعلوا، أكثر ما يكون، في تكوين شخصيتنا الوطنية».

فعادت بي الذاكرة الى الحادثة الآتية:

عندما صار سليمان فرنجية رئيسا للجمهورية، صعدت اليه من بيتي على الطبقة الاولى الى بيته على الطبقة الثالثة (كان يسكن عند رودريك الدحداح، زوج كريمته لمياء)، وصافحته بحرارة الجار الفخور بفوز جاره العزيز عليه، ثم قلت له، في عرض الحديث: «الآن نأمل ان يعلو شأن الادباء في عهدك».

فضحك الرئيس الجديد، كمن كان يتوقع مني هذا الكلام، وقال: «لا، خليهم محرومين. فاذا اكتفوا وعلا شأنهم كما تقول، فقدوا الحافز على الكتابة...».

وكان الياس سابا حاضرا، فوافق على كلام الرئيس.

وبالطبع، كان الكلام مزاحا.

لكني خشيت ان لا يكون مزاحا كله، فقلت للرئيس ولوزيره العتيد، من دون الخروج عن جو الحديث: «الحرمان حافز، نعم. ولكن، أي نوع من الحرمان؟ هل هو الحرمان المادي؟ لا. فكم من موهبة ضاعت في أزمة التفتيش عن لقمة العيش، وكم من موهبة كانت اكثر عطاء لو انها انصرفت الى العطاء. انه، اذن، الحرمان الروحي. فالأديب الصادق دائما محروم. وشعوره بالحرمان راجع الى انه يرى رؤيا لا تتحقق، ويحلم احلاما تتلاشى في حال اليقظة. يريد تغيير الواقع المرير، فلا يستطيع. يطلب المثال الاعلى، فلا وجود له. ينشد السعادة له وللآخرين، فأين هي؟ يتنبأ، فلا يصدقه أحد. يصرخ في البرية، فلا يسمعه السامعون. يتحسس آلام البشرية وآمالها، فيرزح تحت صليب الاولى ويلهث خائبا وراء سراب الثانية».

أو كلام في هذا المعنى.

ثم أضفت: «هذا الحرمان الروحي لا يزيله أحد، أما الحرمان المادي فيزيله المجتمع بتشجيع من فوق ـ من الحاكم. فبدل ان يكون الحرمان حرمانين، الواحد طبيعي ومفيد، والآخر مصطنع وظالم، فليكن حرمانا واحدا هو الحافز الصحيح الذي تعنيه يا فخامة الرئيس».

ولاحت أمائر الاهتمام على وجه الرئيس، فوعدني خيرا.

وفي طريق العودة، رافقني الوزير العتيد الى المصعد، فقلت له: «انت رجل مال واقتصاد، فلا تظن ان الادباء يطلبون من الدولة معونة مالية. فالاديب الذي يطلب من الدولة مثل هذه المعونة، ليس بأديب حقيقي. فالأديب الحقيقي لا يطلب معونة من أحد، لا سيما الدولة. فهو بذلك يفقد حريته وكرامته. انه يطلب من الدولة ان ترفع مستوى الثقافة في لبنان، فبذلك وحده يعلو شأن الاديب والمفكر والفنان وينال ما يستحقه أدبه وفكره وفنه».

فطرب الوزير العتيد لتفسيري، وهو يغلق عليّ باب المصعد الهابط بي الى بيتي في الطبقة الاولى.

الاربعاء ، ٢٤ حزيران

قرأت ما كتبته البارحة، فخطرت لي فكرة عن موضوع الثقافة في لبنان.
في الماضي، صلحت نية الحاكم، بين الحين والحين، في رفع مستوى الثقافة. فتوسل الى ذلك مختلف الوسائل. فبعضها اخفق، وبعضها اصاب شيئا من النجاح. والعامل الفاعل، في الاخفاق او الفشل، كان - كما قال طوني فرنجية - العنصر البشري. فالانسان هو الاساس، وكل شيء من دونه يبقى سطورا في الهواء.
فما لنا ولهذا .
انه حديث طويل، ينكأ جراحا كثيرة، ونحن معنيون بالمستقبل لا بالماضي القريب أو البعيد، مع ان في الماضي عبرة لمن يعتبر.
المهم: كيف نرفع مستوى الثقافة في لبنان؟
نرفعها بالوقوف منها موقفنا من الجيش.
الجيش على الرأس والعين. هو سياجنا، وهو حامي حمانا، وهو عنوان سيادتنا وكرامتنا في الحرب وفي السلم.
لكن اهتمامنا بتعزيز القوة المعنوية - أي الثقافة - خصوصا في وطن كلبنان، لا هو في عير الحرب ولا في نفيرها، يجب ان لا يقل عن اهتمامنا بتعزيز القوة المادية.
فبعد كل شيء، يظل لبنان - كما يطيب لنا القول - بلد الاشعاع والنور في هذا المشرق، لا بلد الحرب والفتح.
فكل ليرة ننفقها على الجيش، يجب ان ننفق مثلها - ولا أقول أكثر - على الثقافة.
ننفقها، مع مراعاة «العنصر البشري».
والا تذهب هدرا، أو تكاد .

ففي العهد الشهابي وضعت خطة بانشاء مجالس ثقافية في مختلف انحاء لبنان، على أمل ان ينشأ عنها مجلس ثقافي أعلى يرعى الشؤون الثقافية تحت ظل الدولة.

وقامت هذه المجالس أو بعضها، منها مجلس للجنوب ومجلس للشمال ومجلس للمتن، وراحت تعقد الاجتماعات وتلقي المحاضرات لهذه

المناسبة أو تلك.

وفي هذه الأثناء جاءت «حكومة الشباب» وجاء فيها من طرح على «المثقفين» والمسؤولين مشروع «وزارة الثقافة».

لكن، لا «وزارة الثقافة» أبصرت حتى الآن النور، ولا المجلس الثقافي الأعلى. وبقيت الثقافة ضائعة وحائرة بين وزارة الانباء والسياحة وبين وزارة التربية والفنون الجميلة.

وحين طرح مشروع «وزارة الثقافة»، نهض من يقول ان الحكمة العملية المستندة الى ضعف الموازنة، في الاخص، تقضي بتأجيل هذا المشروع والاستعاضة عنه بحصر الشؤون الثقافية في وزارة التربية واعادة تسميتها وزارة التربية والشؤون الثقافية.

ووجد هذا الرأي انصارا كثيرين.

لكنه، الى الآن، بقي رأيا كسواه من الآراء.

ولا أستطيع الا ان اعتقد ان العهد الجديد لا يخفى عليه ما يعانيه الوضع الثقافي من فوضى وما يتطلبه من اهتمام وعمل. لكننا نأمل ان لا يطيل صبره، وان لا «تدفشه» الاوضاع الاخرى الى أسفل القائمة في سلم الاولويات.

الخميس ، ٢٤ حزيران

من الناس من لا يعجبهم لبنان، لا حكما ولا حكومة.

ومعظم هؤلاء من الذين غرسوا أو يغرسون شروشهم المقتلعة في تربته السمحاء، ومناخه الحر.

وبعض هؤلاء يعتقدون ان لبنان، لكي يعجبهم، يجب ان يكون «ثوريا تقدميا» ـ ولو على الخازوق.

لا أظن ان أحدا يعجبه لبنان، كما هو، مئة في المئة، بل حتى سبعين في المئة، وأكاد أقول خمسين في المئة، لا انا ولا حتى غبطة البطريرك. لكن عدم اعجاب اولئك بلبنان يختلف بالجوهر عن عدم اعجابنا به نحن. فهم ينكرونه وينكرون وجوده (كما هو الآن، لا كمساحة على الخريطة)، اما نحن فنؤمن به وبوجوده ايمان المواطن بوطنه الذي لا وطن له سواه. ولذلك، فعدم اعجابهم سلبي، وعدم اعجابنا ايجابي.

وفي هذه الليلة تحاورت مع احدهم حول لبنان، حكما وحكومة، فأخذت اوداجـه تتهـدج. وفجأة، خطر لي ان اسأله: «هل تؤمن بلبنان، حكما وحكومة؟»، فأجاب على الفور: «كلا!».

وفي الحال، انقطع بيننا حبل الحوار.

انقطع على تفاهم. فما معنى الحوار في موضوع يعتبر احدنا انه في اساسه غير موجود؟ وما جدوى الاتفاق أو الاختلاف على العرض دون الجوهر؟

الجمعة، ٢٥ حزيران

كان في جيرتنـا بيت قديم يشبه القصر، تحيط به غابة من الأشجار الباسقة والازهار المشرقة، المتدلية من جهات السور الاربع.

وفي يوم من الأيام، افقنا على مطارق الهدم. فطار القرميد، ثم اخذت الجدران تتهاوى ويتهاوى معها تراث عريق من العمار اللبناني.

وأخـذ البـولدوزر يلتهم ما تبقى من الاسـاس وجـذوع الاشجار والازدهار. وكان صوته يجأر ويزأر، على اسابيع.

قالوا: «هذا لتوسيع الطريق».

وسألنا جارنا المهندس عاصم سلام، وهو الذي يعرف كل شيء عن اشغال الدولة، خصوصا لأنه عضو في جمعية حماية الآثار، أو ما يشبه ذلك من الأسماء، فقال انه حاول ان ينقذ البيت من الهدم، لأن توسيع الطريق لا يمس الا بضعة امتار من الحديقة، لكنه لم يوفق. فصاحب البيت الذي باعه من البلدية أصر على هدمه ومحو آثاره.

فقلنا: «لا حول ولا قوة الا بالله».

ورحنـا ننتظر توسيع الطريق وصيانة الارض الخراب التي تحولت اليها الحديقة. ومضت أشهر، كنا نفيق في الصباح أو بعد القيلولة على جئير البولدوزر وزئيره، مرة أو مرتين في الأسبوع، لمدة ساعة أو أقل.

كان يتمختر في الارض الخراب، ومن دون ان يفعل شيئا.

ومـا كنت أكتب عنه اليوم، لولا الغبار الذي يثار كلما هبت الريح، فيدخل الى صدورنا وبيوتنا، ولولا صبيان الحي (نحو خمسين الى مئة) الذين يمـلأون الفضـاء صيـاحا طول النهار ويجعلون من ذلك القاع

الصفصف مزبلة وبيت خلاء في العراء.
ونحن، أبناء الحي، نمسك الآن قلوبنا ونحن ننظر الى قصر «بشارة الخوري» الماثل أمامنا شاهداً على جمال الهندسة وروعة البنيان، ونتساءل: متى يأتي دوره؟
«لا نعلم»، يجيب رياض ثابت وصادق طبارة، جاراي اللذان، هما أيضا، من اعضاء جمعية حماية الآثار التي ترأسها الليدي كوكرن!

	الاربعاء ، ٧ تموز

كانت لي وقفة في حضرة الموت، وقفة اخرى بعد.
رأيته ظالما ومستهترا كما هو. لكنه هذه المرة كان قبيحا ايضا.
لأن للموت جمالا كما للحياة، يخفى لا عن القلوب المسحوقة ابدا، تحت وطأة جلاله المنفرد الرهيب.
ربما لأن بين الجمال والقبح فاصلا رهيف المسافة، فاصلا هو الوهم، حالما تزيغ الرؤية وتفنى مباهج الحس.
وللموت غاية هو ادرى بها منا. لكنه اليوم مال وانحرف فتاه. ولسوف يبقى تائها الى ان نجد انفسنا فيه، أو يجد نفسه في الديمومة التي هي نحن.
فالانسان وحده الملء. فاذا نقص بالموت، كان نقصانه زيادة في الحياة.

	الجمعة ، ٩ تموز

حين تجيء اتيل عدنان من كاليفورنيا، حيث تعلم في احدى كلياتها، يتحرك شيء في هذا البلد.
ومساء البارحة اطلت من باب دارنا تحمل اسطوانتين.
«ما هذا يا اتيل»؟
اسطوانتان وجدتهما في باريس. اريد، ان تسمعاهما (تعني انا وزوجتي). ألم تسمع بمرغريت؟ هي اخت جان الكاتب الفرنسي الراحل».
«نعم، سمعت به وعرفته شخصيا قبل وفاته بسنوات. اما مرغريت،

فلا».

«هي مغنية معروفة. وفي هاتين الاسطوانتين اغنيات شعبية بربارية جزائـريـة. تغنيها كما سمعتها من جدتها. اغنيات ساحرة من أعماق شعب ساحر».

ورحنـا نستمـع الى هذه الاغنيـات، بعضـها بلا موسيقى ترافقها، وبعضـها الآخر ترافقها انغام خفيفة على الناي أو على الناي والطنبور معا.

وكنا مزمعين على قضاء السهرة في مكان ما. ولكننا امام هذه الاغنيات شعرنا ان العالم، خارج منزلنا، لا وجود له. فجلسنا وطال جلوسنا مع الليل والجزائر.

وكان لا بد لنا من المقارنة بين هذه الانغام الشعبية الجزائرية وبين انغامنا اللبنانية، فوجدنا في تلك استمرار روح العفوية والبساطة والعمق حتى حدود الالتقـاء بالموسيقى الكلاسيكية، وفي هذه خروجا على هذه الروح والاقتـراب شيئـا فشيئا نحو الضجيج والعجيج والبندقة تحت ستار الابداع والتطوير والتحديث.

وكان لا بد أيضا من المقارنة بين مرغريت الجزائرية وام كلثوم المصرية.

نعم، صوت المغنيتـين جميـل ورائـع، ولكن أين الرهـافة الصـارمة المصقولة كحد السيف والنقاوة العارية الدافئة كبصيص الجمر، عند هذه الجزائرية، من الهتاف المثقل، بالتكرار والاسهاب وزعيق «التخت» وشهيقه عند مطربة الشرق؟

وخرجنا من ذلك بأمنية: ليت مغنياتنا يسمعن هاتين الاسطوانتين، اذن لرأينا الفارق بين ما هو للقلب والروح وبين ما هو للحس والغريزة.

السبت ، ١٠ تموز

يأبى ادونيس الا ان يزيف ماضيه.

ويعنيني من ماضيه الآن، ماضيه في مجلة «شعر». ولم يكن ليعنيني حتى ماضيـه هذا، لو لم يغتنم فرصة نشر حديثي مع منير العكش في مجلته «مواقف»، ليقول، بأسلوب مداور، انه خرج من مجلة «شعر» (في

١٩٦٣) لان «معـظم القائمين عليها وقفوا عند حدود الطريقة الموروثة واكتفوا بهذا التغيير»، وبان «مواقف» التي انشأها في ١٩٦٨، جاءت لتتجاوز مجلة «شعر» وتكمل ما بدأت به. ولم يكن ليعنيني ماضيه ايضا، لولا شعوري بمسؤولية تصحيح الاخطاء التي يقع فيها، عن عمد أو عن جهل أو عن حسن نية، من يؤرخون لمجلة «شعر» والحركة الحديثة التي حملت لواءها.

هل صحيـــح ان ادونيس خرج من المجلة وعليهـا لأنهـا توقفت في التجديد عند «حدود تغيير الطريقة الموروثة»، فلم تتجاوزها وتتخطاها الى «النوع» او الى «المعنى»؟

اولا، لو انه خرج من المجلة وعليها لوجود هذا النقص في «النوع» و«المعنى»، فهل تراه وجدهما عند ميشال اسمر، ثم سهيل ادريس ومن لف لفه من أدباء وشعراء كانوا عنده، بشهادة جميع اصدقائه في «هيئة تحرير المجلة»، بلا «نوع» وبلا «معنى»؟

ثانيا، لو انه خرج من المجلة وعليها لهذا السبب، فكيف يكتب مثلا، في جملة ما كتب عن المجلة وفيها، هذه الفقرات في رسالة بعث بها اليّ من باريس في ٢٥ شباط ١٩٦١، وهي تظهر بوضوح ان رسالة مجلة «شعر» لم «تقف عنـد حدود تغيـير الطريقـة الموروثة»، انما تناولت «النوع» و«المعنى» كذلك:

«اطلعـني جورج صيـدح على ما ورد حول مجلة «شعـر» في عدد «الآداب» الاخير. قرأت اشارتها في تقديم العدد الى «الصراع في لبنان بين قيم مزيفة تعمل لترويجها فئة لا تعيش قضية المجتمع الذي ينبغي ان تستمد من وحيه نتاجها، وقيم حقيقية اصيلة... الخ».

«... رحمة بالفكر والانسان والحقيقة. حتى في هذه اللحظة من تفوق الانسان وعلوه، حيث يكاد يقبض على القمر، يجد بعض الناس في بلادنا لذتهم الوجودية الكبرى ان يعيشوا في مناخ اللاعقل واللاحقيقة، في مناخ اللاانساني.

«انهم يصـورون التـراث العربي تركة مومياثية تحرسها الاشباح والتعازيم. ان التراث العربي لبراء من هذا الفهم. ان العرب لبراء منه، أيضا.

«حين نقول اننا عرب، وان حركة مجلة «شعر» حركة عربية، نقول ذلك

لا تسيسا ولا تدينا ولا غوغاة. نقوله لأنه واقعنا، لأنه حاضرنا، ومصيرنا. مخجل ان يدخل المثقفون العرب في نقاش حول هذا الموضوع الواضح البديه. وأكثر ما يخجل ويخزي هو حين يوجه ويزور ويستغل، على غرار ما ورد في «الآداب» ـ المجلة التي لم يخطر لي أبدا، مهما كانت خلافاتنا الفكرية، ان تسمح لنفسها بالانزلاق فيه».

ويضيف أدونيس في رسـالته: «أقول: اننا عرب، أي بشر يفكرون، يتأملون في وجودهم، في انفسهم، في الحياة والله والانسان والحضارة ـ في كل شيء، ولسنا قطيعا أو نسخا متشابهة. لذلك نختلف ونتناقض في مواقفنـا وتـأمـلاتنـا. ومن المعيب حقـا ان يفسر هذا الاختلاف وهذا التناقض محبة بالتراث العربي، تراثنا جميعا، أو كراهية به. مثل هذا التفسير مهين للعرب، للعقل، وهو يشوه تاريخنا العربي نفسه الذي هو، في معناه الاول، تناقض وخلاف، أي تاريخ مركب غني، لا بسيط ولا مسطح.

«الحرية الحرية لمن لا يشاركوننا فهمنا هذا. ولن نستعدي عليهم، شأنهم هم، السيـاسة والدين والعصبية العرقية وغباوة الروح ودعارة الوجود والفكر في بلادنا. نقول لهم فقط: انكم على خطأ، وبيننا وامامنا الزمن والتاريخ.

«هذا يريني رؤية العين مقدار ما نحتاج اليه من الصلابة والصرامة والوضوح، ازاء ذلك الفهم المغلق، المشوه، وازاء الذين يقودونه ويوجهونه ويستغلونه. هؤلاء وامثالهم يمثلون الجانب المريض في حياتنا الثقافية والروحية، لكن هذا المرض يجب ان يزيدنا معرفة بصحتنا ويدفعنا الى المـزيـد من العمق والبعد والتجاوز والرفض. يجب ان يجعلنا في يقظة دائمة تفتح لنا آفاق الشك والتساؤل وتتيح لنا ان نتأجج ونمتد كالنار.

«كم هو اذن ضروري، كم هو عظيم وخلاق وانساني ان نخرج على اطر الحساسية والفهم، النامية في مناخ ذلك المرض والمتخمة به. هذا قدر ابداع يجب ان نعيشه، وأنت اولنا، نعيشه بفيض وامتلاء. ذلك اننا لا نحمل عبء الشعب فقط، بل نحمل ايضا عبء التاريخ. في هذا جوهر مجلة «شعر» ومن هنا عظمة المسؤولية المفروضة علينا جميعا، وانت في طليعتنا. ان الخطر على الشعر لا يكمن فقط في ذلك الفهم المغلق وعقلية أصحابه، انما يكمن، قبل ذلك، في عادات بلادنا ومفاهيمها واخلاقها

ومؤسساتها.

«ولقد قامت حركة مجلة «شعر» على تخطي ذلك الفهم المغلق للتراث العربي، لذلك دخلت، منذ لحظاتها الاولى، التاريخ الشعري والثقافي الحي، ليس العربي فحسب، بل المتوسطي ايضا. وهي لم تدخله دخولا سهلا لينا، وانما اجتازت العتبة هديرا وبرقا. قد يكون في عطائها الشعري ضعف وتخبط. هذا لا اجادل فيه. انما الاساسي هو ان رؤياها حية وصادقة - رؤياها للتاريخ والثقافة والشعر والانسان في العالم العربي، لذلك هي الرؤيا الشعرية العربية بامتياز».

ويتابع أدونيس في رسالته: «لا يمكن اي شعر عربي ان يعتبر، بعد الآن، شعرا ذا قيمة، الا اذا كان داخلا، بشكل أو آخر، في مجال هذه الرؤيا - داخلا بعمق وشخصانية . هذه الرؤيا غذاء، وسيكون خاويا كل شعر عربي مقبل لا يأخذ نصيبه منه. وعي ثورتها اذن والتحسس بها، هما شرطان لكل شعر عربي يريد ان يشارك في موكب المستقبل.

«هذا يفرض علينا، بدوره، ان نكون كما قلت صارمين، واضحين، أشداء. دون ذلك، لا نبدع ولا نتلألأ ولا نستطيع، بالتالي، ان نجعل حركة مجلة «شعر» تنهض وتلألأ. عصرنا، تأريخنا، حياتنا - هذا كله كثيف معتم، يخيم في نسيج من الرمل والوحل. وعلينا ان نخترقه ونرده، أمام وعينا الحاسم، رخوا لينا وطيعا كالشمع.

«أما اولئك، ذوو الفهم المغلق، الجامعيون «المسرحيون» الذين ينظرون الى هذه الحركة بامعائهم وأعصابهم، الضيقون ازاءها كسم الخياط، اللابسون ضدها القواقع والكهوف، اما هؤلاء فدليل آخر على حضورها المشع الساحق. انهم، في أي حال، لعاجزون في ذروة جهدهم ان يلتصقوا مجرد التصاق بحركة مجلة «شعر»، بثوريتها، بفذوذيتها، وبالعالم الذي تفتحه. لنا، من هذه الناحية، عصرنا الخاص بنا، ولسنا معاصرين لاولئك الا عرضا».

ثالثا، على افتراض ان الذين «استمروا قائمين عليها (أي على مجلة «شعر») في شعر ادونيس، بعد «أغاني مهيار الدمشقي» الذي صدر عن دار مجلة «شعر» ثم كتابه «التحولات...» الذي وضع معظمه في عهد المجلة، كما تدل على ذلك تواريخ القصائد، من فهم جديد للتجارب الشعرية وعدم اساءة فهمها؟ هل هو كتابه «المسرح والمرايا»، أم «وقت

بين الرماد والورد»؟

لم اقــرأ، بعــد، «وقت بين الرمــاد والورد»، ولكنني قرأت «المسرح والمرايا»، فوجدت، كما وجدت في «التحولات...»، ان صاحبه استمر في الهبوط الذي لمحنا، نحن زملاءه الاولين، تباشيره ودلائله في «أغاني مهيار الدمشقي» ـ اعني ذلك الكبت الذهني والكياني الذي يتفجر في الصور اللاواقعيــة الغامضة، والالفاظ المتصيدة البراقة، والعبارات المدروسة وزنا ونغما، والجمالية المصقولة المنحوتة الى حد العبث. اضف الى ذلك «تشعيره» الافكار الصوفية في اطار عربي تاريخي مفتعل، ثم «تشعيره» البديهات الماركسية والثورية في صيغة بيانية قديمة لا تلائمها ولم تصنع لها.

رابعا، لو كان ادونيس صادقا مع نفسه، ومع التاريخ، ومع زملائه واصدقائه ـ وبكلمة اخرى، لو كان حقيقيا لاعترف من دون خجل أو حياء أو خوف، بانه انما خرج من مجلة «شعر» وعليها لأنها لم تعد تفي بمــطامحــه، ولأنهــا اصبحت في نظره عائقــا دون التصــدر والبــروز الاجتمــاعي والأدبي، ولأنهــا ضاقت به حين ضاق بالعمــل الجماعي المشترك ومال الى التفرد في العمل والرأي، وحين ظن انه كبر عليها وعلى زملائه فيها.

وهو لو اعترف بذلك، أو عرفه، لما لحقه أي لوم أو عيب. فالحركات الجماعية، لمحض كونها انسانية، أي خاضعة لشريعة النمو والارتقاء والسقوط والنهوض، تتفرع وتتمزق وتتغير، وأحيانا كثيرة تحترق ليطلع من رمادها النقي الصافي حركة أنقى واصفى. فالانسان الذي هو أساس كل شيء، مخلوق ضعيف وهالك وقاصر، مثلما هو جبار ومستمر ومبدع. لذلك، فكل ما يصنعه الانسان لا بد من ان يتصف بصفاته هذه كلها.

والحقيقة هي ان أدونيس، حين أراد ان يتغير، الى أفضل أو الى أسوأ، أراد منا مجاراته في هذا التغير. وهذا أمر طبيعي ومشروع. لكنه لا يكون طبيعيــا ومشروعــا حين يعتبــر رفضنا مجاراته «وقوفا عند حدود تغيير الطريقة الموروثة» أو «جهلا لأعمق التجارب الشعرية وأقصاها». فهو بذلك يقع فريسة الادعاء والغرور، خصوصا ان ما كتبه، في ما بعد، لا يقيم الدليل على تجاوزه تلك الحدود أو فهمه العميق لهذه التجارب.

وكلمــة أخيرة: كان أدونيس، الذي أمضيت في رفقته أجمل مراحل

حياتي الشعرية، ينعم بالكثير من مواهبه، لو انه تغير لا بقصد التغير. وهذا ما يجعل اثره الايجابي ضئيلا في الجيل الذي يحاول استقطابه، ثم في المستقبل الذي نحاول كلنا الاستمرار فيه. فالتغير من طبيعة الحياة، لكنه ان لم يكن عفويا وصادقا وحقيقيا، فهو أتعس حالا من الجمود.

الاحد ، ١١ تموز

صعدت هذا «الويك اند» الى صنين.

وصعودي الى صنين أشبه بالحج.

فمن ١٩٥٧ الى اليوم لا يكون الصيف صيفا اذا أنا لم أعانق ترابه وصخره، وأرقد هانئا على سفح جبله.

فلي فيه تاريخ طويل من الشعر، والحب، والصداقة.

وهو تاريخ اشترك فيه، أو عرفه، عدد كبير من «رواد الشعر الحديث».

ولا يزال بعضهم، مثلي، يقوم بفريضة الحج.

بل ان فؤاد رفقه أطل وأنا هناك. وأدونيس أيضا.

وأمضينا الأمسية، فؤاد ومها وأنا، عند آل نعيمة في الشخروب: ميخائيل ونجيب ونديم.

كان كل شيء ساحرا كالعادة، بما في ذلك القمر والكرز والضباب والفجر.

الاثنين ، ١٢ تموز

حملت هدى اديب ثقافتها الفرنسية ولغتها الفرنسية (نشرت مجموعتين شعريتين بهذه اللغة) الى العربية في مجموعة شعر جديدة بعنوان «ثلاثة مكعبات».

تحتوي هذه المجموعة ثلاث قصائد طويلة: غرفة الالعاب، وانفرط الزئبق، والزعانف المعطلة. ومجموع صفحات الكتاب ١٢٤ صفحة.

أخذته البارحة الى الجبل معي. كان الجو، اذن، مؤاتيا لقراءة الشعر، خصوصا اذا كان من النوع السيريالي الغامض الذي تكتبه هدى اديب.

ومع ذلك، أحسست انني، وأنا أخوض غمار أسراره، كمن يهتدي في سرداب مظلم ببصيص من النور.

وكنت في كل خطوة أفاجأ. لم أقرأ شعرا عربيا كهذا الشعر من قبل: لا من حيث النص، ولا من حيث اللغة.

طبعا، هناك نصوص شعرية حديثة باللغة العربية هي أهم وأروع من هذا النص الشعري العربي الذي افتتحت به هدى أديب سيرتها كشاعرة باللغة العربية. لكن اللغة التي صاغته بها لا مثيل لها على الاطلاق.

انها لغة جديدة، لغة «مستفيدة» من الفرنسية من دون أي أثر للركاكة أو الرطانة الاعجمية، كما كان يقول أسلافنا العرب.

فكيف فعلت هدى اديب هذا؟

كيف حققت هذا الفتح ، فحقّ لها علينا الثناء والاعجاب ؟

الشعر لغة، أو هو حياة اللغة. لولاه لا تتجدد ولا تنمو ولا تبقى. فهو دائما يخلقها «كتابيا»، بينما المتكلمون بها يخلقونها «كلاميا». وبين الخلق «الكتابي» والخلق «الكلامي» صلة حميمة جعلت ت. س. ايليوت وسواه من أقطاب النقد الحديث يقولون بضرورة اقتراب الشعر من كلام الناس والافادة منه حتى من حيث النغم.

في العربية يتم هذا التفاعل ببطء. لأن هنالك لغتين اتسعت بينهما الهوة الى حد الانفصال والاستقلال. وحين ينهض العقل العربي نهوضه الحقيقي، فلا بد له من ان يكتب اللغة التي يتكلمها. وعنئذ يصير في العربية أدب حقيقي، بمعنى انه يعكس حقيقة الواقع من كل وجوهه، خصوصا الوجه اللغوي.

والى ان يتم ذلك، هناك في اللغة العربية المكتوبة مجال لتخفيف «غلاظتها»، شعرا ونثرا، بِتقريبها، لفظا واسلوبا، من العربية المحكية.

حاول ان يفعل هذا سعيد تقي الدين، مثلا، كما يحاول ان يفعله أنسي الحاج وبعض رفاقه، والى حد بعيد هدى أديب.

وهو يتلخص باعتماد الالفاظ والعبارات «الفصيحة» الحية اذا وجدت، فنقول «خصوصا» بدل «لا سيما»، مثلا، كما يتلخص باعتماد الاسلوب الدارج و«تفصيحه».

وعلى سبيل المثال هذه الفقرة من كتاب صدف وجوده الآن على مكتبي: «ان المهمة لعلى قدر الرسالة... فاذا استطعنا ان نبني وحدة الناطق، بعد أجيال دأب في الظاهر والباطن، مسحنا الجرح الذي ما انفك ينزف منذ

ما انفصل الانسان عن النعمة لا لبادي علة الا لكي يجدّ في تحصيل النعمة...».

فلماذا لا نعيد كتابتها هكذا بكل بساطة. «المهمة على قدر الرسالة... فاذا استعطنا ان نبني وحدة الناطق، بعد أجيال من السعي المتواصل في الظاهر والباطن، مسحنا الجرح الذي ما زال ينزف، يوم انفصل الانسان عن النعمة لا لعلّة بادية (أو ظاهرة) الا ليجدّ في تحصيل النعمة...».

ولنعد الى هدى أديب.

هذه الفتاة أعطتنا مثلا آخر على ان اللقاح الثقافي ضروري لكل نمو وتطور وتجدد. فبفضل تأصلها في اللغة الفرنسية وكتابتها بها جاءت بعبارات والفاظ شعرية جديدة، كما انها طرحت كثيرا من الاثقال التي ترهق كاهل الجملة العربية. فالجملة عند هدى اديب معنى قائم بذاته، ينعطف «بيانيا» على المعنى الذي سبقه، من دون حاجة الى «عكازات» كالواو، وقد، وليس، وان، وما الى ذلك.

هذه ملاحظة حول مجموعة هدى اديب «ثلاثة مكعبات» لا تستهدف النقد أو التقييم.

الثلاثاء، ١٣ تموز

أضعت اليوم مئتي ليرة لبنانية.

عزائي الوحيد: ان يكون الذي وجدهما في حاجة اليهما أكثر مني.

الاربعاء، ١٤ تموز

فاجأني اليوم من باريس وصول جريدة بالعربية تصدر في نيويورك. جريدة قديمة اعرفها، يعود تاريخ صدورها الى ١٩٣٢.

وقلبت صفحاتها الاربع، فرأيت تعليقات بالحبر الأحمر، هنا وهناك، على هوامشها. ورأيت ايضا خطا أحمر على فقرة ورد فيها شيء عني، ثم تنتهي بهذه العبارة: «كتبنا هذه الكلمة لتكون همسة في اذن الفنان الاستاذ صليبا الدويهي نقول له من خلالها إننا نترقب أخباره سواء أكان في السماء أم معنا نتعثر في «قذارة» ادارة (الجريدة): يوبو، طل علينا ولو «مرة في السنة!».

وعلى هامش هذه العبارة، قرأت سطرا بالأحمر: «مرة على نيويورك ومرة على باريس، من فضلك»، وتحت هذا السطر تبينت امضاء «جورج صيدح».

وهنا عرفت ان المرسل هو هذا الصديق العزيز القاطن «مرغما» في باريس.

ورحت اتصفح الجريدة، فأدركت هول المأساة ـ المهزلة التي وصلت اليها الصحافة العربية في المهجر. وفي ما يأتي شاهد على ذلك:

«الرسالة الانكليزية التالية تشرح بوضوح للقراء اهتمام مكتبة جامعة ولاية نيويورك في بنغهابتون بمصير جريدة (...) وصيانتها من التلف منذ صدورها الى الآن وذلك بسحب مجموعة اعدادها على شريط خاص عن طريق الميكروفيلم للاحتفاظ به في أية مكتبة تريد الحصول على نسخة من جريدة (...).

لقد تبرعت المكتبة بدفع ثلثي النفقة وعلينا ان ندفع الثلث الباقي.

يعلم القراء اننا والجريدة لا نملك شيئا ونعجب أحيانا كيف تمكنا الى هذه الساعة من اصدار الجريدة.

اننا ـ اذا حضرت «الكتف» لا ندعي أننا ممن يعرفون كيف تؤكل بل ممن يظلون الى الاخير ليشبع الجميع واذا فضل عنهم شيء فنشكر الله علر قرقضة (كردشة) العظم».

الجمعة، ١٦ تموز

حيا الله العرب، من المحيط الى الخليج.

حياهم وبياهم.

فما يراه البعض مؤلما ومعيبا ومؤسفا، أراه انا، مع كونه هكذا، أمرا طبيعيا. اذ كيف تتم الولادة من دون آلام المخاض؟

نريد انسانا عربيا؟ اذن، هذا ثمنه: انقلاب يتلوه انقلاب، وضحايا تتكوم فوق ضحايا، وفضائح تعقبها فضائح، وارهاب يخيم فوق ارهاب.

يبقى ان يولد هذا الانسان العربي الجديد بشرا سويا.

ان يولد حرا، كريما، عادلا.

السبت، ١٧ تموز

خطرت لي اليوم، وأنا اطالع أخبار الاردن المؤلمة، هذه الفكرة: لو لم تكن فلسطين شغل العرب الشاغل، فماذا يكون؟

فكرة رهيبة مرعبة. لكنها، في الوقت نفسه، تفتح امام الخيال آفاقا رحبة من التكهن والتأمل.

هذه الفلسطين التي ابتلعتها الاشداق، من كل عرق ولون، عضوا عضوا، على مدى خمسين سنة، أي فراغ هائل تتركه لا فينا وحدنا، بل في العالم كله، لو أنها بقدرة قادر لم تعد في الوجود؟

أو لو انهـا لم تكن أصلا في الوجود، فكيف يكون عليه حالنا وحال العالم اليوم؟

هل كان تغير سير التاريخ؟ هل كان العالم، ونحن منه، أحسن حالا؟

فلسطين المسيح، هل هي طريق البشرية الى الجلجلة، الى القيامة في اليوم الثالث؟

الاثنين، ١٩ تموز

خطر لي اليوم أن أتساءل: الى أي حد يقدر رجل الفكر والادب والفن أن يتجنب السياسة، قولا أو فعلا؟

هذا السؤال مطروح منذ الأزل، لكنه في عصرنا مطروح كما لم يطرح من قبل.

كان المفكر أو الأديب أو الفنان في العصور السالفة يقدر على الجلوس والتأمل في الأحداث أو في ما وراء الأحداث. كان ينفصل عنها اذا شاء، برغم تأثره بها.

مثلا، ماذا في مسرحيات شكسبير ما يعكس احداث انكلترا في زمنه، او في موسيقى بيتهوفن، أو في «فاوست» لغوته، أو في في الروائع الفنية التي ملأت ايطاليا وأوروبا في عصر النهضة؟

كانت أوروبـا تتمزق حين كتب رمبو «فصل في الجحيم»، أو فلوبير «مدام بوفاري»، أو بودلير «ازهار الشر». وقبل ذلك، كان نابوليون يغير خريطة اوروبا ويصنع تاريخها، حين انهمك العقل الفلسفي الالماني في

تفسير مثالي جديد للوجود، أدى الى قيام الحركات الفلسفية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والفنية، وعلى رأسها الماركسية والوجودية، التي طبعت عصرنا الحاضر بطابع الثورة والتغير.

كان ذلك في الماضي، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. بعد هذا التاريخ، وبفعل تطور العلم وقيام الانسان في روسيا بأولى محاولاته الجبارة لاعادة بناء مجتمع على أسس فلسفية هي النظرة الماركسية، وجد رجال الفكر والادب والفن أن الاكتفاء بوضع الانظمة النظرية والغيبية من دون الاشتراك الفعلي في تطبيقها هنا والآن لا يمنع الحروب ولا يرفع عن كاهل البشر اثقال البؤس والحرمان والذل.

وهكذا نشأ جيل جديد من المفكرين والادباء والفنانين لا يزال بعض رواده على قيد الحياة، منهم بيكاسو، وسارتر، ومارلو، ونيرودا ومن اليهم. وطلعت فكرة «الالتزام» ومسؤولية المفكر والاديب والفنان نحو الاسهام، بالكلمة وبالفعل، في تغيير الاوضاع القائمة على أسس الحق والعدل والسلام.

كان هذا الجيل والذي لحقه الى يومنا هذا يساري النزعة، قليلا أو كثيرا. وكانت تغذيه الشيوعية الدولية التي تزعمتها روسيا، من دون منازع، حتى بدء «التطهير» في ١٩٣٦، حين انحسر القناع عن طغيان ستالين والظلم الرهيب الذي قد تنزله حتى «ديكتاتورية البروليتاريا» في البشر تحت شعارات زائفة. وهكذا ارتد بعض كبار المفكرين والفنانين والادباء الى النظرية الماركسية، من دون الوسائل التي اتخذها الماركسيون ـ اللينينيون لوضعها موضع التنفيذ.

وأصبح هذا السؤال ملحا: «في اختصار الطريق نحو اعادة بناء المجتمع المتخلف، هل نخضع المواطنين لمرحلة، قد تطول ولا تنتهي، من الارهاب والقمع والاذلال؟».

الاحرار في العالم كله يجيبون: «كلا».

لكن من هم «الاحرار» ومن هم «غير الاحرار»؟

هل يكفي ان يكون الانسان «شيوعيا» أو «يساريا» حتى يكون حرا؟

هذا حديث طويل، أريد أن أخلص منه الى القول إن النظر والتطبيق معا هما عنوان هذا العصر، وان الانسان في النظر، كما في التطبيق، يجب ان يظل هو الغاية لا الوسيلة.

الثلاثاء، ٢٠ تموز

وجعني قلبي حين قرأت اليوم في «النهار» ما كتبه حافظ قبيسي، الأمين العام للجمعية اللبنانية لتقدم العلوم.

كتب يقارن، في المجال العلمي، بين لبنان واسرائيل، ثم انتهى الى مناشدة رئيس الجمهورية شخصيا الاهتمام بالموضوع، فيقرر «تخصيص الموازنة الكافية للمجلس الوطني للبحوث العلمية... وتخليص شؤون البحث العلمي من عوائق الادارة العادية ورفعها في شواغله الى مصاف الامور المهمة».

ويقول حافظ قبيسي، في جملة ما يقول، ان الحكومة اللبنانية حين انشأت «المجلس الوطني للبحوث العلمية» في ١٩٦٣، التزمت بتخصيص واحد في المئة، من موازنة الدولة للبحث العلمي. ومن ذلك التاريخ تضاعف الانفاق الاسرائيلي على البحث العلمي فأصبح ١٨٠ مليون ليرة سنة ١٩٧٠، بينما انخفض الانفاق اللبناني السنوي الى الصفر!

ويذكر حافظ قبيسي المواطنين والمسؤولين في لبنان بأن «مصيرنا كشعب مهدد بالتخلف، وبأن الخروج من هذا التخلف لا يتم بمعجزة، بل باعتماد العلم والبحث العلمي سياسة للحكومة وسلوكا للمجموع»، وبأن «مصير وطننا محدد بالاحتلال والاستعباد ولا يمكننا ان نرد الاغتصاب والقهر الا بارادة قومية ان نبقى احرارا ـ ارادة لا بد لها ان تعتمد، في مجال التحقيق، على العلم والبحث».

وفي هذا العدد من «النهار» ايضا، قرأت خبر استقالة خالد جنبلاط من عضوية «مجلس الجنوب» الذي انشأته الحكومة على اثر العدوان الاسرائيلي من سنتين عبر الحدود الجنوبية.

وتعليقا على هذه الاستقالة، قال خالد جنبلاط:

«انني كمسؤول صاحب ضمير وكرامة لا يمكنني ان استمر في شغل مركز عام دون التمكن من القيام بما يوجبه علي هذا المركز، وان عدم فعالية المجلس الحالي من النواحي الادارية والمالية جعلني اتخذ قراري هذا. وللمناسبة أقول ان المجلس، الذي اهتم بتحقيق المشاريع التي خطها له المرحوم الشيخ موريس الجميل، واجه عراقيل حالت دون تحقيق

هذه المشاريع».

فاذا كان لبنان لا ينفق على البحث العلمي الذي هو في أساس البلدان المتقدمة، ولا يحصن قرى الحدود مع العدو، فماذا يكون مصيره في معركة تنازع البقاء بينه وبين اسرائيل؟

وجعني قلبي اليوم. وجعني كثيرا.

الجمعة، ٢٣ تموز

طرح الرئيس انور السادات، في ذكرى الثورة المصرية اليوم، شعارا جديدا لها: «العلم والايمان».

العلم، فهمنا. أما الايمان؟

لا أظن ان الخالق عز وجل يبخل بخدمة: أن يختفي من حياة العرب ٢٥ سنة.

فمن حق العرب ان يجربوا حظهم من دونه، ولو ٢٥ سنة أو أكثر قليلا.

والخالق، وهو الجبار الواثق من نفسه، لا يخاف من ان لا يعود بعد هذه الفترة ـ يعود بكل جبروته، وكل رحمته، وكل محبته.

يعود فيجد العرب وقد تغيروا بالفعل: صاروا اكثر استحقاقا وأهلا له.

وما يطلبه العرب غير جديد في التاريخ. ففي الثورة الفرنسية من مئة سنة، خرج الخالق، جل جلاله، من الشباك ثم عاد من الباب العريض الواسع. وها هو الآن يعود، ولو ببطء، الى روسيا السوفياتية.

فليسمح لي سيادة الرئيس السادات ان اقترح الاكتفاء من شعاره الجديد بـ «العلم». فالعلم يكفي في هذه المرحلة. وهو، بمعناه الواسع لا بمعناه التقني المحدود، شرط لنمو الفضائل والقيم الانسانية التي نتشوق اليها.

السبت، ٢٤ تموز

مات عماد جيشنا، كما يموت كل انسان.

لكنه، كالقلائل، كان في موته عبرة، وهي ان قادة الجيوش، في المجتمعات الحرة، مواطنون كسائر المواطنين، ولو بامتياز.

ففيما نحن نبكيه ونتحسر عليه، كان جندي آخر يتقدم، بقرار من حكومته، الى احتلال مكانه.

هكذا، بكل بساطة.

الاحد، ٢٥ تموز

بدأ نزار قباني، ولو متأخرا، يقترب من «جدار اللغة».

ففي حديث له، في «ملحق» اليوم، أعلن اعترافه بـ «قصيدة النثر» ـ أو في الاصح «القصيدة الحرة». وقال في ذلك قولا جميلا ولو لم يكن معناه جديدا، وهو ان «الآذان العربية كانت مصممة تصميما تاريخيا منعها من استقبال موجات صوتية غير موجات اذاعة الخليل بن أحمد الفراهيدي. غير ان الاذان العربية ما لبثت ان تخلصت من تراكمات الغبار الصحراوي في داخلها، وغيرت أجهزة الاستقبال المحدودة التي كانت تسمع العالم بواسطتها، فبدأت تتذوق كل الوان الموسيقى، بغير عصبية قومية ولا أفكار مسبقة».

ثم أضاف الى ذلك قولا آخر رددناه كثيرا في مجلة «شعر»، وهو ان «المهم ان يقول الشاعر ما عنده ويختار الثوب الذي يناسبه ويتيح له قدرا أكبر من حرية الحركة...» ـ أي أن يكون الشاعر سيد الاساليب والمفاهيم المألوفة لا عبدا لها.

وردا على سؤال أجاب، وهنا «بيت القصيد»، «ان قصيدة النثر لن تكون جداري النهائي. أنا ضد كل الجدران وضد السكون. لذلك سأجرب كل شيء...».

نعم، لن تكون قصيدة النثر جدار نزار قباني النهائي، كما أنها لن تكون جدار أنسي الحاج أو محمد الماغوط، «الرائدين الكبيرين» كما يسميهما، هذا اذا تابع الطريق! بصدق وأمانة. اذ ذاك لا بد له من ان يصطدم بما دعوته «جدار اللغة».

و «جدار اللغة» هذا هو الجدار الفاصل حقا في الادب العربي، بين العهد القديم والعهد الجديد.

فمهما تحايلنا على اللغة العربية المكتوبة، فعمدنا الى التبسيط نثرا، او النثر شعرا، يظل امامنا ـ اذا صدقنا ـ هذا الجدار المصطنع الحائل

بيننا وبين التعبير العفوي، البسيط، الطبيعي عن الحياة بلغة الحياة.

التعبير بلغة الحياة، هذا هو «العهد الجديد» القابع في انتظارنا وراء الجدار الذي يتحدانا ويتحدى الأجيال الطالعة.

الاربعاء، ٢٨ تموز

واخيرا، ها هو صليبا الدويهي.

ها هو هنا بقامته المديدة وشعره الفضي، ولهجته الزغرتاوية، وضحكته العميقة، وإشاراته الفنية المجنحة.

ها هو هنا، هذا الرسام اللبناني العالمي.

عرفته من ثلاثين سنة، عند عودته الى الوطن من باريس، حيث درس الفن. وعاشرته في نيويورك ثماني سنوات (١٩٤٨ ـ ١٩٥٥)، وحضرت له، بالمصادفة في ربيع ١٩٦٦، أول معرض اقامته لأعماله الجديدة الفذة احدى الغاليريات الكبرى على شارع «مديسون» في نيويورك.

جاء الى الوطن بعد غياب طويل، ومرحلة فنية طويلة قطعها صاعداً، بكد وسهر واصرار، الى الشهرة في اميركا، وقريباً جدا في العالم كله.

من قبل، جبران البشراوي.

واليوم، صليبا الزغرتاوي.

جاء بدعوة خاصة من رئيس الجمهورية، الزغرتاوي أيضا، لمناسبة انعقاد مؤتمر لبنان في العالم.

جاء حاملا بعض اعماله، الجديدة والقديمة.

الجديدة، سيطلع عليها الجمهور الفني في «غاليري واحد» في بيروت. أما القديمة فستعرض في بلدته اهدن، ومعظمها هنا وهناك في البيوت اللبنانية.

وهكذا يتاح للبنانيين أن يروا كيف تطور فن الدويهي من الواقع الى ما وراء الواقع، الى الخلاصة والى خلاصة الخلاصة: ألوان وخطوط هندسية في مساحة لا حدود لها في الزمان والمكان.

واذا كان صليبا الدويهي وضع قدمه الفنية داخل عشبة الفن العالمي، فلأنه احتفظ بطابعه الشخصي كلبناني ويعربي، من خلال اللون والخط والظل.

سيكتب الكثير عن صليبا الدويهي ـ هذا الزغرتاوي المديد القامة، الفضي الشعر.

الخميس، ٢٩ تموز

العرب عاجزون حتى ان يصيروا شيوعيين.
آه، لو يصير العرب شيوعيين.
لو يصيرون أي شيء غير ما هم.
غير ما هم؟
حذار! ما عدا صهاينة.

الجمعة، ٣٠ تموز

في ضوء «يومية» البارحة: قصة الشيوعيين العربيين في مؤتمر في موسكو، كما سردتها علياء الصلح في «النهار» اليوم!
انتحيا ناحية من قاعة المؤتمر... للصلاة.
من قال إن الشتاء والصيف لا يجتمعان على سطح واحد؟

الاحد، ١ آب

كثيرا ما سمعت او قرأت هذا السؤال: ما الفائدة من احتلال القمر؟ هل يستحق احتلاله كل هذا العناء والمال والتضحية بالرجال؟
ويذهب البعض في التساؤل الى حد الاعتقاد ان الفائدة، اذا كان من فائدة، لا تعود الا الى اميركا والاتحاد السوفياتي دون سواهما. وهي فائدة، في نظر هذا البعض، محض مادية وعسكرية و... استعمارية.
وصدف من بضعة أيام ان تلقيت كراسا وزعه مكتب الاعلام الاميركي، موضوعه «أميركا في الفضاء ـ السبعينات». وهو يعدد الفوائد التي ستجنيها البشرية، لا أميركا وروسيا وحدهما، من فتوحات الفضاء في مستقبل الأيام.
من ذلك ما يأتي:
أولا ـ التنبؤ بحالة الطقس على مدى أطول.

ثانيا ـ اتساع المواصلات عبر الاقمار الصناعية.
ثالثا ـ ايصال البث المباشر التلفزيوني الى القرى النائية.
رابعا ـ رصد موارد الارض من الفضاء، ومسح هذه الموارد، وتطوير الوسائل الفعالة لادارتها والانتفاع بها.
خامسا ـ زيادة المعرفة عن الكرة الارضية وما يحيط بها، بحيث يسيطر الانسان على البيئة الطبيعية الى حد يقلل من العواصف، والفيضانات المدمرة، والزلازل.
اما ما تحقق حتى الآن من الاختراعات والاكتشافات بفضل علم الفضاء فأهمه:
اولا ـ الجهاز العاكس لأشعة ليزر. وبه تقاس المسافة بين الارض والقمر بدقة تصل الى بضعة سنتيمترات، كما يحتمل ان يفضي ذلك الى التنبؤ بالهزات الأرضية قبل حدوثها.
ثانيا ـ استحداث تقنيات جديدة، وعمليات تصنيعية جديدة، ثم قيام شركات جديدة تفيد من الخبرة التقنية الناشئة. وهنالك ما جرى من تحسين في اساليب التعليم والطب والادارة والمواصلات والصناعة والزراعة. ومن ذلك ان العقل الالكتروني الحديث ازدادت قدرته على اختزان الكلمات من اربعين الف كلمة الى مليون كلمة، فيحسب في ٧٢ دقيقة ما لا يستطيع ان يحسبه رجل واحد بأقل من مليون سنة. ومن ذلك ايضا ان أحدث الأقمار الخاصة بالمواصلات يستطيع اليوم أن ينقل في وقت واحد خمسة آلاف رسالة أو ١٢ برنامجا تلفزيونيا.
وهكذا يسير الانسان في طريق المعرفة، معرفة الكوكب الذي يولد عليه ويموت، ومعرفة الفضاء اللامحدود الذي يحيط به.
وبقي عليه ان يزداد معرفة بنفسه، كما يقول سقراط.
فهل في الفتوحات الفضائية ما يعينه على ذلك؟

الاثنين، ٢ آب

كنت محظوظا هذا المساء، حين صدف ان أصغيت الى تعليق الاذاعة الذي كتبه رفيق المعلوف.
كان عن الاغتراب.

لم يكتب أحد، بايجان، أبلغ مما كتبه رفيق المعلوف عن هذا الموضوع الخطير.

لم يحلل، فما هو بحاثة ولا يريد ان يكون.

لكنه، وهو الأديب الشاعر، جمع المشاعر كلها في كلمات، كمن يجمع خلاصة العطر في اناء.

نادرا ما ترقرقت الدمعة في عيني، كمثل هذه المرة.

لأن الذي قاله رفيق المعلوف يعرب عما يريد ان يقوله آخر لبناني، في آخر شبر من الأرض، في لبنان المقيم وفي لبنان المغترب.

الثلاثاء، ٣ آب

الى أحمد لواساني: جهادك في سبيل الاملاء العربي، كمن يداوي جرحا في جسد ميت.

الاربعاء، ٤ آب

من حقائق المجتمع المتخلف ان الكلام لا جمرك عليه، وانه لا يثير الا الانفعالات والاحاسيس والغرائز.

واذن، صاحب القلم لا يلعب أي دور في الحياة العامة. هذا الدور يلعبه صاحب المال والنفوذ والجاه.

والمقال الذي يسقط حكومة في المجتمع المتقدم، يكاد لا يقرأه أحد في المجتمع المتخلف.

وفيما يمتد ويتمدد ظل صاحب المال والنفوذ والجاه، يتقلص ظل صاحب القلم. حتى انه كثيرا ما يؤجر قلمه، أو يستغله، أو يبيعه لمجرد البقاء.

ومن أصحاب القلم في المجتمع المتخلف من يلجأ من خطر التقلص الى خطر آخر: السياسة.

ولا عيب في السياسة، غير أنها شيء، وصناعة القلم شيء آخر.

وفي المجتمع المتخلف حقائق اخرى، لكن هذه الحقيقة أهمها على الاطلاق.

وهكذا نستطيع ان نفهم سعيد عقل حين يردد، بطريقته المعروفة، ان كيلومترا من طريق مزفتة يكلف من المال ما يكفي لمشروع ثقافي ضخم. وهذا صحيح.

الا ان في قدرة لبنان، اذا سار على طريق التقدم، ان يزفت الطرق وان يبري الاقلام في وقت واحد.

الخميس، ٥ آب

يضرب ميشال أبو جوده في «النهار» هذه الأيام على عصب حساس: الديموقراطية، الحرية، الكرامة الانسانية. وموجز كلامه أن لا خلاص للعرب من المحيط الى الخليج الا باعتماد الديموقراطية نظاما للحكم، وباطلاق سراح الحرية، وباحترام حقوق الانسان وكرامته.

والحقيقة ان الديموقراطية، أي حكم الشعب، أو كما حددها ابراهيم لنكولن في عبارته المشهورة: حكومة من الشعب، وبالشعب، وللشعب - انما تنطوي على الحرية والكرامة الانسانية وما يتبعهما، بالضرورة، من قانون قائم على العدل.

وكان للعرب في الجاهلية حكم قائم على الشورى، لكنه لم يكن ديموقراطيا بمفهوم الاغريق للديمقراطية، وهو المفهوم الذي انتهى الينا عبر العصور. وانما كان «شورى» بين زعماء القبائل، لا بين الافراد. ويعرف هذا في علم السياسة، منذ أرسطو، بالنظام الارستقراطي أو، اذا كان أكثر تحررا، بالنظام الاوليغرقي.

لكن العرب، بعد الفتح، أخذوا بالنظام الاستبدادي في معظم العهود، أي بالنظام القائم على الفرد، وهو ما عرف بالطغيان. ووجد علماء السياسة المسلمون تبريرا للحكم الفردي المطلق، لكنهم نادوا بالحاكم المستبد العادل كمثل اعلى. ومع انهم قالوا بحق الخلع، الا انهم وضعوا لممارسة هذا الحق شروطا جعلته اشبه شيء بالمستحيل.

والواقع ان لا مجال في الشرع الاسلامي الا للحكم الفردي المطلق، نظرا الى ان الحكم دين ودنيا معا. فاذا كان الحاكم أعلى سلطة دينية، فأحرى به ان يكون اعلى سلطة مدنية ايضا.

والى الآن لم تعلمن الدولة في الاسلام، برغم الحركات «الثورية» ذات

النزعة الاشتراكية، أو حتى الشيوعية. وهكذا، فلم تتغير نظرة العرب الى الحكم أو الى الحاكم. فالحكم مطلق، والحاكم واحد أوحد لا شريك له. فكما الله في السماء، كذلك الحاكم على الارض.

واذن، لا حوار ولا نقاش ولا اختلاف. وبالتعبير السياسي المعاصر لا معارضة. وفي مثل هذه الحال لا تغيير في الحكم، وفي ما ينبثق منه، الا بالعنف. بل لا تغيير في أي شيء الا به. فالعنف هو أداة الحاكم كما هو أداة المحكوم، وهو يبرر ما هو كائن كما يبرر ما يجب ان يكون.

واذا كنا جادين، بالفعل، في سعينا الى النهوض والتحرر والنصر، فعلينا ان نكون صريحين في طرح أفكارنا على بساط النقاش، وفي تسمية الاشياء بأسمائها. وفي ضوء هذا المبدأ أرى ان لا أمل للديموقراطية في المجتمع العربي الا بالعلمنة. فبالعلمنة تنفصل المؤسسات الدينية عن المؤسسات المدنية، فيصبح في امكانها جميعا ان تنمو وتتطور وتماشي روح العصر، من دون ان يعوق بعضها البعض الآخر. ثم ان العلمنة تعيد الحكم الى الشعب، بعدما كان لظل الله على الارض. وبكلمة اخرى، يصير الحكم مستمدا من ارادة المحكومين، بدل ان يكون مستمدا من ارادة الحاكمين.

واذا لم يتم ذلك، تظل الحال على ما هي عليه اليوم وكما كانت عبر التاريخ العربي. ينهض الحاكم بالعنف ويسقط بالعنف، ويعطي السيادة للشعب، او يعد باعطائها، بينما هو الذي يجب ان يعطاها. وينتج من ذلك ان لا مؤسسات مدنية تقوم وتدوم، ولا ثقة للمحكوم بالحاكم أو الحاكم بالمحكوم. وهكذا ينحل المجتمع الى قطيع، وتتحول الدولة الى عصابة أو مجموعة عصابات متقاتلة. وهنا تبرز اسرائيل، وهي العدو اللدود، سبيل الشعب الى الخلاص!

ولنا في الفدائيين الذين آثروا الاحتماء باسرائيل عبرة لمن يعتبر!

الجمعة، ٦ آب

ولدت اليوم «الاكاديمية اللبنانية» وقدمت اوراق اعتمادها، حسب الاصول، الى رئيس الجمهورية.

بقي ان نعرف مَنْ مِنَ اللبنانيين الفطاحل سيكون، الى جانب

المؤسسين الستة، في عداد «الاربعين خالدا»، الاعضاء في هذه الاكاديمية؟

وبقي ايضا ان نعرف دستورها النظري، والأهم منه دستورها العملي. أي الكيف، واللماذا، والبماذا.

السبت، ٧ آب

ما حضرت فيلما أو مهرجانا في أسابيع، ولا صعدت الجبل أو نزلت البحر الى في القليل. بل انني ما تجاوزت قبرص في سنوات، أو دخلت النهار فارسا على جواد الفجر.

وما بي حزن، ولا أنا نادم أو أسيف. فلي امرأة وصديق وكتاب، ولي قلم قاطع، وعقل سليم في جسم سليم.

ولي، فوق هذا كله، الرجاء.

وأسعدني ان قطعت منتصف العمر، وان التفت ورائي فازداد ثقة بأن ما تركت لن يكون خيرا مما سأجد.

وقلما استعيد الشعر الذي كتبت. لكني حين أفعل، أدرك انه يتململ مثلي تحت رماد السنين، وان يوم انبعاثه قريب.

واذ بلغت القمة وبدأت أهبط السفح، تتضاعف عندي لذة الحياة، بمقدار ما يتضاعف اقترابي من النهاية.

ويداخلني خوف من الشيخوخة، لكن حقيقة الموت تبدد هذا الخوف.

فالموت وجه الحياة الآخر، وهو جميل ورائع، شرط ان تكون اعطيت في الحياة ما يجب ان تعطي.

فالذين يبغضون الموت، يبغضون الحياة ايضا. فهم كالعاصفة التي تذريها الريح.

وفي السنين الماضية تعزيت كثيرا في الضيق، لأنني أحببت الموت كما أحببت الحياة، فكنت صادقا مع كليهما.

وكانت أبهى لحظات أيامي، تلك التي أدركت فيها، بعمق، قصوري وعجزي وفنائيتي.

وما شعرت بالعبودية والذل، أو باليأس والبؤس، الا عندما داخلني الغرور وراودني ميل الى الخلود.

ولم أكن قنوعا، لكني لم اكن طامحا الا بمقدار. واذا كنت غير راض بما أنجزت، فأنا راض بالجهد الذي بذلت.

وكلما انقضى يوم، تزايدت رغبتي في الخلق. فأشعر بأنني لم ابدأ وبأنني ربما بدأت في اليوم الاخير من العمر.

ولا يجيء ذلك متأخرا، لأن الأيام التي عشتها هي التعبير الأروع عن ما أردت ان اكون.

وما العبرة في القدرة او العجز، وانما العبرة في الارادة التي تبرر كل فعل.

وما لي نقمة على ما في الحياة من ظلام، لأن ما فيها من نور كفيل بتبديده امام الصادقين.

وفي تلك السنين، طلبت الكثير، فنلت القليل، لكن القليل الذي نلت كان اكثر مما استحق.

وما هذا بتواضع زائف، لأن ذلك القليل كان كثيرا جدا.

وان ما زلت في صراع مع الحاجة، فلأنني ما بخلت بشيء، ولا مددت يدي على رصيف ولا مزجت الالوان بماء الحقد.

لكني واثق من الغلبة. فمن له يعطى فيزاد، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه.

وأنا لي حبي.

وما دام لنا الحب، فأين شوكتك يا موت، وأين غلبتك يا هاوية.

وما من باطل في الوجود، الا لمن تعوزه البصيرة ويضيع في المطلق المجهول.

فالوجود حق. وهو هنا والآن: في رعشة الحب والفرح، كما في مرارة الخيبة والحزن.

الثلاثاء، ٩ آب

صرت أخاف ان يطفش الناس من لبنان لكثرة التفشيط عن لبنان.

المطلوب: شيء من التواضع، والكثير من اللاارومنطيقية في الدعاية، والكثير الكثير من الروح العلمية والفهم البسيكولوجي.

والمطلوب أيضا: ضبط الاعصاب.

فحبنا للبنان يجب ان لا يكون من نوع الذي يقتل، كما في اغنية «يا مين يشتريك»، من نظم الاخطل الصغير وغناء عبد الوهاب.
والرصانة تقضي، أمام النجاح، بأن لا نعوم في شبر ماء.
وهل في الدنيا أغلظ وأوقح وأقرف من حديث النعمة؟

الاربعاء، ١٠ آب

دخل اليوم أحد الرسامين «الواقعيين» غاليري واحد لمشاهدة لوحات صليبا الدويهي.
قال: «شو هيدا؟ هيدا صليبا الدويهي؟ يا ضيعانه!».
ووقف أمام لوحة يغرق في زرقتها القلب قبل العين وصاح: «شو معنى هاللوحة؟ مين من كان بيرسم متلها. بتريد جبلك عشر لوحات بكره؟»
وراح يتمختر امام تلك اللوحات العجيبة، وهو يهز برأسه ويضرب الارض بكعب حذائه.
وبعدما راق قليلا قلت له: «يا صاحبي، بدل ما تقول «شو هيدا»، قول «مش فاهم». هيك بصير معك حق. أما انك تتحدى أكبر متاحف اميركا اللي علقت فيها لوحات الدويهي، فمسألة فيها نظر!».
وعنيت بقولي «المسألة فيها نظر» تماما ما يأتي: «يا هم حمير، يا انت!».
هذا الرجل مسطرة عن كثيرين، لا في هذا العصر، بل في كل عصر.
هؤلاء هم الوقوفيون السلفيون، المغلقون على كل جديد والخائفون من كل جديد.
يحاولون قصقصة جناح العقل والروح فلا يطيران طليقين في فضاء الخلق والابداع.
يكرهون التغير وفق معطيات الواقع المتغيرة دائما وابدا. فالواقع في نظرهم قالب يصبون فيه نظرياتهم الفوقية المسلوخة عن حركة الحياة.
وهم يمقتون كل مغامرة في المجهول لأنهم تفاؤليون زائفون في تفاؤليتهم الى حد القعود والاستسلام والجبانة.
وهؤلاء هم دائما الخاسرون، لكنهم لا يتعظون.
صحيح ان ما كل جديد صالح وجميل، ولا كل تغيير لائق ومريح. لكن

الجديد كجديد يوجب الاحترام لا الازدراء، والتغيير كتغيير يفرض البحث والتدقيق في علله ومسبباته، لا بالاستناد الى النظريات الفوقية السالفة، بل بالاستناد الى معطيات الواقع الانساني عند حدوث التغيير.

ومثلما نجتهد ان نكون، علينا ان نجتهد ان نصير.

واذا كانت الكينونة هي الأساس، فلا يعني انها لا تدفن في التربة (أي في الحياة) لتنمو وتزهر وتثمر.

فالاله ذاته تجسد وصار بشرا.

والويل للاله الذي لا يفعل.

بل الويل لنا منه.

الخميس، ١١ آب

الى سعد البواردي، الشاعر من العربية السعودية:

وجدت الشاعرية في دواوينك، لكني افتقدت الشعر. فالشعر لم يعد يكتب هكذا، ويا للاسف!

ففي هذا العالم المتغير، والمتغير هذه الايام بسرعة، علينا ان نسابق الريح للحاق بالطليعة.

فهات يدك لنركض.

الجمعة، ١٣ آب

دفع الي أنسي الحاج كتابا ظهر حديثا لنسيب نمر، بعنوان «فلسفة الحركة الوطنية التحريرية»، وقال: «لم أقرأ هذا الكتاب، لكنه يبدو جديرا بالمطالعة. فلمؤلفه وزن وقيمة في النضال العقائدي والسياسي».

وفي الحال عادت بي الذاكرة الى الوراء، الى الثلاثينات، حين كان نسيب نمر في مطلع حياته النضالية والصحافية. ثم برز في مخيلتي بشاربيه الثقيلين، وعينيه المنقضتين، وقامته المديدة المتحفزة دائما للمبارزة.

كنت أتوقع كل شيء من نسيب نمر، الا ان يكون مفكراً رصينا يضع الاسس لـ «فلسفة» الحركة الوطنية التحريرية.

لذلك تأبطت الكتاب بخفة واستخفاف، ثم تركته يرتاح أياما على مكتبي.

ولم أنسه كعادتي في النسيان، لانه ظل مستلقيا هناك، يراودني ويغريني.

وذات يوم، وقعت في التجربة.

فأخذت الكتاب وألقيت نظرة على «الفهرست»، فاذا به يحتوي على ستة فصول تعالج «الاشتراكية الواجبة والضرورية للوطن العربي»، و«تاريخ الفلسفة ونشوء الحركة الوطنية التحريرية»، و«القضية الاساسية في الفلسفة وضياع القوميين السوريين» و«الاساس الفلسفي للحركة الوطنية التحررية»، واخيرا «المنطق الشكلي وضياع الاشتراكيين التقليديين التبعيين».

واذن، أنا امام كتاب فكري او فلسفي، لا كتاب نظري عقائدي «فلهوي» كالذي عودنا اياه «المنظرون» اليساريون، الثوريون، العقائديون، التحرريون، من كل صنف ونوع.

وبعد أيام، خرجت من مطالعة الكتاب باحترام خطره وخطورته: خطره على انصاف المتعلمين لوضوحه وصفائه وقوة حجته، وخطورته في انه اول كتاب عربي، في ما قرأت، يرسم معالم الطريق الثورية الى تغيير المجتمع العربي تغييرا جذريا. وذلك كله بالحفاظ على التقليد اللبناني في احترام حقوق الانسان وحريته وكرامته.

ما انا هنا في معرض نقد الكتاب أو تقييمه أو تلخيص محتوياته. لكنني لا أجد بدا من أن أشير الى الخط العام الذي يرسمه المؤلف، وسط عجيج التكرار وضجيجه.

اولا ـ هنالك فلسفتان فقط: المادية والمثالية. فالماديون يقولون بأسبقية الكائن أو المادة أو الوجود أو الطبيعة، والمثاليون يقولون بأسبقية الروح أو الفكر أو المطلق أو الله (كما قال افلاطون) أو واجب الوجود أو شكل الأشكال الساكن (كما قال ارسطو). وبكلمة اخرى، فالمادية تزعم ان الكائن اولي والفكر ثانوي، والمثالية تزعم ان الفكر اولي والكائن ثانوي.

ثانيا ـ في صياغة مرتكزات «فلسفة الحركة الوطنية التحريرية»، يجب تحديد موقف، أما الى جانب المادية أو الى جانب المثالية، بناء على أي منها

«تتوافق مع مصالح أكثر الكادحين العرب الذين لم يصلوا الى الوضع الحالي المتردي الا بسبب استسلاميتهم العمياء، واتكاليتهم على قوى غير طبيعية ينتظرون منها ان تغير طبيعتهم وتبدلها... فالانسان يخطو نحو الحرية كلما خطا في طريق العلم، العلم الذي يوطد سيطرتنا على الطبيعة هو نفسه الذي يجعلنا احرارا. فالعالم حر أمام الطبيعة أكثر بكثير من الجاهل الذي يبقى عبدا لها ما دام جاهلا حوادثها».

ثالثا ـ واذن، يجب على العرب اختيار الفلسفة المادية لأنها «تتوافق مع مصالح اكثر الكادحين العرب»، ولأنها ـ من الناحية النظرية، في رأي المؤلف ـ اصح، باعتبار ان «العقل ليس سوى نتاج الطبيعة الأعلى، خلال تطورها المتشابك والمعقد!».

وفي ضوء هذا الاختيار، يتخذ نسيب نمر مواقف عملية، أهمها:

اولا ـ هنالك انتهازية «يسارية» ـ أي اشتراكية مادية أو علمية ـ ذات جمود عقائدي، وانتهازية «يمينية» ـ اي اشتراكية مثالية تحريفية. وكلتا الانتهازيتين من مصدر واحد: الايديولوجية البورجوازية الصغيرة التي تخدم النظام الاستثماري. والانتهازية اليسارية تعني أخذ الصيغ والعبارات الجاهزة وتطبيقها على الخاص دون النظر الى خصائصه وماهيته وظروفه التاريخية الملموسة التي تحيط به ويؤثر فيها وتؤثر فيه. أما الانتهازية اليمينية أو التحريفية، فتعني نفي المبادىء الاساسية والحقائق العامة للسنن والقوانين ذات الشمول، واخضاع الكل للجزء، دون اهتمام بالعلاقة الديالكتيكية بين الجزء والكل. وهذا ما ادى الى تعميق الأزمة في الاشتراكية العالمية وفي «داخل اليسار العربي». فالانحصار المطلق داخل اطر الاشتراكية العلمية بمبادئها وحقيقتها واهمال القومية ونفيها ـ كما تفعل الانتهازية اليسارية، ذات الجمود العقائدي ـ يؤدي الى الكوسموبوليتية التي هي اممية مشوهة. كما ان الانحصار المطلق داخل الاطر القومية واهمال الاممية ونفيها ـ كما تفعل الانتهازية اليمينية التحريفية ـ يؤدي الى الشوفينية التي هي قومية مشوهة. واذن، فانكار تأثير الاشتراكية العلمية في الحركة الثورية العربية يبعدها عن الاشتراكية السليمة، كما ان انكار تأثير الظروف الموضوعية والخصائص القومية في الحركة الثورية يبعد هذه الحركة ايضا عن الاشتراكية السليمة. والنتيجة انقسام اليسار العربي وتفككه.

ثانيا ـ لا ينقذ اليسار العربي من ازمته الا بالوعي ان لا قومية من دون أممية ولا أممية من دون قومية، أي لا خطة تقدمية توافق متطلبات العرب المرحلية الثورية من دون الاشتراكية العلمية، ولا اشتراكية علمية توافق متطلباتهم المرحلية الثورية من دون تراث العرب التقدمي وظروفهم الموضوعية وخصائصهم القومية.

ثالثا ـ وحيث ان لا حركة ثورية بلا نظرية ثورية، فالضرورة تقضي بايجاد هذه النظرية، على ان تكون مرتبطة بالنظرية الثورية العالمية الاممية، أي بالاشتراكية العلمية، وفي الوقت ذاته بتبدلات المجتمع العربي وتغيراته، وحركته في المرحلة التاريخية الملموسة الراهنة. وبتعبير آخر، ان فلسفة الحركة الوطنية التحريرية تتبنى الاشتراكية المادية العلمية لانها ثورية، كما تتبنى الواقع النوعي الخاص لانها حية متحركة.

هذا هو نسيب نمر في موقفه الاشتراكي او الشيوعي الاخير. وهو موقف واضح لا يستطاع نقضه، فلسفيا، الا في الاساس: هل الفكر اسبق من المادة، أم المادة أسبق من الفكر؟ فاذا كان الفكر أسبق من المادة كنت مثاليا الى حد الايمان بالخالق ـ وهذا هو التيار الفلسفي الايجابي، المتحدر الينا عبر التاريخ منذ طاليس. واذا كانت المادة أسبق من الفكر في الوجود، كنت ماديا الى حد نفي الخالق ـ وهذا هو التيار الفلسفي السلبي المعارض الذي غرس بذوره هيراقليط، ثم نما عبر التاريخ الى ان ازدهر بالاشتراكية العلمية على يد الماركسية ـ اللينينية في عصرنا الحديث.

واذا كان التيار الفلسفي الايجابي يوصم بالرجعية ويعزى اليه كل «شرور» المجتمع الرأسمالي، فلأنه يؤمن بالكيان والروح وتعاليمهما وتجسدهما معا في التاريخ. واذا كان التيار الفلسفي السلبي ينعت بالثورة ويؤمل على يده تحقيق «الفردوس الارضي»، فلأنه لا يؤمن الا بالصيرورة والتغير الدائمين عبر التاريخ.

ونحن في هذا العصر، انما نشهد احتدام الصراع بين التيارين. وفي هذا الصراع الذي قد لا تكتب فيه الغلبة لاحد التيارين، يجتاز الانسان مرحلة فاصلة بين عالم يموت وعالم في طريق الولادة.

الجمعة، ٢٠ آب

قيل لبنان، على ضيق مساحته، ما يشبه القارة. وهو هكذا بالفعل. فمن صفات القارة تنوعها في المناخ، والتربة، والنبات والحجر، واللون، والطبائع. ومثل هذا التنوع مكثف في لبنان الى حد لا يضاهى. فاذا ما سلكت معارج الجبل في صباح ما، فلا يستقيم الظل الا وقد خالجك الشعور، لدى كل منعطف او مطل، بأنك تنتقل من بلد الى آخر، في قارة فسيحة الارجاء.

ولا عجب، اذن، ان تسود العصبية الاقليمية في ما يشبه الزهو والاعتداد، وان لا تتلاقى الاطراف أو تتوحد الاجزاء الا على اسم لبنان، لا كمساحة على الخريطة، بل كموطن يلوذ به العقل والروح من ظلامة المشرق والمغرب.

كان هذا في خاطري، ونحن نطوي الساحل في اتجاه الشمال. فما ان بلغنا شكا، حتى صاح صليبا الدويهي: «اعطف الى اليسار، فنمر بالديمان ونحظى بالمثول في حضرة البطريرك».

وراحت السيارة تصعد بنا الهضبة، عبر الكورة، الى الحدث فالديمان. وكان النهار لم يمل بعد، فرأينا انسياب الامداء تحت بهاء الشمس.

وفي الديمان، وقفنا في الساحة الرحيبة التي شهدت، على مر الايام، كبار الزائرين وصغارهم. ثم دخلنا الصرح. وهو، على بساطته، أدعى للخشوع والمهابة في كل شيء. فملنا الى اليسار، حتى بلغنا الكنيسة. وهناك رحنا نعيد النظر والتأمل في الجدران والسقوف العالية التي رسمت عليها ريشة الدويهي، قبل أكثر من عشرين سنة، أخبار الولادة والصلب والقيامة.

كانت الرافعة التي حملت الدويهي، صعودا ونزولا على الجدران والسقوف، لا تزال هناك. وهي دليل على ان بعض الرسوم، فوق الطبقة الخلفية العليا، لم ينته العمل به بعد. وكم آلمنا ان نرى المذبحين اللذين على اليمين واليسار في مقدمة الكنيسة يتشققان من فرط الرطوبة، حتى لتكاد الرسوم الرائعة تنسلخ وتسقط يوما بعد يوم.

وكنت أتمنى لو أشارك الدويهي في نعمة التبرك بالسلام على سيد

الصرح، الا انني فوجئت فلم أكن أرتدي الثياب اللائقة بالمقام. وفيما صعد الدويهي، بقيت انتظر في حمى الله وثالوثه الاقدس.

ومن الديمان، واصلنا السير الى بشري. وكان الدويهي قد خلع سترته وربطة عنقه وراح يعب نسيم مسقط رأسه المنعش، ويستعيد ذكريات الطفولة والصبا. وكان يرسل النكات ويردد ابياتا قديمة من الشعر العربي.

وفي بشري، مررنا ببعض الاصدقاء. وفيما نحن نقفز من زقاق الى زقـاق، وقع نظرنا على كنيسة جديدة في طور البناء. وحين سألنا امرأة هناك: «ما هذه الكاتدرائية الشامخة»، أجابت: «هيدي كنيسة السيدة». وصعـدنـا الى الكنيسـة فاستقبلنا بعض شباب البلدة، بينهم انطوان كيرون، وأدخلونا للتفرج عليها. وقالوا: «بدأنا ببنائها ومعنا ألف ليرة فقط. وسرعان ما تزايدت التبرعات من اهالي البلدة، حتى كاد يكتمل البناء». فأعربنا عن اعجابنا بروعة البناء وأريحية الاهالي. وأطبقت علينا العتمة وهممنـا بالانصراف. وكاد الدويهي يفلت من دون ان يعرفوه، فما ان عرفوه حتى صاحوا: «أنت صليبا الدويهي ونحن نفتش عليك؟ نريد ان نستشيرك في رسم سقف كنيستنا!»، فهش الدويهي مبتسما وقال: «ان شاء الله». ثم سارعنـا في متابعة السير، قبل ان يحشد كرم الضيافة جنوده ويسد علينا منافذ الطريق.

وها نحن في اهدن.

واهدن، في هذه الايام، عروس مزدانة بالاعلام وصور الرئيس. لكنها فاجأتنا بما كانت عليه من هدوء. فلا ضوضاء ولا زحمة، تماما كعهدنا بها في العادي من فصول الصيف. لكن هذا لم يرق صاحب الفندق الذي نزلنا فيه. وشكواه ان انتشار الشائعة عن الغلاء والازدحام أبعد عنها المصطافين والحجاج.

وعند أمادو شلهوب، في دارته الجميلة في اجبع، امضينا سهرة فنية وحميمة. وسرَّنا ان نعلم من أمادو ان العمل في معرض طرابلس الدولي، الذي هو مديره، يسير بسرعة وجد، نزولا عند رغبة الرئيس الجديد.

السبت، ٢١ آب

في المساء، الى مزيارة.

كنا نلبي دعوة نادي الشباب هناك الى سماع محاضرة للامام موسى الصدر عن «الهجرة».

وفي الطريق، امتدح بدوي ابو ديب، الامين العام التنفيذي للجامعة اللبنانية في العالم، شخصية الامام وحصافته ودوره الخطير في التقارب الطائفي وتعزيز الولاء للوطن اللبناني. وهكذا هيأنا للقاء المحاضر، وأثار فينا الشوق الى سماعه.

كان ذلك فوق ما توقعنا. فللإمام الصدر حضور فذ: عينان خضراوان واسعتان في وجه وسيم مشرق السمرة، وقامة فارعة مديدة لا تتمالك من الانحناء قليلا تحت ثقل المهابة. وهو محدث بليغ لا بصفصفة الكلام، بل بالتأني فيه نزولا الى الجوهر.

أحاطت محاضرته بموضوع «الهجرة» من مختلف نواحيه: فوائدها ومضارها، دواعيها ونتائجها. ثم خلص الى القول بأن الهجرة كهجرة دليل على التحرك نحو الاكتمال، وانها أمر مألوف ومعروف، وان الدعوة الى الافراط فيها خطأ كالدعوة الى تحريمها. فالخير في الهجرة، في ما يخص لبنان، ان ترسم لها سياسة علمية واضحة، تعتبر «الفائض» من العنصر البشري مادة انتاجية وطنية للتصدير. ولتقدير هذا «الفائض»، يجب الاستناد الى دراسة احصائية دقيقة لما تحتاج اليه البلاد من الايدي العاملة في مختلف الحقول. عندئذ لا تقع البلاد في أية خسارة، بل انها تجني من «تصدير» الفائض من ابنائها فوائد عديدة، أهمها تخفيف عبء السكان، وفتح المجالات امام الطامحين، ونقل لبنان من بلد صغير بمساحته وعدد سكانه الى بلد كبير بانتشار ابنائه تحت كل سماء.

كان الحضور كبيرا بحماسته، واعجابه، واحترامه للمحاضر. فصفق طويلا من القلب، كأنما كان في عيد.

وكان دياب نصر، وجيه البلدة، قد أولم للامام المحاضر، في دارته الجديدة الشامخة. فسرنا اليها، وهناك أتيح لنا ان نتحدث الى الصدر في بعض الشؤون. ومن آراء سماحته ان خلاص الغرب الروحي والعقلي لا يتم الا بالعودة الى المنابع المسيحية ـ الاسلامية الاولى في هذا المشرق.

كانت طريق الرجــوع الى اهدن، قبل منتصف الليل بقليل، مغامرة ساحرة. لكن «الفوكس» الذي كنت أقوده «بيَّض» وجه الصناعة الالمانية!

الاحد، ٢٢ آب

تغدينا اليوم عند رينه ونايله معوض.

وفي المساء، قمنا بزيارة للرئيس الاول. وكان معنا، صليبا وبدوي وأنا، والصحـافي المغتـرب من حصرون في المكسيـك، «ليسـانسيادو» عواد، صاحب مجلة «الامير» الصادرة هناك باللغة المكسيكية. وهو شيخ جليل، منفتح القلب والعقل على الحياة، بكل ما فيها من جديد وطريف. حتى انني فوجئت بأنه كان يتابع حركة مجلة «شعر» ويعجب بها.

وكـان الرئيس الاول في غرفـة الاستقبال الواسعة، يحيط به بعض زائريه. فاستقبلنا بترحاب وأجلسنا في حضرته. وحرص ان يطمئن عن المعـرض الذي أقيم للوحات الدويهي. وسره ان يعلم ان المعرض نجح نجاحا باهرا في تحريك الوسط الفني واثارة الحماسة فيه نحو التجدد والتنوع والابداع في اساليب التعبير.

ثم اصغى باهتمـام الى اخبـار المغتـربين في المكسيك، ينقلها اليه الليسانسيادو عواد.

وحضر الوزير طربيه، فاشترك في الاحاديث.

وأكثر ما يعجب الزائر ان رئيسه الاول يمثل الشخصية اللبنانية التي هي في الجبل أصدق منها على الساحل. ومن مزايا هذه الشخصية ثقتها بنفسهـا لا بعظمة المنصب، واحترامها للمواطن لا بما له او عليه، بل بمحض كونه ما هو. انسان له، على ضعفه وتعتيره، كرامته وحقوقه.

وكانت كلمته الاخيرة عند الوداع: «سلّم على الجيران!».

الاربعاء، ٢٥ آب

الى أنيس المقدسي: أشكر لك عطفك وتقديرك لبعض «يومياتي». انت تعلم كم من الفضل يعود اليك. وعلى هدى جيلك المؤمن، الوديع، النقي القلب، بلغت القليل الذي استطعت.

الخميس، ٢٦ آب

جزاء المعارضة في النظام البرلماني: البقاء خارج الحكم.
وجزاء المعارضة في النظام الفردي، أي نظام الحزب الواحد: العزل أو السجن أو النفي أو الموت.
وفي النظام البرلماني تحاول المعارضة الوصول الى الحكم عن طريق الانتخاب الشعبي الحر. أما في النظام الفردي، فتحاول المعارضة الوصول الى الحكم عن طريق العنف، أي الثورة الشعبية المسلحة أو الانقلاب العسكري.
هناك حرية الرأي والعمل الحزبي والشرعية القائمة على الاختيار الشعبي، وهنا التآمر في الظلام، والارهاب، والشرعية المغتصبة بالقوة والقائمة على عقائد مفروضة على الشعب.
فللانسان هناك حقوق وكرامة وحرية، أما هنا فلا حقوق له ولا كرامة ولا حرية الا بقدر ما يخضع ويستسلم ويتنازل عن حقوقه وكرامته وحريته.
هذا كله معروف ومألوف. لكننا لا نتمالك من تذكره والتذكير به، كلما شاع خبر مؤامرة ضد الحكم، أو وقف المتآمرون في قفص الاتهام.
ومن أسف ان يكون هذا، في أيامنا، من طبيعة الاشياء.
أمخاض؟ ام تراه النزع الاخير؟

الجمعة، ٢٧ آب

«ليس من يكتب بدم القلب، كمن يكتب بالحبر»، هذا القول، أو ما يشبهه، لجبران خليل جبران.
وسامي الجندي يكتب بدم القلب. تحس لهاثه على الكلمة. تحس الكلمة عصبا مشدودا الى قوس. تحس توجعها والسهم بات متحفزا للانطلاق.
وسواء كتب سامي الجندي في السياسة أو اشتغل بها، يظل ذلك الفارس الرومانسي المخضرم، النادر المثيل في عصرنا الآلي البليد.
وهو بالكلمة مثله بالسيف: قاطع، دمشقي، مرهف، أصيل.

ولئن هجـر السيف، ولو مرغما كما يقول، الى الكلمة، فلأنه أديب بالفـطرة والتـوق، ولأن الكلمـة أجدى لديه، حين يكون الميدان عامراً بالجثث.

فهل هي كذلك حقا؟

هل الكلمة، في عرب اليوم، أجدى من السيف، أم ان السيف والكلمة كليهما لا يجديان؟

وهل يخشى على سامي الجندي من خيبة أمل بالكلمة أيضا؟

هل تبعث الكلمة الحياة في الجثة؟ هل تصير جسدا وتحل بيننا لتموت وتدفن وتقوم في اليوم الثالث، فيكون في موتها وقيامتها من الموت بدء حياة جديدة؟

«أنا ما أزال مؤمنا بالجثة ايمان منقذ لها مهما قصرت باعي»، يقول سامي الجندي. ويضيف: «ولكن على الجثة ان تؤمن بالحياة ايمانها بالموت، أن تدرك موتها وهيهات أن تحيا ما لم تدرك الموت».

ثم يتساءل: «الى من انتسب بعد ان خلفت ورائي السياسة، الى موت الجثة أم الى حياتها؟»، فيجيب حائرا مناقضا نفسه: «انا لست من هذا ولا من ذاك... أنـا رفض للمـوت فقط وانفصال مطلق عن كل طقوسه الجنائزية، شاهد على هذه المرحلة برغم اني أرفض الانتساب اليها: ذلك موقف فنان، لا موقف سياسي!».

انه بالفعل موقف فنان. لكنه موقف فنان مثالي عنيد في ايمانه ولو بجثة «هيهات ان تحيا ما لم تدرك الموت!» على ان السياسي فيه يخرج رأسه من القمقم ويقول: «فالفنان لا يختار سبله، هي التي تختاره، وقد تكون فوق ذلك دون جدوى!».

لكن «الكلمـة» تظل هاجسـا مصيرا عند سامي الجندي. حتى ان السـؤال الوحيـد الذي اختـار ان يوجهـه الى «المعلم» كان: «مـا هي الكلمة؟»، وسرَّه ان يجيب المعلم بأنها: «الانسان!». لكنه في ما بعد، «حين انتهى هو الى الحـرف، وانتهى محمـد للسوط، وعلي للمهماز، قلب كل الوجـوه والاجسـاد ورأى آثار المهماز والسوط، ولكنه لم ير الانسان» فالتفت الى المعلم ليسأله مرة اخرى: «أين هي الكلمة؟»، غير انه لم يجد أحدا! فحتى «المعلم» لم يستطع ان يكون تلك «الكلمة». نعم وجدها، لكنه «لم يقلها الا مرة وحيدة». لماذا؟ لأنه كان «من الانبياء العجزة، أصابه.

الخرس والكساح!»

فهل يكون سامي الجندي طامحا الى ان يجد هذه «الكلمة» ويقولها أكثـر من مرة وحيـدة «مهما قصرت باعه»؟ وهل يكفي ان يكون مؤمنا بالجثة «ايمان منقذ لها»، حتى تدب فيها الحياة كجثة اليعازر؟

نعم، قد يكون «المثل الاعلى تألقا حضاريا، صوفي الملامح، تعبيرا عن طاقة انسانية كبرى»، كما يقول، وقد تكون الحضارة «مناقب وابداعا»، لكن المثل الاعلى هو قبل كل شيء «فعل»، وكذلك الحضارة. فما صوفية المـلامح، والتعبير عن الطاقة الانسانية الكبرى، سوى انعكاس للمثل الاعـلى. ومـا المناقب والابداع الا ثمار الحضارة، لا الحضارة ذاتها. واذن، يبقى على الجثة او «المؤمن بالجثة» ان يجد تلك «الكلمة»، ذلك «المثل الأعلى»، للنهوض الى حياة «حضارية» جديدة.

وصحيح ان «التخلف ليس تقنيا فقط»، لكنه اذا كان تقنيا، بفقط او من دون فقط، كان تخلفا في الاساس. فكيف تكون «الجثة» متخلفة تقنيا فقط، ولا تكون متخلفة في الحضارة التي من ثمارها «المناقب والابداع»؟ الشعوب التقنية هي اليوم الشعوب المتقدمة، والتقنية دليل على تقدمها. أما الشعوب اللاتقنية فهي الشعوب المتخلفة، واللاتقنية دليل على هذا التخلف.

واذن، القول إن «ليس التخلف العربي تخلفا تقنيا، انه ظاهرة تعبر عن اننا ما تجاوزنا عصر الانحطاط»، انما هو قول غير دقيق ولا يقبض على حقيقة موت «الجثة». ذلك ان التخلف العربي هو، بالفعل، تخلف تقني، لا لأنه «ظاهرة تعبر عن اننا ما تجاوزنا عصر الانحطاط»، بل لأنه ظاهرة تعبر، كما يعبر عصر الانحطاط ذاته، عن ان الرؤيا العربية تقصر ـ على حد تعبيره ـ عن المثل الاعلى الذي هو في نظره «تألق حضاري، صوفي الملامح، تعبير عن طاقة انسانية كبرى»، والذي هو في الحقيقة نظرة الى الوجود. فمثلما تكون هذه النظرة تكون الحياة الانسانية على الارض. واذا كانت حياتنا على الارض بائسة، متخلفة، لا مناقب فيها ولا ابداع، فلأن نظرتنا الى الوجود ـ أو الى العلة والمعلول والصلة بينهما ـ في حاجـة الى تعديل في ضوء النظرة التي جعلت حياة الآخرين اقرب الى التقدم، أي الى احترام الطبيعة شرطا للسيطرة عليها والانتفاع بخيرها واتقاء شرورها.

ولنعد الى «الكلمة» التي لجأ اليها سامي الجندي، والى «الانسان» الذي يبحث عنه. فهو بالكلمة يريد ان «ينقذ الموتى»، مع انه صاح من أعماقه «كتبت لعل بقية الشرف تصحو من سباتها ولكن أحدا لم يسمع... بل لقد سمعوا، غير ان وتر الآذان يحيل الصرخة دغدغة تهدهد وسن العيون».

أما الانسان فأين هو؟ «أظل أدور في الفراغ لا أقف ولا أسقط ولا يغمى علي ولا أصحو.. يداي معلقتان على الفضاء واللاشيء، أبحث عن الانسان... أين ذهب؟ اي تيه ابتلعه؟ اية موجة اخذته الى أغوارها؟ اية رمال دفنته؟»، وكيف لا يكون ذلك ما دام «كل مخاض كاذب في وطني لا يولد فيه غير الموت... السوط والجدران العالية وبق الزنزانة قتلت الشهامة... كان يمكن ان تعيش لولا ان الموت حقيقة مرعبة لم تدع على ارضنا غير سجن ورقيب ووشاة...».

لكن سامي الجندي، الذي جاء العالم مع «بررة عصاة لكن الرحى كانت عاتية، طحنتنا في سعيها الثقيل الرتيب...»، بقي «كي يبعث تقاليدهم» لا كسياسي، بل كفنان. فهو لم يعد يجد غير الفن سبيلا الى العثور بالانسان وقد ظنه مات، «مات وان موته كان ذليلا. لم تنكس له راية، لم يبكه أحد، مات دون دموع بل دون جنازة. لم أعثر على رمسه مع ان وطني رموس ذل وعويل!».

لكنه آثر الرحيل. «حملت متاعي ورحلت، بل لم أحمل غير ذاتي وأملا عظيما في أن تتبدل الاشياء، حملت معي اليأس والتفاؤل، ريشتي وأفكاري وأماني الحي البائس في ان نوقظ الموتى... كان لا بد من الرحيل. فقد بت غريبا على أرض الهزيمة لأنها ليست وطني. بل ليست وطنا... إنها وطن المهزومين في أعماقهم وقد تحصنت بدرع كثيف يعميها عن الوحل والعار...»

وكان المنفى.

وكانت هذه الحكايات الجديدة التي جمعها أخيرا بين دفتي كتاب.

هذه الحكايات التي وشاها «كبسملة خطاط تقي»، وراح «يجودها» على نغم قرآني شجي. حقا، «عجيبة هي حكايات المنفى»!

وأعجب منها هذا الفارس المنقذ، الناجي وحده من حجري الرحى، المؤمن بالكلمة تبعث الحياة في «الجثة»، المؤمن بهذه الجثة برغم ان موتها

شرط لحياتها، الباحث عن «الكلمة ـ الانسان».
نعم، والأعجب من هذا كله انه لا يزال في العرب مكان للأعاجيب!

الاثنين، ٣٠ آب

على من أرسلت السماء دموعها اليوم؟
في كل فصل نتوق الى الفصل الذي يليه، فما ان يجيء حتى نحنّ الى الفصل الذي فات.
تماما كاللذة، ما أجملها عابرة. او كالألم.
فما أتعسنا بالذي يدوم. الذي لا يتحرك ولا يتبدل.
ثقيل هو على العين والقلب. ثقيل كجبل من الهم.
فالى الغيمة الماطرة التي عبرت في سمائنا اليوم الف تحية.

الثلاثاء ، ٣١ آب

سيطر الضجر عليّ اليوم، ونادرا ما يفعل. وللتخلص منه، أخذت أكتب. فكتبت أشياء كثيرة، منها السطور الغريبة الآتية:

الحكاية التي هي
أتنتهي
ابدأت لكي؟
الواقفون هنا يمضغون
هواء المشرق الذي
أبدا، دائما يلتقون
مع النهار الذي ربما.
الاصل حكاية الكيف
ما بين طرفي مستحيل:
البداية التي نعم
والنهاية التي لا.

الأربعاء، ١ ايلول

الى صلاّح مطر، المحامي في الاستئناف:
كتابك «قانون الانتخاب وتطوير الديموقراطية» مساهمة قيمة لتنوير القارىء في هذا الموضوع، لا أكثر ولا أقل. اما ان تتوقع الأخذ بمقترحاتك الوجيهة، فأمر ضد طبيعة الاشياء.

فلم يسبق في التاريخ ان الغت الطبقة الحاكمة نفسها بنفسها، أو تنازلت عن أي امتياز مكتسب لها عن طيبة خاطر.

التغيير يأتي دائما من تحت، من المحرومين وانصاف المحرومين، من المثاليين الصغار منهم والكبار.

وفي كلمة، يأتي من ضمير الشعب وارادته في حياة أفضل.

فماذا يمنع الشعب اللبناني من ان يمارس حريته الدستورية في تأليف الأحزاب السياسية العلمانية التي تؤدي الى تنظيم الحياة السياسية وممارسة الديموقراطية الحقيقية؟ وماذا يمنع الشعب اللبناني، عندئذ، من «ارغام» الحاكمين على تعديل نظام الانتخاب وغير نظام الانتخاب من المؤسسات التي مر عليها الزمن؟

هنالك طريقتان لانزال الواقف على رأس السلم: ان تهوي عليه بضربة من فوق ـ وهذه مش طريقتنا ـ او ان تسحب السلم من تحت قدميه ـ وهذه طريقتنا التي هي طريق الديموقراطية الصحيحة.

وفي اختصار: الاقطاعية السياسية، والطائفية السياسية، لا تزولان بتشريع يضعه، باختيارهم وارادتهم، اولئك الذين اوصلتهم الاقطاعية السياسية والطائفية السياسية الى أعلى السلم.

فلنسحب، نحن لا هم، هذا السلم!

الخميس، ٢ ايلول

جاءني اليوم لطفي عبد الوهاب يحيى، رئيس قسم الحضارة في جامعة الاسكندرية. اهداني كتابه الضخم «الكيان العربي بين المقومات والامكانيات» وجلس، فأخذنا نتحدث.

قال إنه يهتم بفنون الأدب جميعا لأنها المدخل الحقيقي لمعرفة

المجتمع حق المعرفة. فالوقائع والبيانات السياسية، من رسمية وغير رسمية، لا تعكس الواقع في فترة معينة من التاريخ، قدر ما تعكسه الفنون والآداب.

هذا رأي معروف. والمهم ان زائري الجديد يطبقه على الخمسين طالبا، وهو الحد الأعلى، التابعين لقسم الحضارة الذي يرأسه.

وفي هذا القسم يدرسون الآداب والفنون الاغريقية واللاتينية، في اللغتين الاصليتين، للاطلاع على حضارة الاغريق والرومان كما انعكست على حقيقتها أو على أقرب ما يكون إلى حقيقتها.

وقال إن مستوى الهيئات التعليمية في مصر آخذ في الارتفاع، الا ان مستوى التعليم أصابه أذى من جعله مجانيا، قبل ان تستكمل العدة لاستيعاب الطلاب. وكان من الأفضل ان تتم مجانية التعليم بالتدرج حتى لا تزدحم المعاهد فتضعف القدرة على احتوائهم.

وردا على سؤال أجاب أن عدد ساعات تعليم اللغات الاجنبية انخفض قليلا في السنين الاخيرة، وفي حين كان في جيله (الدكتور لطفي في نحو الخمسين) يتعلم لغة اجنبية منذ الصف الابتدائي الاول، اصبح في ما بعد لا يتعلمها الا في الصف الاعدادي الأول. ثم ان نظام النجاح في الامتحان كان يقضي باعتبار مجموع العلامات في المواد كلها، لا معدل العلامة في كل مادة على حدة، مما أفسح للطلاب اهمال مادة اللغة الأجنبية اذ وجدوها أصعب عليهم من المواد الاخرى. غير ان هذا النظام الغي، لحسن الطالع، في السنة الفائتة. فاللغة الأجنبية، خصوصا للعرب، نافذة ضرورية على الحضارة العالمية.

ثم قادنا الحديث الى اللغة، فاذا بمحدثي يعي مشكلة الازدواجية في اللغة العربية ويرى انها احدى المشكلات الاساسية التي يجابهها الناطقون بهذه اللغة. وذكر لي محاولة توفيق الحكيم في مسرحيته «الورطة» لايجاد حل لها في ما سماه «اللغة الثالثة». وهذه تقوم على مبدأ ابقاء اللفظة على فصاحتها، ولكن في جملة محكية وقراءة محكية. فبدل ان تقول «هل لك بفنجان من القهوة؟»، مثلا، تقول «تشرب قهوة؟»

لكن محدثي أخذ على محاولة توفيق الحكيم هذه انها اسقطت الالفاظ العربية المدموجة أو «المنحوتة»، مثل «ليش» و«معليش» و«ايه» وما اليها. وقال انه تبنى محاولة توفيق الحكيم هذه، لكنه استعمل مثل هذه الالفاظ،

وذلك في مسرحية ترجمها عن الاغريقية لارسطوفان. ووعدني بأن يبعث الي بنسخة.

وأريته فصلا من مسرحية كنت نشرت مقطعا منها في أحد أعداد مجلة «شعر» وعنوانها «غريب في يوم أحد». واذا اخذ يقرأ، وجد ان لغة المسرحية قريبة جدا من «اللغة الثالثة» كما يراها. وعجب كيف لم يجد أية صعوبة في فهمها وهو المصري اللغة.

لكنني أبديت للدكتور لطفي رأيي المتواضع في ان محاولة توفيق الحكيم، بل حتى محاولته هو، ما هي الا تحايل على المشكلة لا حل حقيقي لها. فالحل الحقيقي ان نأخذ اللغة المحكية كما هي ونكتبها في اسلوب أدبي يرفعها عن مستوى اللغة السوقية الركيكة، وذلك باستعمال كل الالفاظ الفصيحة في القاموس، ولكن من دون الوقوع في عقدة الفصحى. فالفصل ضروري بين اللفظة وتركيبها في الجملة. ففي استعمال اللفظة نحن احرار، اما في صياغة الجملة والتلفظ بها، فنحن مقيدون بالكلام المحكي. ثم هنالك مبدأ اساسي، وهو ان اللغة توجد ولا تصنع.

وأعجبتني تسمية «اللغة الثالثة»، وكنت سمعتها للمرة الاولى، قبل اسبوعين او ثلاثة، من نزار قباني.

اللغة الثالثة؟ فلتكن. المهم ان يزداد الاقتناع بأنها لغة المستقبل الذي نريده «ثوريا» و«تقدميا» في جميع الحقول.

والذي دفعني الى تسجيل هذا اللقاء لا فائدته فقط، بل أيضا اتصافه بظاهرة أصبحت نادرة في أيامنا. وهي ان يتحدث رجلان مدة ساعة ونصف في شؤون ثقافية محضة، من دون التطرق الى السياسة، من بعيد أو قريب.

الجمعة، ٣ أيلول

مرحى بالمولود الجديد: اتحاد الجمهوريات العربية.

بعد فقدان عبد الناصر، واجهاض العمل الفدائي، و«تنفيس» العقائديات، ومخاصمة اليسار العربي المتطرف، واضعاف الثقة الشعبية بالانظمة «الثورية التقدمية» فضلا عن «العميلة والرجعية»،

كان لا بد من امل. وأي امل اعظم من بداية السير في طريق الوحدة العربية الشاملة من المحيط الى الخليج؟

اليوم ثلاث جمهوريات تضم نصف العرب، وغدا ان شاء الله، البقية. فلنضع ايدينا على قلوبنا.

والكلام الذي ممكن ان يقال، قيل دون حساب في مختلف المناسبات، وسيقال تكرارا في الأيام المقبلة، وربما في صيغ مختلفة.

فالمهم ان الرغبة في الوحدة او الاتحاد، وكانت دائما متوافرة عند الشعوب العربية، انتقلت اليوم، عند ثلاث جمهوريات، الى ارادة. وبما ان الارادة، عكس الرغبة، هي «فعل»، فلا بد لهذا الفعل من «ردة فعل». والايام المقبلة ستشهد صراعا بين «الفعل» و«ردة الفعل» من شأنه ان يضيف فصلا في تاريخ العرب الحديث. وبقدر ما يكون «الفعل» قويا، تكون «ردة الفعل» كذلك. واذا كانت «ردة الفعل» لم تظهر بعد، على الصعيد الدولي، فلأن الشك في «قوة» أي «فعل» يقدم عليه العرب، بلغ في السنين الاخيرة حده الادنى.

اذن، أمل جديد منبثق عن ارادة جديدة او فعل جديد.

وهذا الفعل الجديد قد يؤدي الى ردة فعل جديدة او مرحلة صراعية جديدة، أو قد لا يؤدي الى شيء.

اليوم ثلاث جمهوريات، وغدا؟

السبت، ٤ أيلول

الاعتداء على حدودنا الجنوبية ما عاد يثير احدا، لا لنقص في الوطنية، بل للاعتقاد السائد أن الاعتداء لا يستهدف لبنان قدر ما يستهدف القوى الفدائية المتمركزة.

ونحن، عن خطأ أو عن صواب، ما عادت تهمنا هذه القوى الفدائية. بل بيننا من يريد لها الزوال بأية وسيلة.

نقول للفدائيين: «هذه بضعة كيلومترات من الحدود، خذوها واصمدوا فيها امام العدو، ان كنتم قادرين. دماؤكم على رؤوسكم!» تماما كما فعل بيلاطس.

وفي هذه الكيلومترات اللبنانية يسرح الفدائيون ويمرحون، كما يسرح

العدو الاسرائيلي ويمرح - فيشق الطرق، ويحتل النقاط الاستراتيجية، ويضرب ويحرق كلما عنَّ على باله ان يضرب ويحرق.

هكذا في كل بساطة.

واذن، خير لنا وأريح بالاً ان نطوي هذا الموضوع فلا نبحث فيه، انما نكتفي بنشر وقائعه في الصحف، في عناوين صغيرة في بعضها، وكبيرة في بعضها الآخر.

فهل من بديل؟

من يرى بديلا فليتفضل، شرط ان لا يغوغىء ولا يبيض وجهه على حساب الحقيقة.

والى ذلك الحين، ترانا قاعدين، نأكل ونشرب ونعمل، كأن الى أبد الآبدين!

الاحد، ٥ ايلول

- ماذا ستعمل اليوم؟

- لا شيء. أريد ان استلقي على ظهري واتطلع في السماء. أريد ان اقف، ان اجلس، ان انام، ان أفيق، ان أشرب، ان آكل، أن انبطح على بطني وأغمض عيني، ان...

وفي اختصار: اريد ان اكون.

أولا أريد شيئا ولا أريد أن يريدني شيء. هكذا في فراغ. فراغ هائل ورهيب كبطن الحوت. آه، كم أحسد يونان!

يونان كان محظوظا. بقي ثلاثة أيام. انا اكتفي بيوم. يوم واحد ولو في جوف الحوت، يوم واحد ولو في قبر.

- كم مطلبك سهل!

- سهل؟ تظن انه سهل؟ لا، يظهر انك لا تعرف عمق هذه الرغبة وأبعادها العريقة. انها الوجه الآخر للخلق. وهو الوجه الذي نبذه الله يوم خلق الكون. كان في فراغ، فضاق بالفراغ. فقال: كن فكان.

أتحسب هذا سهلا؟

- من هذه الناحية، لا. لا احسبه سهلا. اما من ناحية ثانية، الناحية التي عنيتها، فهو سهل. قم وأفعل ما تريد، فمن يمنعك؟

ـ العالم. انت لا تعرف العالم. انه الزمن. والزمن هو الذي يمنعك. لا أقصد الساعات والأيام والسنين، بل أقصد «فعل الزمن».
ـ وما هو فعل الزمن؟
ـ انه شعورك الدائم بالعجز والقصور، وبالانسحاق كالحشرة فجأة وفي أية لحظة!
ـ وما علاقة هذا الشعور بما تريد ان تفعله الآن؟
ـ كل العلاقة. انه يقيد حريتي. الحرية، كما تعلم، على انواع. والتحرر من «فعل الزمن» هو منتهى الحرية. بل هو جوهر الحرية. وهذا التحرر، اذن مستحيل.
ـ مستحيل؟
ـ نعم، الا بالموت وهو واقع، أو بالحب وهو لا.

السبت، ١١ ايلول

أشعر بالفرح، قالت، ويزداد كلما توجعت.
وقالت: «لم يعد بي. أتوق الى لمسه والنظر اليه».
ولهنيهة سكنت، وصار وجهها أبهى.
وكان الوجع يعلو، يهبط ويعلو كموجة. وحين لم يعد يطاق، يبادرونها بما يخفف.
وطال النهار، طال انطفاؤه في الليل. وطال الليل حتى انشق عنه الفجر.
وكان الفجر رحيما.
كان، كعادته في الزمان، بشيرا بالذي تمّ.
والذي تمّ ههنا اليوم، كان جميلا ورائعا ومفاجئا، كمثل ما يتفتح الورد.
وهكذا دعونا اسمها ورد.

الاحد، ١٢ ايلول

كم هو لذيذ ان تطل عليك، بين الحين والحين، من صفحة مجلة أو جريدة، صورة رفيق لك في السلاح، رغم سقوطه مرة في التجربة، فأساء، فتروح تتأمل ملامحها بعمق، كأنما ترى صاحبها للمرة الاولى.

ويزداد شعورك، بغبطة، حين تقرأ ما يقول، فتجد في الكثير منه ما تريد ان تقوله أنت.

هذا ما حدث لي، وأنا أفتح صفحات «الاسبوع العربي».

كان وجـه محمـد المـاغـوط هناك. وكانت اصبعاه تطبقان على فمه بسيكارة لم يبق منها الا العقب، راح يمتصه بشراهة وعنف، لا بشفتيه وحدهما، بل بكامل وجهه.

وكانت عيناه مطبقتين، كريشتي عصفور أسود.

وعادت بي الذاكرة سنوات الى الوراء، حين كنا لا نعيش الا للشعر والحلم. كنا نطمح الى تغيير الواقع المرير بالكلمة الصادقة، وكانت كلمة محمد الماغوط مثالا لنا وقدوة.

وتوالت الايام، فماذا بقي لنا؟

بقي لنا الشعر والحلم، لكن الواقع المرير أصبح أمرّ. وبدل ان نغيره نحن، غيرنا هو.

«أنا يائس من الحرية والحب والمستقبل»، يصيح محمد الماغوط. «فأنا انـســان محــاط بالرعب. انــا خائف من الارهــاب، من الفقــر، من المستقبل...». ويقول: «أشياء تاريخنا المعاصر تتألف من أشياء دامية. والشاعر هو ورقة النشاف اليومية. الانسان منفي في وطنه، في بيته، في سرير حبه... وهو معلق بأنشوطة، وما اكثر الصدف التي تسحب الكرسي من تحت قدميه. هكذا، دون ذنب!».

ويعلن: «أحيــانــا كثــيرة أكون ممتلكا كل عناصر السعادة بمعناها المتــداول المعاصر: المال والحب والصداقة والمواعيد... ومع ذلك أشعر ببؤس الحشرة!».

ويضيف: «أنا مثال على المئة مليون عربي. كل انسان من المحيط الى الخليـج فقد ويفقد أشياءه العزيزة، جيلا بعد جيل. بعضهم يكتشف المأساة ويسكت، والشاعر وحده يبحث عن اللصوص، وهو ابدا أعزل».

ويبلغ صدق الشهادة بمحمد الماغوط الى القول: «الانسان العربي محتــل: مناطق احتلها الرعب، ومناطق احتلها الجوع، ومناطق احتلها اليــأس». ثم يقبض على الحقيقة بكلتا يديه: «وتحرير النفس العربية باعــادة الحقــوق الى الانســان العربي هي الطريق الوحيد الى تحرير الارض العربية المحتلة: فلسطين... وسواها».

هذا هو لسان حال الجيل الطليعي الذي حمل، لسنوات مضت، لواء حركة الشعر الحديث في مرحلة من التفاؤل البريء، لا «غير المبرر» كما يقول الماغوط، دفعنا اليها الانتصار العجيب ضد العدوان الثلاثي على مصر. وكيف لأحد ان يبني ما لم يكن متفائلا؟ وهل كنا وضعنا أساس حركة أدبية، بمثل تلك الحماسة والصليبية والبذل، لولا أملنا في المستقبل وطموحنا الى عالم مضيء؟

العدو يريدنا ان نيأس من «الحرية والحب والمستقبل»، لكننا لن نفعل. ولا أظن محمد الماغوط يفعل أيضا. اذ كيف ييأس من «الحرية والحب والمستقبل» ولا ييأس، كما يقول، من الشعر؟ وهل الشعر ممكن من دون حرية وحب ورجاء؟

والأزمة التي يجتازها الشعر اليوم، بل الفكر عموما، هي أزمة حرية وحب ورجاء. فما لم نستعد ايماننا بالقدرة على الحياة بحرية وحب ورجاء، فكيف نكتب ولمن نكتب؟

ونحن، اذن، ملزمون بالعمل على استعادة هذا الايمان، برغم الدلائل التي تحملنا كل يوم على اليأس. فهذا وحده يبرر وجودنا ويمنحه معنى.

نعم، علينا ان «نكتشف المأساة»، ونعلنها، ونبحث عن اللصوص. ونحن لسنا عزلاً، بل نحن مدججون بسلاح الكلمة التي اذا صدقت لا تقهر. ومن سوانا، اذا بذلنا وصمدنا، يعيد الحقوق الى الانسان ويحرر النفس العربية والارض العربية؟

ولا عار في الهزائم الا حين لا تطهرنا من فسادنا، بل تزيدنا فسادا على فساد. اذ ذلك نغرق في العار، مستسلمين اليه بذلّ الصائر الى زوال.

الاثنين، ١٣ أيلول

مهما قيل في الشيوعية، فأنا أمقت نظامها.

أمقت نظام الحزب الأوحد، والزعيم الأوحد.

البارحة مات خروشوف. واليوم دفنوه، فما سار في جنازته الا أهله واصدقاؤه.

ولم تنعه الدولة الا ببضعة سطور، وهو الذي خدمها نصف قرن، كان في عشر سنين منها سيدها المطاع.

ومن قبله ستالين. وأنا في غنى عن التذكير بما فعلوا به، بعد وفاته.
ومن يدري؟ لعل مولوتوف مات، هو الآخر، ولم يكلف أحد نفسه عناء نعيه ولو بسطر.
هذا من ناحية المعاملة بعد الوفاة.
أما من النواحي الاخرى، فماذا عن القتل، والسجن، والاذلال، والعزل، والقمع، والارهاب؟
خذ، مثلا، سولجنتسين. هل من الحق والعدل ان ينكر عليه، كما أنكر على باسترناك من قبل، ثمار الفوز بأعظم جائزة أدبية في التاريخ؟
لا، لا. الديموقراطية، بكل مساوئها، ولا نظام الحزب الأوحد والزعيم الأوحد.
ومرقد عنزة في مكان حر، ولا رحابة عالم كالسجن.

الثلاثاء، ١٤ ايلول

وقعت في يدي مجلة اميركية صغيرة الحجم تصدرها هيئة دينية، لفائدة الجيل الطالع. وطبعا، كان هذا العدد من المجلة يعالج مشكلات هذا الجيل، وفي طليعتها الفراغ والضياع.
بل ان الفراغ والضياع، في نظر القائمين على تحرير المجلة، هما في اساس كل شيء.
فبعد ان خسر الجيل الطالع ايمانه بخالق، وثقته بالجيل السابق وسلوكه وآرائه ومؤسساته، راح يبحث عن بديل. وفي أثناء هذا البحث العسير، ضاع وسقط في الفراغ.
وفي هول هذا الفراغ خيل اليه انه وجد ضالته في التمرد على المعطيات الموروثة، والعودة الى الأصول والاعراف البدائية، واصطناع السعادة بالهرب من الواقع عن طريق الخدر الذهني والجسدي وتبادل الحب البريء.
لكنه بدأ الآن يعي ان ما خيل اليه لم يكن هو البديل الحقيقي. فالضياع ظل ضياعا، والفراغ ازداد فراغا بالخيبة والهزال والالم.
وفجأة لاح المسيح، بشعره الطويل، وقوامه الضامر، وقدميه نصف الحافيتين... وأخيرا، بصليبه الخشبي الساحر.

وتشهد أميركا اليوم تجمعا من كل صوب، حول «الزعيم الهيبي الاول».
أمـا كان يسـوع ضد الكتبـة والفريسيين، وضد التقاليد والسلوك الموروث؟ اما دعا الى البساطة، والولادة من فوق، والمحبة دون قيود؟ اما هو القائل «لا تهتموا للغد بما تأكلون او تلبسون... انظروا الى زنابق الحقل...» و«من منكم بلا خطية، فليرمها بحجر؟».
ويـأمـل المتفـائلون في اميركا أن تشتد «حركة العودة الى يسوع»، كسبيل وحيد للخروج من مفازة الضياع والفراغ.
وما هذه أول مرة يلجأ فيها التائهون في الأرض الى «الطريق والحق والحياة».

الاربعاء، ٢٢ ايلول

ماتت جريدة «الهدى».
ماتت، كما قلت اليوم في «النهار»، موتا طبيعيا محتوما.
ماتت عن ٧٢ عاما، تماما كما مات بعض الذين جايلتهم في السعي والجهاد وصنع التاريخ.
كان لي شرف رئاسة تحريرها سنتين (١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) فكنت كمن ورث جبة فضفاضة على جسده الضئيل.
لكنني اتخذت قوة من اعتبار نفسي لا خلفا لنعوم وسلوم مكرزل، بل خلفا لزميلي في الشعر والغربة نسيب عريضة.
كان نسيب عريضة محررا في «الهدى»، على أيام نعوم وسلوم، فخفف ذلك من ثقل مهمته. أما انا فكنت رئيسا للتحرير في عهد وريثتهما ماري، ابنة سلوم، فما خفف ذلك عن كاهلي شيئا سوى اعتبار نفسي، كما ذكرت، خلفا لشاعر مثلي، لا لزعيم سياسي كبير، أو سيد من أسياد بيت ماروني عريق.
على ان هذا الاعتبـار لم ينجني من خصومة شنت علي من جبهات ثلاث: جبهة ايليا أبو ماضي الذي كان يريد موت «الهدى» لتعيش جريدته «السمـير»، وجبهـة الدكتور نايف باسيل الذي أخفق في السيطرة على الجريدة ومكانتها السياسية فصار يتمنى، هو ايضا، موتها، وجبهة رجال

الدين الموارنة واتباعهم من المتعصبين الذين شق عليهم ان يجلس على كرسي المكرزلين شاب غريب عن الطائفة.

وكان من نتيجة هذه الخصومة ان بقيت صامدا وراء قلمي في «الهدى» سنتين نكاية وتحديا، لا ثلاثة أشهر كما جرى الاتفاق، ريثما أسعى مع صلاح لبكي، مراسل «الهدى» الخاص في لبنان، الى استيراد محرر لبناني «ماروني» جدير بهذه المهمة.

أذكر هذا من باب الذكريات.

وأطرف ما في هذه الذكريات، تلك النتيجة التي انتهت بها خصومة الجبهات الثلاث:

خصومة ايليا ابي ماضي ـ بعدما هاجمني بمقالات لا تشرف سمعته الادبية، فلقبني بـ «جرذ الهدى» ولفق ضدي، شخصيا وتاريخيا، اتهامات معيبة ساقطة ـ بعد هذا كله راح يفاوضني، بعد عودتي الى الوطن، على نقل جريدته «السمير» الى الوطن ومساعدته في تحريرها.

خصومة الدكتور نايف باسيل ـ لم تتناولني مباشرة. كانت خصومة سياسية وشخصية بينه وبين ماري مركزل، أشبه ما تكون بالخلاف العائلي أو الطائفي. لم تنته هذه الخصومة بشيء. واقتصر ضررها، ككل خصومة، على إضعاف وحدة العمل والرأي.

خصومة رجال الدين والمتعصبين ـ أصبح هؤلاء أشد المتحمسين لبقائي في «الهدى». وحين علموا برغبتي في الاستقالة، كانوا في طليعة لجنة من أعيان الطائفة أخذت على عاتقها اقناعي بالبقاء، مهما تكن الشروط.

وظلت «الهدى» تصلني الى هنا، في بيروت، على سنوات. كانت تصل في رزمة اسبوعية مدروجة الأعداد. وكنت أفتحها برفق وأناة ومحبة وحنين. ثم صرت لا أفتحها. ولعل مرسلها، في الطرف الآخر، أحس بأن لكل شيء نهاية، فتوقف عن ارسالها.

وها هي الآن تموت. تموت، لكنها لن تنسى.

والى كونها جزءا من حياة لبنان، فهي جزء لا يتجزأ من حياة الكثيرين.

ويسعدني أنني منهم.

السبت، ٢٥ أيلول

لا شيء يميت كالغرور. لا شيء قبيح كالغرور. لا شيء يطقق، وفي الوقت نفسه، يؤلم ويحزن كالغرور. خصوصا عند أهل الأدب والفن، وفي طليعتهم اللبنانيون منهم.

فما ان ينشر أحدهم قصيدة أو مقالة، أو يصدر كتابا (ولو على حسابه) أو يعلق لوحة في معرض (ولو قبل أن يقيم معرضا شخصياً لأعماله الفنية) حتى يعتبر نفسه، هكذا بكل صفاقة، نابغة زمانه.

هناك، طبعا، شواذ.

إنما القاعدة المألوفة والمعروفة هي، مع الأسف، هذه التي ذكرت.

ومن سوء حظي انني أعمل في حقلي الأدب والفن، بينما حقل واحد يكفي لجعل الحياة لا تطاق.

يتقدم اليك اللبناني بطلب اقامة معرض لأعماله الفنية، أو بنشر قصيدة أو مقال، أو باصدار كتاب، فيجعلك تشعر بأنه هو الذي يخدمك.

أما غير اللبناني، وخصوصا الأجنبي، فيجعلك تشعر، لا بل تتأكد انك أنت الذي تخدمه.

ذلك يأتيك بمركب نقص يدفعه الى الغرور، وهذا يأتيك بتواضع الواثق من نفسه، الواعي لحقيقة العلاقة بين السائل والمجيب، أو الطالب والمطلوب منه.

عند اللبناني خصوصا، أو أولاد العرب عموما، تنعكس الآية. أو هي، على الأقل، تختلط وتتشابك فيصير السائل مجيبا، والمجيب سائلا.

وفداحة الأمر ان صاحب القلم أو الريشة في بلادنا يزداد غرورا كلما ازداد فراغا، فلا يشتد ساعده حتى يرمي زملاءه جميعا.

وقبل أن يقرأه مئة واحد في بلاده ولغته، أو يشتري لوحته عشرة هواة، يسعى إلى «تدبير» من يترجمه إلى لغات أجنبية أو يعرض لوحاته في عواصم الأرض.

ولا شيء يكسر القلب من مشهد انسان كسيح يحاول القفز فوق سور الواقع الأليم.

فالطموح شيء، والغرور شيء آخر.

هذا فضيلة، وذاك... نجنا يا رب!

الثلاثاء، ٥ تشرين الاول

قال لي عبد الله القصيمي ما معناه: «المهم ان لا يجد الرجل الحر نفســه معزولا. الانعزال ينهكه ويضعفه ويجعله عرضة للسقوط. فعلى الاحرار في هذا الوطن ان يتعاونوا ويتساندوا ويؤلفوا حلفا مقدسا في ما بينهم. بذلك يتعزون وتتشدد عزائمهم على الصمود».

وحين صافحته مودعا قال: «اطالع يومياتك باعجاب. لكنني اتمنى لو تكون أكثر اشمئزازا وقرفا وغضبا».

كانت هذه هي المرة الثانية التي حظيت فيها بلقائه. كانت الاولى من بضع سنوات، في مكتبي بدار مجلة «شعر». ومن ذلك الحين لم تفارق صورته مخيلتي، حتى اذا لقيته اليوم فكأنني كنت ألقاه كل يوم.

نحيـل، أسمــر الملامح، رصين، وشجي الحديث. يتوكأ في شموخه المتضع كأنما على فراغ. من هنا مسحة الكآبة والأسى والامتعاض على قيافته.

طالعت بعض مؤلفاته، فوجدت ان أهمها «العالم ليس عقلا»، وهو أول هذه المؤلفات.

يشكو أسلوبه من التكرار، لكنك تألفه وتحبه اذا ثابرت عليه. وكذلك تفكيره. فهو يدور في حلقات تتسع ثم تضيق ثم تتسع الى ما لا نهاية. فاذا توقفت، ففي المكان لا في الزمان. فكأنما مدارها الفضاء على رحابته، لا الأرض على ما فيها من حدود.

فالرجل ظاهرة في تاريخ الصراع العربي من أجل الحرية والوجود، لا تقل وطأة وغرابة وهولا عن سقوط كوكب أو انخساف جزيرة في البحر. لكن هذا التاريخ ضنين بمثل هذه الظواهر، فلا عجب ان لا تؤثر فيه ظاهرة القصيمي أكثر مما تؤثر اللمسة في جرح قديم.

الجمعة، ٨ تشرين الأول.

منــع «مجهـولون» غسان تويني من الكلام على التلفزيون. وبذلك عدنا، مرة أخرى، الى حكاية أبريق الزيت.

ونحن نريد ان نقيم الدعوى على «مجهولين». وكما في جميع الدعاوى

على «مجهولين»، يجب على السلطات المسؤولة ان تتحرى عنهم الى ان تكشف عن هوياتهم وتلقي اليد عليهم وتحاكمهم.

فقبل هذا العهد كان «المجهولون» معلومين، وهذا أريح. أما في هذا العهد، فبدأ «المجهولون» يصيرون مجهولين بالفعل. حتى الذين في أيديهم السلطة الدستورية يفتشون عنهم فلا يجدونهم.

وهذا أسوأ بكثير.

قد يكون هؤلاء «المجهولون» أكثر وطنية وحرصا على لبنان حتى من رئيس الجمهورية، حامي الدستور والحدود. هذا مش الموضوع. الموضوع هو اننا نأبى ان يحكمنا «مجهولون»، فلا نستطيع ان نبارزهم. ولم يبلغ بنا الهوس بعد الى مبارزة طواحين الهواء، كما فعل دون كيشوت.

نريد المبارزة علنا وعلى رؤوس الأشهاد.

هكذا نفهم حرية المواطن وعلاقته بالحاكم.

والى ان يصبح المجهول معلوما في هذه الدولة، سنبقى في «بحر هائج» متلاطم الأمواج.

الاربعاء، ١٣ تشرين الاول

جئت مع الخريف، ها أنا
أضحك في جنازة الوجوه، مثلها
كمثل شجر الصبير. جئت أعزل
ككل بطلٍ وعارياً
الا من الجروح، كلها
تأخذ مطرحا، وقلما
تختم دون أثر. لكنني
أرجو مع الخريف عودة الى
حيث أشياء: ظل وردة
أو فلك من الشموس. فأنا
كسائر على المياه، حظه
سن النجاة عشبة اليقين.

الخميس، ١٤ تشرين الاول

أفقت اليوم باكرا. وحين فتحت عيني، رأيت هذا «المانيفستو» مكتوبا على الحائط:

«اذا كان للسلاح ان يسقط في المعركة، فليسقط! وللسياسيين ان يتشرشحوا ويفشلوا، فليتشرشحوا ويفشلوا!

«واذا كان للاقتصاد الوطني ان يتعثر ويتدهور، فليتعثر ويتدهور! وللموازنة ان تختل موازينها، فلتختل موازينها!

«واذا كان للادارات العامة ان تبقى غاطسة في الفساد والفوضى، فلتبق غاطسة في الفساد والفوضى.

«أما العقل والروح، فلا!

«حذار، حذار!

«فنحن، لا في الهزيمة ولا في الشرشحة، لا في الفشل ولا الفقر، لا في الفساد ولا في الفوضى، نلقي سلاحنا.

«لا، لن نلقيه، لا عن غرور أو عناد، بل عن ضرورة لا تفوقها ضرورة.

«فاذا فسد الملح، فبماذا يملح؟

«ويا أيها المحاربون، والسياسيون، والاقتصاديون، والاداريون، من كل صنف ولون، حذار!

«حذار، العقل والروح!

«والعقل والروح يعني العلم،

«وهو يعني الفلسفة،

«والأدب، بما فيه الشعر،

«والفن، بما فيه الموسيقى والعمار والنحت والرقص والغناء!

«وهو يعني، في الاخير الاخير، علة الوجود.

«فحذار!

«نقول لكم، للمرة الاولى والاخيرة، لن نلقي سلاحنا.

«نحن وحدنا الاحرار، والاحرار لا ينهزمون!

«ونحن وحدنا الحقيقة، والحقيقة لا توضع تحت المكيال!

ونحن وحدنا الواقع، والواقع لا يخضع لتبرير.

«فحذار!

«وان كان لكم ان تخسروا كل شيء، فإياكم وان تخسروا العقل والروح.
«والعقل والروح لكم بالمرصاد».

الأحد، ١٧ تشرين الاول

قرأت اليوم نشيدا لأنسي الحاج في تمجيد المال. فكم أثلج من صدور وضمد من جراح!

المال، ذلك المعبود!

انه عجل هرون الذهبي أمام وصايا موسى العشر.

وهو، مع البنين، زينة الحياة الدنيا،

وفي كف يوضاس ثلاثون من الفضة، وعند الله، لا الناس، فلس الأرملة.

انه الطريق، وحده الطريق، الى العز والجاه والسلطان.

وما من ذل في الأرض أحط بالكرامة الانسانية من ذل الحاجة والفقر والسؤال. وما من امتحان للصداقة، بل الحب، أصدق من النجدة في العطاء.

والآن، ما لنا ولهذا.

في لبنان، كما في غيره من البلدان، محرومون لا هم لهم سوى الركض وراء القرش. هم يركضون والقرش يركض أمامهم كالسراب. بل كلما أسرعوا في الركض، كان القرش أسرعهم بما لايقاس.

ومن هؤلاء المحرومين، بل في طليعة هؤلاء المحرومين، الأدباء والفنانون. وهذا لا يجوز. لا يجوز أبدا.

وهكذا جاءت كلمة أنسي الحاج حافزا ومنطلقا الى العمل.

لماذا لا يتنادى الأدباء والفنانون الى اجتماع يؤلفون فيه عصابة، نعم عصابة، شعارها «اقبض وادفع»؟

فمثل هذه العصابة، حان وجودها في لبنان، حيث العيش الكريم وقفا على العصابات.

انما هذه العصابة التي ندعو اليها، عصابة الفنانين والادباء، عصابة شريفة. بل هي أشرف عصابة على المسرح اللبناني.

فهل هنالك أشرف من تحرير العقل والروح في سبيل الخلق والابداع؟
فيا أيها الفنانون والادباء، تعالوا نؤلف هذه العصابة. لا تستحوا ولا تخجلوا. ارفعوا أصواتكم وصيحوا: «نريد ان نقبض»!
وحيث الارادة، هناك الطريق.
وطريق «القبض» طريقان: العمل والجزية.
فمن لا تكفيه أجور عمله، أخذ كفايته من صندوق الجزية.
وصندوق الجزية مصدره واحد: كنوز الأغنياء.
هناك ألف، ألفان، عشرة آلاف، عشرون ألفا من ذوي المال والثراء، فلماذا لا يدفعون؟
سيدفعون. والعصابة هي التي تجبرهم، اذا امتنعوا، على الدفع. تجبرهم لا بالسيف، بل بالقلم.
والقلم سطوته واسعة. انه المحرك الاول في التاريخ لكل ثورة.
نعم، أيها الاخوة الفنانون والادباء. تعالوا نؤلف هذه العصابة. ارسلوا اسماءكم الى أنسي الحاج. ارسلوها اليوم، ولا تؤجلوا الأمر للغد. وبعد أسبوعين، لا أكثر، من هذا التاريخ، ستدعون الى الاجتماع.
وفي هذا الاجتماع، يكون لكل حادث حديث.
فقوموا، الآن، وانهضوا!

الاثنين، ١٨ تشرين الاول

كان يا ما كان، كان قبل سنة من الزمان، قصر شامخ البنيان، في جيرتنا هنا في لبنان، تحيط به الأشجار، وتعلو سوره الرياحين والازهار.
وصباح يوم من الأيام، أيقظنا العويل من لذة الاحلام، فاذا بزمرة من الاشقياء، تنقض على ذلك البناء. وبعد ذبحه وسلخه، وتمزيقه ومسخه، باعت اللحم من الشارين. أما العظام والمصارين، فعافتها للفقراء الجائعين.
وما مضت أيام، حتى تحولت الحديقة الى ركام، ينطق دون غمزة او كلام، بالفعلة الشنيعة، والحالة المريعة.
وبعد حين، ونحن ما زلنا نائمين، جاءت الجرافة، وما أدراك ما الجرافة، فسحقت خمائل الزهور، وكل ذي جذور. لكن شجرة من النخيل،

ذات مجد غابر أثيل، قاومت في عناد، صروف الدهر وشرور العباد.

ثم توالت الفصــول، دون ان تمحى أو تزول، آثــار الجريمة التي نشهد، مع طلوع كل فرقد. وها نحن نستقبل الخريف، بقلب دامع أسيف.

فغـداً تمـطر السماء، والغبار الذي كان في الفضـاء، يهاجم القلوب والعقول، سيستحيل الى وحول وسيول، هنا في صدر بيروت المجيدة، لا في المجاهل البعيدة.

وهذا واقع حزين، يعطي الدليل الساطع المبين، على اننا الى التخريب، نسرع لا الى الترتيب، وان السحر والتنجيم، لا العلم والتصميم، صراطنا اللامستقيم.

الاربعاء، ٢٠ تشرين الاول

في «يومية» سابقة دعونا الى تأليف عصابة للأدباء والفنانين في لبنان، فظن الناس، ومنهم الأدباء والفنانون، اننا نمزح.

كلا، وألف كلا. فلا نحن نمزح، ولا هذه الفكرة نكتة.

ونحن لم نستغـرب هذا الظن لأننا تعودنا، عبر أجيال من الخنوع والاستسلام للقدر والسلطان، الوقوف عند حدود الكلام. نعيش بالكلام ونموت بالكلام. أما الفعل؟ أما ربط القول بالفعل، فما هو من شيمنا، شيم القاعدين على هامش التاريخ، المدندلين أرجلهم خارج صفحاته.

حتى الحرب نعتبرها نكتة.

فنحن نتكلم عنها، ونهدد بها، ونحشد جنودنا لأجلها، لكنها حين تقع نفاجأ، ونندهش، ونولي الادبار صائحين «شو بكم، شو بكم، يا جماعة، اخذتوها جد؟».

الخلاصة. ان تألفت هذه العصابة أو ما تألفت، فدعوتنا اليها جدٌ لا مزح.

فمن وجد في نفسه الكفاءة المقرونة بالرغبة في تجاوز حدود الكلام الى الفعل، فليتفضل!

والا، فسيـظل الادب والفن في هذا البلد متاهة، يدخلها الاديب أو الفنان انسانا ويخرج منها كلبا.

والسلام.

الخميس، ٢١ تشرين الاول

لا نريد ان يكون هذا العهد كأي عهد أو ككل عهد، بل نريده بأل التعريف.

هيك بدأنا وهيك يجب ان ننتهي.

المروءة؟ نعم

النزاهة؟ نعم.

الوطنية؟ نعم.

لكن العقل أهم، والروح أهم وأهم.

أهم من ضبط الموازنة، وأهم من تسليح الجيش، وأهم من تقليم أظافر زمرة من الضباط، وأهم من شيل فلان وحط فلان.

فلا يضحكنّ أحد على ذقوننا.

نحن نعرف كل شيء. نعرف ان الحكم اخطبوط، كائنا من كان رأسه. في الديكتاتوريات كما في الديموقراطيات.

الاخطبوط، الاخطبوط. اذن، لنسحق هذا الاخطبوط.

فمسكين هو الرأس، أي رأس.

نعم، هناك رأس انظف من رأس، أجمل من رأس، املأ أو أفرغ من رأس. لكنه يظل «الرأس»، رأس الاخطبوط الذي يجب القضاء عليه كاملا دون نقصان.

وهو ضحية مثلنا، نحن المحكومين الغارقين في بحران الامل الهارب. الهارب، نعم، لأننا نحن الهاربون.

ونحن المنهزمون كمان،

لأننا نعشق الحرية دون وصال، ونطلب الحق دون نضال.

ولأننا، اذن، منقرضون.

فليعلم هذا أبناؤنا، وربما أبناء ابنائنا، حتى تقوم القيامة التي سوف تقوم.

في يوم ربيعي ما.

الجمعة، ٢٢ تشرين الاول

فلسطين، آه لو ننسى فلسطين.
ننساها ولو لجيل، لجيلين، لثلاثة أجيال.
فبقدر ما ننساها اليوم، نتذكرها غدا.
وهل من طريق الى الحياة غير طريق الموت؟
فيا أيها الفدائيون، أنتم في قلوبنا وعيوننا.
ويا أيها الفلسطينيون، أنتم أهلنا، بل أعز.
ويا أيها العرب في كل صقع ومكان، أنتم قبضايات، كلكم قبضايات.
انما اسمحوا لنا بفلسطين.
ضاعت؟ دعوها تضيع!
لا تبكوا، لا تنوحوا، لا تزيحوا سمانا.
نريد ان نموت، ولو لثلاثة أيام.
نموت، ونرتاح قليلا، فننهض.

السبت، ٢٣ تشرين الاول

الى كمال جنبلاط.
اقرأك دائما في «الأنباء» وغيرها. فأنا من المعجبين بك جملة ان لم يكن تفصيلا.
ومن حق إعجابي عليك ان تجيبني على الاستفهام الآتي: «من انت؟ من في الحقيقة أنت؟».
فإجابتك تفيد الكثيرين من المعجبين بك. وفوق ذلك، تفيد الوطن. فأنت لهؤلاء جميعا شيء مهم جدا.

الاحد، ٢٤ تشرين الاول

الى سعيد عقل: آخر مرة لقيتك فيها لم يرقني زيغان نظرتك وبرود ابتسامتك. ثق بأنني أحبك، أحبك فوق ما تتصور.

الاثنين، ٢٥ تشرين الاول

فيما يعشق البعض مطالعة القصص والروايات البوليسية أو سواها للتسلية والترويح عن النفس، يعشق البعض الآخر مطالعة سيرة حياة البارزين في تاريخ الحضارة.

وأنا من هذا البعض الآخر.

فقبل اسبوعين، بدأت بمطالعة سيرة حياة تولستوي، استند فيها مؤلفها الى رسائل تولستوي ويومياته ومؤلفاته. وهو أسلوب في كتابة السير يخرج بها عن المألوف.

ويقع الكتاب في نحو ألف صفحة.

ويعجب القارىء كيف يتطور تفكير ذوي العقول الكبيرة الخلاقة، وكيف يتبدل سلوكهم مع هذا التطور، وكيف يصبحون سجناء افكارهم ونتاجهم الى حد الاختناق.

ولعل أشد ما يعانونه هو الشعور العميق بأنهم مسؤولون عن آلام البشرية، وعن خلاصها من هذه الآلام. وهكذا يصبح المسيح لهم، ملحدين كانوا أو مؤمنين، قدوة ومثالا.

فتولستوي، مثلا، لم يعد يطيق، بعدما كتب «الحرب والسلم» وبلغ ذروة الشهرة والمجد مع «آنا كارينينا»، ان يعيش مع عائلته حياة الطمأنينة والثراء، فيما يعيش الملايين حياة العبودية والفقر.

كان يريد ان يقرن القول بالفعل، ان يمارس بنفسه تعاليمه في المحبة والعطف والمساواة، ان يبيع كل شيء ويحمل صليبه، حتى بلغ في ذلك حد الخصام مع زوجته وعائلته الكبيرة، بل حد التقشف والعزلة الا عن الفلاحين والبائسين.

فلا أحد يعلم غير الانسان المبدع الخلاق ما هو الألم الكياني العميق. الألم الذي لا يرحم. الألم الذي لا يطاق لولا ومضات الفرح والعزاء في أجوائه الحالكة الظلمة.

لذلك كان الانسان المبدع الخلاق هو الانسان الأكمل.

وهذا ما يمنحه الحق في ان يكون متعاليا على اتضاع، شامخا على انكسار، سيدا وخادما معا.

أليس الذي قال: «انا الطريق والحق والحياة» هو نفسه الذي غسل أرجل التلاميذ؟
والذي طرد الباعة واللصوص من الهيكل هو نفسه الذي جالس العشارين والخطاة؟

الاربعاء، ٢٧ تشرين الاول

التجار والمتمولون، وحلفاؤهم السياسيون، وأزلامهم، ومحاسيبهم، واقرباؤهم، يملكون البلد، يأكلون البلد، يجوّعون البلد، فلماذا؟ لماذا؟ نريد ان نسأل.

مثلا، قد يكون فلان عبقريا. هذا مش الموضوع. الموضوع هل كان يعين سفيرا من خارج الملاك لو لم يكن ابن فلان؟
وفلان، مع كل احترامي لعصاميته، هل كان يحمل لبنان في حقيبته ويدور لولا انه من هو، لا ما هو؟
وفلان، وفلان، وفلان، من قديم الزمان!

ومن ذا يستطيع ان يسمي لي موظفا في هذه الدولة يعود الفضل في توظيفه الى علمه وأدبه وفنه، لا الى مطرانه أو حزبه أو سيده؟
في الدول الصغيرة، حيث يكون التمثيل الخارجي خفة دم، وفهما، وفعلا عقليا وروحيا، أكثر منه دهاء سياسيا ومهارة في نقل احجار الشطرنج في لعبة الأمم، يجب ان يكون للادباء والفنانين نصيب وافر، فأين هم هؤلاء في هذا البلد الصغير لبنان؟

هم في الصحف، في الادارات الصغيرة، في المقاهي، على قوائم التنفيع والمحسوبية وجبر الخاطر عند «مراكز القوى» في الدولة أو في ما هو فوقها وقبلها: أخطبوط الزعامات المالية والاقطاعية والطائفية الموروثة!
هم هناك يصغرون ويتقزمون، وفي آخر الأمر يضمحلون.

ولانقاذ هؤلاء، ولانقاذ روح لبنان وعقله، دعونا الى تأليف عصابة الادباء والفنانين.
وكنا ندعو الى تأليف جمعية، أو تعاونية، أو نقابة، أو ما الى ذلك من التجمعات التي زينت في ماضيات الأيام بالموازين، فوجدت ناقصة.

ناقصة، لأن لبنان مش خرج.
لبنان خرج عصابة.

الخميس، ٢٨ تشرين الاول

سأحكي اليوم هذه الحكاية:
في يوم من أيام الربيع الماضي، دخلت مكتب الوزير نجيب ابو حيدر وقلت له: «أنت صديقي. لكن فوق ذلك أنت على ما ظهر من أعمالك حتى الآن، تنوي الخير وتأخذ وزارتك بجد».
قال: «نعم، شكرا. وبعدين؟».
قلت: «وبعدين، أنا عندي اقتراح مفيد اذا وافقت عليه تضع نقطة بيضاء في سجل هذه الوزارة المليء بالنقط السوداء».
قال: «ما هو؟».
قلت: «صدر منذ بضع سنوات قرار في وزارتك بتنظيم معرض دائم للفن اللبناني المعاصر. وجرت محاولة لتنفيذ هذا القرار، ففشلت. وهكذا عادت اللوحات الفنية، البالغ عددها نحو ستمئة لوحة، هي تراث لبنان الفني المعاصر، الى قواعدها غير سالمة وغير سليمة: يأكلها الغبار والعث والاهمال.
فهل أنت مستعد لمحاولة جديدة لا يبطش بها وينهشها «وحش الادارة»؟ محاولة على الاصول، لا ارتجال فيها ولا مسبحة ولا أركيلة ولا معليش؟ محاولة على أساس دراسة صحيحة مستمدة من المثل القائل: «اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه؟».
قال الوزير: «نعم، شو المطلوب؟».
قلت: «المطلوب أولا ان تكلفني رسميا وضع هذه الدراسة، لان عندي غاليري فنية منذ تسع سنوات اكسبتني خبرة وعلمتني الى حد ما «كيف تؤكل الكتف». وعلى أساس هذه الدراسة لكل حادث حديث».
فقال الوزير: «كلفتك من هذه اللحظة».
قلت: «عال. اشكرك على هذه الثقة. وللقيام بهذه المهمة يجب البدء بالكشف عن اللوحات الفنية في مستودعها الحزين، ثم البحث عن مكان في قصر اليونيسكو يصلح لتحويله الى معرض دائم».

قال: «على الرأس والعين».

وكبس الزر، فرد عليــه السكرتير، فطلب منه ان يستدعي في الحال المسؤولين عن مستودع اللوحات، وعن قصر اليونيسكو.

وجاء هؤلاء المسؤولون الى مكتب الوزير، فأخبرهم بالموضوع، واخذ رأيهم، وأمرهم بروح ديموقراطية ان يفتحوا لي أبواب المستودع وأبواب غرف القصر.

وهكذا كان.

وبعــد بضعة أيام جئت بخبراء في الهندسة والديكور وما الى ذلك، فقضينا وقتا من النهار في القصر ندرس الوضع ونختار المكان الأصلح. وبعد ان تم هذا كله، وضعنا دراسة أولية في صفحتين أو ثلاث صفحات رفعتها الى الوزير. وتضمنت هذه الدراسة الخطوط الكبرى للمشروع، أي كيف يتحول الطابق الثاني من قصر اليونيسكو، أو جزء منه، الى معرض دائم للفن اللبناني المعاصر، مجهز بما تقتضيه مثل هذه المعارض من أجهزة ووسائل، بحيث يصبح لائقا بالفن وأهل الفن، وبلبنان وأهل لبنان.

ومرت الأيام، وهي لا تزال تمر.

وفي يوم من أيام الصيف الماضي، قرأت في «النهار» ان الوزير أحال على مجلس الوزراء مشروعا بانشاء معرض دائم في قصر اليونيسكو، وفقا للخطوط الكبرى التي قدمتها الى معاليه في الربيع.

فسكت، ولم أرد ان «احركش» بالموضوع. ذلك لثقتي بأن الوزير رجل شهم وفهيم، يعرف ما يعمل وكيف يعمل.

ومرت الأيام ايضا، وهي لا تزال تمر.

وفي يوم من أيــام هذا الخــريف، وجــدت نفسي في مزاج من يريــد «الحركشة» بشيء ما، فتذكرت حكاية المشروع. وللحال تلفنت الى الوزير في بيته، لأن الوقت كان مساء.

وتحدثت اليه، فذكرته بالمشروع.

قال: «صــحيــح، أحلت المشروع على مجلس الوزراء، كمــا نشرت «النهار» في حينه، لكن المجلس رد المشروع طالبا بعض الايضاحات».

قلت: « والآن، هل لبيتم طلب المجلس؟».

فقال الوزير: «لا، لم نفعل بعد. لكن ثق بأن المشروع رح يمشي».

فهل هذا المشروع رح يمشي بالفعل؟
ام ان «وحش الادارة» سيبطش به كالعادة وينهشه حتى لا يبقى فيه لحم وعظم؟
سنرى!

الثلاثاء، ٢ تشرين الثاني

اليوم: تلفون من الشيخ خليل تقي الدين.
يؤيد الشيخ خليل «عصابة الأدباء والفنانين» ويطلب الانضمام اليها. وكان قبله قد أيدها وانضم اليها عديدون.
المهم لماذا يريد الشيخ الانضمام الى العصابة وهو من هو، أعني اديبا من الرعيل الذي علمنا الادب، وموظفا كبيرا في الدولة ثم سفيرا؟
نحن همشرية. اما الشيخ خليل تقي الدين؟
وهل أفجع من هذه الفجيعة؟
يقول الشيخ إنه تقدم بطلب للتدريس في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية فبخلوا عليه، حتى الآن، بالجواب.
ولو، الى هون وصلنا؟
احمد مكي الذي تولى عمدة الكلية خمس سنوات كان تلميذ الشيخ في المدرسة وفي أيام مجلة «المكشوف».
وعباس علم الدين، أمين سر الجامعة، كان ايضا تلميذ الشيخ، وهكذا نجيب ابو حيدر الوزير.
فهل طق شرش الحياء الى هذه الدرجة؟
والى ذلك، يعلم هؤلاء ومن فوقهم وتحتهم وعلى جوانبهم ان كتب التدريس في معاهد لبنان تحمل مقطوعات أدبية من بنات افكار الشيخ خليل تقي الدين منذ أكثر من جيل.
ومع ذلك يبخلون عليه بالجواب، ناهيك بشرف القبول.
هذا مثل واحد، وستتكشف الايام عن امثلة عديدة سنضيفها الى «السجل الاسود».
ولا بد لكل تمرد على العبودية والظلم من سبارتاكوس!

	الخميس، ١١ تشرين الثاني

حان لي ان اكتب في الحب.
حملت الصخرة طويلا، فحق لها الآن أن تتركني ارتاح.
تتركني ارتاح. هذا هو السر الذي لا مفتاح له.
أشرب البحر كل لحظة ومرارا فيصرخ فارتعب فارفع الى العطش احتجاجي ولا من سميع.
نزلوا.
كانوا شرذمة فتبددت. راحت هنا وهناك وفي كل ناحية ولا تزال. غايتها موصوفة ولو لم توصف بالكلمات الصغيرة على مقاعد الدراسة أو الكبيرة على كراسي المقهى.
نعلم الحيلة وكيف تنعقد وتبوخ ككل شيء لا يثمر لكنه يدعي فينهار ويجري السيل في المكان الذي نحن فيه بالقوة لا بالفعل كما يقال في المنطق.
وتجلس تقول لا ويأتيك خبر فتصدق ثم تندم ولا تعلم كم من الناس رفعوا الاحلام الى مستوى الاخذ والعطاء.
لا رأي لي.
الرأي مات والحب الذي بدأت بالكتابة فيه موجود ولا شك، الا اذا كان سارقا او مسروقا لا يعترف ولو ضربوه وعذبوه حتى الموت.
موجود ولم لا؟ والوجود والعدم لا في سلم ولا في حرب بل بين بين، لا ينفع فيها القول حين يكون الفعل مكسورا ونائما ومصنوعا كالآلة التي لا ينقصها شيء سوى ما يحركها ولا أمل.
يكون الشيء وضده اذن كأماً أو في القرار المصيري الاخير الذي تسمع عنه ولا تراه الا في جوف الحوت.
الحوت؟
سمعتك تلفظ الكلمة باستخفاف وهي وحدها الكلمة التي تعني شيئا غائصا وجائعا الى الظهور.
ربما لا.
لكن الحديث الذي بدأته عن الحب طال وكان من الخير ان لا.
لكن ما كان حتى لو لم يكن لكان على كل حال ولوقفت أنت على بابه

تقرع ولا من مجيب.
فالباب مغلق والذي وراءه وأنت واقف ولا يسمح لك بالدخول.
الا اذا ادركت.
وأنت لا تدرك لانك تبحث عن ظلك ولا شمس.
وفي هذا القدر كفاية من المستحيل.

الجمعة، ١٢ تشرين الثاني

واليوم أريد ان أكتب في الحياة والموت.
الحياة جسر مكسور لا يعبره الا العميان والمقعدون.
وهي في العيون حتى تغمض وفي القلوب حتى تقف عن الخفقان.
اذن، هي الموت!
كلا.
فالموت وجه آخر لا تعرفه ابدا وانما تتخيله وهو لا يتحقق الا بالحياة هذا اذا شئت.
تماما كالأوراق اليابسة على الغصون فهي لا تقع الا اذا حركتها وبعنف.
بعنف؟ قلت بعنف؟
اذن أدركت ان الحياة عنيفة ولا ضرورة وان الموت سليم ومسالم ولا ضرورة أيضا كالحصى في قاع النهر جاريا أو واقفا يستجير.
وهل تتعلق بالحياة لو لم يكن الموت عندك هوة سحيقة اذا سقطت فيها لا تقوى على الصعود مهما بلغت مهارتك في تسلق المنحدرات خصوصا حيث لا صخور ولا جذور تتمسك بها أو تضع عليها قدما واحدة أو قدمين حسبما تدعو الحاجة في كل محاولة يائسة أو هكذا يقال.
ومهما يكن فما هذا الذي أردت ان أكتبه في الحياة والموت، لكني انسقت اليه انسياقا كما يحدث أحيانا كثيرة حين تقود القدم ولا تقاد كما هو من طبيعة الأمور.
فليكن كل شيء جليا وواضحا من البداية.
لذلك أعترف باني أخطأت في القصد وان صدقت نيتي.
وهذا الاعتراف يبرر ساحتي أو هكذا يجب والا فأرضى بالقصاص

على ان يكون أقرب الى الحياة منه الى الموت كأن يكون ضربة قاضية أو جواز سفر الى جزيرة نائية لا وجود لها الا في الخيال.

خيالك لا خيالي.

فالمهم هو ان يباغتك الموت باردا ورحيما كالحد القاطع وان تراودك الحياة عن نفسها وهي كاذبة وأنت تعلم.

ففي آخر الأمر لا أقول ان كل شيء باطل وانما أقول ان كل باطل شيء سواء في الحياة أو الموت.

السبت، ٣ تشرين الثاني

وعن الله والانسان.

الله معروف وموصوف فلا يحتاج الى تعريف ووصف لكن الانسان هو الذي يحتاج لأنه هو المجهول ابدا مع انه يعرف كل شيء بالحدس أو بالعقل.

لكنه لا يعرف نفسه وهذه هي المأساة.

فلو كان يعرف نفسه لجهل الله ولانتهت اللعبة.

واللعبة يجب أن لا تنتهي خصوصا هكذا بسهولة بل يجب ان تستمر أو توهمك بأنها تستمر والا فكيف؟

لذلك كان الله معروفا حق المعرفة، وموصوفا تمام الوصف بخلاف الانسان الذي مع انه خليقته لا كيان له يوصف به فيعرف.

وهذا لا يعني ان الانسان قبل الله أو فوقه لكنه يعني ان الموجود جوهرا أحق بالوجود من الموجود عرضا لأن الموجود موجود اما واجب الوجود فواجب لا أكثر ولا أقل وهو لذلك لا يعاش اما الموجود فيعاش.

عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة.

هكذا بكل بساطة.

لكن البساطة هذه قد تكون معقدة أكثر مما يصح فمن الخير ان نستعيض عنها بتعبير ابسط فنقول ان اللمس أصدق من الحدس الذي هو رؤيانا له.

أي ان الانسان هنا اما الله فهناك.

ومن يختار الهنا يشقى لأنه هنا اما من يختار الهناك فيشقى أيضا لأنه هناك.
وهذا من باب تفسير الماء بالماء وهو الأصح.

الاحد، ١٤ تشرين الثاني

واليوم عن المرأة.
المرأة سراج وكل ما عداها منطفىء أو هكذا تحسب نفسها عن ادعاء، وادعاؤها صحيح لكنه ذو وجهين ككل مسألة لا تحصى ولا تعد على الاصابع.
كالنواة التي مع انها هي الأصل تطرح جانبا في سبيل العابر الحلو الذي هو اياه ولا شيء.
لا شيء.
أقول لا شيء عن عمد لأنني على حق ودليلي اصراري على قولي ما دمت لا أقدر على اقناع أحد وما دام لا يقدر أحد على اقناعي الا بالعنف وان كان مبطنا ومغلفا بألوف الالوان.
والالوان وحدها لا تكفي وان كانت الوفا لان اللالون أصدق خصوصا حين لا يشفع به صفاء كالبحر أو ما هو أبهى قليلا أو كثيرا سواء في الصيف أو في الشتاء.
أم لاحظت أنني اهذي؟
ولم لا اهذي وما في ذلك عيب أو عار؟
هذا مع العلم بأنني لا.
خصوصا حين يدور الحديث على المرأة التي هي المحور وما يدور حوله هو اللاشيء دائما وأبدا أو هي النواة كما تقدم القول.
واولى خصائص النواة قساوتها التي تشتد حين يعز شجرها وتبلغ أقصى الشدة حين يندر ولا أقول يستحيل لان المستحيل لا وجود له الا في حالة واحدة هي العدم والعدم كلمة اسيء فهمها وهي لا تفهم على كل حال واذا فهمت فعلى افتراض والافتراض طبعا ودائما وارد كمثل قولك في ثقة وايمان: «حقا، حقا أقول لكم».
فالحق الواحدة كافية فكيف اذا كانت حقين؟ وما دمت اتحدث عن

المرأة فدعني أقل لك ان الحديث عنها أو عدمه سواء.

سواء؟

نعم، سواء لأن المرأة في آخر الأمر لا سواء عندها الا اذا كان السواء شيئا حقيقيا في نظرها كالخرافة.

وليعلم ذلك العشاق.

والا فلا عذر لهم.

ومن أسف ان يقل بينهم من يعلم وربما عن غباوة وهذا هو الراجح الا ان الراجح كثيرا ما يكون ناقصا لا لشيء سوى انه راجح والعكس بالعكس.

هذه هي خلاصة ما أردت ان أكتب عن المرأة من زمان ولم تسنح لي الفرصة حتى الآن.

	الاثنين، ١٥ تشرين الثاني

ولماذا لا أكتب في الرجل؟

فالرجل شيء ككل شيء.

الا ان الرجل شيء والمرأة شيء آخر لا لشيء الا لان الرجل رجل والمرأة مرأة في الاساس لا في اللباس ولا في ما يتجاوز البشرة الغضة والقوام الاهيف والعيون الساحرة وفوق ذلك اللسان الناعم كحد السكين.

نعم كحد السكين. ولا مجال للشرح لأنني أتحدث عن الرجل لا عن المرأة ولسان الرجل قلبه وقلة عقله أو كثرته لا فرق خصوصا حين يقع في الفخ ولا نجاة.

وقد يكون من نجاة. لكن النجاة بحد ذاتها لا تكفي اذا قصد منها الى الهرب لا أكثر ولا أقل. فالنجاة الحقيقية هي التي تأخذك بعيدا حيث لا تعود لتبدأ من جديد دون ضرورة خصوصا حين تأخذ منك الضرورة كل شيء ولا تعطيك الا نفسها فلا تعرف ما تصنع لان البقاء في نظرك ضرورة في حد ذاته ولا حاجة به الى شيء فكم بالحري الى ضرورة العودة بوعي منك أو بدون وعي.

ولعلك اكتشفت معي ان الرجل لا يوحي بالحديث عنه لأنه أشبه بالجدار القائم في أرض بوار شاسعة لا حدود لها على مد النظر لا على

قصره حين تغرق في الوهم فلا تصدق.

وأخيرا تفعل!

وما تفعله على وجوه مختلفة الا ان الوجه الأكمل هو الضحك سواء صامت أو صارخ شرط ان يكون ضحكا صاعدا كرائحة القرابين من الأرض إلى السماء أو من السماء إلى الأرض لا فرق الا اذا انقبضت نفسك فلا تبقى مسافة بين الحاجبين أبعد من الخط الأعوج القائم فوق الأنف الى أسفل فلا يتجاوز شيئا خطيرا قد تفكر فيه عند الامتحان لأن الآخرة قريبة بمسافة لا تطول لكنها تبدو طويلة من فرط الاستعمال.

هذا شائك ولك ان تفعل ما تشاء.

بالطبع لك ان تفعل ما تشاء كأن تصدق وأنت تعلم انك واهم فتقع وتقوم ثم تقع وتقوم وهكذا دواليك كما جاء على لسان العرب الى ان يخلق الله ما لا تعلمون وما لا تعلمه قليل حينا وكثير حينا آخر عن مصادفة أو اتفاق أو اجتهاد قد لا يؤدي بنا الى شيء فنقعد القرفصاء واضعين رؤوسنا في أيدينا وأيدينا على ركابنا وركابنا ترتجف من فرط الايمان بأن الله في كل شيء عليم.

فالرجل في آخر امره حيوان ناطق لا أكثر ولا أقل.

وحين يكون نفسه يتجاوز النطق الى الغناء. ثم الى الرقص.

ثم الى الركض الركض الركض.

وأخيرا الى السكون والسكوت.

وهذا رأس الحكمة وعين العقل.

الثلاثاء، ١٦ تشرين الثاني

الخلاصة، تبحث عن خلاصة؟

إذن أقول ان الفكر لا يولد كاللغة وانما يأتي حين يريد هو لا حين تريد أنت ولا يأتي عفوا وانما استنادا الى أشياء غالبا ما لا تكون في الحسبان كضرب زيد عمروا دون إثبات أو دليل وهو ما زال يضربه حتى الآن لأن العدالة هي العدالة منذ قايين وهابيل الى عصر الجزمة والصاروخ وما اليهما مما هو منظور أو غير منظور فوق الارض أو تحتها تماما كما كان وكما سوف يكون الى ان.

وليكن ذلك مفهوما لديك لئلا تصاب بالجهل والجهل كالعمى ينفع صاحبه احيانا لكنه على العموم ظالم كالظلمة التي يوقعك فيها وأنت قد لا تستحق غير النور الذي هو الوجه الآخر الذي لا تديره أنت وانما يدار لك حين يشاء لك لا حين تشاء انت لنفسك سواء في كتب الأقدمين أو الأحدثين وهي كلمة على القياس لا على القاموس وهذا لا يرضي الجالسين على ارائك السلف أو على قبورهم يتجشأون.

وأرى من الخير ان أضع النقطة الاخيرة لئلا يشطبي الكلام فلا يكون عندئذ خلاصة بل أقوال مأثورة تبدأ ولا تنتهي خصوصا اذا تحررت من الوزن والقافية كما هو معلوم وأصبح مجهولا في هذه الأيام.

وفي هذا نفع للجميع ولو انهم لا يفهمون فيقنعون.

والسلام.

الاربعاء، ١٧ تشرين الثاني

الذين قالوا عن يوسف الخال، حين دعا الى تأليف «عصابة الادباء والفنانين»، انه مسكين ومظلوم، هم وحدهم المساكين والمظلومون.

انهم عبيد.

يقلصون كل قضية عامة الى قضية خصوصية. يتنصلون. يتهربون. يعيدون الكرة الى صاحبها قائلين «اللعبة لعبتك. نحن متفرجون!».

متفرجون؟ ومتى كان الجبان غير متفرج وغير مهرج؟

قلت لأحدهم «يطالبونني بإحياء أمسية أسبوعية لمن يشاء من الادباء والفنانين في غاليري واحد»، فقال: «عال. فكرة حسنة. انها تنفع الغاليري!».

تصوروا.

بمثل هذه العقلية النفعية يريد الأدباء والفنانون في هذا البلد ان يخرجوا من سرداب الإهمال والتقاعس والعقم الى رحاب الحرية والفعل.

تفوه!

على الدولة، على الاثرياء، على العصابات الاقطاعية والطائفية والتجارية، ان تسحقهم سحقا، لا بكعاب الاحذية، فهذا شرف لهم، بل بأعقاب السكاير المستوردة والبواريد العثمانية الفارغة.

تفوه!

سيأتي يوم لن يجد فيه الادباء والفنانون من يرحم ظهورهم المحنية، من يرمي لهم فتات الخبز من ثقوب الابواب، من يستر عورتهم ولو بورقة تين، من يتكبد عناء التمييز بين اقفيتهم وبين ما صارت اليه الوجوه!

مسكين ومظلوم يوسف الخال؟

قد يكون مسكينا ومظلوما كسائر التسعة والتسعين من الخلائق. لكنه، حين ينظر الى معشر الادباء والفنانين في هذا البلد، يجد نفسه سلطانا ولا كالسلاطين.

تفوه!

دعونا من الادباء والفنانين.

ولنعد الى الاساس، الى الادب والفن.

هكذا: الادب والفن، الى ان تحين الولادة من فوق، وان كنت لا أرى.

الخميس، ١٨ تشرين الثاني

العرب دائما، يا عربان يا أكثر.

قرأت اليوم ان العراق دعا الى مهرجان لابي تمام في البصرة، في تاريخ معين.

لكن سوريا دعت اتحاد الكتاب العرب الى عقد مؤتمره في دمشق، في ذلك التاريخ.

والمعلوم ان الذين يذهبون الى مهرجان ابي تمام في العراق هم، على الاكثر، الذين يذهبون الى مؤتمر اتحاد الكتاب العرب.

فوقعت الواقعة.

وحاول وسطاء الخير اقناع احد الطرفين بتغيير موعده. لكن العرب عرب، وهم يا عربان يا أكثر.

والآن يجد الكتاب العرب أنفسهم في حيرة من أمرهم: هل يذهبون الى مهرجان ابي تمام، أم يذهبون الى مؤتمر اتحاد الكتاب العرب؟

هذا هو محك الامتحان: يا انت مع بعث العراق، يا أنت مع بعث سورية.

والمصيبة ان هنالك من هم مع الطرفين في وقت واحد، يضربون بسيف

بعث العراق ويسكرون على مائدة بعث سورية.

واذن، من حق الطرفين، سورية والعراق، ان يعرفا الخروف الأسود من الخروف الأبيض.

والحقيقة هي ان كل الكتاب العرب خواريف بلا لون. لا أسود ولا أبيض. هذا كلام فارغ. اللون الوحيد هو اللالون.

وقديما قال المرحوم سعيد تقي الدين للمرحوم أميل بستاني، حين اتهمه بأن له لونا، ولذلك لا يصح انتخابه رئيسا لجمعية متخرجي الجامعة الاميركية: «لي الشرف ان يكون لي لون واحد، لكنك أنت كالحرباء بألف لون!»

وكنت في ذلك الحين، صدفة واتفاقا، شاهد عيان في تلك المساجلة.

ومن الممتع والمدهش والمحزن والمضحك في وقت واحد ان نعرف كيف ستحل الأزمة. فاذا تمسك كل من العراق وسورية بموقفه ولم يتزحزح عنه، فمن من الكتاب المساكين يذهب الى هنا، ومن منهم يذهب الى هناك؟

ومن منهم لا يذهب لا الى هنا، ولا الى هناك؟

أي من منهم لا يشط ريقه على لحس الجزمة؟

هذا هو السؤال.

الجمعة، ١٩ تشرين الثاني

قلنا مرة إن العرب لا يأخذون شيئا بجد. حتى الحرب التي فيها موت أو حياة لا يأخذونها بجدد.

فحين يعلن الرئيس السادات: يئسنا من السلم، فاستعدوا ايها الجنود، واعلموا ايها الناس، نحن سنحارب، لا يبدو ان أحدا من الناس (ولا أعلم عن الجنود) يأخذه بجد.

فهم يظنون انه يمزح.

أو انه يناور.

أو انه يشتغل بالسياسة، والسياسة عندهم مرجلة، وبهورة، وصف كلام.

وغدا، اذا وقعت الحرب فلا يصدقون. ينتظرون يوما، ثم يومين، ثم حين تقع قنبلة العدو على بيوتهم فيتشردون عندئذ «تروح السكرة وتجيء

الفكرة» فيصدقون. لكنهم، حتى في تصديقهم، يشكون، وحتى في شكهم يأملون، وحتى في أملهم ينتظرون، وحتى في انتظارهم يتقاعسون ثم ينسون.

ينسون انهم حاربوا وانهزموا.

لأن الحرب، حتى الحرب، مزحة. والهزيمة، حتى الهزيمة، ضحكة.

لذلك، فحين ينادي السادات بالحرب، وبالحرب قريبا، لا تسقط شعرة من أي رأس عربي، ولا ترتفع له اصبع.

«نحن فينا نحارب؟».

هكذا يقول.

والسادات يعرف هذا. لذلك لا يعد بالنصر، بل بالكرامة ويقول: اذا كان لا بد من الاحتلال فلنكفنه بجثة مليون مصري، واذا كان لا بد من العار فلنغسله بدم مليون شهيد.

ومع ذلك لا يفهم العرب.

مليون مصري؟ معاذ الله.

لكنهم يمتدحون الجزائر لأنها افتدت استقلالها بمليون جندي. هناك، معليش. الجزائر بعيدة. أما هنا، فلا. قد تصيبنا طرطوشة.

والطرطوشة رح تصيبهم. ومش بس طرطوشة، بل طوفان هائل من الذل والانمحاق.

وهكذا تضمحل الشعوب وتباد.

هكذا تتساقط وتتطاير تحت الاقدام. تماما كأوراق الخريف التي أراها الآن من شباك غرفتي.

الاثنين، ٢٢ تشرين الثاني

نريد أن نسأل: من هو هذا الذي يصب خطب رئيس الجمهورية، من يوم فؤاد شهاب الى اليوم، في هذه اللغة الجاهزة، وفي هذه اللهجة الخطابية الجاهزة أيضا؟

من هو هذا المخرب، عن غير عمد؟

أما حان للبنانيين ان يسمعوا رئيس جمهوريتهم يتحدث اليهم، في المناسبات، حديث القلب للقلب، بلغة طبيعية تعكس شخصيته على

حقيقتها، وبلهجة لا تكلف فيها ولا اخراج مصطنع؟
متى يتحدث اليهم كما كان يتحدث، مثلا، جمال عبد الناصر؟
متى يكون، في الظاهر على الأقل، منهم وفيهم.
فهمنا، كان فؤاد شهاب عسكريا لا يتقن العربية الفصحى. وهكذا كانه شارل حلو، انما بطبعه وتطبعه.
اما سليمان فرنجية؟
خلّوه، يا جماعة يحكي مثل ما بيريد. يحكي بعفوية. يحكي مثل ما الله عطاه يحكي. خلّوه يحكي بالدارج اذا كان هذا يريحه. خلّوه يحكي بأي لغة بيريد. بس خلّوه على طبيعته، من دون تزييف، ومن دون ماكياج، ومن دون اوركسترا، ومن دون قاموس، ومن دون بطرس ديب!
هذا أهم ما خطر لي ان أقوله في عيد الاستقلال، بعد ان قرأت ثم سمعت خطاب رئيس الجمهورية.
كل شيء آخر قاله سواي.
اما هذا، فلم يقله أحد، ولا أعطي لأحد ان يقوله.
فنحن غارقون في الشكل، في الظواهر، في الصرف والنحو، في جثة لغة تفوح رائحتها يوما اكثر من يوم.
آه، متى يطلع أديب كدانتي مثلا، متى يطلع رئيس جمهوية في لبنان كجمال عبد الناصر، يلبط هذه العكاكيز اللغوية، يكسر قوالب هذه اللهجة الخطابية البائخة، يقف أمام الشعب بصدر مفتوح، وعقل مفتوح، ولسان مفتوح، ويخاطبه بلغته هو لا بلغة الاموات، وبلهجته هو لا بلهجة المخرجين والممثلين؟
يا أخي، يا رئيس الجمهورية، أين البارودة؟
قوص. قوص ولا تخف.
نحن معك. المستقبل معك. الحق معك.

الخميس، ٢٥ تشرين الثاني

المهم ان يجد الفنان نفسه.
قالها لي سعيد عقل الرسام لا الشاعر، كما قالها لي، بعد خمسة أيام، رفيق شرف الرسام ايضا.

لكن كيف يجد الفنان نفسه؟

يجـدهـا، في رأي سعيد عقل، بمعرفة نفسه، وفي رأي رفيق شرف، بتحسس ما يسميه بـ «المناخ».

معرفة النفس تجيب عن السؤال: «من وما أنا كانسان وكفنان؟»، أما تحسس المناخ فيجيب عن السؤال: «هل أنا صادق مع نفسي ومع الآخرين؟».

والحقيقة ان هذين الرأيين يلتقيان برغم تباعدهما، في نقطة واحدة هي الصدق. أما تباعدهما فيعود الى ان الرأي الاول ينطلق من داخل النفس الى خارجها، بينما الرأي الآخر ينطلق من خارج النفس الى داخلها.

أي ان الاول انطوائي والآخر انفلاشي.

والعبرة في ذلك ان الأول، بخلاف الآخر، لا يجد نفسه بسهولة. هذا اذا وجدها على الاطلاق.

فالغوص في العمق أخطر من الامتداد على الأفق.

ولعل الفنان الكبير هو الذي لا ينسى، فيما يغوص في العمق، ان هنالك امتدادا على الافق أيضا. والعكس بالعكس.

اما ان يجد الفنان نفسه، فهذه هي المسألة.

لكن الشرط الاول والاخير هو ان يجد الفنان نفسه كانسان قبل كل شيء.

الجمعة، ٢٦ تشرين الثاني

حضرت، قبل أيام، مسرحية «الطوفان» لمنير آبو دبس.

الذين تابعـوا نشاط منير أبو دبس المسرحي، في السنوات الأخيرة، راقبوا انصرافه، شيئا فشيئا، الى معالجة قضايا الوجود الاخيرة. حتى ليصح القول فيه أنه، في مسرحنا الراهن، رائده الميتافيزيقي.

وفيما يتحسس الآخرون «مناخ» الفترة التي نجتازها هذه الايام، على حد تعبـير رفيق شرف، يؤثر منير ابو دبس ان يغوص في أعماق نفسه لاستنطاقها معنى الحياة والموت وما يتفرع عن هذا المعنى من معاني الوجود والمصير.

الاخراج والتمثيل في «الطوفان» رائعان حقا. كذلك اختصار الرواية

المقدسة عن صلة الانسان بخالقه وما تنطوي عليه من خير وشر، مرورا بالحب الذي نبت، ثم أورق، ثم أزهر، ثم انعقد ثمرا على الصليب. انه ذلك الذي تجسد بالانسان فقهر الموت، بعدما كان يتجسد بالطبيعة فيقهره الموت.

فهل أقول ان مسرحية «الطوفان»، نصا وتمثيلا واخراجا، فاتحة الاتجاه «الرؤوي» الاصيل في مسرحنا الحديث؟

هل أقول انها الخيط الذي يربطنا بحقيقتنا، وهي اننا مهد الفكرة التموزية، ثم المسيحية، في الموت والبعث؟

أمام منير أبو دبس طريق شاق وعسير. الا أنني، حين أنظر الى وجهه، وخصوصا الى عينيه، أتبين فيهما تلك الملامح التي أتخيل انها ملامح الذي يجيء على سحابة، بغتة وبعد طول انتظار.

السبت، ٢٧ تشرين الثاني

وفي التراب صرخة ولا سميع.
جاءت سحابة سوداء دون مطر.
فهلل الجميع
كانوا وقوفا في انتظارها، وبعضهم
صاغ لها قصائد المديح
لكنها صماء، أو لعلها
كانت تريد تستريح
على جبالنا من تعب السنين.

*

وبعد حين هتفوا مرحبين لكنما التراب ظل ظامئا صرخته أنين.

*

غدا يقول عابر من الجياع «مررت، ما وجدت ثمرا في ذلك القطاع وجدت تينة على الطريق عاقرا لعنتها، وظل ذلك التراب يصرخ ظامئا ولا يجاب».

الاربعاء، ١ كانون الاول

الجو جو حرب، في أدنى الشرق وفي أقصاه.

فبعد قيام الامبراطوريات الاستعمارية، كنتيجة لتطور الصناعات الكبرى، وقعت حربان عالميتان كانتا بمثابة علاج للانظمة والمجتمعات القائمة التي دبت فيها الامراض والعلل. وها ان ربع قرن يمضي الآن من دون وقوع حرب عالمية ثالثة، ولا خطر من وقوعها.

لذلك نجد العالم اليوم كجسم بدأت تظهر فيه القروح والبثور، وهو يحاول علاجها بغير الحرب التي لن يستفيد منها أحد، مرة بالتعايش السلمي القائم على التفاهم ومبدأ «عش ودع غيرك يعش» وما يتبع ذلك من تقسيم الكرة الارضية الى مناطق نفوذ، ومرة أخرى بتشجيع حروب وأزمات محلية تبقي على صناعة الاسلحة، بالاضافة الى تشويق العالم الثالث، بالضغط أو بالاختيار، على شراء الاسلحة كسوق استهلاكية.

هذا علاج موقت.

وفي هذه الانباء تفقد الاجيال الطالعة ثقتها بالانظمة القائمة وبمؤسساتها، كما تفقد رغبتها في القتال دفاعا عن هذه الانظمة والمؤسسات.

وسيأتي يوم غير بعيد تولد فيه مجتمعات جديدة في اوروبا وأميركا، تتجه نحو نوع من الاشتراكية يكون فيها الفرد سيد مصيره، بمعنى انه يملك وسائل الانتاج وطريقة تصريفه واستهلاكه.

والى ان يأتي ذلك اليوم، سيتقلب العالم على فراش المرض: حرب هنا وأزمة هناك. بعبع قابع وراء هذه الزاوية أو تلك، في الشرق أو في الغرب. وسيبقى الكبار يتلهون بالصغار الى ان تتحطم الدمية بين أيديهم.

نعم، الجو جو حرب، في أدنى الشرق وفي أقصاه.

والمخلوق الجديد الذي كان باكستان، يشبه المخلوق الجديد الذي كان اسرائيل. كلاهما قام على حركة دينية رومنطيقية، وها هو يحصد ثمارها. وفي الانتصار، كما في الانكسار، يظل مخلوقا مكرسحا ومهددا بالزوال.

ولا عجب، اذن، ان يقلق أحدهما أمن العالم وسلامه في أقصى الشرق،

وان يقلقهما الآخر في أدناه.
وللحياة منطق لا يقبل التحدي.

الخميس، ٢ كانون الاول

الأدب لا يصف الواقع، بل يرفع الواقع الى مستواه.
فاذا لم يفعل ذلك، كان نثرا عاديا، كان صحافة.
هذه هي مشكلة «المهرج» لمحمد الماغوط. وهي المسرحية التي تمثل الآن على مسرح مهرجان بعلبك. أخرجها يعقوب الشدراوي ويلعب الدور الرئيسي فيها أنطوان كرباج، ثم محمد سعيد.
الفصل الاول رائع حقا. الفصل الثاني أقل منه روعة. والفصل الاخير ليته لم يكن كما كان.
الفصل الاول ارتفع، نصا وتمثيلا واخراجا، الى مستوى الفن، فضحكنا وابتهجنا وحزنا كثيرا في وقت واحد.
اما ما تبقى من المسرحية فيصف لنا واقعنا على علاته. وحيث انه لم يرتفع الى مستوى الفن، فانه أحزننا كثيرا دون ان يضحكنا أو يبهجنا.
فتحديد الفن، في الاخير الاخير، هو ما يبهج النفس والروح، مهما يكن الموضوع مفجعا وتعيسا.
لذلك حين انتهت المسرحية، كان قرفنا من واقعنا شديدا، حتى اننا قرفنا ايضا من التصفيق الحاد، على الاقل كما تقتضي اللياقة في نهاية المسرحيات.
شعرنا بالخروج من القاعة في أسرع وقت، وبعدم مشاهدة الممثلين ينحنون لتصفيقنا، كما لو انهم بصقوا علينا وأهانونا.
الحقيقة، تخنوها.
واللوم لا يقع كله على محمد الماغوط، فهو شاعر أصيل، انما يقع على الذين صنعوا نتاجه هذا للمسرح بالطريقة التي صنعوها. كان في امكانهم ان يتصرفوا به مسرحيا، كما فعلوا في الفصل الأول، ويبقوه على مستواه الفني الصحيح. فمحمد الماغوط، الشاعر، غير مطلوب منه ان يكون ابسن، أو برنارد شو، أو سنغ، أو تنسي ويليامز، أو شكسبير. ربما سيكون، لكنه الآن مش هؤلاء. لذلك كان على يعقوب الشدراوي ان يدبر

حاله بالنص الذي بين يديه ويرينا فنه في الاخراج المسرحي.

ولأكون عادلا أقول ان يعقوب الشدراوي بذل جهدا نشكره له، وكذلك الممثلون. فلولا براعته وبراعة الممثلين، وخصوصا أنطوان كرباج ومحمد سعيد، لهبطت المسرحية الى مستوى أفلام السينما أو التلفزيون العربية، ولهبطت بسهولة، لأن الموضوع واقعي وسياسي الى حد بعيد.

لكن يعقوب الشدراوي يلام لأنه حصر جهده في الاخراج، ولم يفرض نفسه على النص. ففن كتابة مسرحية شيء، وفن اخراجها شيء آخر. والفنان والمخرج يجب ان يلتقيا ويتعايشا فيخلقا من التقائهما وتعايشهما الاثر المسرحي الجديد.

على الجميع ان يشاهدوا «المهرج» ولو من أجل الفصل الاول، ولو من أجل الجهد العظيم المبذول نصا وتمثيلا واخراجا.

والمستقبل لا يزال فسيحا أمام محمد الماغوط. فله قدرة على الحوار، كما له موهبة التهكم اللاذع والمبدع، الى جانب موهبته الشعرية الرائعة.

وليبق معه يعقوب الشدراوي وأنطوان كرباج، لا كمخرجين وممثلين فقط، إنما كمشاركين في الإبداع المسرحي.

بعد عصام محفوظ، من شعراء الحركة الشعرية الجديدة، يطل على المسرح محمد الماغوط.

فأهلا وسهلا.

الثلاثاء، ٧ كانون الاول

يجلس عند قدميَّ فأرتعد وأنحني من شدة الكلام فلا يقف كالبريء.

وهو بريء لكنه يجهل.

ويبقى هناك ولا يتحرك كإبتسامة بليدة في وجه منبسط كالقفر لا حياة فيه.

لذلك أدوسه وأرفع جبهتي عالية وأمسك بأضلاعي لئلا تهر من فرط الكآبة التي كالخريف.

وأنا في الشتاء الآن ولا رفيق لي.

أترقب الجذور وكيف تمتد عميقا في الدفء وكيف ستضحك وتصفق فرحا على الغصون.

والى أن يحين الوقت لا عزاء لي.
سفري طويل لأني حسبته قصيراً عن عمد.
فلا لوم علي.
كالنبع الذي يجف لأن الجبل فوقه إستحال.

الأربعاء، ٨ كانون الأول

لكل شيء صوت.
لكن السكوت أجمل لأنه في البدء.
والبدء قد يكون من هذه اللحظة رجوعاً الى الصفر.
أقول ذلك لأنني تائق الى الصباح والى مرور الجفن باردا على الفراغ.
بعض أشياء الأرض أعرفها لكني لا أعرف من أشياء السماء شيئا ككل جاهل بما كان ويكون وسيكون هنا والآن لا عن غباوة وإنما عن ذكاء تحسبه غباوة وهو لا.
وهذا لا يهم.
المهم اني جوعان الى الشبع وشبعان الى الجوع.
والمهم اني وجدت وما وجدته مستحيل وأن هذا المستحيل كان دائما يصير.
ولماذا لا يصير؟

لكنه الآن لا وما في ذلك غرابة لأن الشيء قد يكون ولا يكون في وقت واحد أو قد يكون هنا وهناك في اللحظة التي تحسبه هنا وهو يكون هناك ولا تعلم وعلمك لا يفيد كجهلك سواء أردت أو ما أردت أو سواء أردت وأنت في حقيقة الأمر لا تريد.
وأصدق الامثلة الحب.
لكن ما لنا وللحب الآن، فموضوعه كالزجاج ونحن الآن نطرق موضوعا كالحديد الفولاذ.
أو كالهواء اذا شئت.
ولا بد من انك تشاء لأن الهواء أصلب وأقسى حتى أنه لا يطرق أبدا.
واذن، دعنا من الحب.

ولنعد الى البدء.
فنقول ان الصوت موجود في كل شيء وان السكوت لا.
والسكوت أجمل كما قلت لأنه هيك.

الخميس، ٩ كانون الاول

أسلمت للزمن قيادي لأني سعيد.
نعم.
فما لك تقلب شفتيك استهزاء أو قرفا أو استجهالا أو ربما كفرا بما أقول؟
وأنت لو تمعنت قليلا لاكتشفت اني لم أقل شيئا يجعلك عن حق تقلب شفتيك كما قلبتهما ولا ضرورة لتكرار كيف.
صحيح اني قلت أنا سعيد لكني قلت ذلك كسبب لا كعلة.
والسبب هو اني «اسلمت للزمن قيادي».
فمن لا يكون سعيدا اذا أسلم للزمن قياده ونام ثم قام ثم نام الى أبد الآبدين؟

فهل اقتنعت؟
واذا ما اقتنعت فاقلب شفتيك ولا ضرورة لتكرار كيف.
فهذا شأنك، وربما كنت على حق.

الجمعة، ١٠ كانون الاول

كان لي ساعد فبترته، وجلست اتدفأ على نار الشمس.
وبعد حين بترت الساعد الآخر، وجلست ايضا اتدفأ على نار الشمس.
«ها هو هي» صحت حين اكتشفت ان لي ساقين.
فبترتهما.
وجلست كالعادة أتدفأ على نار الشمس.
وجاء يوم غابت الشمس فيه فبردت.
وصرت أصيح: «حوح!».
وسمعني أحد المارة فغطاني ببصقتين وقعت احداهما على جبيني.

لذلك تراني اليوم شامخا كالنسر ولو بدون ساعدين، ولو بدون ساقين.
وهو لو غطاني بابتسامة او حتى بقبلة لعدت صحيح الجسم كما كنت.
وكما كنت كنت الذي لا أريد ان أكون.

السبت، ١١ كانون الاول

سأفتح بابي لك،
حتى لا تهجرني.
فاهجرني ان شئت!
عندي الليلة احلام تصعد بي نحو القول المطرود اللاجيء فوق شفاه عذراء.
وقليلا ما أحلم، لكني لما أحلم، احلم بالآيات الصغرى، لا بالكبرى، خوفا من حوت البحر فأنا يونان من نوع آخر لا يلعب بالامواج البيضاء كما لو كانت أسنان الفيل.
سأفتح بابي لك،
وأنا أعلم انك لا تهجرني، فاهجرني ان شئت.
عندي أحلامي الليلة، أرضى بالاحلام،
حتى ينشق الفجر،
عن قبر دفنوا فيه الاحلام فقامت احلام.

الاحد، ١٢ كانون الاول

وأخيرا، وصلت الموسى الى ذقن أدونيس فصرخ هذه الصرخة «البطولية» التي قرأتها له اليوم في «ملحق النهار».
عندما كنا في مجلة «شعر»، كان أدونيس في أواخر الايام يلومنا على تطويق المجلة و«جماعتها» واضطهادهم في كل مكان. وكان يدعونا الى الاقلاع عن القوقعة والانكماشية والخروج الى المسرح العربي الكبير الذي أصبحت «تؤهلنا» له مواهبنا ومنجزاتنا.
كنا، بالفعل، نعمل على المسرح العربي الكبير، لكن بتواضع وصدق

وايمان. ولم يكن هذا عن قوقعة ولا انكماشية، وانما كان عن ادراك عميق ان الانفلاش التطبيلي والتزميري على ذلك المسرح سيكون، اذا نجح، على حساب التواضع والصدق والايمان الخالص لوجه الله.

لذلك صمدنا في أعلى الحصن ولا يزال بعضنا صامدا.

اما الذين خرجوا الى المسرح، وأدونيس منهم، فماذا وجدوا غير الخيبة المرة التي أعربت عنها اليوم تلك الصرخة الادونيسية العلنية؟

ولعل أدونيس نسي عندما كنا نقول للذين اضطهدونا وخاصمونا وظلمونا من أصحاب العقائد التحريرية والمبادىء القومية والثورية. (هذا قبل مجيء الاشتراكية): «دلونا يا جماعة على حرف واحد في المجلة أو في شعرنا تفوح منه رائحة الخيانة الوطنية او العمل لصالح الاستعمار والصهيونية، الخ...» فكان جوابهم: «هذا مش المهم. المهم ان اتجاهكم وتفكيركم ومواقفكم كلها خارجة على الركب العربي الصاعد نحو بناء المجتمع العربي الواحد على أسس الحياد والثورة التحررية المناهضة للغرب الاستعماري وكل ما يمثله من تراث حضاري مضر بقوميتنا العربية، الخ...».

وجاء يوم مشى ادونيس (وسواه) مع هذا الركب العربي الصاعد، فصار يدعى الى كل مؤتمر، وينضم الى كل اتحاد أدبي من المحيط الى الخليج، وتنفتح له أبواب موسكو وواشنطون وباريس على السواء. ونشرت له وطبلت وزمرت صحف الركب العربي الصاعد ومجلاته في كل بلد عربي. وترجموه الى اكثر من لغة اجنبية (غربية) و...الخ.

فماذا كانت النتيجة؟

كانت ان مؤلفاته ومجلته «الركب العربية الصاعدة» ممنوعة هنا وهناك، خصوصا في العراق وسورية. وهو يتساءل لماذا؟ هل في هذه المؤلفات وفي المجلة افيون أو نفط، أو هل هي بوق للامبريالية؟

نعم، يا أخي أدونيس. فيها افيون، لكن من نوع آخر. وهي مشحونة بالنفط وشركاته، وهي بوق للامبريالية...الخ.

لأنه غاب عن بالك، رغم ذكائك وشطارتك، ان لا حرية حيث لا حقيقة، ولا حقيقة حيث لا انسان، ولا انسان حيث لا شيء.

لا شيء، أقول لك، لا شيء.

والآن، لا تزعل.

فلا يزال في أعلى الحصن بحصة صغيرة تسند اليها رأسك. وهذه البحصة الصغيرة هي أريح بكثير من طنافس العرب، وأجدى بكثير من تصفيق العرب، وأكبر بكثير من دنيا العرب.

بل هي التي ستنقذ العرب.

لأنها هي خميرة التغيير الحقيقية.

وهؤلاء «الاصدقاء الشعراء» الذين تناشدهم اليوم ان لا يذهبوا الى بغداد للاحتفاء بذكرى ابي تمام، ألم تذهب معهم من قبل؟ فكيف تنتظر منهم أن يلبوا نداءك؟

أما الذين لم تذهب معهم ولم يذهبوا معك الى «حيث يشاركون في حمل جنازة الشعر وجنازة الحرية»، فليسوا بحاجة الى ندائك. انهم لا يذهبون في الأصل. فهم هم العارفون وهم المتحررون... وهم الشعراء الحقيقيون!

الاثنين، ٢٠ كانون الاول

تلقيت اليوم رسالة من أدونيس، ردا على ملاحظتي في «يومية» سابقة عن النداء الذي وجهه الى «أصدقائه الشعراء» لمناسبة المهرجان الذي أقيم في العراق لابي تمام.

وها هو نص هذه الرسالة:

«أخي يوسف،

ما قلته حولي في يومياتك الاخيرة، بالاضافة الى ما قلته في يومية سابقة، يصدر عن طريقة في التفكير تكاد ان تكون ظاهرة عامة. وقد رأيت ان اكتب اليك، لا لكي اوضح ما أذهب اليه ـ ففي ما أكتبه، شعرا ونثرا، ايضاح كامل، وانما لكي أشارك في تحديد القضايا التي تدفعك الى ان تكتب كغيرك مكررا الاحكام نفسها التي لا تختلف، جوهرا، عن الاحكام التي يصدرها من تسميهم «الركب العربي الصاعد». فلعل في هذا التحديد ما يساعد في محاربة هذه الطريقة في التفكير، وأحكامها التي لا تقوم الا على الاهواء والآراء المسبقة.

لنحدد هذه القضايا ببساطة:

١ـ الوجود العربي والمصير العربي يؤسسان حقيقتي، لا الشعرية

وحسب بل الانسانية كذلك. هذا واقع لا يغيره أي شيء: لا انكاره اضطرارا، ولا رفضه اختيارا. فليس العرب «شيئا» وانا «شيء» آخر يقابلهم كما توحي كلمتك بأنك تقول عن نفسك ـ واعتقد انك في قرارتك لا تؤمن بهذا الذي توحي به كلمتك. فلا هوية لنا خارج الهوية العربية. وهذا ما اعلناه واكدناه وعشناه منذ تلاقينا في مجلة «شعر».

٢ـ الحياة العربية (منذ سقوط بغداد بين يدي هولاكو) تحولت هي نفسها الى سقوط مستمر. وربما كانت اليوم تتخبط في أعمق مهاوي السقوط والانحلال.

٣ـ انت تتخذ من هذه الظاهرة دليلا على سقوط العرب وتعلن «انفصالك» واقفا على ضفة «ثانية». اما انا فأتخذ منه على العكس دليلا على نهوض العرب وأعلن ارتباطي الكياني بهم وجودا ومصيرا. والفرق بيننا ـ هكذا أصبح الآن كما يبدو ـ هو انك لا ترى من العرب غير الذين سقطوا أو الذين يجب ان يسقطوا: لا ترى غير القشرة التي تعرف انها لا تشكل من الشجرة غير جزئها الميت ـ وانني ارى العرب في نفسي، انني اسكن واتنفس على الرغم من كل شيء في الجذر والنسغ.

٤ـ هذه الرؤية هي التي تقودك الى ان «تفكر» و«تحكم» تماما كما «يفكر» «العرب» الذين تعنيهم و«يحكمون». فأي فرق تريدني أن أجد مثلا بين ما يكتبه بعضهم حولي في سورية والعراق لكي لا اسمي غير البلدين اللذين سميتهما وبين ما كتبته انت بالذات عني؟ فأنت تؤكد أنني حين أذهب إلى بغداد أصير بعثياً،وحين أذهب إلى القاهرة أصير ناصريا، وحين أشارك في المؤتمرات والاتحادات العربية أتحول الى «عربي» من جملة «العرب» الذين تعنيهم. وهؤلاء «العرب» يقولون عني القول نفسه: فحين يترجم شعري في الولايات المتحدة والبي دعوة عدد من جامعاتها يفسرون ذلك بأنني صرت اميركيا، وحين يترجم شعري الى الفرنسية وأذهب إلى باريس يؤكدون أني صرت فرنسياً. وحين أدعى إلى موسكو وأذهب اليها أكثر من مرة فان هذا في نظرهم يعني انني صرت شيوعيا سوفياتيا. وهكذا. الا ترى ان المنطق واحد، لكي لا أبالغ فأقول ان العقلية واحدة؟ الا يحق لي ان اصارحك بأنك تقع في تفسيرك لموقفي في الخطأ ذاته الذي يقع فيه هؤلاء «العرب» الذين تسميهم كما قلت «الركب العربي الصاعد»؟

٥- الذين تسميهم «الركب العربي الصاعد» شيء آخر غير الهوية العربية. وكثير على هذا «الركب» ان يوصف بالانحطاط، ذلك ان في الانحطاط احيانا شيئا من العلو. انه احيانا جزء جوهري من النهوض. وهذا «الركب» ركام تاريخي - جثث تتحرك فيما تتعفن وتنقرض. ولو كان هذا «الركب» العرب كلهم، أي المستقبل كله، لكان أي شيء افضل من هذه الحياة التي نحياها.

٦- انت تعرف، ولا شك، ان السير مع هذا «الركب» أكثر سهولة وإغراء من السير مع النور والحقيقة. فهو لا يحتاج الى أي عناء. وطبيعي انني لو شئت السير معه كما توحي بكلمتك - ولا استطيع ان اغفر لك ذلك - لما أتيحت لك حتى مناسبة الكتابة عن مصادرة شعري. ولكان هذا «الركب» يشتري «مواقف» ومجموعاتي الشعرية بالاكياس والاكداس. ومن هنا حزني العميق لانك تتهمني كما يتهمني هذا «الركب». ولأنك انت وهو تغرفان، في هذا الصدد، من ماء واحد.

٧- لو كنت مكانك لبحثت المسألة على صعيد آخر - صعيد المأساة التاريخية التي نعيشها: كيف يتحاور الجذر مع القشر؟

هذه هي مأساة كل مبدع. مأساة العرب الرائعين القلة الذين يتلألأون في الظلام الغامر والذين يريدون ان يغيروا: لا نقدر ان نصل الى المعنى الا عبر صورته الراهنة. فمن يريد ان ينفذ الى المطلق لا بد له من ان يدخل في وحل التاريخ. ولئن كان وحل التاريخ يطغى الآن فلا مفر من الهجوم عليه. فالشعر هجوم والحقيقة هجوم. والهجوم لا يمكن الا ان يكون ميدانيا، معايشة ومعاناة. كل مسلك آخر ليس الا نوعا من الصراخ، في غرفة مقفلة، خارج وحل التاريخ طبعا - لكن داخل الوحل الابشع، وحل التراجع، وخارج التاريخ في آن.

٨- اسألك اخيرا - لا لكي احرجك بل لكي أظهر مزيدا من اللوم لانسياقك في منطق «الركب العربي الصاعد»،

اسألك: أين رأيت - في أية كلمة أو في أية قصيدة لي، بعدا او تنازلا - كما توحي - عن الاسس التي تشكل قناعتي الجوهرية مما أعلنته في مجلة «شعر» بالذات؟

هل في كوني اذهب الى بغداد أو القاهرة، الى موسكو أو هارفارد، او في كوني أشترك في المؤتمرات الادبية العربية والعالمية تنازل أو بعد عن تلك

الأسس؟
وهل يبحث، على هذا المستوى. «تغير» الكائن البشري؟
اشكرك لانك أتحت لي ان اكتب هذه العجالة».

الثلاثاء، ٢١ كانون الاول

أعدت قراءة رسالة ادونيس بامعان، فوجدت انها تثير القضايا المهمة الاتية:

اولا - لا هوية لنا خارج الهوية العربية. اذن، فالوجود العربي والمصير العربي يؤسسان حقيقتنا.

ثانيا - الحياة العربية في سقوط مستمر. وهذه ظاهرة يجب ان لا نتخذها دليلا على سقوط العرب، بل على نهوضهم.

ثالثا - «الركب العربي الصاعد» شيء آخر غير الهوية العربية. وهو «ركام تاريخي: جثث تتحرك فيما تتعفن وتتقرض». و«السير مع هذا «الركب» أكثر سهولة واغراء من السير مع النور والحقيقة».

رابعاً - المأساة التاريخية التي نعيشها تنعكس، في جملة ما تنعكس، في «كيف يتحاور الجذر مع القشر»؟ لاننا «لا نقدر ان نصل الى المعنى الا عبر صورته الراهنة. فمن يريد ان ينفذ الى المطلق، لا بد له من ان يدخل في وحل التاريخ».

هذه هي القضايا التي أثيرت على الصعيد العام. أما على الصعيد الخاص، فأدونيس يتخذ الموقف الآتي:

اولا - كان في السنوات الاخيرة يعيش المأساة التاريخية، مأساة «العرب» الرائعين القلة الذين يتلألأون في الظلام الغامر، والذين يريدون ان «يغيروا». أو بكلمة أخرى. مأساة الحوار بين «الجذر والقشر».

ثانيا - وكان بذلك «يدخل في وحل التاريخ» لينفذ الى المطلق أو ليصل الى المعنى عبر صورته الراهنة.

ثالثا - واذن، يجب ان لا يحكم عليه من مجرد الدخول في «وحل التاريخ»، لانه كان يستهدف النفاذ الى المطلق والوصول الى المعنى، ولا من العبور في «الظلام الغامر» لانه كان يتلألأ «مع القلة الذين يريدون ان يغيروا». كان ذلك له «ميدانيا، معايشة ومعاناة».

رابعا - والدليل على ذلك هو انه لم يكتب «أية كلمة» فيها ابتعاد أو تنازل «عن الاسس التي تشكل قناعتي الجوهرية مما اعلنته في مجلة «شعر» بالذات».

وفي قول مشهور لافلاطون ان رجل الفكر أو الفنان، لكونه حيوانا اجتماعيا، لا يقدر ان يعيش وحده على قمة جبل أو في صحراء، انما عليه ان يعيش في المجتمع بكل فساده ومغرياته وتجاربه. أي في «وحل التاريخ» كما يقول ادونيس. لكنه يجب ان لا يعمى عن رؤية الحقيقة ومعاينتها والاهتداء بها دائما وأبدا. فلا يساير ولا ينحرف ولا يغرق ولا ينصرف عن الجوهر الى الشكل.

وأهم ما جاء في رسالة ادونيس هو انه يطمئننا على تمسكه بقول أفلاطون.

وهذا يفرحنا كثيرا.

وعسى ان تكون حالنا جميعا كحاله.

يبقى على ادونيس. اذا شاء، ان يحدد لنا مفهومه اليوم للهوية العربية، وان يشرح لنا كيف ان سقوط العرب المستمر دليل على النهوض، وأخيرا ان يخبرنا ما هي الاسس الكفيلة بتحقيق هذا النهوض.

ليته يفعل ذلك من شرفة «النور والحقيقة».

الاحد، ١٩ كانون الاول

أيها المولود كل يوم
لا تخلصنا
دعنا نشبع من الموت
لعلنا نجوع الى الحياة.

*

أيها المولود كل يوم
لا تخلصنا
دعنا من كثرة الخطيئة
تموت الخطيئة فينا.

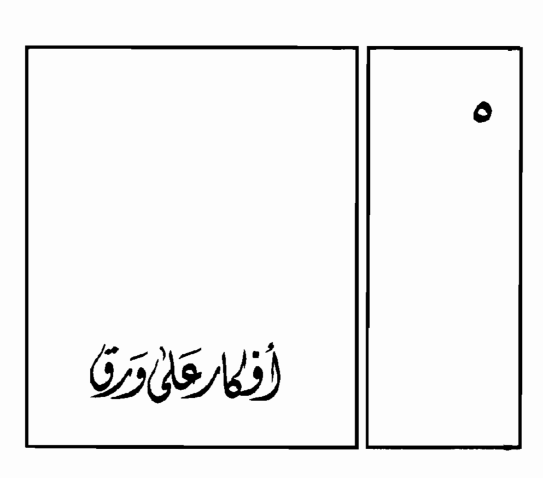
*

لا لا تخلصنا
دعنا نأكل بعضنا الآخر
حتى الذي لا يؤكل
يبقى لديدان الارض.

*

ايها المولود كل يوم
يموت ويحيا كل يوم
لا تخلصنا
نحن جيل الموت والهريبة
الا من موتنا.




٥
أفكار على ورق

الورقة الأولى

من حسن طالع «طواحين بيروت» لتوفيق يوسفة عواد، ان المحاولات الطليعية في الرواية اللبنانية، والعربية عموما، لم تمد جذورها عميقا في نفس القارىء وذوقه. فهي لو فعلت، لوجد القارىء في واقعية «طواحين بيروت»، على ضخامة طموحها، رجوعا به الى ما لم يبق، عن حق او عن باطل، يستهويه ويستسيغه.

فالادب، في نهاية الامر، اسلوب يعكس مزاج فترة معينة، تطول او تقصر، بفعل العوامل الانسانية التي اوجدت هذا المزاج. فهو من هذه الناحية كالزي تماما. وهو مثله، من ناحية اخرى، لا يلقى استحسانا الا إذا كان صادقاً. أي إلا إذا كان يعكس، بلا تصنع واصطناع، مزاج الفترة المعينة التي انطلق منها.

واذن، على من يعطي رأيه في «طواحين بيروت» ان يأخذ في الاعتبار حال الرواية اللبنانية في مرحلتها الراهنة. فاذا فعل لا يظلم «طواحين بيروت» حين يقول فيها انها سارت على نهج «الرغيف» ذاته من ربع قرن. بل هو يعطي صاحب الحق حقه. وحق توفيق عواد هنا هو الاقرار له بالصدق مع نفسه ومع قرائه، وبإحتفاظه حتى الآن بمكانته العليا في الرواية اللبنانية.

* * *

قرأت لجواد بولس «تاريخ لبنان».

ولجواد بولس نظرة في التاريخ، هي ان البيئة الجغرافية تطبع شعبا من الشعوب بطابع يحدد، ربما الى الابد، خصائصه ومزاياه. وهو، بفعل هذه الخصائص والمزايا، يلعب دوره، أيا كان، في حضارة الانسان.

اذن، هي النظرة الجغرافية في تفسير التاريخ.
ولهذه المناسبة اذكر انني درست على قسطنطين زريق، في الجامعة الاميركية، شيئا من فلسفة التاريخ افادني كل الفائدة. فتعلمت ان للتاريخ تفاسير عديدة، يبعدها عن الحقيقة اقترابها من الاخذ بجانب الاطلاق. فكان يقول لنا، هذا المعلم الكبير، ان في كل تفسير بعض الحقيقة لا كل الحقيقة. وما احسب جواد بولس، وهو المؤرخ الكبير ايضا، يستهين بهذا القول والا لحكم على زملائه المؤرخين الكبار، امثال ابن خلدون وغيبون وهيكل وماركس، بالخطأ والسقوط.
لكن، ما لنا ولهذا الموضوع العويص.
غايتنا من ذكر «تاريخ لبنان» لجواد بولس هي ان نمتدح رصانته العلمية وفائدته الجلى التي من أهم جوانبها ان يخرج لبنان، بعد الدرس والبحث والتمحيص، لؤلؤة تحتويها هذه الصدفة العجيبة الصامدة بين الجبل والبحر علامة فارقة في جغرافية الدهر.

* * *

قال عبد الوهاب البياتي في حديث له عني: «كان بامكانه ان يكون شاعرا كبيرا، الا انه آثر ان يكون قومسينجي الثقافة الاجنبية».
«الامكان» بيد الله. فهو وحده، في حدود الزمان والمكان، يحول «الامكان» الى «فعل». وخير لي الف مرة ان ابقى شاعرا كبيرا عند حد «الامكان» في نظر البياتي، لانشغالي بنشر «الثقافة الاجنبية» في بلادي، من ان اتجاوزه الى «الفعل» البياتي الذي هو في نظري، على وجه العموم، نتيجة الانشعال بهموم الشهرة والارتزاق.
«الثقافة الاجنبية»؟ ومن يكون البياتي او سواه لولا هذه الثقافة؟ الا يكون مهدي جواهري صغيرا يجد في شعراء «الثقافة الوطنية» القدامى عمالقة يكفي النسج على منوالهم وترسم خطاهم؟
نعم، لولا اطلاع البياتي على «الثقافة الاجنبية»، يسارية ويمينية على السواء، اكان اليوم رائدا من رواد «الشعر الحديث»؟ اكانت مفاهيمه للشعر والحياة هذه المفاهيم «الثورية» التي يرددها والتي لا يخفى طابعها «الاجنبي»؟
وهؤلاء الذين يتغنى اخونا البياتي باسمائهم ويترجم لهم ويتأثر

بهم ـ من ناظم حكمت الى لوركا ونيرودا، مرورا بإليوت وسواه من اعلام الشعر العالمي ـ اما هم من بناة «الثقافة الاجنبية»؟

كنت اتوقع من البياتي ان يمتدحني على جهدي في نشر «الثقافة الاجنبية» لخير «الثقافة الوطنية»، فاذا به يجد في هذا الجهد الذي ينعم بفضله عارا وشتيمة ومهانة.

وما البياتي بأول من يعض اليد التي تطعمه. هم يسبون «الثقافة الاجنبية» ومن يعمل على توسلها للنهوض من الانحطاط والتخلف، ويتناسون صانع السلاح الذي به يتسلحون، والافكار التي بها يوجدون، واللباس الذي مثله يلبسون، والفلوس التي لولاها يجوعون ويعطشون!

لكن الأهم في أقوال زميلنا البياتي وأمثاله لا ما جاء فيه، بل ما يدل عليه. وما يدل عليه هو أن «ثقافتنا الوطنية» بدأت تنكمش وتتراجع، بفضل أنبيائها الكذبة، الى عصور انحطاط اخرى.

* * *

تهجم «اسرائيل» هنا أو هناك، وتسقط طائرة في الفضاء أو تحرقها على الأرض، فنصرخ ونستصرخ، ونبكي ونستبكي، متناسين أننا معها في حالة حرب، وان الهدوء والسلم والاستقرار في هذه المنطقة يتنافى كله مع وجودها.

«إما نحن وإما هي» ـ هذا هو، في المدى البعيد قبل القريب، الاختيار المصيري الأوحد.

* * *

لأسد الأشقر فضائل كثيرة، لا أظن الرصانة الأدبية واحدة منها. فهو من شدة اندفاعه وحماسته يشبه السيل الذي يجرف الصالح والطالح معا. ومن السيول ما هو كالكارثة، تقام في وجهه السدود والحدود لئلا يخرّب أكثر مما يعمر.

أقول هذا لمناسبة رده على شارل مالك. تقرأه، فتقول: ليتَ هذا السيل كان نهرا طبيعيا جاريا لا يجرف ولا ينجرف. اذن لأمكن الحياة الصالحة

ان تعيش فيه وتنبت على ضفافه.

شارل مالك، بإعتراف صديقه وصديقي أسد الأشقر، قيمة وطنية فذة. فاذا كان الأمر كذلك، لماذا تلك النعوت والاوصاف والألقاب الصاخبة الجارحة التي سددها اليه؟ هل من الخير لنا أن نجرف، في سبيل اندفاعنا وحماستنا، تلك القيمة الوطنية الباقية، الى مستنقع قيمنا الزائفة؟

حين رويت في عدد سابق من «الملحق» عبارة قالها لي أنطون سعادة هبّ صديقي عبد الله قبرصي الى تأنيبي بقوله: «أبمثل هذه الخفة تتحدث عن رجل كأنطون سعادة؟» والحق مع صديقي في هذا التأنيب. انما كانت «خفة» مني ما قصدتها. وها أنا أعترف.

فليسمح لي صديقي أسد الأشقر، لما أعرفه فيه من الصدق وطيبة القلب، ان أوجه اليه مثل هذا التأنيب. وكم أتمنى له ان يعترف كما إعترفت.

* * *

العميد ريمون اده لا يخاف شيئا، يخاف «مجرى الهواء».

وللخوف حكاية طويلة مع البشر.

فمنهم من يخاف الله، وهو رأس الحكمة.

ومنهم من يخاف الفقر، فيلجأ الى البخل. وهذا أضعف الايمان.

ومن الناس من يخاف العزلة. وهو دليل على فراغ النفس وحاجتها الى العلاء والعمق.

ومنا من يخاف الصدق، فيكذب ويكذب، لعل في الكذب ما يستر العار أو يزيل الضعف.

ومنا من يخاف خياله، كما يقول المثل. وهؤلاء لا يعول عليهم في كثير أو قليل.

ومنا من لا يخاف. فالخوف سلاحنا ضد الموت، كثرته جبانة وقلته حماقة. وهو في طبيعة الانسان. ودليلنا الأساطير. فهي ملأى بالخوف من الآلهة، وبالخوف من ظواهر الطبيعة، وبخوف الواحد من الآخر. وكأن الخالق أراد الخوف في المخلوق لئلا يتجاوز حده.

وكفى العميد العزيز خوفه، بعد الله، من «مجرى الهواء». فهذا يعزز أمل لبنان في السنوات التي ستجيء.

الورقة الثانية

عنـدمـا كان شارل قرم وهكتـور خلاط، بالفـرنسية، وأديب مظهر ويوسف غصوب وأمين نخله وصلاح لبكي وسعيد عقل، بالعربية، يكتبون الشعر على طريقة البرناسيين والرمزيين الفرنسيين، كان جورج شحاده يقفز مسافة خمسين سنة، دفعة واحدة، ليجلس الى مائدة السورياليين.

ذلك الرعيل وضع اساس الحداثة للشعر العربي كله. ما كان حديثا هو ولا معاصرا. لكنه كان كيوحنا المعمدان يصرخ في البرية: «اعدوا طريق الرب». وكان «الرب» هناك، لكنه كان مجهولا بين أهله، مع انه ظهر في باريس وعمّـدوه وجـاءه الصـوت القائل: «هذا هو ابني الحبيب الذي رضيت عنه».

وحين صدر العدد الاول من مجلة «شعر» في مطلع ١٩٥٧، أي بعد ظهور جورج شحاده في باريس بنحو عشرين سنة، وقعت عين قارىء العربية على اسمه للمرة الأولى. وتساءلوا: «من هو هذا جورج شحاده؟» ومن ذلك التاريخ اخذ هذا الأسم يكبر لا في لبنان وحده، وانما في جميع انحاء المعمور. فنال جائزة اصدقاء الكتاب، وربما اجلسوه مع الخالدين في الأكـاديميـة الفرنسية، قبل ان تخرج الأكاديمية اللبنانية الى حيز الوجود الفعلي. وكان الكويت، ولا نعرف كيف ولماذا، أسبق من لبنان الى نقل مسرحياته الى لغته الأم.

ومـع ان مرحلة الشعـر اللبنـاني (والعربي) الحديث تبدأ بجورج شحاده وتنتهي (حتى الآن) بأنسي الحاج، مرورا بمن صاروا أشهر من ان نذكر اسماءهم، الا ان المرحلة التي سبقتها وأعدت الطريق لها يجب ان نفيها حقها من الفضل. وذلك بان نحيي دائما ذكرى الذين فارقونا، كشارل قرم ويوسف غصوب وصلاح لبكي، وبأن نحيط بالاكرام اولئك الذين ما زالوا بيننا. واذا كان أمين نخله نال جائزة رئيس الجمهورية التقديرية وسيكون في الاسابيع المقبلة موضع اكرام مواطنيه، واذا كان سعيـد عقل على كل شفة ولسان، فان هكتور خلاط لا يرتع بمثل هذا الحظوة. فلا دواوينه الشعرية نقلت كلها أو بعضها الى العربية، ولا نال جائـزة رئيس الجمهـورية التي درج المسؤولون على منحها للشيوخ، تقديرا لهم على «اكمال السعي وحفظ الايمان».

فما هو المطلوب؟
المطلوب الآن وعلى الفور: مئتا صفحة بالعربية من شعر هكتور خلاط.
فهل؟ وكيف؟ ومن؟

* * *

ماذا دهى نبيل خوري حتى يطرق باب الشعر في قصره الجمهوري؟ ثم يهبط الينا، نحن الشعراء المساكين، في كهوفنا الوضيعة المتواضعة؟
في «استراحة المحارب»، وهي الصفحة التي فتحها نبيل خوري في «الحوادث» له ولزملائه المحاربين، يجد في قصيدة بطرس ديب العصماء في مصر منطلقا للذكرى والتذكر. فيروي حكاية «نحن الذين» مع من هو اليوم رئيس غرفة الرئاسة، ومسألة «فهم» الشعر الحديث مع من يسميه «أباه». والمسافة بين «نحن الذين»، اي الشعر التقليدي، وبين الشعر الحديث هي بالفعل مسألة «فهم».
فما هي هذه المسألة؟
هي باختصار ان الكلمة في مفهوم الشعر التقليدي كلمة جاهزة المعنى حاضرة الفهم: لا مفاجأة ولا سحر، اللهم الا سحر البيان! اما الكلمة في مفهوم الشعر الحديث فهي كلمة فريدة تحمل المعنى الى أبعد من حدود الفهم ـ اي الى ما وراء الظواهر وواقعية الأشياء الملموسة. فعوضا عن «الفهم»، كما هي الحال في الشعر التقليدي، هناك الحدس والرؤيا في الشعر المعاصر. من ذلك ان الجمال الحقيقي لا يكمن في الشكل الجميل بمقاييسه الفنية المادية، بل يكمن في ما يوحي به هذا الشكل من معنى انساني ندركه بالاحساس والمخيلة قبل العقل والمنطق. مثل هذا الادراك «ينوجد» في كياننا ـ أو بكلمة اخرى، يستمد وجوده من تجاربنا ـ فنفهمه لا بقوتنا العقلية المنطقية وحدها، بل بكامل قوانا الكيانية. من هنا عنصر المفاجأة، والخلق المستديم، واكتشاف المجهول، في مفهوم الشعر الحديث.
هذا ما ذكرته بتطويل لصديقي نبيل خوري.
أما فتح «مدرسة» لتفهيم الشعر الحديث، فما أغنانا عنها الآن وأحوجنا الى الوف «المدارس» لتفهيم المواطن العربي ما اذا لم يفهمه لن يفهم شيئا.

سياسة «الصباط»، هل جاءك خبرها؟

اذن، إسمع:

يأتيك احدهم بطلب، فلا تقول له: «لا» مع انك تضمر هذه «اللا»، بل تقول له: «تكرم، على رأسي. تعال غدا أو بعد غد».

ويجيء اليك غدا أو بعد غد، فتكون أنت هناك (لا يجوز ان تتهرب في أول الأمر). تقول له: «طلبك صعب، لكن ما عليك. إتكل على الله. تلفن لي يوم كذا، الساعة كذا. تكرم عينك».

ويتلفن لك صاحب الحاجة في اليوم كذا والساعة كذا، فتكون هناك (لا يجوز ان تتهرب في هذه المرحلة). تجيبه: «ما وصلت الى نتيجة بعد. عملت المستحيل. بس انت بتعرف. طلبك صعب، بدك تطول بالك شوي. تلفن لي يوم كذا، الساعة كذا. لا، مر واشرب فنجان قهوة»!

وفي الوقت المعين يجيء صاحب الحاجة ليشرب فنجان قهوة، فيجدك هناك (لا يجوز ان تتهرب في هذه المرحلة بعد). وبينما أنت منهمك في أوراقك وتلفوناتك، تنظر اليه متذمرا من كثرة العمل، وتقول كلمة من هنا وكلمة من هناك: «قضيتك بسيطة. رح تصير. تماما متل ما بتريد. إنما أنت بتعرف هالحياة. كات وكات من هالحياة. البارحة كان يوم عطلة. وقبلها اضطررت للسفر خارج بيروت. وقبلها مرضت زوجتي. واليوم بعدها في المستشفى! الخ...».

وهنا يخجل صاحب الحاجة ويعتذر اليك على مضايقته لك. لكنه عند خروجه من الباب يستجمع قواه ويسألك: «ايمتى بتلفنلك؟» فتجيب: «ايمتى ما بتريد. بكرة. لا بعد بكرة. خليني أدرس القضية مليح. بعد بكرة».

«ـ أي ساعة؟»

«ـ اوه، عشرة. الساعة عشرة!».

وفي العاشرة صباحا يتلفن لك فلا تجيب. هذه المرة تبدأ بالتهرب. تشد وترخي. يوم موجود وعشرة غير موجود.

وصدف ان شهدت هذه المسرحية بعيني، فسألت بطلها: «لماذا تعذب هذا الرجل؟ حرام عليك. قل له «لا»، ما دمت تعرف من البداية ان طلبه مردود».

فانتفض البطل وصاح: «لا؟ بحياتك ما تقول «لا». بينجرح خاطره.

يمكن انا أموت، يمكن هو يموت، يمكن الدنيا تخرب. خليه يروح ويجي حتى يهتري «الصباط»! هيك ما بطلع أنا بسواد الوجه. بيظن اني عم أخدمه بكل جهدي، لكن هو ما صبر كفاية!».

هذا نموذج عن سياسة «الصباط»!

وهي سياسة برع فيها اللبنانيون من أقدم العصور. ولعل هذا هو سر بقائهم بلا اعداء حقيقيين ولا اصدقاء حقيقيين الى هذا التاريخ.

الـورقة الثـالثة

مسكين صاحب القلم في هذه الأيام!
يحور ويدور، فلا يجد امامه غير «القضية».
القضية هنا، القضية هناك. اوعا القضية! كل شيء ولا القضية!
ومع القضية ننام، ومنها نأكل ونشرب.
وصارت كالخبز، بها نعيش، وبدونها نجوع ونموت.
والقضيـة لا تعف ولا ترحم. كلمـا تمسكنـا فيهـا بشعرة خلاص، انقطعت في أيدينا وتركتنا نغرق.
وها نحن، بالفعل، نغرق. نغرق في عمان، ونغرف في الخرطوم، وكدنا نغرق في لبنان، بعدما غرقنا في كل مكان.
ويبقى الشاهد الأكبر على هذه «القضية» مش السياسيين، ولا رجال المقاومة من كل صنف ولون وجنس، ولا الثوريين الحاكمين او المحكومين، بل صاحب قلم هو محمود درويش.
وهذه «الوثائق» أو «الشهادات» التي يكتبها هنا وهناك، هل يقرأها احد بتمعن؟ واذا قرأها، هل يفهم معانيها ومغازيها؟
القضية، القضية ايها الجيل الحاضر والذي سيحضر!
شرط القضية ان تحيا فينا، لا ان نحيا فيها. فهي المضمون والجوهر، لا نحن.
وهي الغاية والهدف. وهي التي، لا نحن الذين.

* * *

لتسمح لي «القضية» ان اقول كلمة على ذوقي:
نحب، لأننا لا نقدر أن نحيا بلا حب، فنخيب. حتى الحب لا ينجينا.
وبالحب أعني المحبة ايضا والصداقة، واعني كل علاقة تنبع من كيان الانسان.
فماذا ينجينا؟
هنا مغزى السؤال الأبدي: «نكون أو لا نكون».
«لا نكون!» هذا هو الجواب الذي به «نكون».

فان كنا لا نؤمن بأن الموت هو طريقنا الوحيد الى الحياة، عبثا ننتظر النجاة من واقع هذا الوجود.

أما قال المسيح: «من أراد ان ينقذ نفسه يهلكها»؟

واليك الدليل: «بدأت بالكلام عن الحب، وانتهيت بالكلام عن الموت!»

وقال محمد: «عش لدنياك كأنك تموت غدا».

لنعش، اذن، للموت، حتى نأمل بأن تكون لنا الحياة.

الـورقة الـرابعة

الهلال الخصيب، أو سمه ما شئت، كالنائم بين لحافين. إن أرضى الشمال زعل الجنوب، وإن أرضى الجنوب زعل الشمال.

هكذا من أيام نوح.

واليوم، بعد زيارة لبنان، بشخصي فخامته ودولته، لمصر والسعودية، ثم للمغرب والجزائر، هل ننتظر من العراق الشقيق ان يفعل غير ما كان دائما يفعل: التهديد والوعيد، حين لا يمكنه الغزو والاكتساح؟

والمشكلة هي ان هذا الهلال الخصيب الذي كاد يجدب، لا بد له، مهما حاول التوازن والاتزان بين الشمال والجنوب، من أن يميل مرة الى هنا ومرة الى هناك تحت ضغط الأحداث الداخلية والخارجية.

مال في ١٩٥٨، فحصدنا ١٩٥٨.

ومال بعد ١٩٥٨، فحصدنا ما ورثته ١٩٧٠.

ومن ١٩٧٠ الى اليوم ونحن نبذل الجهد للوقوف على الحبل وإتباع «سياسة الصباط» قدر الامكان. لكن الشمال، على ما يظهر، غير راض.

ولإرضائه نرسل اليه الوفود، تماما كما كان يفعل أجدادنا من قبل.

فبأي ثمن، غير كرامتنا وسيادتنا وحريتنا، سيرضى هو ويرضى سواه؟

* * *

في حديث شارل حلو، رئيسنا السابق، الى «الحوادث» قوله إن الصراع على القدس هو «صراع بين الانبياء».

وهذا صحيح. لكن الأصح، في رأيي المتواضع، هو القول انه صراع بين «الآلهة» لا بين «الانبياء».

فهل من ضرورة للشرح؟

* * *

اذا كان لبنان، في نظر ابا ايبان «أقل الدول حضارة على وجه الارض»، فبني اسرائيل أكثر الشعوب همجية في التاريخ.

فمن يوم قايـين وهـابيـل، وأخبـار ايامهم وملوكهم تشهد على هذه الهمجية. حتى ان إلههم، في آخر الأمر، نفد صبره منه فشتتهم تحت كل سماء.

وهـا هم يعـودون،هـذه المرة أيضا، بالحديد والنار ليغتصبوا وطنا بكامله. فيطردون من شعبه من يطردون، ويستعبدون منه من يستعبدون.

فاذا كان هذا مش منتهى الهمجية، فأي شيء هو في نظر ابا ايبان؟

* * *

بين يدي العدد الاخير من مجلة «مواقف». آه، كم هو ضائع وحزين صار الشعر العربي.

جيل طالع مأخوذ بصف الكلمات، وتكويم الصور، واصطياد الرموز، وخلط الحابل بالنابل.

كانت ساعـة مشـؤومة، كما اتضح لنا فيما بعد، حين اهتدينا، في ١٩٥٧، الى سان ـ جون بيرس ورفعنـا له قصيـدة على عمـود الشعر العربي ترجمها أدونيس. ثم أمسك ادونيس برأس خيط البكرة، فراحت تكر. وها هي ما زالت تكر.

ففي شعر سان ـ جون بيرس نبرة خطابية، وفخامة لفظية، وسجع، ونغمـة بيـانية، والفاظ تعير نفسها لكل معنى وللامعنى. وهذه صفات شكليـة مغرية، تستهوي المخيلة العربية، وتجد في اللغة العربية اداة تعبيرية مطروقة.

ما ينقص جيلنا الشعري الطالع لا الموهبة، بل كثير من التواضع وكثير من الثقافة الفنية والغوص في التراث الانساني. فهذه القصائد المعلقات التي تطول لتحـوي كل شيء، وتنبسـط لتغـطي السماوات بالقباوات، وتتراكم كالحجارة المنحوتة المصقولة من دون بناء، وتتشعب كالدروب الموحشـة في الأدغال والمستنقعات، هي وليدة طموح مهدور ومواهب ضائعة. وهي في معظمها بريئة أصيلة، فمن أفسدها وكيف فسدت، ولماذا؟

الشعر، يا اخوتي الصغار الكبار، شهقة لا شهيق، وغصة لا اختناق،

وجرح في القلب لا جسد مذبوح من الوريد الى الوريد. وهو برق يلمع لماماً في الظلمة، لا شمس تبهر العيون في وضح النهار!

والشعر، يا اخوتي الصغاره الكبار، لا للتهويل والسفسطة وعرض العضلات، بل للشهادة. وهو لا لنشر الاحزان واللواعج، ولا لقد المراجل والاستنجاد بالقواميس والتواريخ، بل للتوبة والاعتراف والصلاة. إنه الانسان عاريا في قدس الأقداس، والنفس البشرية في انسحاقها الأزلي امام سلطان الحياة والموت.

فخففوا من حماستكم واتضعوا وتعلموا.

* * *

من يخبر رغيد الصلح بأن كلامه على عروبة لبنان، وحدة ومصيرا، لن يجدي. لا لأن رأيه أو رأي سواه في هذا الموضوع لا يستند الى مبادىء علمية اقتصادية، بل لأنه يستند الى اعتبار لبنان بلدا عاديا ككل البلدان.

فلبنان، يا أخي رغيد، بلد فريد في نوعه. وفرادته هذه تتجلى في مواقف متعددة، منها أنه يرى واجب وجوده كما هو يتجاوز كل منفعة مادية.

شعاره: «ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟».

واذن، لا سبيل الى اقناع لبنان بأي وحدة سياسية مصيرية مع محيطه العربي الا متى اقتنع بأنه لن يخسر نفسه. فاقنعه اذا كنت شاطرا، لا بالأرقام والاحصاءات، بل بضمان الأسس الروحية والعقلية التي يقوم عليها واجب وجوده.

وفي مثل هذا المسعى، أي لبناني لا يتمنى لك التوفيق؟

والى ذلك الحين، اعمل في لبنان على أساس واقع لبنان، واعمل في سائر بلدان العرب على أساس تغيير واقع هذه البلدان

والله يأخذ بيدك.

الـورقة الخـامسة

وأخيرا، اكتشف من يسمون انفسهم «اتحاد الكتاب اللبنانيين» ان زمـلاءهم من المحيط الى الخليج مرتبطون بالسلطة القائمة في بلادهم، وانهم هم وحدهم غير مرتبطين بأحد، بل هم أحرار ولا أحد يقول لهم: «ما أحلى الكحل في عيونكم!».

فصح النوم!

وهل نتهمهم بالجهل أو التجاهل عندما نجدهم، طول هذه السنوات، يسقطون من حسابهم ان من طبيعة النظام القائم على الحزب الواحد «تأميم» حرية الرأي والتعبير عنه؟

وها هم يعودون منسحبين من مؤتمر تونس، يسبّحون بنعمة الحرية في لبنـان، ولو على مضض. نقول «على مضض»، لأن من يقرأ بيانهم بامعان يلمس ان الخيبة فيه لا تطهرها التوبة بزوفى الايمان والمحبة.

والا، فما معنى قولهم في هذا البيان عن «نسبية» الحرية في لبنان؟

فهم لو تابوا عن ايمان ومحبة لأدركوا أن الحرية في لبنان، اذا كانت «نسبيـة» ـ وهي كذلك ككل حرية في التاريخ ـ فلا تكون بالقياس الى أنظمة الحزب الواحد. هنا المسألة مسألة نوع، لا مسألة كمية.

ففي أنـظمـة الحـزب الواحد لا حرية في الأساس. أما في الأنظمة المتعددة الأحزاب، كما في لبنان، على مساوئها، فالحرية في الأساس. وهل من نسبة بين العدم والوجود؟ بين النوع وضده؟

وفي كل حال. نهنىء وفد «اتحاد الكتاب اللبنانيين»، كائناً من كانوا، على موقفهم اللبناني في مؤتمر تونس. نقول هذا، مع العلم ان بعضهم ما يزال ينتظر من العوسج ان يثمر تينا.

* * *

كيف نقدر ان نهرب من «القضية» ونحن نرى ما نرى، ونقرأ ما نقرأ، ونسمع ما نسمع؟

وأهم ما رأينا وقرأنا وسمعنا لا تجييش الجيوش العربية، بعضها ضد البعض الآخر، في الخليج النفطي، وانما بداية مرحلة جديدة من مراحل

المخطط الصهيوني، هي مرحلة «تخويف» العالم ـ وخصوصا اميركا ـ من سيطرة النفط العربي عليه.

فالصهيونية، بعدما عزلت العرب عن الغرب والى حد كبير عن الشرق، تحاول اليوم تصويرهم في الأذهان على أنهم «الخطر» الذي يتهدد مصير العالم ويسعى، بما يملكه العرب من ثروة، الى التحكم بمقدارته.

واذاً، «هبوا واستفيقوا أيها البشر!».

وما نراه في هذه الأيام وما نقرأه وما نسمعه هو لا شيء بالنسبة الى ما سيراه ويقرأه ويسمعه أولادنا وأحفادنا.

فالقضية هي القضية هي القضية.

* * *

«قطار الصدفة» لجاد الحاج يذكرني بقطار ركبته يوما الى دمشق، حتى اذا ما وصل بنا الى بحمدون زحف الجراد على السكة وأوقف العجلات.

كان مشهدا عجيبا لا ينسى.

وترك الجراد بعد ان أكل الأخضر واليابس، فواصل القطار طريقه الى دمشق.

لا أعرف لماذا تذكرت ذلك القطار، وأنا اقرأ «قطار الصدفة»، كما اني لا أدرك وجه الشبه.

لكني أعرف وأدرك أن «قطار الصدفة» أخذني في رحلة، أين من عجبي وسروري بها رحلتي تلك الى دمشق.

* * *

لي صديق عزيز طالما حدثني عن ما يسميه «الحماسة». وهي نظرة في الحياة لو إتبعتها لا تشيخ ولا يتجرأ عليك الموت.

وكم حسدته على فلسفته هذه، خصوصا انه في حال من الرخاء والبحبوحة تتيح له تطبيقها في سلوكه.

يقول: متى فقد الانسان حماسة العيش بكل قلبه، وكل عقله، وكل

جسده، فقد مبرر وجوده. حياته، إذاً، وموته سواء.

والبارحة شربنا ورقصنا وتحدثنا حتى الصبح. وحين أفقت في منتصف النهار، شعرت كمن يمشي على غيمة.

وسأبقى هكذا طول النهار: رأس فارغ كالطبل، ويد لا تقوى على مسك القلم.

ورأسي ويدي، بحماسة أو بلا حماسة، هما رأس مالي الوحيد ومصدر رزقي الأوحد.

* * *

في فيلم «صاحب اللحية الزرقاء» نماذج من النساء وقانا الله عشرتهن.

ومع ان القتل لا يجوز، إلا أنك تكاد تعطف على صاحب اللحية الزرقاء وتصفق له حين يفتك بإحداهن.

كان كأنه أنت، لو كنت في محله.

وما من رجل، على ما أظن، نجا من الوقوع في تجربة نموذج واحد، أو أكثر، من هذه النماذج. فكيف الخلاص؟

القتل، على طريقة صاحب اللحية الزرقاء، غير وارد. اذن، بقي لنا سبيلان: العيش معهن كالميت الحي، أو الهرب!

والهرب، خصوصا في هذا الأمر، هو ثلثا المراجل.

الـورقة السادسـة

أعترف بعجزي عن فهم ما يريده طلابنا. كل واحد يشرح قضيتهم من زاويته الخاصة. وأقرأ فأفرح، وأجرب فأحزن.

لكن خلاصة ما فهمت هو ان طلابنا يجدون في نظام التربية الحاضر نقصـا في تعليمهم وإعدادهم للمستقبل. فهم قلقون خائفون من هذا المستقبل. لذلك يريدون ضمانا على أنهم، عند الانتهاء من دراستهم، يكون مجال العمل مفتوحا أمامهم، أو الوظيفة حاضرة ناضرة لاستقبالهم.

وعـلى ما فهمت ايضا، ان المسؤولين يعملون في هذا الاتجاه. لكن عملهم لا يزال قاصرا عن ارضاء الطلاب، بالوصول الى الغاية المنشودة.

ومما قيل لي، في صدد هذه المشكلة، ان هناك عناصر شغب معروفة تتحـرك من تلقـائها أو بدوافع خارجة عنها لاشاعة الاضطراب واثارة الفوضى في البلد. والعلم عند الله.

على كل حال، لا مجال هنا للدخول في جدل حول هذه القضية، ولا للنظر فيها وبحثها. نترك هذا لأصحاب الاختصاص.

انمـا أريد هنا أن أوجه النظر الى ان قلق الجيل الطالع وخوفه من المستقبل ظاهرة تعم العالم كله وان لبنان من أيام نوح يصدِّر ابناءه إلى العالم ويستورد من هب ودب من ابناء هذا العالم. وهو في أوج مجده بنى امبراطورية قرطاجة وجعل البحر الأبيض المتوسط حقلا لنشاطه. حتى ان «الهكسوس»، وهم فينيقيون كما يقال، حكموا مصر مدة من الزمن. ويجب أن لا ننسى كيف ان اللبنـانيـين كانوا في جميع الامبراطوريات الثـلاث التي توالت على العـالم، أعني الرومانية والعربية والعثمانية، عنصرا بشريا ممتازا، حتى في عقر دار هذه الامبراطوريات.

فمـطالبة الطلاب بضمان العمل لهم في المستقبل تتنافى مع التقليد اللبناني المستمد من طبيعة البلاد. والدليل هو انه مش من الصدفة ان اللبنانيين خارج لبنان ضعف الذين في داخله. فلبنان للبناني، في الأخير الآخر، مهد لا لحد. وقوة لبنان انه هذا المهد. ونصيب أبنائه ان الدنيا كلها وطن ثان لهم، يحمل من يشاء منهم صليبه فيها ويتبع طموحه.

ما هذه دعـوة الى الهجـرة، لكنها تذكير بالواقع. ولو ارادت الدولة

اللبنانية ان تعمل بالفعل ما يعزز لبنان قبل أي شيء آخر، لأخذت برأي سمعته مرة من سماحة الامام موسى الصدر، وهو ان تنشأ وزارة للهجرة اللبنانية تكون مهمتها الاساسية ان تدرس من يفيد البلاد اذا بقي فيها ومن يفيدها اذا رحل عنها، شرط ان يكون البقاء والرحيل لصالح الباقين والراحلين. فالهجرة، على هذا الأساس، تكون في الوقت نفسه صناعة بشرية للبنان، تعزز استقراره الداخلي وتدر عليه من أبنائه في الخارج موردا ماليا وعقليا وروحيا أي منه أي مورد آخر.

اما بشأن قلق الأجيال الطالعة في العالم وخوفها من المستقبل، فلعله يعود، في الأكثر، الى أن البشرية ما نعمت بفترة من السلم أطول من هذه الفترة، ولا باستحالة وقوع الحرب أكثر مما هي عليه الآن. وهكذا يجد العالم نفسه أمام تجربة جديدة: كيف يعيش في عالم بلا حرب كبرى تقضي على القديم وتخلق الجديد، وتمتص الطاقات البشرية وتضع الانسان أمام مسؤولية الحياة والموت؟

ومن سوء طالع الأجيال الصاعدة أنها تعاني وطأة هذه التجربة الجديدة. وهي لا تنتظر. ومن واجبنا أن نتحمل ضيق صدرها. فهي الجسر الذي تعبر عليه الحياة، وحذار ان ينكسر.

* * *

لا شيء أحب على قلب غسان تويني من الحديث عن المجلس النيابي خصوصا، وعن واجب الدولة ومسؤولية المواطن في المجتمع الحر والنظام البرلماني. ولا عجب، فهو في نشأته وتجربته ودراسته من القلائل الذين اعطوا هذا الموضوع اهتمامهم الجدي.

والألوف الذين تابعوا قراءة افتتاحياته في «النهار» عن المجلس النيابي الحالي يشهدون بعمق تكفيره، وسعة اطلاعه، وبعد رؤياه.

إلا أن المسألة، أي مسألة المجلس النيابي اللبناني من يوم وجوده، تبقى في حلقة مفرغة من القصور عن الممارسة الكافية، ما دام واقع الحياة السياسية، الذي يعكس طبيعة المجتمع اللبناني، على حاله.

هؤلاء الأربعون نائبا جديدا، ماذا يقدرون أن يعملوا؟ بل ماذا يقدر أن يعمل التسعة والتسعون لو كانوا كلهم جددا على أساس هذا الواقع؟

ان يكون النائب جديدا لا يكفي. بل الذي يكفي أن يكون جديدا على غير الأساس الذي أوصل العتاق الى المجلس.

فحقيقة الأمر هي أن الجهاز الانتخابي الحالي «يفبرك» نوابا كما يريد واقع الحياة السياسية ان يكونوا. لذلك تجدهم كلهم ـ حتى الجدد منهم، بل حتى «التقدميون» من أمثال نجاح واكيم وعلي الخليل وعبد المجيد الرافعي ـ أسرى هذا الواقع. ومن أراد منهم أن يتحرر من هذا الواقع يجد نفسه وحيدا شريدا ـ ولو كان واحدا من أربعين ـ لا يقدر أن يحل خيطا في المجلس أو خارجه، مهما بعط وتمرجل في بادىء الأمر، سواء عن جد واهتمام أو عن بهورة وتبرير وجود.

اذن، علينا تغيير الواقع السياسي.

لكن تغيير الواقع السياسي يتناول تغيير طبيعة المجتمع اللبناني.

وتغيير طبيعة المجتمع اللبناني لا يتم بما دعاه غسان تويني «الثورة الدستورية»، لأن هذه «الثورة» تفترض مرحلة تسبقها وتمهد لها الطريق، هي مرحلة ايصال اكثرية من النواب المؤمنين بهذه «الثورة» الى المجلس النيابي الذي هو وحده، بسلطته التشريعية، يحق له ان «يثور» على واقع الحياة السياسية بانتخاب السلطة التنفيذية التي تمثل تغيير هذا الواقع.

ومرحلة إيصال هذه الأكثرية يقتضي تغيير «الفبركة» الانتخابية الراهنة. فكيف ننتظر من فبركة قمصان ان تفبرك سيارات؟ وكيف ننتظر من أصحاب فبركة القمصان أن يبدأوا هذه الفبركة الرابحة لهم بفبركة سيارات غير مضمونة الربح؟

أريد من هذا الكلام ان أصل الى نتيجة. والنتيجة معروفة عند غسان تويني، العالم السياسي، قبل ان تكون معروفة عند غسان تويني، العالم السياسي، قبل ان تكون معروفة عند سواه. وهي شرط وجود الاحزاب السياسية المنظمة، ضمن القانون، وفق مبادىء وطنية تتخطى الانتماء الطائفي والعشائري والطبقي، نعم الطبقي، هدفها الوصول بها الى الحكم.

بغير ذلك يبقى الكلام كلاما، ولو كان لا ينقصه البلاغة، والجمال.

* * *

عندما يموت رجل عبقري، ولو في اطراف الدنيا، نحس كأننا فقدنا عزيزا غاليا رافقناه وعشنا معه طول حياته.

ففي الرجل العبقري ما يجعل البشرية كلها أهله، تفرح لفرحه وتحزن لحزنه. تعتز بانتصاراته وتأسف لانكساراته. حتى اذا مات، كان له في كل قلب مأتم.

أقول هذا لمناسبة موت بابلو بيكاسو.

فهذا الرسام الذي كان الملك غير المتوج للفن المعاصر، ترك الدنيا وهي، بفضله، غير ما جاءها. وهل من مجد أعظم من هذا المجد؟

والتاريخ كله من صنع أمثاله. وأمثاله لا يكونون، بالضرورة، فنانين أو شعراء أو أدباء أو سياسيين كبارا، بل كل انسان يعطى هبة الحياة ويزيد عليها شيئا، ولو ضئيلا من عقله وقلبه.

سيكتبون الكثير عن بابلو بيكاسو. لكن الشيء الذي لن يقدر ان يكتبه أحد، كتبه بابلو بيكاسو نفسه بحياته وفنه.

* * *

حدثني أحدهم، قال:

«كنت اميرا في تلك الأيام: لا أعرى، ولا أعطش، ولا أجوع. وكان الظل لباسي، والسراب شرابي، والأقوال المأثورة قوتي وغذائي.

لكني كنت شعرة في جسد السلطان. اقف حين يضحك، واقعد حين يغضب. ولطالما ضحك وغضب حتى ارهقني الوقوف والقعود. وعبثا دعوت الى الله ان ينقلني الى جسد آخر يريحني. كنت، على ما يظهر، في موضع من جسد السلطان لا ينفع فيه الدعاء.

لكني شكرت الله على كل حال. فأنا أمير لي ديوان أجلس فيه, صحيح كان الذباب يدخل فمي فأبصق، أو أذني فأكاد لا أسمع، أو انفي فأعطش. بل كثيرا ما تجرأ فتضاجع بين اجفاني وباض في تجاعيد لحيتي. غير ان الرؤوس كانت ترتفع اذا قعدت، وتنحني اذا وقفت. وكان قضائي بين الناس عادلا. أزينه بالقسطاس فلا يميل شرقا أو غربا. وكانت هدايا الناس لي لا تنقطع، أجملها عندي قصيدة في مديحي.

وكان النهار عندي كالليل، والسهل كالجبل، والأبيض كالأسود. بل

كان كل شيء ككل شيء. فأي نفع من التمييز بين الأشياء، اذا كانت كلها خليقة الله، سبحانه تعالى.

ما عدا الموت!

كنت أكره الموت وأحب الحياة، أحبها ولو تحت رحمة السلطان.

فان تكون الحياة تحت رحمة السلطان خير من أن لا تكون أبدا.

واذا كان السلطان تحت رحمة الله، وأنا تحت رحمة السلطان، وأهل امارتي كلهم تحت رحمتي، فأين الظلم، وكيف تجوز الشكوى؟

نعم، كنت أميرا في تلك الأيام، وما زلت أميرا حتى اليوم. وسأبقى اميرا الى أبد الآبدين، ما دمت استعيذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم».

الـورقة السابعـة

وأخيرا، هدر اليهود سيادتنا الوطنية على وطننا.

قالوا: «ما دام لبنان يؤوي الفلسطينيين المطالبين بوطنهم فلا حرمة له ولا كرامة»!

وبهذا المنطق، يقدر الفلسطينيون ان يقولوا لاميركا، مثلا «ما دمت تحتضنـين اليهود المغتصبين ارضنا، فلا حرمة لك عندنا، وعند الحق والحقيقة، ولا كرامة»!

وان يقـولوا: «وكمـا ينتهـك اليهود بالحديد والنار قدس أقداسنا، ويقتلون أبناءنا، ويروعون نساءنا وأطفالنا وشيوخنا، سواء في لبنان وفي غير لبنان، يحق لنا، نحن الفلسطينيين، ان ننتهك، بالحديد والنار أيضا، قدس أقداس اميركا، مثلا، ونقتل أبناءها، ونروع نساءها وأطفالها وشيوخها!».

أي شرعة الغاب، شكلا ومضمونا.

واليهود من أيام موسى، وهم يتبعون شرعة الغاب. فتكوا بالكنعانيين ومن ساكنهم في أرض فلسطين واغتصبوا هذه الأرض. وها هم يفتكون بأحفادهم ومن ساكنهم في ارض فلسطين ويغتصبونها من جديد، كأن التاريخ يعيد نفسه بالحرف الواحد.

لكن. ما لنا ولهذه القصة.

نحن الآن امـام عدوان اليهـود المتكرر على لبنان وتهديدهم في كل مناسبة، بهدر سيادته الوطنية على أرضه وتحت سمائه.

وعـلى أرض لبنـان اليوم آلاف الفلسطينيين المطرودين من ديارهم. وعليها ملجأ المناضلين الأخير، لا لشيء الا لأن لبنان، عبر التاريخ، كان ملجأ المناضلين والمنكوبين والمستسلمين والمهزومين أمام الطغاة والفاتحين.

هذه هي رسالته، وهي رسالة حق.

واليوم تجيء اسرائيل المستحدثة بقوات منظورة وغير منظورة، وتقول: «لا. لا رسالة حق لأحد غير رسالتي!»

لكن لبنان لن يخضع، كما الصليب لن يخضع، كما لن يخضع الحق

والحرية.

والمحبة ايضا.

وفي هذا الشرق، من غير لبنان مرفوعا على صليب المحبة؟

وللطغيان اليهودي المسلح بحديد الباطل وناره ان يقول: «ما للبنان وللفلسطينيين. اتركوهم نترككم!».

وفاتهم أن بين لبنان وأورشليم أكثر من وحدة شعب، وصلة رحم وقربى.

بين لبنان وأورشليم، كما بين المسيح وأورشليم، شهادة وموت وقيامة.

واذا ما تأخر الخلاص هنا على الأرض، فهو مكتوب هناك في السماء.

* * *

قال مفكر فرنسي من مئة سنة: «ان كل مناقشة لا غضب فيها، لا خير فيها!».

ونحن الشعراء نعرف هذا أكثر من سوانا. فالشعر الذي يستهدف خربطة نظام الأشياء، كيف تريده ان يخربط بلا غضب؟

والغضب هنا لا يعني الصريخ والشتم والهوبرة، بل يعني الجيشان العميق كما في صدر تيار، أو في قلب بركان.

فكل من يتكلم، أو يعمل، كنسمة الهواء التي تمر بأوراق الورد ولا تخدشها، هو كلام أو عمل يجيء ويروح ولا ينتبه اليه أحد. لأنه جاء وراح من دون أن يغير شيئا.

جميل؟ نعم. لكن من يهتم حتى بالجمال، اذا كان لا يوقف في الرأس شعرة، ولا يحرك في الأعماق ساكنا، ولا يزيد، على خفقان القلب خفقة؟

الجمال ـ وللتعميم نقول كل ما له قيمة في الوجود ـ هو الذي يباغتك، فتنبهر وتقف امامه ناسيا ما مضى، ملتفتا الى ما يجيء.

وفي هذا ولادتك الجديدة.

فكل قيمة هي تلك التي تقلعك من الماضي وتزرعك في المستقبل. وهي حين تفعل هذا، تفعله في غضب. وكلما اشتد هذا الغضب، ترك في الناس والأشياء أثر التغيير والتجدد.

فالى الغضب، يا اخوتي، الى الغضب!

حين لا تكون من الضاحكين أو من الباكين، فهذا هو الموت بعينه.
وخطر العصر الذي نحن فيه ان يسلب منا القدرة على الضحك وعلى البكاء معا.

أتعرف ما يعني الضحك والبكاء للانسان؟

يعني انه انسان. تصور انك لا تضحك ولا تبكي. هل يمكنك ان تتصور؟

انظر الى جسد ميت. هذا وحده لا يضحك ولا يبكي.

تراه يبتسم، نعم. تراه يعبس، نعم. لكنه ابتسام الزهرة الاصطناعية، او عبوس الحيوان الجائع.

ومن زمان قال نبيل خوري في مقالة لن انساها. قال: «الناس في هذه البلاد أموات. ادخل سهراتهم، فأرى الكآبة في الاعماق، والمرح عائما على الوجوه. ماذا؟ هل فقدنا نعمة الفرح؟»

آه، يا نعمة الفرح: الفرح العميق، المؤمن، المحب، الوحدة الذي يبدع ويحيي!

وقد يكون في فقدان هذا، دون سواه، اننا في عصر انحطاط وانحلال.

الورقة الثامنة

تعـاني المكتبـة في عالم اليـوم من هزال في المؤلفات التي تستهوي قراءتها كهول الادب وشيوخه. فاذا أرادوا الاستفادة رجعوا الى الروائع المئة أو المئتين في خزانة التراث الانساني. واذا أرادوا التسلية والاطلاع عمـدوا الى بعض ما تـخرجه مطابع اليوم. على أن فيهم من يكتفي من القراءة بالصحف السائدة، وهذا أضعف الايمان.

صحيح ان القراءة دليل على التيقظ والمتابعة، غير انها فيما يخص هؤلاء دليـل عنـدهم على الشبـع والاكتفـاء. فالجائع يأكل بنهم، أما الشبعـان فينتقي ويختار، ويأخذ من كل شيء بطرف. ويزيد في شبعه واكتفائه ما ذكرناه من هزال في ما تقدمه المكتبة من ألوان الطعام.

وما يسري على القراءة يسري كذلك على الكتابة. فالناشئون يكثرون من الكلام ويطيلون في إفراز مشاعرهم وآرائهم، تاركين للزمن ـ عن غير وعي منهم ـ أمر غربلتها، وعن وعي منهم أمر تخليدها. فهم لا يرون في من سبقهم الا التخلف، وفي من يجايلهم الا الريادة. وهم يعيبون عليك التقتير في الكلام والاقلال منه، وينعتونك بالشح والجفاف. فلو كانوا من الناضجين لفهموا ان الثمر في أواخره أحلى منه في أوائله، وأن الجدول الرقراق أصفى من السيل العارم.

* * *

منذ أن كتب نعيمة سيرة جبران في ١٩٣٤ وهو متهم بالتحامل عليه والغيرة منه. ويكاد الناس يجمعون على هذا الاتهام، بل ذهب بعضهم الى الثأر لجبران برد الكيل كيلين.

وكان كلما أمعن أنصار جبران في الغضب حتى الشتيمة تشبث نعيمة بموقفه حتى التحدي.

ومع الاقرار بأن الله أعلم بالسرائر، فما يهمنا من الأمر هو أن نشير الى ما نتوارثه من الميل الى الفصل بين الفكرة وتجسيدها، وبين القول والفعل. واذا كان الأمر يتعلق بميت، فمن العار ذكر نقائصه في الكلام عليه أو التأريخ له. فللأموات حرمة، وما فات فات، والدينونة لله.

ويزيد في تمسكنا بهذا التقليد ان يكون الميت رجلا في مكانة جبران: كيف يجوز لأحد ان يذكر نقائصه، صحيحة كانت ام ملفقة؟ يكفينا دراسة أدبه، ولا شأن لنا بشخصه. فأدبه للناس، وشخصه لله. واذا تناولنا شخصه، فليكن جانبه المضيء لا جانبه المظلم.

وبخلاف هذا التقليد «الشرقي» اذا شئت، ما نعرفه عن الغرب من امتناع عن تجزئة الانسان. فهو وحدة متكاملة في القول والفعل، وفي الفكر والسلوك. ومن أقوال جبران نفسه: «قل لي بماذا تفكر. أقل لك من أنت!» واذا كان الأمر يتعلق بالأديب، حيا كان ام ميتا، فأدبه مرآة ذاته المتكاملة. فكيف لا يجوز لدارس أدبه ان يتجنب الغوص في هذه الذات المتكاملة؟ والا فكيف يفهم ادبه ويتلمس الطريق الى نقده وتقييمه؟

والآن، فلماذا لا يكون ان ميخائيل نعيمة، وهو «المتغرب» بمنحى تفكيره ـ كما يتجلى في حياته وأدبه ـ تناول جبران ذاتا متكاملة، فكتب ما عرفه من سيرته في ضوء الفكرة وتجسيدها، غير حاسب لحرمة الاموات حسابها؟ واذا كان جبران جبرانين: واحد عرفناه في أدبه، وآخر عرفه إخوانه في حياته، فهل من الامانة للتاريخ ان لا نتحدث عن الجبرانين توصلا الى معرفة الرجل وفهمه؟

على اننا لا نزال نتلهى بالقشور عن اللباب. فمنذ أن صدرت تلك السيرة، لنصف قرن مضى، ونحن نحصر براعتنا النقدية في ما حسبناه «فضيحة أدبية شخصية» يلذ لاقلام الثرثرة والنميمة ان تلوكها. وكم كان احرى بنا ان نظهر «براعتنا» النقدية في تبيان ما لتلك السيرة وما عليها كأثر أديب جليل الشأن، من حيث موضوعه وكاتب هذا الموضوع.

الـورقة التـاسعة

للشعوب كلها قضاياها الكبرى أو الصغرى.
ولنا نحن قضايانا.
وفيما تستوعب الشعوب العظيمة قضاياها وتحتويها، نغرق نحن في قضايانا، فلا نتنفس الا بها ولها.
واذا كانت قضيتنا «كبرى»، نهشتنا نهشا بأنيابها. نهشتنا ثقافيا، ونهشتنا اقتصاديا، ونهشتنا لحما ودما. وبعبارة اخرى: نهشتنا إنسانيا.
فمن يقدر ان يدعي ان «القضية»، في كل ما يعمله، غير جاثمة على عقله وقلبه؟ حتى لكأن «القضية» جاءت لتفرغنا مما عداها. فاذا ما فرغنا الا منها استحال علينا حلها والخلاص منها. لا بل أصبحت العلة التي لا تذهب الا بذهاب صاحبها.
صحيح ان قضايانا، وخصوصا «قضيتنا الكبرى»، مستعصية الى حد بعيد ومصيرية الى حد أبعد. ولكن الصحيح أيضا أننا لا نقيم الدليل على اننا فوق «القضية» لا تحتها. فكل ما فعلناه الى الآن يظهر اننا نحن قضية «القضية»، وأننا نحن الذين بحاجة الى «حل» لا «القضية» ذاتها. وهكذا نساهم نحن، ربما أكثر من أعداء «القضية» في خسرانها.
ولعل هذه هي «المؤامرة»: ان يجعل منا العدو علة وجود «القضية» وسبب استمـرارهـا، فتصبح إزالتها رهنا بازالتنا. والدليل شعارنا في المرحلة الراهنة: «لا فلسطين، إذن لا قضية!»

* * *

صرنـا في ديار اللغة العربية من التمزق، بحيث لا نعرف لمن نكتب وماذا نكتب وكيف نكتب.
كان العـرب عربـين، فصـاروا أكثر تداخلت القبلية بالايديولوجية بالجهالة، بالضياع والانفصام والتجزئة، حتى أصبح البقاء أقل كرامة، من الزوال. نحن في ما يسمى الوطن العربي، بمحتواه الانساني، صورة معلقة على جدار. تراها هناك ولا تراها تتأملها، فتضحكك او تبكيك.

والبكـاء أسلم عاقبـة وأدعى الى الأمان. العرب اليوم من المادة في الأوج، ومن الروح على شفير الهاوية. لا ينفع لهم غير النعمة تهبط من فوق. كان هذا في القديم، فلماذا لا يكون اليوم؟ الا اذا كان الحاضر زمن التخلي.

ولعله زمن التخلي. فهل من ظلمة أشد ما نحن فيه؟ فكيف لا يبزغ فجر النبوءة؟

العلم دخيل على تراثنا السامي. فهل يجدي اللحاق بأهل العلم؟

المعجـزات وحـدهـا خبـزنـا وخمـرنا. بالمعجزات نقوم. وفي انتظار المعجزات نقعد عاجزين.

المـاضي لنـا والحاضر غير موجود، والغد لله. والله يسخر منا قليلا ويرحمنا كثيرا. وفي كل رحمة يغدقها علينا، يعدنا برحمة أعم، فما من نبي جاءنا الا وبشرنا بنبي يجيء، كأنها السلسلة لا تنغلق على نفسها، لئلا تقوم القيامة.

ما أتعس الفـراغ: الكـلام لا نفع منه، والفعل لا يفيد، ولا خير في السكوت والجمود. ان نحن أفلتنا من يد السلطان، تلقفتنا أكف الرعاع.

فيا أيها الكتاب الى أين؟

تشهـرون أقـلامكم فتنكسر، تغمسـونهـا بالحبر فتنشف، بالدمع فتجف، بالدم فتذهب جفاء في الأرض.

سنكتب ونكتب ونكتب. هكذا تقولون ونعم القول. فالكلمة كانت في البدء، فلماذا لا تكون أيضا في المنتهى.

الـورقة العـاشرة

نحن في دوامة الارهاب.
كانوا يخطفون الرهائن في طائرة، فأخذوا يخطفونهم في عرض الشارع.
فالارهاب، اذن، في تقدم.
غدا يخطفون الناس من مكاتبهم، وبعد غد من بيوتهم، بل من احضان نسائهم.
فيا أبرياء العالم. ويا أثرياءه. تنبهوا.
وفي عالم خائف حائر، يتوالد الارهاب ويتكاثر كالبعوض، ويزحف على جسد البشرية.
وكيف لا يخاف العالم ويحار؟ أيخضع لمشيئة الارهاب فيشجعه، ام يعصاه فيعرض حياة الابرياء للهلاك؟
والآن، ماذا يريد الارهابيون من الارهاب؟
هم يريدون. كما يقول بعضهم، تقويض النظام العالمي القائم على الظلم بنشر الفزع والذعر في قلوب اصحابه، أو هم على الأقل، يعتبرون الارهاب «هزة كهربائية» تعيد العالم الى صوابه، فعودته الى صوابه تنقذه من الفناء، فيشيع العدالة بين الناس.
والى ان يتم ذلك، لا سبيل الى الخلاص من الارهاب. فزوال العلة لا يكون الا بزوال اسبابها.
على ان الغاية. مهما تكن حميدة، لا تبررها الواسطة الجانية. وكما ان الشوك لا يثمر عنبا، فكذلك الشر لا يحبل ولا يلد الا الشر.

* * *

التفتيش، بحد ذاته، خير وبركة.
والعقل العربي بدأ يفتش منذ مئتي سنة، فماذا وجد؟
وجد فكرة الرجوع الى الفصاحة، فأعاد سيرة اللغويين والمنشئين الاوائل، فكان لنا في القرن الماضي أمثال سيبويه وابن المقفع وابن عبد ربه والجاحظ والحريري وصفي الدين الحلي.

ووجد فكرة العلم (نظرية داروين مثلا) والاشتراكية (كما عند سان سيمـون وامثاله والحركة الفابية بانكلترة) فدعا اليها كطريق للنهوض والتقدم، فكرة اخرى هي الرجوع الى التوفيق بين العقل والنقل، ولكن بصيغة معاصرة طرحت السؤال الآتي: هل الاسلام علة تأخر المسلمين والمسيحية علة تقدم الاوروبيين؟ وبتعبير آخر: هل للدين هنا وللدين هناك صلة بالقعـود او النهوض؟ فكان الجواب السائد: كلا. أما المترددون والمعتدلون في الجواب، فذهب كلامهم وبقي صداه.

ثم وجـد العقـل العربي فكرة القومية في مطلع هذا القرن: القومية العلمانية عند البعض والمبطنة عند البعض الآخر، فنادى بها في الحالتين كمنقذ من ظلم العثمانيين وظلامهم، وكمطلب للسير الى الامام في طريق اللحاق بالعصر.

وفيما الحركات القومية تنشأ هنا وتموت هناك، وتخلق تيارا مخالفا لتيار آخر، كان كتاب «الادب الجاهلي» لطه حسين يحترق في مصر، وكانت افكاره الثقافية والتربوية الرامية الى ترسيخ الانسان المصري في حضارة البحر المتوسط تنكمش وتتقلص بزوال العهد البائد وبزوغ فجر الثورة.

ولكن الثورة التي سطعت بنورها على امتداد الوطن العربي الكبير، عجزت عن ان تغني العقل العربي عن التفتيش، فظل يفتش، وخصوصا بعـد هزيمة حزيران، حتى اهتدى في آخر المطاف الى الماركسية بزيها الاشتراكي القومي الوحدوي، حتى لا نذكر صفات أخرى.

فنحن الآن، اذن في عهـد الماركسية. هي الترياق الذي يجيئنا من العراق حينا، ومن هنا وهناك حينا آخر. ومن يطالع ابحاث هذه الايام، يجدها قائمة على الجدلية الماركسية التي تفسر كل شيء، حتى الشعر والفن، في ضوء الصراع الطبقي في مجتمع ما من المجتمعات. فالعوامل الاقتصادية وتحركها وتنقلها من ايد الى اخرى في الطبقة الواحدة او في طبقات المجتمع الواحد هي التي تقرر مصير الانسان نحو السعادة أو الشقـاء، والسعـادة المـاركسية هي، في آخر الأمر، دكتاتورية وسائل الانتاج او اصحاب هذه الوسائل، أي العمال.

فأهــلا ومرحبا بالعمال، فمن لا يحب العمال ويريد من كل قلبه ان ينصفهم؟ واذا انصفتهم الاشتـراكيـة او المـاركسيـة فأهـلا ومرحبا بالاشتراكية او الماركسية.

والخلاف، هو هنا، الخلاف على الانسان. هكذا كان الماضي. وهكذا سيبقى الى الابد.

الانسان: شخصه وروحه وقلبه. حريته في الاختيار. حريته في الحياة او الموت. حريته في الجنون والرفض. حريته وكفى.

هذا الانسان، هل هو سعيد في ما عرفنا حتى اليوم، عمليا، في الماركسية؟

التفتيش، بحد ذاته، خير وبركة.

والعقل العربي الذي يريد الخير والبركة سيظل يفتش.

الورقة الحادية عشرة

يا للعجب!

كيف تطورت قضية فلسطين المقدسة، قضية كل العرب، الى «رقصة دراويش»!

فمن كثرة تكرار كلمة «فلسطين» داخ العرب، أو كادوا يدوخون، فسقطوا، أو كادوا يسقطون، في عقر دار اسرائيل.

وهناك، في ما جرى لقضيتنا المقدسة، مثل القطة والفأرة. تداعب القطة الفأرة، مرة بلين ومرة بحزم، الى ان تكل وتتعب وتستسلم.

والقطة هنا اسرائيل، والفأرة العرب.

فيا ايها العرب:

للناس ان يشمتوا. ولكم ان تصمتوا قليلا وتتأملوا عميقا.

وحين تتكلمون تكلموا الكلام الآتي:

اولا: لليهود توراتهم، وهم من اهل الكتاب، وهي مترجمة الى جميع اللغات ومنها العربية، فهل قرأتموها ووعيتم ما جاء فيها؟

فهي تعكس الحقائق الآتية:

اولها ان اليهود شعب وعدهم الله بأرض كنعان، وبرّ بوعده حين اخرجهم من ارض مصر وطرد امامهم اهل ارض كنعان وجعلهم له شعبا وجعلوه لهم إلهاً، يعبدونه دون سواه من آلهة الأرض.

والحقيقة الثانية هي ان جهادهم، وخصوصا منذ مئة سنة، للعودة الى ارض آبائهم واجدادهم فلسطين، لا دافع له سوى رغبتهم في مثل هذه العودة. وما التفسير الماركسي لكل واقع تاريخي انه اقتصادي محض، سوى تحريف وتشويه وبتر للدوافع الروحية والفكرية التي تلعب دورها على مسرح التاريخ.

والحقيقة الثالثة هي ان عودة اليهود الى ارض اسرائيل هي عودة المطرود من أرضه لاستعادتها واستئناف تاريخه فيها. فهي ارضه بوعد إلهي لا صلة له بالاقتصاد والامبريالية، وإن كان اليوم وقبل اليوم يسخرهما ويفيد منهما لتحقيق مطامحه.

والحقيقة الرابعة هي ان اليهود لا يشاركون أحدا في أرضهم ولا

يعاهدونهم ولا يأمنون منهم ولا يزاوجونهم ولا يخالطونهم في شيء، مخافة أن يفسدوهم، فيعبدوا آلهة أخرى غير إلههم. وإذن، فما نسميه العنصرية في أجلى بيانها هي جزء لا يتجزأ من مفهومهم لوجودهم ولمصيرهم في الوجود.

والحقيقة الرابعة هي ان التفريق بين اليهود كشعب وبين الحركة الصهيونية خلط ووهم. فالصهيونية حركة يهودية لا يتخلى عنها اليهود كشعب. فهي سلاحهم وطريقهم الى فلسطين. وهي نابعة من أعماق تاريخهم وتراثهم وتلبية لنداء الواجب نحو حقيقتهم التي تعذر عليها، تحت كل الظروف، ان تندمج وتذوب في أية حقيقة اخرى، تبقي اليهود يهودا في جميع مواطن شتاتهم، يربون اطفالهم على ان الله ميزهم وافردهم وجعلهم فوق الأمم لخلاص الأمم.

والحقيقة الخامسة هي ان القول بامكان تعايش يهودي - لا يهودي في فلسطين وهم، يسخر منه اليهود وان انطلى على غير اليهود، وما كان اليهود بحاجة الى تخريب التعايش الطائفي في لبنان لاظهار هذا الوهم. فهم في فلسطين المحتلة يظهرونه كل يوم، بما يقولون عن غير اليهود هناك وبما يفعلون.

ثانيا: للتاريخ منطق لا يكذب، واذا كان لا يعيد نفسه، فهو على الاقل يعيدها بما فيه الكفاية. وهذا ما أعرب عنه مناحيم بيغن في رده على تهويل السادات بالقدوم الى اسرائيل نفسها حاملا غصن الزيتون، فقال ان مصر واسرائيل كانتا دائما على وفاق. وهو يعني في الأيام الخوالي. وهذا صحيح، فما وقع صدام بين البلدين بعد خروج اليهود من مصر على أيام الفراعنة وموسى الكليم، بل كان السلام وحسن الجوار يرفرفان كجناحي حمامة بيضاء بلون سماء فلسطين وزرقاء بلون نهر النيل.

ولا نحسب الا ان منطق التاريخ هذا واعادته نفسه بهذا القدر هو الذي رفع مناحيم بيغن الى السلطة في اسرائيل، وأدى الى فوز انور السادات بخلافة عبد الناصر. فبعد ان فشل اسلافهما في العمل بمنطق التاريخ عن طريق القوة، عمدا هما الى بلوغ النجاح عن طريق السلم. ومنطق التاريخ هذا يقضي بأن على مصر ان تحمي ظهرها في سيناء، اما باخضاع الهلال الخصيب، وهذا ما حاوله عبد الناصر وعجز عنه، واما بمسالمة القوة أو القوى البارزة فيه، وهذا ما يحاوله السادات ويراهن

على النجاح فيه، ولو اضطر اليه منفردا اذا اقتضى الأمر. كمن يقنع من السلامة بالاياب.

ثالثا: على العرب ان يفهموا ان عبد الناصر كان، وفق منطق التاريخ، اي وفق المصلحة المصرية التاريخية العليا، على حق في سياسته الرامية الى السيطرة على الهلال الخصيب (أي الشمال على حد تعبير مناحيم بيغن) عن طريق العنف، وان انور السادات على حق أيضا في سياسته المعترفة بالعجز عن تحقيق تلك السيطرة بالعنف، بعد ان فشل العنف، فأفقد مصر بعضا من أرضها وقوام وجود شعبها.

فللأمم طريقان لبلوغ أهدافها: إما العنف حيث لا ينفع الا العنف. ،
فأفقد مصر بعضا من أرضها وقوام وجود شعبها.

فللأمم طريقان لبلوغ أهدافها: إما العنف حيث لا ينفع الا العنف، وإما الحسنى حيث لا ينفع الا الحسنى.

ولبلوغ الهدف طريقان: إما الانطلاق كالسهم، واما السير على مراحل. وكلاهما يحتاجان الى الحيلة والدهاء في معالجة الواقع. والى العزم والرجاء في النصر ولو طال.

وإذن، فلا نلوم احدا غير منطق التاريخ وجهلنا له على الوصول بقضية فلسطين المقدسة الى ما يشبه «رقصة الدراويش».

ولنا اليوم أمل في ان لا يدوخ في «الرقصة» غير الراقصين والناقرين على الدف. فهم، حسب منطق التاريخ، مسيّرون لا مخيّرون. أما المخيرون، فهم الذين خارج «الرقصة»، أي انا وانت وهو.

* * *

نسمع بالقمم ولا نرى القاعدة، فأين الشعب أيها العرب؟

الصحف للقمم، ومجالس الشعب للقمم، والأحزاب السياسية للقمم، بل كلما اجتمع اثنان باسم القاعدة تكون القمم في وسطهما، فكيف نسمع صوت القاعدة وكيف نعرف رأيها؟

عندما ذهب السادات الى اسرائيل قال إنه سيجتمع ويتباحث مع «القمة» الاسرائيلية، ولكنه أصر قبل كل شيء ان يخاطب «القاعدة» الاسرائيلية من على منبر مجلس ممثليها وان يتحدث الى ممثلي جميع

الأحزاب في هذا المجلس. وهذا دليل ساطع على ان «القمة وحدها لا تمثل الشعب ولا تقدر ان تبت مصيره، بل الذي يمثل الشعب هو برلمانه الذي يضم جميع ممثليه على اختلاف آرائهم ونزعاتهم.

فهل سمعنا بـ «قمة» زارت «قمة أخرى» في دنيا العرب، فخطبت في مجلس ممثـلي «القـاعدة» وتحدثت الى احزابها الموالية والمعارضة على السواء؟ بل هل هناك مجلس يمثل «القاعدة» بالفعل، ومعارضته تجلس في هذا المجلس بدل ان تجلس في بيتها أو في السجن أو في المنفى؟

ونحن الذين نكتب «أدبا» ونخط أفكارا على ورق، أو على الهواء لا فرق، نريـد ان نكتب ادبـا حقيقيا ونخط أفكارا واقعية، لا وهمية ولا خيالية، فكيف يتاح لنا ذلك اذا كنا لا نستوحي هذا الأدب وتلك الأفكار من الشعب؟ من حقيقة شعوره ونبضات قلبه؟ من إرادته الحرة وعقله الواعي؟

فماذا يشعر الشعب أيتها «القمم» وما هي إرادته الحرة؟ والى متى يبقى في كل زاوية عين ترصد، وفي كل مقهى ومنتدى اذن تتسمع، وفي كل مسكن ومأوى لسان يشي وينطق بالنميمة؟ والى متى يبقى الوطن حبسا ومنفى؟

* * *

لا يكفي ان يبلغ العرب الحضيض، بل يجب ان يعوا وعياً تاما وقاطعا أنهم في الحضيض. فبغير مثل هذا الوعي يبقون هناك ولا ينهضون. ففي آخر الأمر، لا عار في الضلال، بقدر ما هو في اعتبار الضلال هدى.

فلعلّ دور المفكرين اليوم «تعميق» الوعي ببلوغ الحضيض، تعميقه بجميع الوسائل، مع ابقاء روح الأمل عزيزة في النفوس، لا على اساس ان «بعد العسرِ يسر» أو «اشتدي ازمة تنفرجي» أو «لا تكرهوا شيئا فلعله خير لكم» أو «الصبر مفتاح الفرج»، وإنما على أساس ان «الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». فالتغيير الحقيقي لا يكون بتغيير الأنظمة والقوانين، ولا بتكديس المال والعتاد والسلاح، ولا بحشد الجيوش وحملها على الخضـوع والطاعـة، ولا بلقـاء «القمم» وافتراقها، ولا بالشعارات الفـارغـة من المحتوى، ولا بتقديس اية قضية او أي شيء صنعته يد

الانسان... نعم، لا يكون التغيير الحقيقي بمثل هذا كله، بل يكون، قبل هذا كله، «بتغيير ما بأنفسنا»، كما جاء في الحديث الشريف، أو «بتجديد أذهاننا» على حد تعبير القديس بولس.

وكيف نغير ما بأنفسنا أو نجدد أذهاننا الا بدفن «الانسان القديم» الذي فينا ليولد «الانسان الجديد»؟

أما هكذا نهض العربي الجاهلي حين أسلم فدفن «انسانه الجاهلي القديم»؟ أما هكذا أيضا نهض المسيحي الى حياة جديدة حين دفن «انسانه العبراني القديم»؟

الولادة الجديدة. هذا ما يجب على العرب اليوم ان يعملوا له، لا بالحرب ولا بالسلم، فهذا ظرف عابر، بل بخلع القديم الذي مات، ولبس الجديد الذي لا بد عنئذ ان يولد.

نحن نعرف «القديم» الذي خلعه العربي الجاهلي، كما نعرف «الجديد» الذي لبسه، فما هو «القديم» الذي يجب عليه ان يخلعه اليوم، وما هو «الجديد» الذي يجب عليه ان يلبسه؟

هذا هو السؤال الذي حان له ان يطرح اليوم، بالعمق الذي طرح به من قبل، في بدء الدعوة الاسلامية. فكان لنا ذلك العربي الجديد الذي نشر دينا جديدا وأسس ثقافة جديدة. واما الآن، فذلك العربي الجديد صار مع الأيام قديما. فكيف يتجدد فيتجدد معه الدين الذي نشره والثقافة التي أسسها؟

واجه العربي، والمسلم عموما، هذه المشكلة بعدما أضاء النور في اوروبا وغرق هو في الظلام. ولو ان مفكريه واجهوها بالعمق الذي واجهها به مفكروه بعد «الجاهلية»، لما وصلت به الحال الى ما وصلت اليه اليوم. واذا كان بعضهم واجهها ببعض العمق، فالظلام كان من الكثافة بحيث أخمد كل وميض.

وكانت المشكلة تثيرها نهضة أقوام من غير ثقافته العربية والاسلامية لا مطمع لها أكثر من السيطرة عليه واستغلال موارده البشرية والطبيعية، ولكن المشكلة اليوم تثيرها دعوى قوم بحقهم التاريخي في أرضه وعلى ترابه. فاذا كان البقاء والديمومة، حتى لا نقول النصر، لا يتسنى بالحرب، فلا أقل من ان يتسنى بالسلم. واذا كان للحرب شروط، فللسلم شروطه الأقسى. ورأس هذه الشروط ان «يغير العربي ما بنفسه» وان

«يجدد ذهنه»، أي ان يولد ولادة جديدة في هذا العصر وينشأ وينمو قويا في العصور الآتية.

هذا هو المصير الذي نحن على مفترقه اليوم.

الـورقة الثانية عشـرة

مضى زمن كنت أحاول فيه، كل مطلع سنة، ان أبدأ بكتابة يومياتي. فما أن تمر بضعة أيام حتى تفشل المحاولة. فالى جانب الكسل والاهمال ومخافة الوقوع في «الرتابة»، كان هناك النسيان أو الرغبة في النسيان.

ولا أعلم الآن لماذا تعـاودني الفكرة وانا على أبواب عام جديد. فلا أحسب اني اليوم أقل اهمالا أو كسلا مني يوم حاولت ففشلت. أيكون اني في هذا العمر المشتعل بثمار السنين صرت أكثر حرصا على أن لا تسقط ثمرة الا على ورق فتتلقفها العيون؟ أم يكون اني أشعر أن الأيام تمر على عجل، فيحلو لي ان استوقفها ولو على القلم؟ أم يكون اني واهم، فلا فكرة تعاودني ولا رغبة لي في شيء من هذا كله. ودليلي على ذلك اني، وإن كنت آخذ نفسي بجد، فلا اظن ان أحدا يأخذ نفسه بجد، هو الآخر، يرغب في ان يقـرأ جريـدة حياتي اليومية. أما ان يرغب في ان يقرأ لي قصيدة أو مقالا، فأمر آخر. ذلك اني لا أصنع التاريخ، بل أعيشه. أو هكذا أرجو.

ومـا دمنا في سياق الكلام على العام الجديد، فلا يكون خروجا عن الموضوع قولنا فيه إنه يبشر بشيء وينذر بأشياء. فهو يبشرنا بالسلام وينذرنا بما وقوعه لا يبقي للسلام طعما ولا رائحة. فأي سلام هو السلام الذي يخمد نار الحرب ويوقد نار الضغينة والحقد؟ وأين السلام في ما يفرق لا في ما يوحد؟ بل أين السلام في ان يكون المسالم مقهورا خائبا ذليلا؟

أنرتع في السلام وهنا حاكم يحكم قليلا، وشعب يبحث عن كيانه وسط الانقاض؟ أنرتع في السلام وهناك حاكم يحكم كثيرا، وشعب يبحث عن كرامته وحريته تحت الأقدام وخلف القضبان؟ أنرتع في السلام وهنالك حاكم غريب على شعب بعضه في ارضه، وبعضه الآخر شريد ومصدر قلق في ارض الآخرين؟

واذا أخـذنا العالم من أقصاه الى أقصاه، فهل نجد السلام الذي يسود معظم ربوعه سلاما يطمئن الانسان فيه الى يومه وغده؟ هل نجده سلاما بين الانسان وبين نفسه، قبل ان يكون سلاما بين الانسان وأخيه

الانسان؟

فلو كانت الحال كذلك، هل كانت رسالة البابا بولس السادس، لهذا العام الجديد، تحصر اهتمامها بالعنف «الذي ينتشر في انحاء العالم كله، حتى اصبح جزءا من الحياة اليومية؟» فتقرأ فيها كلاما على «الارهاب بغير شفقة»، وعلى «أشكال الاضطهاد المحزنة» ونداء يخرج من الأعماق: «كونوا بشرا لا ذئابا!».

وفي مطلع كل عام جديد نضرع في قلوبنا ان يكون خيرا من العام الذي فات. ولكن ماذا تنفع ضراعة الاشرار؟ فالعوسج لا يثمر تينا، ولا العليق عنبا، أم هل تحمل الشجرة الفاسدة ثمرا صالحا؟

وفي هذا العصر، كما في جميع العصور، يجيئنا انبياء بلباس الحكماء والعلماء، فيرث الحكام حكمتهم وعلمهم ويحولونها الى «ثورات» اصلاحية و«انظمة» انقاذية تزيد في افساد الانسان بدل اصلاحه، وفي تعريضه للخطر بدل انقاذه. وما ذلك الا لأنها تعتبر الانسان جسدا كله، لا روحا في جسد هو مسكنه الزائل في الدنيا. فتهتم، قبل كل شيء، بهذا الجسد، وهي من شدة اهتمامها به تسمنه وتعده للذبح.

أقول هذا ولا أستثني نظاما في الشرق أو في الغرب. فالوسائل، وان تفاوتت في الخير، فهي متساوية في الشر. والضحية الأولى والأخيرة هو هذا الانسان المعاصر الذي على وشك أن يفقد انسانيته، أن يصبح «ذئبا لا بشرا».

فأين الخلاص؟

ومع احترامنا الكامل للوعظ والارشاد، وللأديان السماوية جميعا، نبقى على اعتقادنا ان الخلاص مسيرة طويلة شاقة ترافقها التجربة ويرعاها الرجاء.

وكل عام وأنتم بخير، لعلنا ننشد مع الشاعر أرغون:

تنقضي أيام الفصح الثلاثة
ويقبل عيد رأس السنة
ويعزف الارغن للجياد أغنية الترويض
أعياد فصح ثلاثة مضت.
يقبل رأس السنة مئتزرا
مثل حقل مزروع بنفسجا جديدا

وتخضوضر الورقة في الغابة العارية
ويقبل عيد رأس السنة.
يا فصول بلادي
أيتها الفصول المتبذلة
ما همني لو لم أعد ذاتي
أنا الذي يكتب على الجدران اسم ما أحب.
يا فصول بلادي
يا أجمل الفصول.

* * *

احترنا نحن الأدباء. واحتارت الدنيا بنا.

نكتب في الأحداث الجارية، وأهمها سياسية، فيقال لنا: «ما لكم وللسياسة: دعوها لأربابها، واكتبوا انتم في الأدب».

فنكتب في الأدب. فيقال لنا: «ما بالكم تكتبون في الأدب متجاهلين الأحداث المصيرية الجارية؟ هل أنتم في المريخ؟ أين «الالتزام» و«الواقعية» في ما تكتبون؟»

وهكذا احترنا، واحتارت الدنيا بنا.

ورأس السبب في هذه الحيرة أن العقل العربي لا يزال يفصل، على الطريقة السلفية التقليدية، بين الأنواع: أنواع المعرفة. مثلا، وأنواع هذا وذاك من الناس والأشياء. في حين ان العقل الحديث تجاوز الفصل والتجزئة الى الضم والتوحيد. ومع الاعتراف بما يسمى «الاختصاص»، نادى العقل الحديث بشمول المعرفة وتداخل الكائنات، بعضها ببعض. حتى اننا نشهد، على سبيل المثال، رغبة في تجاوز «الاختصاص» عند الذكر والانثى في كل شيء. وهذا تطرف غير محمود في نظرنا، ولكنه دليل صارخ على ما نذهب اليه.

فمن يرقب تجليات العقل العربي اليوم يجد أن هذا العقل يجنح الى «التصنيف» الذي هو وجه آخر للفصل والتجزئة. وهو إنما يجنح الى التصنيف توخيا للسهولة. فما أسهل من أن يقال للبحر: أنت بحر، أو للجبل: أنت جبل. ولكن الجهد في أن ينعت البحر أو الجبل بما يميزه عن

سائر الكائنات. و«التمييز» غير الفصل أو التصنيف، وهو نظرة في العمق نفاها عن العرب المثل القائل: «كله عند العرب صابون».

ومن أخطار هذا الجنوح الى «التصنيف» ما اتصف به العقل العربي من رؤية لطرفي النقيض وتعامٍ عما بينهما. فكل شيء هو إما / أو. فأنت، مثلاً، إما رجل أو امرأة. فان تكون رجلا فيه شيء من المرأة، أو امرأة فيها شيء من الرجل، فلا يدخل في حساب العقل المولع بالتصنيف.

واذن، فعلى الاديب ان يكتب في الأدب، ولا شيء سوى الأدب. فالشيء يكون أسود أو أبيض، ولا بين بين!

* * *

يفتح اللبنانيون مطعما او فندقا «فرنجيا» فتعجب بنظافته وحسن تدبيره وإدارته، ويفتحون مطعما أو فندقا «عربيا» فينخفض مستواه.

يكتبون بالفرنجية، فيتعمقون ويختصرون ويرتفعون، ويكتبون بالعربية فيستسهلون ويطيلون وينحدرون.

تدخل بيوتهم ومتاجرهم ومكاتبهم «الفرنجية»، فتحسب نفسك في «الغرب»، وتدخلها اذا «تعربت» فتحسب نفسك في «الشرق».

وهكذا تجد الصيف والشتاء على سطح واحد.

ولا أتكلم هنا على الرقي. ففي كل بلدان العالم، لسبب من الأسباب، مراتب في الرقي. وانما أتكلم على ظاهرة تختلف لا باختلاف الأشخاص، بل في الشخص الواحد. فالشخص هو نفسه بالفرنجية شيء، وبالعربية شيء آخر. فكأنه عربي بما هو للعرب، وفرنجي بما هو للفرنج. ويبدو ذلك أوضح وأجلى حين يغرّب او يشرّق. فاذا غرّب، غرّب تفكيره وتصرفه، واذا شرّق شرّق. وهو يغرّب او يشرّق من دون حاجة الى السفر غربا أو شرقا. ففي موطنه، حيث يقيم، غرب وشرق.

تأمل لبنانيا يأكل الطعام «العربي»، وتأمله هو نفسه يأكل الطعام «الفرنجي»، تجده شخصين لا شخصا واحدا. فكما لكل مقام مقال، كذلك لكل مأكل يدان وفم ومعدة.

واذا حدث أن تشاجر لبناني و«فرنجي» تشاجرا بهدوء وتهذيب. أما اذا تشاجر لبنانيان. فالصراخ يعلو ويشتد، وتنهال الشتائم.

وكم حاول اللبناني في ازدواجيته هذه ان يجمع ولا يفرق. وهو بتأثير من «صيغة» وطنه «الفريدة» مدعو، عن وعي أو غير وعي منه، الى التوفيق والتأليف، فيقع في حيرة تنسيه أين يسند رأسه.

ويفتخر اللبناني انه «نافذة» حضارية على الشرق والغرب معا، فاذا هو فجأة، في الأحداث الدامية الأخيرة، يتحول الى «زنزانة» لا يدخلها النور ولا الهواء.

ومع ان اللبناني سريع الى النهوض بعد سقوط، إلا انه سريع أيضا الى السقوط بعد نهوض. فكأنما فيه شيء من رسوخ جباله ومن اضطراب أمواج البحر.

* * *

لبنان شاطىء وجبل.

يخرج الشاطىء من دنياه في الشتاء، فيدخلها الجبل في سائر الفصول. عندك الربيع والخريف بين بين. وأما الشتاء فهو للجبل وحده بلا منازع.

فتدير ظهرك للزرقة على إمتداد النظر الى البياض مدى ما تقع العين على انحدار السفوح وشموخ القمم. هي مرآة تزلج عليها الشمس متى أشرقت، ويغشيها الضباب متى صعد من الوديان طامحا في الأعالي.

أنت لا تعشق لبنان لأنه على خريطة. أنت تعشقه لأنه معلق، بل مصلوب، بين السماء والأرض. معلق لأنه يعزّ على الوصف، ومصلوب لأنه لا يعرف مكانه بين الجهات الأربع.

وأنت حينا تبكي عليه، وحينا تفرح به. وفي الحالتين تبحث عن نفسك فيه، فلما تجدها، وقلما يكون، تباركك اللحظة التي أنت فيها. والا، فاللعنة وحدها خلاصك.

فكأنك في حضرة الملك. قصره من زجاج، وأما نوافذه فمن ذهب. تعصف به الرياح، فتحار كيف لا يسقط. وحين تتذكر البيت الذي بني على الصخر، تتذكر المسيح.

ونحن الآن في الشتاء، والثلج على سطوحنا. والا، فهو على السفوح حيث نراه، أو على القمم حيث يعلو اليها النظر، أو في القلوب حيث نحضنه

على دفء.

هذا هو لبنان الظاهر، ولكنه لبنان الباطن أيضا، فظاهر لبنان، بخلاف غيره من أوطان الأرض، لا ينفصل عن باطنه. نعم، ينفصل بمقدار ما عمي القلب وزاغ البصر.

الـورقة الرابعة عشـرة

لا يزال في العرب من لا يفكر الا بالعرب.

التاريخ من ألفه الى يائه أبجدية كتبها العرب.

والسلم في العـالم رهن بمشيئـة العرب، وكذلك الحرب. ففي بطون أرضـهم وحدهم معين النار والنور.

أمـيركـا؟ لا تعيش بغير نفط العرب، ولا أوروبا كلها. بل العالم من أقصاه الى أقصاه يغرق في الفقر والقهر والظلام.

بريطانيا العظمى؟ كيف تصير حال سكانها الذين حكموا الأرض مدى قرون إذا سحب العرب أموالهم من بنوكها وشركاتها وقصورها وتوقفوا عن شم الهواء في ربوعها.

واسرائيـل؟ والصـهيـونيـة؟ واليهودية العالمية؟ ما شأنها كلها وعند العرب النفط، والمساحات الشاسعة من الخليج الى المحيط، والبشر الذين يتزايدون أبدا ولا ينقصون.

وفي هذه الأثناء لا يقرأ العرب في كل ديارهم أكثر من بضعة آلاف نسخة من كتاب ينشر، وهذا اذا كان شعرا قديما أو كنزا من كنوز «التراث».

وهم لا يصنعون في كل معاملهم «برغياً» لآلة. حتى لا نقول سيارة أو طائرة أو مدفعا. فما دامت عقولهم «متوطنة»، فلا بد من ان تكون حياتهم مستوردة.

ولا نقول ذلك عن «الأفكار» فالأفكار عندهم بحر زاخر. وأما الأفعال فصحراء قاحلة.

ولو ان الحبر الذي يهرقه العرب عن العرب، والآخرون عن العرب، يجمعـه بدوي في الصحراء، لأصبح أغنى من قارون ذلك الزمان ومن شيخ قبيلة هذه الأيام.

فهناك «ظاهرة» في عالم اليوم هي العرب، تبهرك وتضحكك وتبكيك.

ونحن العرب ننبهر، كسائر عباد الله. ونضحك ونبكي. فالظاهرة التي هي «النحن» هي «اللانحن» ايضا، وهذا قدرنا.

ومـا دمنا في الكلام على هذه «الظاهرة»، فلنهرق قليلا من الحبر في

التساؤل عن وجه آخر من وجوهها، أعني به «الوحدوية».
فاذا كان الله واحدا، فالأمة واحدة والوطن واحد والحاكم واحد، وكذلك اللغة والتراث والحاضر والمستقبل.
كل شيء واحد أحد.
لذلك كان الرأس كل شيء عند العرب. فإما ان تكون رأسا أو لا تكون، أي ان تكون ذنبا، ولا وسط.
وفي هذه الحال لا حوار الا بين الرأس والرأس، وبين الذنب والذنب. فكيف يكون هنالك حوار بين الرأس والذنب، اذا كانت الكلمة الفصل إما أمرا وإما طاعة.
وكذلك لا حرية، طبعا، فالحرية تفترض حرية الحركة، فيما الرأس هو وحده المحرك.
فلا عجب، اذن، ان ترى الأشياء تولد للموت لا للحياة، وبين ولادتها وموتها خيط كوميض البرق.
والى أن يصير الله في وجدان العرب جمعا في واحد، فلا وحدة حقيقية. بل «وحدوية» تعمل على التفريق القائم على العنف والظلم والجهل.
ولي صديق يزعم أنه على علم أكيد بطبائع العرب، فيصفهم «الدهريين». والدهرية في عرق صديقي شيمة رفيعة.
فما هي «الدهرية»؟
هي كما نرى نسبة الى الدهر. فيكون أن الدهري من أهل الدهر، أي لا ينهزم ولا يفنى. فاذا انهزم فإلى حين، واذا فني ففي الظاهر لا في واقع الأمر.
وهذا كله عنوانه الصبر. وهو ما أعرب عنه شاعر قديم بقوله:
«كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول».
على ان الصبر مشروط بموهبة خلقية وجسدية كموهبة «العيس» في قدرتها على احتمال الظمأ. واذا كنا أظهرنا الى اليوم قدرتنا على احتمال الجهل والفقر والظلم والاستعمار، فلأننا كنا ننعم بموهبة خلقية وجسدية عززها شظف العيش وأحوال ذلك الزمان. أما اليوم، ونحن ندخل عالم الصناعة والاستهلاك، فكيف لا تفسد تلك الموهبة في قدرتنا على الاحتمال؟ فمن منا اليوم لا يرتكب اية حماقة للابقاء على ما تعوده من

دهره؟ أي أساليب العيش في عالم معاصر.

فالبدو «دهريون» وأما الحضر فلا.

واذا كان للدهـريـة عند العرب بقية من وجود، فهي الآن في طريق الزوال، بحيث لا يمكن الاعتماد عليها طويلا في احتمال ما لا يحتمل في هذا العصر.

فلنهيىء أنفسنا الى اليوم الذي ينفد فيه الصبر، فلا يمكن ان يبقى العرب «دهريين» في عالم ألغى الدهر واستعاض عنه باللحظة العابرة.

بين أوراقي هذه السطور: يثير الحيرة والعجب، تعاقب الفصول.

فربيع يلده شتاء، وصيف يلده ربيع، وخريف يلده صيف. ولكل من هذه الفصول الأربعة مناخه وعطاؤه،

يجيئـك الشتاء، فما ان تمل من صقيعه ومطره حتى يعقبه الربيع بابتسامة تطول لتستحيل ضحكة تعم الوديان والسهول والجبل والبحر. فاذا جاء الخريف، استقبلته بشوق المتعب الى الراحة، والمسافر الى دياره.

وفي الخـريف ترى أحشاء الارض تتأهب حنينا الى ولادة جديدة. فتتعرى هنا وتكتسي هناك. وفي الحالتين تتنهد وتتأوه وتنغلق على ذاتها بملء الانتظار.

إنها الكلمة الأزلية التي لا ينطقها لسان.

الورقة الخامسة عشرة

قلّ من الشعراء في التاريخ من اقتصر على كتابة الشعر. فالحاجة الى الخبز، التي هي النثر، حاجة لا تقاوم. فأي طعام أكلت، يبقى قوتك الخبز. على أن الانسان لا يحيا بالخبز وحده، بل لا يحيا بالخبز على الاطلاق، والا كان حيوانا. هو يحيا، قبل كل شيء، بكل كلمة تخرج من فم الله، وهي لا بد أن تكون شعرا.

أقصد شعراً بمعناه الحق، لا الكلام الموزون المقفى، ولا الكلام الرمادي الباهت الذي يتلاعب باللفظ والعبارة ليوهمك انه يقول شيئا.

فالشعر الحق هو الشعر الذي يأسرك، يأخذ بكيانك كله، يعمدك بماء الروح لتصير نقيا.

لذلك يسخر الشاعر بمن يفتشون عن الحقيقة بالجدل، بأساليب المنطق، بالحكمة البشرية المتوارثة وهي صدى. ويصرخ، وقلما سمعوه وصدقوه: «الحقيقة لا يفتش عنها، فهي إما موجودة فيك لأنها أنت، وإما غير موجودة وأنت هالك».

والشعر ينزل بصاحبه كالقدر المحتوم، يختاره مع لحظة الحبل الأولى، يبقى هاجسه من الولادة الى الموت، يعذبه ويفرحه في وقت معا، يستعبده ويجعله من جماعة الأحرار.

لا شيء كالشعر، فهو لا يؤخذ بجد كما يأخذ العامل عمله. فاذا أخذه الشاعر بجد، مات الشعر فيه. والشعر لا يموت على عجل، وانما يموت ببطء، يذبل كالوردة ولا ينقصف كالغصن. وهو في مسيرة موته في الشاعر لا يوجع بقدر ما يلاطف. ولطفه كفسحة الامل في ليل الشدة والضيق.

وانما الشعر يؤخذ في مثل ما يؤخذ الحبيب، بشيء من الدعابة حينا، من الجنون احيانا كثيرة، اي يؤخذ عفو الطبع من غير تصور فيه ولا عمد.

فاذا اغلق الشاعر بابه وجلس قائلا في نفسه: أريد ان أكتب قصيدة، قتل القصيدة قبل ان تولد. كذلك اذا التقى حبيبته وقال في نفسه: الآن اريد أن أعانقها، فماذا تبقي هذه الارادة من براءة الحب.

وفي الشعر لا ينفع التأهب كما في القتال، فالشاعر هو الشعر، كما الوردة عطرها. وهو ان كان لا يحيا الشعر، فعبثا كتابته. فحياة الشاعر

شعره. فمن مات الشعر فيه ماتت حياته وإن بقيت في الجسد.

ولأن الشعر باهظ حتى الموت، كانت رؤاه قبل كل الرؤى ووجدانه فوق كل وجدان وابداعه أصل الابداع. فاذا كان الشعر يعوزك في ما تعمل وفي ما تسلك، فعملك فاشل وسلوكك في العبث والضلال. وما الشعر ان يكتب بالضرورة، بل بالضرورة ان يكون. والويل اذا هو ما كان.

والشعر، كموهبة من فوق، هو الوحي الذي به تنبأ الأنبياء. ولو كان الوعظ يجدي، لما هلك الهالكون. والذين آمنوا فخلصوا، آمنوا بفضل النعمة التي لا توصف فاذا وصفت كانت في شكل حمامة تنزل من السماء.

وفضل الاساطير على الشعر انها لا تعظ، بل تجسد. والتجسد تجربة حية ترفض النظر والكلام المبين. ومجد الانسان أنه يخطىء. فلو كان لا يخطىء، لما كان له رجاء.

والمسيح خاطب الناس بالامثال، أي بالشعر. وحين سألوه لماذا أجاب: «حتى ينظروا فلا يبصروا، ويسمعوا فلا يفهموا» ذلك ان النظر أهم من البصر، والسمع أهم من الفهم. فماذا ينفع الانسان لو أبصر من دون ان ينظر، وفهم من دون ان يسمع؟ فالموجود، على رأي ارسطوطاليس لا افلاطون، يسبق التفكير فيه. فالأهم ان ننظر وان نسمع، قبل ان نبصر ونفهم.

والشعر هو وحده الأداة، وهو عدو التجريد، يتناول الكلمة وهي مجردة فيصوغها وجوداً، يفعل ويغير.

وما هذا بالأمر اليسير، بل هو الاعجاز الذي لا يفتح باب سره المغلق الا لمن يخسر العالم ليربح نفسه.

فالشعر مجاني. من كتبه من أجل غاية في النفس أجرم في حق الشعر وفي حق نفسه، وكان ما فعله سطورا مخطوطة على الرمل.

لذلك كان الشعر سيرة حياة الشاعر في أعمق اسرارها وتطلعاتها ورؤاها، وكل كلام على «الالتزام» غير هذا الكلام ساقط وغارق في البهتان. فقضية الشاعر الأولى والأخيرة هي قضيته. فاذا عاشها بصدق وعانى أبعادها ومآتيها استوعبت قضية الانسان عامة في عصره، وربما في جميع العصور. فهل هناك التزام اجدى وأسمى من هذا الالتزام؟

يبقى كثيرا مما يقال في الشاعر والشعر، فبعض الشعر من بعض

الحياة، وكلاهما ينبوع متجدد لا ينضب.

* * *

أي ادب هو هذا الأدب، وأي فن هو هذا الفن، وأي فكر هو هذا الفكر، في هذه الأيام؟

إن كان ترجمة فمسخ، وان كان وضعا فمعظمه تقليد لا ابداع فيه. وهو هراء وادعاء فارغ، غرق في الشكل والشطارة اللغوية والبيانية. فمات فيه الانسان.

فمثلا، حررنا الشاعر العربي من كابوس الاوزان والقوافي التقليدية في سبيل البحث لنفسه عن ايقاع جديد ولغة جديدة وتعبير جديد يتلاءم مع روح العصر، فاذا هو يضيع في فوضى الاوزان، ولا يجد أين يسند رأسه الا في سيل من القوافي بما يشبه السجع.

واليك نموذجا لشاعر «طليعي» شاب:

رأيتني في الغابة العذراء
أسقي الغبار طائرا في الهواء
وكان مائي أعذب الماء
وعندما اقتربت فاض الضياء
وانت الوزن بالذات
يا بديعة النظرات
ما لعينيك تلغوان بكل اللغات
ماذا تقولان؟
تتموج فيها الألوان...

وهذا النموذج الذي يتكرر في معظم القصائد «الحديثة» وجد له مكانا مرموقا في مجلة أدبية شهرية مرموقة. ولا يقتصر الأمر عند الاغراق في «القوافي»، كأننا في عودة الى «مقامات بديع الزمان والحريري» واشباههما من بلغاء عصور الانحطاط، بل يتعداه الى عودة لا تقل سوءاً هي العودة الى «المعلقات» و«المطولات»، وانما باسلوب «حديث» وقيافة حديثة. فاذا بنا، لدى الشعراء اللاحقين، أمام سباق في تطويل القصيدة، كأنما طول القصيدة دليل على فروسية الشاعر التي لا يشق لها غبار.. نعم، هناك

قصـائـد طويلة في الشعر القديم والحديث في آداب العالم كلها، ولكن للتطويل أصولا وقواعد فنية تمنعها من ان تكون عدة قصائد في قصيدة واحدة، تتداخل صورها وتتزاحم وتتقاتل حتى يفني بعضها بعضا. فاذا نحن أمام بنيان مهشم موروب تحدى الأصول والقواعد، فلا تعرف اين مداخله ومخـارجـه ولا أين ابـوابه ونوافذه. ويعزز حيرتك هذه رصف العبـارات الغامضة الفارغة من كل محتوى، وتراكم الصور الغامضة والأحاسيس بعضها فوق بعض، بما يشبه «وحدة البيت»، في القصائد التقليـديـة. وهـذه النقيصـة في كتـابة القصيدة المعاصرة لا يحتكرها الشعراء الشباب بل يشاركهم فيها لا بل سبقهم اليها، معظم من يسمون بالشعراء الرواد في النهضة الشعرية الحديثة.

وبينمـا ينصرف العـالم المتمدن الى الغاء المسافات. وهدم الحدود والسدود والفواصل في كل مجال، وفي حين لا يخطر ببال أحد في عالم اليوم ان يلفظ كلمة أو يخط حرفا في موضوع «قصيدة النثر» مثلا هل هي في باب الشعر أم لا، باعتبارها دخلت في ذمة التاريخ منذ أكثر من قرن، نرى الشعراء والنقاد، كبارهم قبل صغارهم، لا يتركون سانحة تمر من دون ان يأتـوا على ذكـرها بالرفض أو بالقبول. وهكذا قل في ضرورة الوزن والقافية في الشعر أو عدم ضرورته. فكأنما الشعر لا يكون شعرا الا اذا كان على اسلوب ما جاهز في الزمان والمكان.

ويزيد في هذا التخلف الذي نشهده آسفين على ما وصلت اليه حال الشعر، عندنا أكثر مما عند غيرنا في العالم، ان هاجس الابداع الذي هو نعمة الشاعر انقلب الى حمى قاتلة. فاذا الابداع «منافسة» على اصطياد «الجديد» من الالفاظ والتراكيب والعبارات والتشابيه والاستعارات وما اليهـا. فكـأنما «الجديد» قيمة بحد ذاته ولا فرق بين أن يكون شكلا خارجيا فارغا أو ان يكون منبثقا من مضمون حقيقي أصيل مستمد من تجربة حياتية صادقة. بل كثيرا ما استعصى هذا النوع من «الإبداع» نفسه على طموح الشاعر الناشيء، فلجأ الى النقل والتقليد، خصوصا اذا كان المنقول والمقلد نصا شعريا أشبه ببركة ماء تحسبها لصفاء مائها ضحلة سهلة العبور.

وفي الندوة التي نشرتها «المنار» (العدد ١٤) لثلاثة من شعراء الجيل اللاحق كلام كثير، بعضه مثير للإعجاب. ففيه وعي وادراك لمشكلة الشعر

العربي المعاصر لا يعوزهما عمق. غير ان بعض الحديث الذي أداروه كشف عن هموم تخطاها الزمن. فما شأننا اليوم مثلا، بمسألة الحداثة على أهميتها، او بمسائل اللغة وبلاغية التراث والايقاع الموروث وغير الموروث. أما حان لنا، بعد مرور ربع قرن على النهضة الشعرية الحديثة الفاصلة، ان ننصرف الى المضمون، واثقين بأن المضمون ذاته كفيل أن يبدع التعبير الذي يلائمه!

فليكن عند شعرائنا ما يقولونه حقا، فهذا يكفي، «فمن له شيء يعطى ويزاد. ومن لا شيء له فالذي يظنه له يؤخذ منه».

وفي صحف هذه الايام، ربما أكثر من أي يوم مضى، سيل من الشعر والكلام على الشعر، وهذا في حد ذاته لا شكوى منه، ولكن الشكوى هي في ان هذا الشعر أشبه بغابة من القصب يلعب في جوانبها الريح، فيتعالى الصفير والزفير والصرير. وكأنك، حين تقرأه هنا وهناك مليئا بالنقط والفواصل وعلامات التعجب، أمام قصيدة واحدة تشعبت وتفرغت واتخذت لنفسها مختلف الآراء. وهي أسماء كمسمياتها، لا تعني شيئا ولا تدل على شيء، لمغالاتها في الحذلقة والابتداع والغموض «السوريالي» المزيف. فمن يا ترى يخلط على من؟ أإلى هذا الحد بلغ الاستهتار حتى في الشعر، وهو الوحيد الذي بقي للعرب في مجال الاعتزاز والمفاخرة!

واما الكلام على الشعر، فهو الآخر تكرار وترداد، يلقى على عواهنه من غير صدق ولا شعور بمسؤوليته. وكما تفتش عن حبة تبر في تلة من التراب، هكذا تفتش عن رأي وجيه سديد مبدع في ما لا يحصى من الصفحات. فالنقد إما منقول وإما منحول، وهو في كل حال لا يوجه ولا يفيد في اغناء تراثنا النقدي العظيم وتطويره بمفاهيم العصر. ومع بقاء روح العشائرية والعصبية الحزبية المحدثة، يسود «التقريظ» وينحدر النقد الى درك الافتراء أو المديح الزائف.

نقول هذا كله على وجه العموم. فهنا وهنالك قبس وسط الظلام، يسير المؤمنون على هداه ولو متعثرين الى ان يبزغ الفجر على السالكين سواء السبيل.

الـورقة السادسة عشـر

سعيد عقل صديقنا وعزيزنا، قبل ان يكون كبيرنا وزميلنا. ونحن نكن له من التقدير والاحترام ما كان ونرجو أن يبقى متبادلا، وفضله علينا وعلى الشعر نذكره ونردده في كل حين. وكم يطيب لنا أن نشهد، نحن الجيل الذي عاصره ولحق به، أنه حمل هموم الشعر على كتفيه العريضتين في الثلاثينات. وكان في هذه الفترة من مسيرة الشعر العربي «حديثا» بالنسبة الى من سبقه، فنادى بمفهوم للشعر استقاه من منابع البرناسية والرمزية الفرنسية، فقرب به الشعر من «الحداثة». وكان من قبل غارقا في بحران الرومنسية والسلفية. ونحن الذين نشأنا وترعرعنا وكتبنا الشعر في مناخ تلك الحداثة وبفضلها، جئنا في الخمسينات، بعد التغرب والاطلاع والبحث، بمفهوم معاصر للشعر قربه حقا وحقيقا نحو «الحداثة». وهو مفهوم لا ينقض ولا يلغي المفاهيم التي سبقته، بل ينطلق منها الى ابعاد تعبر تعبيرا أكثر صدقا عن روح العصر. وهذه حال «التراكم» في التراث الانساني، كما علمنا شارل مالك، الذي نحن له مدينون بانفتاحنا الجدي الكامل على هذا التراث وسعينا الدائب لتمثله والمشاركة فيه أخذاً وعطاء.

في المفهوم البرناسي الرمزي الذي أخذت به جماعة من الشعراء اللبنانيين، كان سعيد عقل أصغرهم سنا ولكن أكثرهم حماسة واقداما وطلاقة لسان، بالمفهوم الخاطىء في مكانه وزمانه. غير انه بلغ غايته ووقف عندها، وهي تخليص الشعر من الرومنسية. وأما مفهومنا «الحديث» للشعر، ككل مفهوم في حقل المعرفة اليافع المتجدد أبداً، فنابع من تجربة الانسان ومعاناته في حرب عالمية ثانية خرج منها بمزاج ونمط في الحياة يضيقان برتابة البرناسية والرمزية وصفائهما وخلودهما الى الطمأنينة، وبتفاؤلهما ونظرتهما الجمالية الخالصة الى الجمال، وبإيثارهما سكون الشكل وجموده في المطلق. فكان، اذن، لا بد للشعر، كما سائر المعارف، أن يجاري نزعة الانسان «الحديثة» هذه في عالم قلق، أصبح أكثر صخبا وفوضى، وأبعد طموحا الى التحرر والعدالة، وأشد اعتدادا بنفسه من ذي قبل. وكان لا بد لهذه النزعة من ان تقوده الى الرغبة الجامحة في تغيير

الواقع بالثورة والعنف من جانب، وبتجاوز الواقع نكاية بالواقع من جانب آخر. فكانت السوريالية والوجودية الملحدة والواقعية الاشتراكية في مجال الأدب والفكر، الى جانب ما تفجر عنه العقل الانكلوسكوني من إتجاهات في صناعة الشعر أخرجت شعراء كبارا نال بعضهم جائزة «نوبل» للآداب، من امثال ييتس وباوند وايليوت. وهؤلاء جميعا أعربوا في شعرهم وفي نقدهم للشعر، عن روح العصر، فجلسوا على مائدة الشعر الخالدة مع كبار اعلامه.

ويذكر سعيد عقل، ونتذكر نحن معه ونشهد، خصومة جيله السابق له، وهي خصومة أشبه بخصومته هذه للجيل اللاحق به، وما أشبه الليلة بالبارحة. ففي حين نعته السلف بالغموض والهذيان والخروج على الأصول المتوارثة والاصالة المألوفة، ينعتنا هو اليوم، في حديث له نشرته جريدة «اللواء» البيروتية اخيرا، بركوب الشعر «الحديث» مطية سهلة الى الوصول، وباتخاذه «موضة»، لا اكثر ولا أقل. فكأنما للشعر «نموذج» كامل متكامل في الذهن، على غرار المثال الافلاطوني، لا يحول ولا يزول. وكل ما لا يطابق هذا «النموذج» فهو «موضة» وطريق سهلة الى الوصول.

ولا يكتفي سعيد عقل بذلك، بل يعتبر الشعر الحديث «أصغر بكثير» من ان ينتقده لأنه «لم يأخذ مكانه في الشعر العالمي». ثم يتصدى لقصيدة النثر، فيصفها بالبشاعة، ويصر كالسلف الصالح على ان الأدب قسمان: شعر ونثر، وعلى انهما صناعتان لا صناعة واحدة في الادب العربي القديم.

ولا أريد هنا أن أدخل في تفاهة الحديث عن قصيدة النثر التي لا تزال هدف نقمة جماعة «الشعر الخالص» من المصنفين التقليديين. ذلك ان الحديث عنها اقرار منا بأننا «متخلفون» في مفاهيمنا الأدبية، نهدر الوقت في الكلام على موضوع فصل به وحسمه النقد الأدبي في أعلى مستوياته، فإعتبر ما كتبه لوتريامون ومن جاء بعده في هذا الأسلوب شعرا حلالا يعوزه من خصائص الشعر الجوهرية شيء. وما معظم هذا الشعر الذي يكتبه شعراؤنا خلواً من القافية والوزن التقليديين سوى شعر هذا أسلوبه ولا علاقة له بما يسمى «قصيدة النثر». فقصيدة النثر شيء آخر تماما، ولا مجال هنا للاستطراد في هذا الموضوع.

وأما قول صديقنا وعزيزنا سعيد عقل بأن الشعر «الحديث» لا

يستحق منه النقد لأنه غير عالمي، فقول مردود على شعر صاحبه الذي لا نظنه يعتبر شعره عالميا. وهو قول مردود أيضا لأنه لا يتناول شعر الحركة «الحديثة» التي بلورتها ورفعت لواءها مجلة «شعر». فهذا الشعر، كما تشهد السنوات العشرون الأخيرة، أول من استرعى إهتمام الأوساط الأدبية في العالم، لا أوساط «المستشرقين» دون سواهم، كما كانت الحال من قبل. فاذا هو يترجم وينشر في مجلات أدبية مرموقة وفي كتب شعبية توضع بآلاف النسخ في متناول يد القارىء في العالم. واذا كان بعض «الانتولوجيات» للشعر العربي، كتلك التي نشرتها دار «لوسوي» الباريسية منذ سنوات، اختارت سعيد عقل ومن سبقه من شعراء القرن العشرين، فذلك بفضل الحركة الشعرية «الحديثة» التي خلفته وكانت خير خلف لخير سلف. فكل حركة نحو التغيير المنسجم مع طموح الانسان وسعيه لحياة أفضل، انما تنبثق مما قبلها في تراث الشعوب وفي التراث الحضاري ان كانت تضيف شيئا الى هذا التراث.

ثم ان أعداد مجلة «شعر» الاربعة والاربعين شاهدة على الصلات الحميمة التي عقدها شعراؤها مع عدد من كبار الشعراء المعاصرين، فترجمت لهم وتفردت بنشر بعض نتاجهم. وفي حوزتنا رسائل متبادلة بيننا وبين معظمهم، ونذكر منهم عزرا باوند وروبرت لويل (اميركا) وجون وين ولوي مكنيس (بريطانيا) وجاك بريفير وبيير جونه جوف وبيير عمانويل وألن بوسكيه وايف بونفوا وفرنسيس بونج (فرنسا)، بالاضافة الى انفتاحنا المثمر على الشعر باللغتين الاسبانية والايطالية، وسعينا الدائب لاختراق الجدار الروسي وما يحيط به من شعر. وجميع هؤلاء وسواهم كثير، باستثناء عزرا باوند، عرفناهم شخصيا وناقشناهم على مستوى القمة التي يشرفون منها مناقشة الند للند، فأخذنا منهم الكثير، وأعطيناهم من القليل الذي عندنا بثقة وتواضع متبادلين. ومنهم من أهدانا مؤلفاته لدى صدورها وذكرنا في محاضراته ومقالاته ومقدمات كتبه. حتى ان جاك بيرك في كتابه «العرب، امس واليوم»، وجد في حركة مجلة «شعر» مغزى اجتماعيا عميقا بإثارتها مجددا مسألة الموت والبعث في الاسطورة التموزية.

والى جانب هذا كله. فما من معلم أو طالب في مشارق الأرض ومغاربها يعنى بدراسة الادب العربي المعاصر، لا يعتبر مجلة «شعر» مرجعا

ضروريا للدراسة والبحث والتاريخ. وفي السنوات العشر الأخيرة وضعت، ولا تزال توضع، الاطروحات في الانجاز الذي حققه شعراء الحركة الحديثة ومجلة «شعر» نفسها كسجل أمين صادق لنهضة الشعر العربي، وكمفترق حاسم في تطور هذا الشعر ورفعه الى مستوى الحداثة والمعاصرة.

فاذا كان هذا كله، وللتاريخ ان يحكم ويفصل، «اصغر» من ان يستحق النقد، فما الذي يستحقه؟ أهو الانصراف الى الفخر والتفاخر بمآثر «الأجداد» وانجازاتهم السحيقة التي امتصتها الحضارة الانسانية المتواصلة وتركتنا نقبع في الفراغ؟ وهل يجوز لرجل كسعيد عقل طبق الآفاق فخرا وتفاخرا بالابداع و«التبادعية» اللبنانية ان يستهتر هذا الاستهتار بحركة أدبية انطلقت من لبنان فغيرت وجه الشعر العربي تغييرا حاسما، وأحرزت له لأول مرة مكانة مرموقة في خريطة الآداب العالمية؟ أيجوز له ان يشيح بوجهه عنها غاضبا ناقما وجاهلا متجاهلا لأنها تجاوزته وتجاوزت مفهومه القرن التاسع عشري؟

كنا نؤثر ان نلزم الصمت لولا ان الحقيقة التاريخية يجب ان تقال، وخصوصا في ما يتعلق بسعيد عقل. فلأنه صديقنا وعزيزنا وكبيرنا، فمن الخيانة له، والانتقاص من مكانته وفضله ومآثره ان لا تقال.

الورقة السابعة عشرة

بلغ ضيق الصدر برفيقنا وعزيزنا نزار قباني الى حد المطالبة بقوة ردع ثقافية «لانقاذ» الكتابة من مجانية القتل الأدبي والفوضى والجنون... ومن المصابين بالبرقان الأدبي بعد حرب السنتين في لبنان. هؤلاء هم «مشوهو الحرب، أو النقد» ولذلك «نطالب بتشكيل قوات ردع ثقافية لرد أذاهم عن الناس وحماية الذوق العام من شرورهم وعدوانهم اليومي على كل ما هو نبيل وأصيل في حياتنا».

ويذهب ضيق الصدر بنزار الى حد القول بأن في لبنان «مافيا ثقافية أصبحت مؤسسة قائمة بذاتها، لها عرابها وأعضاء مجلس ادارتها وممولوها وجرائدها وعلاقاتها العامة ورئاسة اركانها واجتماعاتها الدورية... توزع فيها الأدوار، وتوزع التعليمات، وتوزع الاسلحة، مع قائمة تفصيلية بأسماء الكتّاب المطلوب تصفيتهم، واسماء الكتب المطلوب اطلاق الرصاص عليها فور صدورها من المطبعة».

وكما جرت عادة التشكيك في كل شيء لا يعجبنا، يرى العزيز نزار «ان ما يجري على المسرح الثقافي بعد الحرب، ليس حادثا طارئا ولا يدخل في باب المصادفات. فثمة مؤشرات تدل على ان محاولات القتل الجماعي التي تتعرض لها الحياة الثقافية العربية ليست محاولات بريئة، وانما هي هجمة مدروسة ومخطط لها، غايتها ضرب العالم العربي ثقافيا، الى جانب الهجمات الاخرى التي تستهدف ضربه قوميا وسياسيا وحضاريا.. فتحت شعار الحداثة والتحديث يتم زرع القنابل الموقوتة تحت اساسات الفكر العربي، شعرا ونثرا ولغة وفلسفة، ويوضع الديناميت تحت العصور العربية كلها دون استثناء..»

ويختم نزار مقاله الاسبوعي الاخير في «الحوادث» البيروتية بالسؤال الذي يخرج عادة من قلب محروق فرغ صبره وملّ الانتظار: «متى تتحرك قوات الردع الثقافية.. متى؟».

لا أظن ان احداً لا يشارك نزار قباني تضايقه من فوضى وعقم وتفاهة الكثير مما يجرى على المسرح الثقافي في لبنان وفي غير لبنان، وعلى الأخص في غير لبنان. ولكن هل يجوز منا ان ندعو الى «قوة ردع ثقافي» تشهر

الاقلام الحمر أو تمسك فلانا وعلتانا من المثقفين وتلقيه في الحبس كما تفعل بالقاتل والسارق والمعتدي على حقوق الآخرين؟ فمثل قوة الردع هذه مرفوضة من جميع الاحرار، شكلا وأساسيا ومهما تكن الظروف. فالفكر يجب أن يواجهه الفكر، وفي هذه المواجهة لا بد من ان ما هو زبد يذهب جفاء، «وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض»، وقد يتم ذلك اليوم أو في سواه من الأيام.

ثم ان هذه «المعادلة» بين القتلى والتقتيل في حرب السنتين، مما استوجب تشكيل قوة ردع عسكرية، وبين «القتل الجماعي الأدبي» لا تعجبنا أبدا، فهي خميرة الحكم العسكري. وتشكيل الف قوة ردع عسكرية ولا تشكيل قوة ردع ثقافية واحدة من أي صنف ونوع كانت. هذه بمثابة «حذاء صيني»، وتلك بمثابة عصا تأديب لا بد من ان تنتهي أسباب رفعها في يوم من الأيام.

ففي جميع بلدان العالم قتل وتقتيل ثقافي، وهذا ثمن الحرية، وهو ثمن نوظفه فنجني من الخيرات والبركات ما لا نجنيه بمعزل عن الحرية. فخير لنا ان نعاني من «البرقان الأدبي» «والمافيا الثقافية» و«مجانية القتل الأدبي والفوضى والجنون» من ان نعاني ما يعانيه بعضهم من ردع ثقافي يحصر قيمة العمل الثقافي في التزامه المطلق بهذه القضية أو تلك، أو بهذا الحزب أو ذاك في ظل سلطة استبدلت «الشعب» كمقولة تعبر عن قوم لهم تراثهم التاريخي الخاص بهم، بـ «الجماهير» كمقولة مستحدثة يختلط فيها الحابل بالنابل، ولا تعبر في نهاية الأمر عن شيء غير تذويب الانسان الشخص وسلب ارادته الحرة.

هذا كله يعرفه ويدركه رفيقنا في الشعر نزار قباني، ولذلك نريد ان نجـزم بأنه انساق الى فكرة «الردع الثقافي» بعفوية رومانسية صادقة عرف بها. فهو الذي طالما نادى بالحرية والديمقراطية. وما وجوده في لبنان، بل عودته الى لبنان، الا برهان على انه لا يطيق الردع الثقافي في أي مكان.

فالردع الثقافي الحقيقي هو الذي «يتشكل» منك انت، يا أخي نزار، ومني أنا ومن الآخرين، لا الذي يهبط من السماء أو يزحف من خلف الأسوار والحدود. فلنشهر أقلامنا البيضاء الصادقة، وننقل ما نعتقده، ولنشهد للحق بغير جبانة ولا تردد ولا خوف ولا محاباة ولا مسايرة. هذا

هو النقد الذي يؤدي الى اصلاح ما فسد ويفسد.

فخـذ، يا أخي نزار، مثل هذه الأمور بحلمك. فكتابتك جميلة رائعة كشخصـك، وانظم الشعر فشعرك كوثر عذب لكثير من العطاش. واذا نقدت فانقد كالواثق بنفسه، بعد معاناة طويلة في ممارسة الادب والحياة.

أما التشكيك بأن ما يجري ثقافيا هو «هجمة مدروسة ومخطط لها» فلا يعني شيئا. والكلام عليه يضر أكثر مما ينفع. فهو يلغي الثقة وينشر الفوضى ويؤدي الى الارهاب والى ما هو أتعس مما نحن عليه. فمن البداهة أن لا تريد اسرائيل، قبل سواها، خير العرب في جميع الوجوه. فهي، اذن، تقوم منذ أمد طويل بأعمال التخريب. ومن مصلحتها ان تفعل. فالصراع بين الافراد كالصراع بين الجماعات، لا يزال حقا مشروعا في التنازع لا على البقاء فقط، بل على التقدم أيضا.

وعلينا نحن ان نقبل بهذا الصراع بيننا وبين الآخرين، فنعد له العدة، كما في الحرب تماما. ولكن، فلنحذر التشكيك بعضنا ببعض. انه سلاح العدو، وهو أمضى من اي سلاح. ومضاؤه لا يعود الى ان العدو يوحي اليك بما تفكر وتكتب، بل بما لا تقدر ان تفكر وتكتب. ولذلك، فالذي يفكر ويكتب، مهما تكن قيمة فكره وكتابته خير من الذي لا يفكر ولا يكتب ابدا. واذا فعل، كان فكره وكتابته من السواد بحيث تعمل على حجب كل نور.

والآن، فما دمنا لبنانيين وفي لبنان، فلنكن ملء لبنان. وملء لبنان هو الحرية. وهذا هو قدره، ولا عبرة في ما يصيبه من آلام، بل ان ما يصيبه من آلام يصهره ويطهره ويقويه ويبرهن على انه في الحق.

الـورقة الثامنـة عشـرة

شارل مالك حياة زاخرة بالمعرفة والحركة والفعل. فعلى مدى نصف قرن من الزمن خبر وصارع وعانى «مراتب الوجود الثاني» ثم جلس وسرد هذه الخبـرة وذلك الصراع وتلك المعاناة في «مقدمة» يحتويها المجلدان الاول والثاني من بضعة عشر مجلدا يضم ما كتبه في تلك المراتب وهي الرياضيات والعلم والكونية والحلولية والمثالية والكيانية والحياتية والايمان.

هذا الاسلوب في كتـابـة السيرة، أي اسلوب المراتب الكيانية التي «تنضب فيها حياتي كلها، دونما اعتبار للتوقيت والتاريخ والتفصيل»، هو الاسلوب الأصـح في نظر المـؤلف لا «الاسلوب التـاريخي الاتبـاعي المتعارف عليه». فذلك «ليس من سيرتي في شيء».

اذن، فهذه «المقدمة» التي صدر القسم الأول منها أخيرا في بيروت هي سيرة حياة جرت على أسلوب شبيه بما عرفناه عند بعض «قمم» الفكر الكيـانيـين من أمثال اغسطينوس وكيركيغارد ونيتشه، وهو كما ذكرنا اسلوب «المراتب الكيانية» التي يحصرها المؤلف في ثماني مراتب تناول كل مرتبة منها على حدة بالشرح السريع، فاذا بنا أمام عقل واع قبض على المبـادىء الفلسفيـة الأساسية وبسطها بانشائية مضغوطة سهلة الفهم حتى على القارىء العادي. فالوضوح يلد الوضوح، أو كما قال ارسطوطاليس: «تعرف، اذن تعرف ان تعلم». والمؤلف يعرف اذن عرف ان يعلم أو يعبر بلغة عربية مشرقة قلّ مثيلها في أدب هذه اللغة. فهي تتفجر بفعل حرارة المضمون تفجرا يفضح الذين يلجأون الى الغموض والتورية لتغطية هزال مضمون ما يقولون ولستر عريه. على ان المهم في شارل مالك، لا هذه القدرة على وجاهتها القصوى، بل حكمه، في ضوء ما تكشف له من «ظهورات» الحياة، على الشطط والضلال، ودعوته الحارة الى اتباع الهدى «في التراث الحي الفاعل الواحد المتراكم لأربعة آلاف سنة»، اي من طاليس الى هوايتهد.

فهـو في آخـر الأمـر معلم، ولنـا لبنانيا وعربيا رسول صادق وثائر حقيقي، لا دجال ولا مزيف، جاء يهدينا سواء السبيل. لك ان تحبه او لا

تحبه، ان توافقه او لا توافقه. ولكنك اذا فتحت قلبك وعقلك، فلا بد من أن يهزك في الأعماق ويدفعك الى اعادة النظر في كل شيء كنته أو تطمح اليه. وهذا هو المهم في المعلم أو الرسول، بل هذا هو المهم في الثائر الحقيقي. ذلك أنه يقودك، عاجلا أم آجلا، الى تجديد حياتك بتغيير ذهنك، فتصبح انسانا خلع «انسانه» القديم ولبس «انسانه» الجديد في ولادة ثانية، من فوق.

تلك اذن هي مراتب الوجود الثماني، وتلك هي التي «ظهرت» لشارل مالك مع الايام. وكانت كلها موجودة فيه، وان «ظهرت» تباعا بفضل المعاناة الكيانية، في حياته، فهي من شأنها ان تتكشف و«تظهر» لا ان توجد وتكون. واذن، فلا انتقال من مرتبة الى أخرى، أي لا تطور من تجربة «ظهورية» سابقة إلى تجربة ظهورية لاحقة بالحذف والالغاء. فكما ان الانسان، بحكم طبيعته، ناقص وكامل، سعيد وتعس، خالد وزائل، قاصر ومقهور في وقت معا، فكذلك هو ازاء الحقيقة. تغريه بما تفاوت من محاسنها فيتعجب ويحار فيها جميعا، ويبقى متعجبا حائرا الى الأبد.

على ان «الفلسفة الظهورية» التي يأخذ بها شارل مالك على علاتها، وهو ينوه بهذه العلات، تريح العقل الباحث عن الحقيقة، اي عن السلام والسعادة. لأنها تعاني الوجود كما هو. فالوجود «هكذا» وهكذا يجب أن ننظر اليه. غير ان هذه الفلسفة التي يعتبر هوسرل وهايدغر، وقبلهما كير كيغارد ونيتشه، أعظم أركانها، لا تريح جميع الباحثين عن الحقيقة، وشارل مالك منهم. ذلك لأن فوق «الظهورات»، في اعتقادهم، «ظهورة» هي أصل ومنشأ هذه «الظهورات» جميعا. انها الله كما هو في التراث الابراهيمي (اليهودية والمسيحية والاسلام). ولذلك فمرتبة «الايمان»، كما لا بد ان نجد في القسم الثاني من «المقدمة» هي أسمى المراتب و«اظهرها» لحقيقة الكون والوجود. والمؤلف يقودنا اليها، منذ البداءة، في رفق وصبر، ويشير إليها بقوله «ان الانسان ليس عقلا، وإن ثمة سبلا للاقناع غير سبل العقل، وان شيئا غير العقل ـ ان لم يكن فوق العقل ـ يتحكم بمصير انسان».

ومهما يكن، فالفلسفة الوجودية أقل ولوجا في غياهب النظر المجرد من سائر الفلسفات، وخصوصا المثالية الالمانية كما تجلت أروع ما يكون في هيغل، وهي في ذلك أقرب منها جميعا الى «التراث الابراهيمي»، الذي

ينتمي إليه المؤلف، ولا ينقصها من هذا التراث سوى الايمان الذي هو حجر الزاوية فيه. فهذا التراث يقول: «آمن ابراهيم. فبرره الله لايمانه». بل ان كارل ماركس نفسه، لخلفيته اليهودية، عاد فاعترف، كما يذكر المؤلف، بما سماه «القوة والصدفة، أو حتمية التطور التاريخي» حتى لا يسميه «الله» كشيء في خارج التاريخ وفوقه.

هذه هي عقدة العقد في تاريخ الفكر الانساني، واعني ذلك «التنافس» بين العقل والايمان على كشف الحقيقة. فهي الصخرة الصماء التي تكسرت عليها جميع الفلسفات، فاذا نحن أمام ازدواجية يتغلب فيها الايمان عند الكثرة من المفكرين. فالعقل البشري، على حد قول المؤلف في رده على هيغل: «لا يمكن ان ينفذ الى الكيان الاسمى الذي هو الله... الله، بمحض حريته ووحيه، هو الذي ينفذ الى الانسان، ولولا هذه النفوذ لما حصل اي «نفوذ» للانسان اليه». وفي هذا الرأي ما فيه من جوهر اللاهوت المسيحي القائل بأن الايمان «نعمة» يمنحها الله للانسان بمحض اختياره، لا بل بسابق تدبيره.

* * *

في هذه المقدمة يعنينا الكثير مما نشر منها حتى الآن. وهو يعنينا كبشر، وفي الأخص كلبنانيين وعرب، عزموا على السير في طريق «النهوض» الحقيقي و«الثورة» الحقيقية. ومن هذا الكثير الذي يجب ان يعنينا اكتفي بالآتي، كما جاء في كلام المؤلف:

اولا: اعمق تصنيف للبشر اطلاقا هو بين المؤمنين بالصدفة العمياء والمؤمنين بالله وقدره، بين القائل بامكان المعلول بلا علة والقائل بأن لكل معلول علة.

هؤلاء يعيشون ويموتون ويبدأون وينتهون بلا أمل ولا رجاء، واولئك لا ينقصهم أمل ولا يغرب عنهم رجاء.

ثانيا: الظن ان الحقيقة يكتشفها المرء بالفكر الخالص بتجرد تام عن ذاته وكيانه، ظن خاطىء. هذا خطأ ديكارت. كذلك الظن ان الانسان يصل وينال، باستقلال تام عن ذاته وكيانه، ظن خاطىء. هذا خطأ ماركس. الانسان، شخصه وكيانه، قبل كل شيء، قبل المعرفة وقبل

الوصول. ومعرفة الذات تسبق كل معرفة وتفترض في أساس كل معرفة. هذه هي وصية سقراط التي تؤلف ارضية كل فلسفة أصيلة اطلاقا.

ثالثا: الحياة اليومية العادية بمعطياتها البسيطة الخلابة في آن معا هي المعين الاصلي الذي نستقي منه كل شيء... ويبدو ذلك جليا في لغة الحياة المحكية... والفارق بينها وبين لغة الفكر والادب موجود في جميع الثقافات وعند جميع الشعوب، ولكنه يبدو شاسعا في الثقافة العربية أكثر منه في أي ثقافة أخرى.

رابعا: الوجود لا يكشف عنه الا الوجود ذاته. فلكي نعرف ونقدر موجودا ما، فيجب ان «نذهب» اليه و«نختبره» مباشرة بطريقة «الذهاب» او «الخبرة» الملائمة لكيفية وجود ذاك الموجود. فلا نكتفي بالنظرة القريبة المسبقة التي نكون كوّناها بأنفسنا عنه من خلال اختبارنا القصير او مطالعاتنا المحدودة.

خامسا: احترام الوجود هو المبدأ الاول للوجود. فان أنت غصت وأوغلت في مادة الموجود أنبأتك هي نفسها عن سرها ومنزلتها في مراتب الوجود. وعليك ان تسأل نفسك: هل وفيتها حقها؟ هل اصغيت لهمساتها الاصغاء الكافي؟ هل انعمت النظر في تراكيبها كافة؟ وهل شاهدت هذه التراكيب بالفعل؟ ذلك هو ما يعنيه البحث والخبرة والتجربة والتدرب والتثقف والتنقيب والمثابرة على الهم والقلق. على ان هذا لا يكفي، بل يجب ان يكون همنا ايضا تحقيق الوجود وايجاده في حال عدم وجوده الا ان ذلك خارج نطاق كل فلسفة على الاطلاق.

سادسا: التشكيك كسل وهرب ومرض. فالمهم اليقين والوثوق. فليس من خصائص الوجود ان يخدعنا ويعبث بنا ويلعب علينا الألاعيب. صحيح ان الوجود فيه غنج ودلال واختفاء، لكن ذلك غرضه استفزازنا الى السعي الجاهد حتى نفرح بلحظة الاكتشاف. الوجود كالحب: فيه تمنع كتمنع الحبيب.

سابعا: كل شيء اطلاقا هو كلمة بالقوة ويصبح كلمة بالفعل حين يمر به العقل. فالعقل هو الساحر المحول قوة النطق الى فعل الكلمة. العقل يرى فينطق. العقل ناقل الرؤية الى كلمة. وقد يكون هذا هو فعل الخلق الوحيد.

ثامنا: الاستمتاع بالرؤية لا يكتمل إلا بفيض من التعبير والتسمية،

بل يجعل ذلك الفيض امرا محتما، والا فلا تكون هنالك رؤية حقيقية لشيء بالفعل، أو تكون هنالك رؤية ضبابية وضعت دونها غشاوة. وهذه حال الصوفية المزيفة في نزوعها الى التذرع بالمجهول وباللامدرك والى القول باللامعلوم واللامعقول وبأن ما تعنيه شيء يتحدى التسميات والشروح.

تاسعا: الكد والجد في أي حقل من حقول المعرفة يثمران فقط في تراث ذلك الحقل، ومن داخل التراث الواحد الحي المتراكم لأربعة آلاف سنة. ولكي يكون الابداع أو الخلق ممكنا في نطاق أي حقل من تلك الحقول يجب الاندماج العضوي الكياني الثقافي في ذلك التراث الحي. ولهذا ثمن باهظ يتوجب على المبدع وعلى بلده أن يدفعاه للحاق بموكب الابداع الحضاري.

عاشرا: الشكل، مهما كان منيعا مضبوطا، لا يكفي ذلك لأن الحاسم في أمر الحقيقة هو مضمون الشكل ومحتواه. وفي الحضارة التقنية المعاصرة بمئات ألوف ادواتها وآلاتها التي خلقتها جميعا الرياضيات ينقلب الانسان من عابد الى معبود، ومن مخلوق الى خالق، ويسطح كل شيء الى مستوى وتيري ممل. وبدلا من التفاعل الشخصي الحي يبتعد البشر بعضهم عن بعض، وينظر الانسان الى اخيه الانسان على انه اداة لمصلحته هو، لا غاية في شخصه وكرامته وذاته، بحيث تصبح «المصلحة» الذاتية محل كل حكم وكل قيمة.

حادي عشر: لعل سبب التهافت والتداعي في بعض البلدان المتخلفة وفي حصائل بعض الثقافات الجامدة هو احتقار الجزئيات. فتراها آمنة مطمئنة في الفراديس الكلية الخيالية المصطنعة، تعيش فيها وتستمرىء الجمود في اطاراتها. وهذا ما أصابنا ولا يزال وما أصاب اوروبة حتى كشف العلم التجريبي عن جزئيات الوجود أمامها. على ان العناية بالجزئيات والكليات حقا، وتواجدهما وتفاعلهما الحي، وتكاملهما في اطار من الاحترام المتبادل، هي وحدها تؤلف حضارة.

ثاني عشر: الله ضرورة لازمة عند الاغريق، أما في الديانات الابراهيمية الثلاث، فان الله ضروررة لازمة لوجود الكون اطلاقا، بما في ذلك تنظيمه وترتيبه. والعقل في الذهنية الاغريقية هو الذي يوصلنا الى الله، بينما الله في الذهنية الابراهيمية هو الذي يوصل ذاته الى العقل،

وذلك بهبوط الوحي منه تعالى، عن طريق الايمان والصلاة والعبادة. والتمييز بين الذهنيتين هو ان الاولى تتجه اساسيا الى اللاشيء، فيما الثانية تتجه نحو الشيء الذي هو كل شيء. وفي العصر الحاضر ردة الى الاتجاه الاغريقي الوثني.

ثالث عشر: شعلة الثورة الانسانية نابعة اصلا من التراث الابراهيمي، أي ان الله يمس الثائرين بشكل أو بآخر، فيثير فيهم الغضب ويحفزهم الى العمل والتضحية في سبيل احقاق الحق.

رابع عشر: كل انسان، بما في ذلك الملحد، متدين بطبعه، ينشد كائنا «اسمى» ليميزه عن كائن آخر «ادنى» هو الأوضاع المهترئة الموجودة بالفعل. اذن، فالمسألة ليست وجود أو عدم وجود كائن اسمى يعبده الانسان ويرنو اليه، بل المسألة هي «من وماذا» يعبد الانسان.

خامس عشر: الانشداه بالكون ومظاهره، والافتتان بالطبيعة وطاقاتها، والانجذاب الى كل ما هو من عالم الحسن والعاطفة، والانجراف السحري امام الحركة والمادة، ان هو اثر للحلولية الصوفية الكونية وعلة لها. ومن يؤخذ بالطبيعة على انها شيء نهائي ما بعده أو قبله أو فوقه شيء، مال عن الايمان بالنسبية في كل شيء، على صعيد الفن والفكر والقيم والسياسة والحياة والاخلاق. يرى ذاته ولا يرى الغير، يرى الحاضر ولا يحسب حسابا للمستقبل. أما الماضي، فمقفل أمامه الا بقدر ما يتلذذ بذكرياته. لا وضوح ولا تمييز، بل اختلاط متضارب مجلب من جميع الثقافات يزدحم ويخشخش في نفس هذا الانسان الحلولي الصوفي «الليفنتيني» الذي ينفي في عمق اعماقه «وجود» الآخرين ويتمنى لو يهرب منهم الى المناسك والصوامع أو ينساهم بالمخدرات وغير ذلك من الوسائل، وبما فيها النظم الفكرية أو السياسية أو الدينية التي «تغسل الدماغ».

سادس عشر: في التراث الذي يعرفه لبنان وسائر العالم العربي ويعيشه اليوم لا يوجد شبيه بأفلاطون وارسطاطليس واوغسطينوس والاكويني وابن سينا وابن رشد ولابينتز ونيتشه وغيرهم. فمعرفة هؤلاء والعيش معهم ومع امثالهم من «القمم» خير تمدين وتثقيف للمجتمع والشعب والامة. هذه هي المشكلة المأساة. كل تزمت قومي او تراثي خصوصي لا يليق بالانسان المسؤول ولا يدل الا على سخف المتزمت وحقارته وعدم استحقاقه. هذا عيب على كل طالب حقيقة وكل ناشد وجود.

سابع عشر: «القمم» الفكرية المئة، او المئتان يقعون جميعا في التراث الاغـريقي الرومـاني العبراني المسيحي الاسلامي العربي الاوروبي الغـربي. امـا القمم العشرون او الثـلاثون، فلا تجدهم الا في التراث الاغـريقي الرومـاني العبراني المسيحي الاوروبي الغربي. والدخول الصميمي في هذا التراث لا يقتصر على تفهم النصوص وتذوق المعاني بشكل عام والبراعة في شرطها والتعليق عليها كما فعل الفارابي وابن سينا وابن رشد بنجاح باهر، بل يتعدى ذلك الى الاندماج والانصهار الكيانيين فيه، بحيث نكون من بناته والفاعلين فيه. وإلا فلن نوجد بالفعل، أي لن يجـدنـا احد. ولبلوغ ذلك يقتضي قيام ثورة مجتمعية سياسية فكرية كيـانيـة اسـاسيـة ووجـود مفكرين اختصاصيين يستوعبون نظرتهم الخاصة الكلية وروحهم المميزة الخلاقة وموقفهم الاساسي النهائي الذي ينبع منه كل ما يقولون.

ثامن عشر: ابسط البديهيات واولى البدائيات غير معروفة وغير مقدرة وغير معترف بها في لبنان والمشرق. وهذا يعني اننا نعيش اليوم الى حد بعيد خارج الحضارة الواحدة المتراكمة التي تقر بالبديهيات وتفترضها ولا تناقش فيها، مع ان اجدادنا منذ آلاف السنين كانوا في وسطها. أين نوجـد اليـوم بالفعـل في سلم الوجود؟ نحن عائشون في الخوف واللذة والسيـاسـة والخيال السابح، لا ندفع الثمن الباهظ المطلوب منا دفعه لنلحق بالفعـل، لا بالادعـاء الفـارغ و«البهـورة» و«التفشيط»، بموكب الحضارة. ومع ان هذا لا يحصل بين ليلة وضحاها، فمقدار وعينا لهذه الامور ومعدل سيرنا الحاضر ينبئان بأننا لن نلحق بهذا الموكب، بحيث نصـير بالفعل على مستوى العقل العالمي المتفاعل المسؤول، قبل مضي ألف سنة.

تاسع عشر: التقدم في شؤون الحقيقة والانسان والاخلاق والسعادة والعقل والوجود والخلود وغيرها من الشؤون الاساسية أمر غير موجود وامكان القفز التاريخي بتمثل الماضي في الحاضر هو علة وحدة التاريخ وحـدة الانسان عبر التاريخ ـ اما وحدة التراث، فتتألف من الصفات التي يتحلى بها كل واحد من قممه، والتي تربط في الدرجة الأولى بينهم جميعا على رغم ثورة بعضهم على بعض، وقبول بعضهم ببعض، وانضواء بعضهم تحت لواء البعض الآخر.

عشرون: ان تحترم الشخص الآخر يعني ان تترك له الحرية التامة لأن يكون ما هو ومن هو، في نطاق احترامه المتبادل لك، وان يتمتع بهذه الكينونة باستقلال تام عنك، وان تصغي اليه لتسمع وتحاول جديا ان تفهم ما يقول. وهذا لا يتأتى لك الا في التراث الغربي منذ طاليس حتى اليوم، وهو الذي أدى الى هذا التفتق العلمي والتنقيبي والفكري المنقطع النظير في شتى حقول الوجود والمعرفة. كل شيء سواه هو انتقائية توفيقية زائفة سخيفة. والطريق الى الوجود الحقيقي لا تختصر، وهي ليست ضربا من السحر، ولا حظاً تناهى الينا من ظلام سحيق، ولا شيئًا ينشأ من لا شيء، ولا هبة مجانية تهبط من فوق، ولا صفقة مضاربة او متاجرة.

واحد وعشرون: قمم التراث الفكري مئة او مئتان والفارابي وابن سينا وابن رشد في عداد الثلاثين الاول. اما الذين يحتلون المرتبة الأولى. فهم العشرة الآتية اسماؤهم: افلاطون، وارسطاطاليس، وأفلوطين، واوغسطينوس، وتوما الاكويني، ولايبنتز، وكانت، وهيغل، ونيتشه، وماركس. واذا حصرتهم في خمسة فقط، فهم افلاطون، وارساطاطليس، واوغسطينوس وكانت وهيغل. أما إذا حصرتهم في ثلاثة فهم أرسطاطاليس والاكويني، وهيغل. واذا اكتفيت بواحد فهو ارسطاطليس. فمن تشبع به حاز نصف التفكير البشري الاصيل، أو أكثر.

اثنان وعشرون: كل شيء خطير هو شيء انساني. عالمي، وفيه لا يجوز القول بـ «نحن وهم». فنحن في آخر الامر هم، وهم في آخر الامر نحن. فما لم نستو على هذا الصعيد العالمي الانساني لا يحترمنا أحد ولا يعترف بنا، بل لا نكون ولا نوجد بالفعل. يجب الاعتراف بأثرهم فينا وبأثرنا فيهم، والويل لمن ينفصل عن انسانية الوجود وعالميته.

ثلاث وعشرون: التراث الانساني حي متواصل، ينتقل بالتعليم والقدوة من جيل الى جيل. من هو معلمك ولمن تتلمذت؟ عمن اخذت الشعلة ومن قدح الشرارة فيك؟ هذه الصلة الحية في تحصيل المعرفة هي أهم حدث في حياة المفكر.

أربع وعشرون: الجاد في طلب الحقيقة يرفض أن يمنعه أي شيء من العيش الكريم مع «القمم» الفكرية والروحية المتربعة في سدة التاريخ، كما انه لا يخشى ان تقوض هذه «القمم» دينه ومعتقده، أو ان ينبذه بنو قومه وعشيرته اذا هو «تلوث» بهذه القمم «الغريبة الاجنبية».

خمس وعشرون: التاريخ الحقيقي هو تاريخ الفكر والمعتقد أولا وقبل كل شيء وبعد كل شيء. ومعنى التاريخ هو في وحدة تطوره ونموه. والوحدة والوحيدة الخالدة في التاريخ تكمن في تفاعل العضوية غير المتقطعة للفكر والروح. والفكر هو من فكّر ونطق ودوّن وربط اسمه الى الأبد، رأى وخبر وأخبر. وأعظم هؤلاء هم الفلاسفة اولا، لأن الثقافات تزول بعد رواج، وكذلك الدول والأنظمة، فلا يسلم منها الا ما تكون قبسته من شعلة الحق، وتعبيره الأخير هو الفلسفة المسؤولة.

ست وعشرون: القول بأن تاريخ الفكر والروح هو تقدم مستمر لقول هراء. فتلك هي خرافة «التقدميين» التي تجعلهم هذه الخرافة «تأخريين» ورجعيين. ذلك ان عصور الخلق والابداع وعصور العقم والانحطاط تتناوب في الزمن، والقول بأننا «تقدمنا» على افلاطون وارسطاطليس وهيغل وشكسبير وغوته وامثالهم لا يقوله الا الجاهل أو المتحامل لغرض في نفسه.

سبع وعشرون: تنزع الفكرة بطبيعتها الى التحقق الفعلي وتستدعي نقلها من المعقول الى الواقع الموضوع، وهذا يعني تجسيدها والباسها حلة موضوعية في الحدوث والتاريخ. والانسان الثوري هو مثالي افلاطوني يرى الفساد والانحطاط والضعة في الواقع الحسي بخلاف ما هو في المعقول اللاحسي، فينشد هذا المعقول بكل جوارحه. وهو في نشدانه هذا يغير التاريخ. فالتاريخ، بهذا المعنى، هو لحظات الحسم الكبرى حين تتجسد كلمة الأزل، أو المثل، في الانسان الشخص. ولذلك، فالتاريخ عاجز عن تحويل مجراه من داخله، وانما هو بحاجة الى من يحول مجراه من خارجه. وبرغم تمرد ماركس على تراثه الابراهيمي المسيحي، فانه أرغم على الاعتراف بأن شيئا غير العقل، ان لم يكن فوق العقل، يتحكم بمصير الانسان، وهذا الشيء هو الذي سماه القوة والصدفة، أو حتمية التطور التاريخي.

قلت ان في «المقدمة» كثيرا مما يجب ان يعنينا ويثير اهتمامنا، ومنها هذا القليل الذي لخصته بكلام المؤلف. على انني في ذلك تجنبت التعرض للوجه الفلسفي الخاص بالفلسفة «الظهورية».

ولا شك عندي وعند كل منصف في ان هذه «المقدمة» التي يجب ان يقرأها كل عربي بامعان ودقة واحترام هي فخر للغتنا العربية ورائعة من

روائعها. وكذلك الآثار التي تتبعها والتي لي فكرة واضحة عن مضمونها وهي لا تزال في طريق النشر. ذلك ان من نعم الله عليّ انني تتلمذت لشارل مالك وتخرجت في الفلسفة على يده. واذا كان له ان يفتخر بأنه تتلمذ لأعظم قمتين من قمم الفكر في القرن العشرين، وهما هوايتهاد وهايدغار، فلي أنا ان أفتخر بأنني تتلمذت لأعظم «قمة» في تراثنا الفكري منذ ابن رشد.

الـورقة التاسعة عشـرة

يقول عبد الله العروي في ختام كتابه «أزمة المثقفين العرب» ان المثقف العربي الثوري «يعيش اليوم حياة بائسة فيما وراء نجاحاته المدنية، لأن مجتمعه يعيش برتابة ما تحت التاريخ، ولن يتغلب على بؤسة الا اذا عبر بوضوح عن متطلباته من التجديد الجذري، والا اذا دافع عنها بعد ذلك بجميع قواه، لكي ينتهي شتاء العرب الطويل».

نعم، شتـاء العرب الطويل، ففي هذا الشتاء الطويل تقلص العقل العربي في مجال المعرفة والعمران وامور الدين والدنيا الى حدود اللغة وآدابها، فلا علم ولا اختراع ولا حرية ولا اشتراكية ولا وحدة، بل «هروب في الاوهام والأساطير» واغتيال لكل حركة ليبرالية وديمقراطية وتقدمية على حساب ايديولوجيات رومنطيقية وفوضوية خانقة.

وفي هذا الشتـاء الطويـل تغتصب «عمـوم» فلسـطين من مشارف الجولان الى شواطىء البحر الاحمر، ويجتاح العدو في الداخل والخارج ارض لبنان ووحدة بنيه وأمنهم وسلامتهم وعمرانهم، ويجثم العجز والذل والقهر على كاهل «الأمة العربية» من الخليج السادر الى المحيط الهادر.

وفي هذا الشتاء الطويل لا ينفع السلم، كما لا ينفع الحرب، ويبقى العرب وجها لوجه أمام اسرائيل والتخلف.

* * *

وشتاء لبنان من شتاء العرب، طويلا كان ام قصيرا، وهو الذي كان، ورغم نكبته يبقى، صيف العرب وربيعهم الزاهر.

انه اليوم مصلوب على قارعة الأمم، جنوبه جريح وأهله مشردون، أما حدوده فمباحة، ودولته قصبة في الريح، وبنوه يتساءلون عن واجب وجوده.

فاذا كان واجب وجوده الحرية، فكيف ولمن ولأي شيء؟ هل «الكيف» في أن يكـون بيتا بغير سقف ولا ابواب، يسقط عليه المطر ويعصف في أرجائه البرد والزمهرير ويدخله كل عابر سبيل؟

وهل «اللمن» في ان ينمو الزؤان بجانب القمح، والشوك في وسط الزهر،

فلا نميز هذا عن ذاك، بل نترك الزؤان يطغى على القمح، والشوك على الزهر؟

وهل «اللأي شيء» في أن تطوف الوحوش كما في غابة، باحثة عن فريسة أو مأوى؟

واذا كان واجب وجـود لبنـان تجربته الفريدة في التعايش الاخوي الصادق، فأين نحن اليوم من هذه التجربة؟ أما قالت اليد للعين: «أنا التي تنظر لا انت»، وقالت العين للأذن: «أنا التي تسمع لا أنت التي تسمعين»؟

واذا كان واجب وجوده كونه ملجأ للاقليات وشذاذ الآفاق، يقدرون فيه ان يقولوا: «هذا وطننا ونحن فيه متساوون»، فماذا كانت الحال؟ أما كانت أشبه بحال ارملة سلبها اللصوص مالها واقتسموه، فلا هم اغتنوا به وماتت الأرملة من الفقر؟

واذا كان واجب وجـوده ميزته الفريدة، فأين هي؟ هل هي في تراثه المسيحي الغـربي والشرقي وسعي ابنائه لانماء هذا التراث وعيشه في الزمان والمكان؟ فان كان الأمر كذلك، فماذا عن سائر «التراثات» التي تحتويها جمهوريته؟ أفلا يحق لكل منها ان تطمح مثل هذا الطموح في جو من الحرية والتعايش اللذين هما، كما نزعم ونتمنى، من واجب وجود لبنان؟

واذا كان واجب وجوده أنه همزة وصل بين الشرق والغرب، فما أعجب واغرب هذه الهمزة في وجه القول المأثور: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا». بل ما أعجبها وأغربها تتحول الى همزة «قطع»، وهي التي حيّرت «الاملائيين» أين مكان جلوسها في الكلام!

* * *

نعم، شتاء لبنان من شتاء العرب!

وأتعس ما يصاب به وطن ان يغزو العدو أرضه ويدوس سيادته، فلا يجد أمامه الا ان يساوي في ذلك بين عدوه وبين أخيه.

والى ان يطلع الربيع ويعقبه الصيف، نضمد جراحاتنا ونستمد من الضعف قوة، حتى اذا عاد الينا لبنان وعدنا نحن اليه، صرخنا في وجوه

التجـار والصيارفة وباعة الحمام: «بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص!».

* * *

كثـيرا ما نخلط الثقـافة بالحضارة، فالثقافة من «ثقف» الشيء. أي أصلحه وهذبه. وأما الحضارة، فمن «حضر» الشيء، أي نقله من البداوة الى الحضر. ففي البداوة خيام وتنقل من مكان الى آخر، وفي الحضارة عمران واستقرار.

واذن، فالثقـافـة هي حصيلة «تثقيف» انسـاني خاضع مع الزمن للتجربة والخبرة والمعرفة في مجتمع ما، في حين ان الحضارة هي. المناخ العمراني السائد. وهذا الذي جعل الثقافة «قومية» ومتنوعة ومختلفة، بينما الحضارة انسانية شاملة ولو اقترنت بمن يحمل لواءها في حقبة ما من التاريخ. وبهذا المعنى كانت الحضارة فيما مضى اغريقية ثم رومانية ثم عربية ـ اسلامية، وأخيرا اوروبية غربية.

* * *

اللغـة العربية لغة عظيمة، ولكن المصيبة بأبنائها أعظم. فبعد أن وضعوها في «حذاء صيني» منذ أن انفتحت على الدنيا، أخذوا يسومونها انواع التعذيب.

فكأنما لا يكفي ان احدا، ما عدا القلة، من الخليج الى المحيط يتقن هذه اللغـة، حتى انـزلوا بهـا فوضى «التنقيـط» المستعـار من اللغات الاوروبية. فتجيء «الفاصلة» لا لتفصل عبارة معترضة في سياق الجملة، بل لتفصل المبتدأ عن الخبر، والفعل عن الفاعل وان أو كان عن خبرها. وأما «النقطة» فكثيرا ما توضع حيث يجب ان توضع «الفاصلة»، فيضيع المعنى اذا كان هناك اي معنى!

على ان أقسى انواع التعذيب هو الاصرار على التمسك بحذاء اللغة الصيني على حساب قدرتها على الوقوف، فهي مقعدة تئن وتصرخ على ألسنة الخطباء واقلام الكتاب. وما من أحد يهب الى نجدتها واطلاقها من

الاسر.

فاذا كانت اللغــة هي التي تميــز الانسان من الحيوان، وهي اذن العقــل، فيكون العقل العربي نفسه في حذاء صيني، فمتى نكسر هذا الحذاء؟ فنكتب كما نتكلم بأسلوب ادبي يبقي للعربية فصاحتها.

نعم، اللغة العربية عظيمة، ولكن المصيبة بأبنائها أعظم!

الـورقة العشـرون

كلما تقدم الانسان في السن تأخر في أمور اخرى. ومن هذه الامور الاخرى: المطالعة.

فقبل أن يجاوز حد الاربعين يكون كالجائع النهم تنفتح شهيته على انـواع الطعـام بأقل ما يكون من الاختيار. وكثيرا ما يعجب بكاتب أو بكتاب، فيجد بعد سنوات، او ربما بعد أشهر ان اعجابه لم يكن في محله تماما. وهكذا «يغربل» النضوج مع الأيام من كان يحسبهم «أبطالا»، فلا يفضل الا قلة ترافقه الى آخر أيامه.

واذا كان القارىء من التعمق في التراث الادبي والفكري الانساني على قدر كاف، فلا بد من ان ترافقه الى جانب تلك «القلة» المعاصرة كوكبة من ابطال ذلك التراث المجربين الممتحنين على مدى العصور، فيجد في هؤلاء وأولئك زاده الوحيد النافع.

مرت ببالي هذه الخاطرة حين عدت في هذه الايام الى مطالعة «فوست» لغوته. وهو ما تعودت ان الجأ الى مثله من «الروائع» كلما ضاقت السبل.

ومما استرعاني في رائعة «فوست» قول النقاد إن «غوته» اختار لها «بحرا» من الشعر الالماني أشبه ببحور «الزجل» عندنا. ولعله «القرادية» كما في الزجل اللبناني. على ان هذا «البحر» تحول بما «لغوته» من عبقرية الى شكل شعري يفرض الاحترام، مما يبرهن على ان الشاعر الموهوب قادر ان يحول النحاس الى ذهب. فالأهم هو الموهبة ووجاهة ما يعرب عنه الموهوب من مضمون صادق لا يبهت مع الزمن. ولعل في هذا عبرة لمن يعتبر من الساعين وراء ابتداع «الاشكال» الشعرية تقربا من «الحداثة» أو مما يحسبونه هو الحداثة. حتى أن الكلام درج عند بعض النقاد الشباب على ما سموه «تفجير اللغة» كعلامة فارقة من علامات «المجاوزة والتخطي».

فبامكان كل من يكتب شعرا ان «يكسر مزراب العين» لعله يلفت اليه الانظار، فيحسب في عداد من هم في ملكوت «الحداثة» او من يظنونهم كذلك. فاذا بنا أمام سيل جارف من «البدع» الشكلية الفارغة من اي مضمـون حديث لعقليـة حديثـة. فالحداثة نظرة الى الحياة، بما فيها

الانسان والوجود، قبل أن يكون شكلا من أشكال التعبير.

ومن أسف ان نعود الى تكرار هذا الكلام لكل مناسبة. وربما كان من الخير ان نفعل الى ان ينغرس في الاذهان. والمناسبة هذه المرة هي التعرض للحديث عن «فوست» والقول إنها رائعة جرت على «بحر» في الشعر الالماني، هو من البساطة والضعة والقدم، بحيث يأنف من استخدامه شاعر عادي، فكيف بعبقري في مكانة «غوته».

ثم ان لكتاب فوست (الجزء الاول) وجها آخر يجدر بنا ان نقتدي به ونتعظ، على قدر الامكان. وهو المدة التي استغرقت لتأليفه، أي نحو ثمان وعشرين سنة. اذ بدأ به وهو في الرابعة والعشرين وختمه حين بلغ الواحد والخمسين. صحيح ان مشاغله الكثيرة، ومنها اعباء منصبه الوزاري في دوقية وايمار الالمانية، عملت على اطالة هذه المدة. غير ان الصحيح ايضا هو ان «غوته» كان غير مستعجل ولا لجوج، شأنه شأن الذين يدركون من البداءة انهم يعالجون موضوعا عظيما خالدا يستحق الجد والتعب والعناية الفائقة.

نعم، كان «غوته» طوال تلك المدة يكتب ويؤلف ويتعلم ويختبر، ولكنه حرص على ان يجعل من «فوست» أهم منجزاته. وما كان ذلك عن عناد او إفتعال، بل عن ثقة وإيمان بما كان يفعل. وقد لا تكون هذه الفضيلة كافية للنجاح، الا اذا اقترنت بالموهبة، واقترنت الموهبة بثقافة عميقة شاملة ووعي لروح العصر وادراك لقضايا الانسان الاساسية.

كان «غوته» في مقدمة أبناء عصر التنور وأكبر شاعر رومنسي في ذلك العصر. وتلك مكانة لا يرقى اليها سوى من تحلى عقله بالانفتاح والطليعية و«الحداثة». حتى انه أقبل على الافادة من ثقافات اخرى تعرف اليها، كالفارسية والعربية، فكتب «الديوان الغربي الشرقي» وهو في سن الشيخوخة، أي في ١٨١٥، قبل وفاته في ١٨٣٢. ويخبرنا ديتر بيلمان، في مجلة «المعرفة» السورية (العددان ١٩١-١٩٢) ان «غوته» اطلع على الشعر العربي القديم، وخصوصا المعلقات، واستخلص منها صفات وخصائص تأثر بها، ودعا الى تبنيها في الشعر الاوروبي. وكان ذلك بالاعتماد على ترجمته للمستشرق الانكليزي وليم جونز في ١٧٨٢. وهو يرى في المعلقات شعرا صافيا صادقا جميل الوصف والتصوير، مليئا بالحكمة والنقاء والجدية.

وهـذا الموقف المنفتح «لغوته» يجب أن يعتبر به أيضاً أولئك الذين يلصقون تهمة «الاستيراد» بكل افادة يتوصل اليها شاعر او اديب في العـرب من التجارب والمنجزات الانسانية في تراث الأمم الثقافي. وذلك بحجـة خروجهـا على «الروح العـربية» او «التراث العربي» لإفساده وتشويهه، بل هدمه وتذويب شخصيتنا «القومية» فيه.

طبعا، نسوق هذا الكلام هنا على هامش مطالعة «فوست» من دون ان نتطرق الى نقد الكتاب او تقويمه، فلهذا مجال غير هذا المجال. يكفي من ذلك ان نذكر ان «فوست» هو تعبير عن شعور قلب كبير، تصحبه دعابة محببة ونفاذ بصيرة جعلت طوماس مان يقول: «ان غوته نفسه مثل رائع عن ان اكثـر السذاجة نقاوة قادرة على ان تقترن بأعمق ما يكون من الفهم والادراك».

ويبقى ان أعلن عن اسفي لأن جهلي للالمانية يحول بيني وبين قراءة هذه الرائعة بلغتها الأصلية. فالترجمة، مهما بلغت جودتها، لا تتعدى كونها مرآة يعوزها القليل او الكثير من الصفاء.

فتلك هي احـدى العقبات في طريق التفاعل الكامل بين الثقافات في الحضارة الانسانية الواحدة.

الـورقة الحـادية والعشرون

تنسحب اسرائيل من جنوب لبنان، من الجولان، من الضفة الغربية، من قطاع غزة، من سيناء، من القدس...

تنسحب، لا تنسحب. كيف تنسحب؟ متى تنسحب؟ الى أين تنسحب؟ بل لماذا تنسحب؟

هذه هي تساؤلات العاجزين المهزومين في هذه الأيام. ولو كان غير ذلك، لتساءلوا: متى نهجم؟ وكيف نهجم؟ ولماذا لا نهجم؟

فما عرف التاريخ غازيا فاتحا خرج من شبر أرض غزاه وفتحه الا مكرها، بل حتى لو خرج مكرها، لترك آثار اقدامه في الأرض، وبصمات اصابعه على رقاب الناس وأرزاقهم.

ومنذ ١٩٤٨ وكلمة «انسحاب» هي المفتاح السحري الاول والاخير في سياسات العرب وهمومهم ومشكلاتهم وتطلعاتهم واشتراكياتهم ومجادلاتهم ومنازعاتهم، بل كاد يصبح قوتهم اليومي وشغلهم الشاغل. ومع ذلك بقي ذلك المفتاح عاطلا ومعطلا لكثرة ما تبدلت وتغيرت الاقفال.

وفي هذه الأيام طغى الحديث على «انسحاب» جديد، هو الانسحاب من جنوب لبنان. وفي هذا الحديث نذكر كل شيء الا الشيء الذي يجب ان نذكره، وهو ان «اجتياح» جنوب لبنان هو مرحلة اخرى من «اغتصاب» ارض فلسطين. فأرض فلسطين، في نظر المغتصب، هي حيث يقيم الفلسطينيون بخيلهم ورجلهم، فما نفع الارض المغتصبة اذا بقي أهلها مشردين «مخربين» متمردين غير قانعين حيث هم مقيمون؟

هذا الكلام لا يعني، طبعا، ان نمحو كلمة «انسحاب» من قاموس «القضية»، بل يعني ان الاصرار على اعتبارها المفتاح السحري عار ومضيعة للجهد والوقت. فلو انسحبت اسرائيل مما يطالبها العرب ان تنسحب منه، فماذا بعد؟ هل يحق الحق ويزهق الباطل؟ هل تشرق وجوه العرب ويبسم الغد الزاهر في وجوه الفلسطينيين؟ هل تقعد اسرئيل كسيفة محزونة عاجزة في ما تبقى لها من أرض؟ هل تكون انحلت عقدة الغاصب والمغتصب، المتقدم والمتأخر، الفاعل والمفعول به؟ وهل يكون استوى الجاهل وغير الجاهل؟

هذه الاسئلة وكثير غيرها من الاسئلة «المصيرية» هي التي يجب ان تكون قوتنا اليومي وشغلنا الشاغل. لا «الانسحاب» على انه نهاية المطاف. فالحياة صراع وتنازع بقاء، وهي لا تنصر الا من نصر نفسه.

فكيف ينصر العرب انفسهم؟ ينصرونها، قبل كل شيء، بالسير في طريق الحرية مهما كان الثمن الآني باهظا. فتنفتح الدهاليز المظلمة والابواب المقفلة على مصاريعها، ولا يكون في السماء وفي الارض حرام الا الحرام نفسه. وتتمزق الاوراق الصفراء والمذهبة والمزركشة والمطهمة من اي نوع، وتمحي الحروف السوداء العتيقة والخطوط الهمايونية والكوفية والرقعية والنسخية والفارسية وما اليها، وتتنزل «الاراكيل» وراقصات البطن والآغوات والبكوات عن العروش والتخوت، ويقوم المسود على السيد والظالم على المظلوم ويتنفس الناس الصعداء، ويقف الصغير حرا في وجه الكبير، ويرفع الكريم رأسه في حضرة اللئيم، ويأخذ صاحب الحق حقه بالحسنى والا فعنوة واقتدارا.

وبكلمة اخرى: دعوا الحرية أيها العرب تفتح قبور الاحياء في هذا الوطن الكبير، ليخرجوا احرارا محررين كراما في وجه الشمس.

هذا ما كان يجب ان تكون ردة فعلنا على عدوان اسرائيل ووجود اسرائيل، لا الحرب وما تهيأنا حقا وحقيقا للحرب، ولا السلم ونحن لا نعرف ان نستغل السلم، ولا التبكبك والشكوى والصياح: «اصلبوه! اصلبوه!»، ولا المناداة باحقاق الحق وفرض السلام «العادل»، ولا القهر علاجا للقهر او العبودية سلاحا للقضاء على العبودية، ولا افقار الحاضر أملا باغناء الغد، ولا تقديس الاموات على رجاء قيامة الاحياء.

* * *

ونحن في لبنان، هل نطمح الى الخروج من تحت الانقاض بالمفاوضات والمساومات، بالحوار وطول الدوار، بالتلبيص والترقيع، بالمعادلات والموازنات، بخلط الأوراق وصبغ الالوان، بتغطية السموات بالقبوات، بجهلنا وتجاهلنا.

هذه الحقيقة، وهي ان جسد لبنان القديم مات ودفن ولا قيامة له، وان على روحه الاصيلة ان تولد في جسد جديد.

نعم، كيف ننوي الخروج من تحت الانقاض؟

فاذا كنا نطمح الى الخروج صاغا سليما كما كنا، فما عرف التاريخ وطنا خرج من تحت الانقاض وما تغير فيه شيء. والا فلا يكون انتفع واكتسب فرصة جديدة يسعى فيها الى حياة افضل. ففي التاريخ القريب، هل خرجت فرنسا من هزيمتها في الحرب العالمية الثانية كما كانت؟ أم خرجت إيطاليا؟ أم ألمانيا؟ أم تركيا في الحرب الأولى؟ أم روسيا؟ ام اليابان؟ أم الصين؟

هذا سؤال مصيري بالنسبة الى لبنان، فهل في لبنان من ينهض الى قيادته نحو المصير الأصح؟

الـورقة الثانيـة والعشـرون

وربما كان من باب التحدي، عن غير عمد وتصميم، ان اقرأ في زحمة هذه الأيـام كتابا زهدت في قراءته منذ سنوات، وهو «مذكرات برتراند رصل». كنت قرأت الجزء الأول منه. فوجدت مناخ مؤلفه الفيلسوف لا ينسجم مع مناخي الفكري. فهذا الرجل الذي مات من عشر سنين عن عمر مديد كان شبيها بالمتنبي، من حيث انه «ملأ الدنيا وشغل الناس». فكان كلما تقدمت به السن ازداد غرابة في مواقفه. حتى انه اشتهر، وهو عجوز في الثمانين، بحملته على القنبلة الذرية. وهي حملة خرج بها من مجـال القلم الى مجال السيف. فقاد أنصاره في الساحات والشوارع، وأقعدهم صائمين أياما في ميدان «الطرف الأغر» بلندن.

على ان غرابة تصرفاته العملية وسلوكه الفكري عجزت عن ان تحول بينه وبين نيله جائزة نوبل واكبر وسام في الامبراطورية البريطانية، كما عجزت عن ان تحط من مكانته الفلسفية أو من رفعة مقامه الاجتماعي. فهـو، طبعـا، يستحق هذا كله لنبوغه وعبقريته. تتلمذ، كشارل مالك، لهوايتهد وشاركه في تأليف كتاب «المبادىء الرياضية» الشهير في حقل الفلسفة. ومع ان الرأي السائد هو أنه قصر عن الارتفاع الى منزلة معلمه وزميله، الا انـه فاز دونه بجائزة نوبل، مما يذكرنا بالشاعر ت. اس. ايليـوت بالنسبة الى عزرا بأوند. أو بألبير كامي بالنسبة الى جان بول سارتر.

على ان ما أبعدني عن مناخ برتراند رصل شيء آخر، لا غرابته ولا أفكاره الفلسفية، بل هو انطباعي، وربما كان خاطئا، انه تعمد الغرابة والمواقف الشاذة من قبيل «كسر مزراب العين». وهذا، طبعا، لا يليق. وهو هراء ومضيعة للوقت، بل عقدة نقص وخسران.

فمن كبار رجال السيف والقلم في التاريخ من ساهمت شخصيتهم بحضورها في دوي أسمائهم. وكلما مر الزمن خف ذلك الدوي الى ان اصبح أحيانا نسيا منسيا. وعكس ذلك صحيح. فمن أشهر الأمثلة على الدوي الذي خف أوسكار وايلد. وعلى الخفوت الذي دوى وتعاظم دويه مع الأيام وليم شكسبير.

والعبرة في ذلك ان الفعل في التاريخ يأخذ حجمه الحق في ضوء الأثر الذي يتـركـه في مسيرة الانسان نحو العناق الأبدي. العرض والظاهر يزولان ويبقى الكنه والجوهر. ومن أقوال المسيح: «السماء والارض (أي الظواهر الطبيعية) تزولان. وكلامي (أي الحقيقة) لن يزول».

على ان لكـل انسـان قدره. وقدر برتراند رصل، رغم انه ملأ الدنيا وشغل الناس في زمنه، لن يرقى الى مستوى معلمه هوايتهد الذي ترك الناس والدنيا في شغل شاغل عنه.

الـورقة الثالثـة والعشـرون

شوقي بزيــع في مجمــوعته الشعرية «عناوين سريعة لوطن مقتول» يحمل جوازا صالحا للدخول في عداد النخبة من شعراء السبعينات. ومع انه امتداد لأدونيس، الا انه يقف على ارض صلبة بقدمين واثقتين.

اختار لقصائده من بحور الشعر التقليدية بحرين أو ثلاثة هي أقربها الى النثر. وحسنـا فعـل. فالبحـور الاخـرى بطلت ان تكون صالحة لاستيعاب الصور والتشابيه والانفعالات السوريالية الدارجة في المناخ الشعري المعاصر. بل ان بعضهم يعتقد ان الاوزان التقليدية من أي نوع يجب أن تخـلي مكـانها للايقاع الداخلي النابع من العلائق الفنية بين الالفاظ وتراكيبها اللامحدودة.

وحسنا فعل شوقي بزيع أيضا، حين ألغى القافية واعتمد التدوير كما في الشعر الحر والمرسل، حتى لا أقول في قصيدة النثر التي هي شيء آخر تماما. فالتدوير والغاء القافية يهدم نظام الصدر والعجز في بيت الشعر التقليدي ويعطي القصيدة حرية التحرك، فلا رتابة ولا سجع ولا وقوف مفتعل. وتلك فضيلة عرفناها في الشعر الاوروبي، وكانت قصيدة «الحوار الازلي»، في أول عدد من مجلة «شعر» محاولة اولى للافادة منها في الشعر العربي.

لا شك في ان اطلالة شوقي بزيع الأولى في هذه المجموعة الصغيرة اطلالة مضيئـة. وبـالقـول انه يقف على ارض صلبة عنيت انه يعرف «اللعبة» الشعرية، أو كما قال العرب، يعرف من أين تؤكل الكتف. وهذا أهم ما يطلب من شاعر طالع. فكل ما تبقى ضروري ولكنه ثانوي بالنسبة الى تلك «المعرفة». واذا اضفنا اليها البعد الثالث أو الخلفية الحضارية، وهي التي تبدو تباشيرها عند شوقي بزيع، حق لنا أن نستبشر خيراً.

فكـل من يريد مستقبلا زاهرا للشعر العربي لا بد أن يحرص على الامكانات الواضحة عند بعض الشعراء الطالعين ويتمنى ان لا تذهب هدرا. وهي لا تذهب هدرا اذا كرس هؤلاء الشعراء أنفسهم واخلصوا للحقيقة الشعرية.

فالحقيقـة الشعـريـة ترفض كل سهولة ووصولية و«زعبرة» لفظية

وانغلاق ثقافي عن حضارة الانسان التي تجسد كل مكاسبه عبر التاريخ.
«اطلبوا العلم ولو في الصين» شعار عظيم يتفرع منه، طبعا، استقاء العلم من منابعه الاصيلة، لا الاكتفاء بالمترجم والمنقول.

ويبقى على شوقي بزيع ان يتمم الوعد الذي وعدنا به في باكورته الشعرية، وذلك في ضوء ما ذكرناه وما رددناه مرارا على مدى الربع القرن الاخير. ونحن نرجو ان يحتفظ، مع الايام بقدرته على الاصغاء التام الى صوته الداخلي، متجنبا مركبات النقص وسماع الاصوات الخارجية الداعية الى استخدام الشعر لاغراض اعلامية وتبشيرية لا تمت الى الحقيقة الشعرية بشيء.

* * *

وقرأت لنازك الملائكة شعرا بعنوان «يغير الوانه البحر».

لنازك الملائكة قصة طويلة مع الشعر، لا مجال لسردها الآن. فما نحن بصدد النقد والتقويم.

كانت نازك من رفاق اول الطريق في مجلة «شعر»، فأغنتها بشعرها وعطفها وحماستها لكل ما ينهض بالشعر العربي من جموده العريق. وبعد ان اخذت تتحفظ وتتراجع الى «الاصول» ظلت محبتنا لها على حالها، فما نقصت شيئا، لا بل تعمقت اعترافا بجميلها على الحركة الشعرية المعاصرة.

طبعا. لكل منا شططه وأخطاؤه ومعاناته الشخصية التي قلما يشاركه فيها أحد. وانما يؤخذ على نازك الملائكة انها تصرفت كالسجين الذي حلم بالحرية. فما ان نالها حتى غلبه الحنين الى حياة السجن.

لنازك الملائكة الحق في ان تزهو راكبة على صهوة جواد القريض العربي، فهي تمسك بزمامه كالفارس الماهر. ومن يقرأ للجيل اللاحق بها، يدرك كم البون شاسع بين الصانع المحترف وبين الصانع الهاوية. فالصانع المحترف، بغض النظر عن ابداعه، يبقى في «التراث» لا على هامشه، وما دام في التراث، فالابداع وارد. حيث لا يرد اطلاقا على هامش التراث.

* * *

وقبل صدور مجلة «شعر» وجهنا نداء الى شعراء العالم العربي، فوردتنا عشرات القصائد والرسائل. ومنها قصيدة صغيرة لسعدي يوسف من العراق اعتبرناها نموذجا ناجحا، في ذلك الوقت للانفلات من القوالب التقليدية والمعاني التجريدية والأفكار السائدة المطروقة.

ولأن سعدي يوسف كان غير معروف الا في الوسط الشعري العراقي، وكان شاعرا من الجيل اللاحق بجيل السياب والملائكة والحيدري والبياتي، ارتأينا ان نفتح العدد الأول بقصيدته كدليل على ان المجلة لا تحابي أحدا ولا تبالي بالاسماء المشهورة.

وكان في العدد قصيدة جديدة لبدوي الجبل تعمدنا نشرها للرهان على ان المجلة تؤدي رسالتها من ضمن التراث الشعري العربي الأصيل لا من خارجه. وكذلك قصيدة «النهر والموت» لبدر شاكر السياب، وقصائد اخرى لشعراء معروفين.

ولعل القراء فوجئوا بتقديم سعدي يوسف المغمور في تلك الأيام على شعراء ذائعي الصيت. غير اننا ما سمعنا ان أحدا احتج أو اعترض أو غضب، فالمجلة، على ما يبدو، أوحت الجدية والصدق والخروج على الدجل والتبجيل الفارغ.

وكان ان منعت السلطات العراقية في ذلك العهد، العدد الأول من المجلة لأن سعدي يوسف كان شيوعيا مطاردا، ثم العدد الثاني لأن عبد الوهاب البياتي شيوعي ايضا، وكانت المجلة نشرت نقدا لكتابه «الأطفال والزيتون».

وسار سعدي يوسف في طريقه الشعري، فصار لامعا ومتجددا في جميع مراحل نضوجه. ومن الادلة على موهبته الشعرية أنه احتفظ بصوته الشعري الخاص. ونحن اليوم نشعر بالارتياح لأن التباشير التي لمحناها في قصيدته التي كانت أولى ما قرأناه من قصائده برزت نفسها أمام التاريخ.

أسوق هذا الحديث عن سعدي يوسف لمناسبة قراءتي لمجموعته الشعرية الاخيرة «الليالي كلها»، ففي هذه المجموعة التي تلقيتها بشغف ينتصب سعدي يوسف، رغم تواضعه المعروف، بقامة مديدة بين أقرانه. تمتدح فيه حيرته الدائمة وبحثه الدائب عن انسانية الانسان، وتعجب الى حد الدهشة بجو الهدوء والاطمئنان والوداعة الذي يسود شعره. لا

تنـطع ولا استكبـار ولا «عـرض عضـلات» في معلقات حديثة درج على كتابتها معظم الشعراء. قصيدته تدور حول فكرة واحدة، وهي متكاملة فنياً كما يجب ان تكون القصيدة الحديثة.

ربما كان بي ضعف نحو سعدي يوسف، لأنه كان النبتة الاولى التي زرعناها في تربة جديدة أخصبت وأعطت الشعر العربي هذه النهضة التي نشهدها اليوم. فكم كان فرحي غامرا حين وجدت «في الليالي كلها» انه ثبت وعزز موقعه المرموق في صفوف شعراء تلك النهضة.

* * *

ولو نشرت باسمه بطولي، باكورة قصائدها في «مع الحب حتى الموت» قبل الخمسينات، أي قبل حركة مجلة «شعر»، لاحتلت من دون منازع، مكانة مرموقة في جيلها الشعري اللاحق بكبار شعراء المدرسة اللبنانية التي نشأت بين الحربين الكبريين بتأثير الشعر الفرنسي منذ بودلير حتى فاليري.

أما وهي تطل اليوم بهذا الاسلوب التقليدي الناصع مبنى ومعنى، فلا يسعنا الا ان نقول: «فاتها القطار».

نعم، فاتها القطار.

فهي أشبه ما يكون بفارس مهيب الزي والهندام خرج الينا بغتة من أعمـاق الذاكـرة، وراح يتهـادى زهـوا وافتخارا امام انظارنا. فيهزنا الشعور بالاعجاب ولا ريب، غير انه كاعجاب المشاهد ببطل في مسرحيته.

لكبـار الشعـراء التقليديين الباقين على قيد الحياة ان يواظبوا على التقليد الذي عرفوه وعرفوا به، ولكن هل يجوز لأي وجه شعري جديد ان يطل علينا اليوم من هذه الشرفة؟

لا يشفع بباسمه بطولي انها أضافت عطاء جميلا للشعر اللبناني فيما بين الحـربـين الكبـريين، كما لا يشفع بأحد ركوب الفرس الى باريس متجـاهلا وجود السيارة والطائرة، بل حتى الباخرة، كوسيلة للسفر في عصر السرعة والتخفيف من المشقة. ربما الفرس أجمل، ولكنها بطلت على جمـالهـا ان تكون الوسيلة الفضلى للسفر الجاد. فهي اليوم، حتى في البادية، تعطي مكانها للآلة. وهي في الحضارة تقتصر على النزهة والسبق

والابهة العسكرية في المناسبات الملكية.

نخلص من ذلك الى القول ان الشعر يستمد مفهومه ووجوده من الحياة. فاذا تغيرت الحياة تغير الشعر.

واذا كان لا يتغير، فمعنى ذلك شيئان: إما ان الحياة وقفت، وإما ان الشعر هو الذي وقف متحديا حركة الحياة.

فهؤلاء الذين يتمسكون بأسلوب في الشعر، أو في أي فعل انساني آخر، على انه جميل، ينكرون على الجمال تطوره مع روح العصر. هم رومانسيون سلفيون لا يؤمنون بقدرة الانسان على ان يصنع الجمال في المستقبل كما صنعه في الماضي. يضعون على عيونهم نظارات زرقاء، فيرون الأشياء زرقاء، ويرفضون الالوان الاخرى.

وكثيرا ما يقول هؤلاء: «الشعر شعر، بغض النظر عن اسلوب التعبير». وهو كلام سطحي، بل غاية في السطحية. ذلك لأن الشعر لا يكون شعرا على الاطلاق اذا هو اعتمد تعسفا ما اعتمدته الكتب، لا ما اعتمدته الحياة في سيرها الدائم من حال الى حال. وحال الحياة اليوم أبعد ما تكون عن التنضيد والتطريز والرتابة في كل شيء.

نقول هذا مع الاعتراف لباسمه بطولي بكثير مما يميز الشاعر الموهوب، من عفوية دافئة، الى معاناة داخلية صادقة، الى صلة حميمة باللغة، الى حسّ انساني شغوف يذهب بعيدا في العمق.

ويبقى ان ننتظر قفزتها من إطار المألوف والسائد والمطروق الى رحاب المغامر، والكشف عن المجهول.

الـورقة الـرابعة والعشـرون

- ١ -

خير من الكلام على كل شيء كلامنا على لا شيء، فنقعد تحت شمس الربيع وننعم بالدفء ونفرح بالحياة تبزغ وتنمو وتزهر. فما من عصر مضى، على ما نعرف بالنقل أو بالعقل، تعاظمت فيه الثرثرة كهذا العصر. فكأننا في مستنقع تغمره الضفادع وتملأه نقيقا في النهار كما في الليل.

ولكثـرة ما تفـاقمت وسـائل الاعلام نرانا محاصرين حتى في زوايا بيوتنا، سواء في أعلى الجبل أو في أدناه، في طرف من الأرض أو في غيره من الاطراف. فاذا الكلمة جسد مثخن بالجراح، يقطر دما وتئن روحه تحت سياط الجلادين. والكلمة هي الانسان، فأي إنسان نحن في هذا العصر؟

قيـل الكلام من فضة والسكوت من ذهب، فلماذا نؤثر الفضة على الذهب في عالم تعبنا فيه من التصاريح والبيانات وتاقت نفوسنا الى ما قل ودل من القول والفعل؟ أبلغ الانسان حد الفاجعة التي لا خلاص له منها الا بالفاجعة؟ ألى هذا الشفير أوصله الوهن والكفر؟

حين كان الانسـان تحت ظل السماء كان شجرة وارقة تأوي اليها الطيـور، أمـا الآن فأين يستظل؟ أفي عراء الافكار الجاحدة والأنظمة السائبة يستظل؟ أيستظل بآلهة من صنع يديه؟ أفيكون الصانع عبدا للمصنوع؟

- ٢ -

يلقى الكلام على عواهنه، فلكل منا رأي العالم الخبير في ما خفي حتى على العارف ببواطن الأمور. فلو أبدينا رأينا بتواضع وتساؤل وتحفظ، لكان هذا حقا من حقوقنا. ولكننا نبديه جازمين، فكأنما هبط علينا من السمـاء أو كشف لنـا في اليقـظة أو في الحلم دون سائر الناس. فاذا حوججنا أسندنا الرأي الى هذا أو ذاك من أصحاب الشأن، أو لجأنا الى الادعاء بأننا رأيناه بأم العين أو قرأناه في وثيقة سرية بفضل ما لنا من حميم الصلة بأصحابها. وهكذا، فما من حدث تحت الشمس الا وهو

معلوم ومفهوم من القاصي والداني على السواء.

وفيما مضى كنا نقعد عند أقدام الذين يفوقوننا علما ومعرفة وخبرة، فنتعلم منهم شاكرين حامدين. أما اليوم فما أن نفك الحرف حتى نشمخ على معلمينا ونزدري أصحاب الرأي فينا، فكأنما الرفض والاستهتار والغرور هو السبيل الى التقدم وبناء حياة أفضل.

ومن قديم الزمان كان اطلاق الشائعات الكاذبة والتهم الباطلة والاخبار المدسوسة سلاحا فتاكا يستخدمه الأفراد والشعوب. ولكنه في أيامنا أصبح أشد الأسلحة فتكاً لما بلغه الانسان من تقدم في علم النفس ومن معرفة بخصائص البشر افرادا وجماعات. فكم من معركة تربح بسلاح الكلام وكانت تخسر بالعنف دون سواه. ونحن في لبنان شهدنا ذلك عيانا ولا نزال نشهده في هذه النكبة التي نزلت بنا. ولعل ما يجعل الكلام على هذا القدر من الفتك أنه سلاح خفي يتعذر أحيانا كثيرة دفعه واتقاء شره. تعرف انه هناك ولكنك لا تراه ولا تلمسه لمس اليد، فتبقى بين مصدق ومكذب. تخور عزيمتك في التصدي له وتفقد الحيلة في ما يجب ان تفعل حياله، فتصرخ وتستغيث كمن أشرف على الغرق. ويكون نصيبك من النجاة قليلا في أرقى الشعوب، فكيف في أحطها علما وخبرة واحتراما للحق والحرية؟

-٣-

وهنالك وجه من وجوه الاعتداء على حرمة الكلمة التي هي ميزة الانسان الاولى وموهبته الفريدة ان أحداً لا يصدق أحداً في ما يقول، فكأنما الناس جميعا في قفص الاتهام، يتبادلونه ويلجأون الى العنف والقهر والاكراه أداة للتعامل في ما بينهم. فلا رجاء في القلوب إذن لا محبة، ولا محبة إذن لا رحمة، ولا رحمة اذن كل شيء جائز.

فلا عجب ان نقف أمام المصير حائرين، قلوبنا في واد وعقولنا في واد، تتقاذفنا الرغبة والرهبة ونحن في الكلام الآسن غارقون. يصير الذي صار، فنعجب كيف صار ونحار هل نلعن أم نبارك. وتزداد حيرتنا حين نرى العالم كله لا يقيم وزنا للحق ولا للحقيقة، يعمل عمله كأن ارض الله الواسعة قفرا لا ساكن فيه.

ونحن في لبنان، بل في العرب عموما، لا يضاهينا شعب في اعتبار الكلام غاية في حد ذاته. فكثيراً ما نكتفي به ونؤثره على الفعل، لا لأننا

نطرب له وحسب، بل أيضا لأننا عاجزون. نرى أنفسنا في منحدر، فنعتصم بحبل الكلام الفارغ لعله يوقفنا عن الانحدار أو يصعد بنا الى ما نرجو. وأكثر ما يكون ذلك عند المسؤولين فينا عما انتهت اليه حالنا من سوء. فمن المواهب التي يتفوق فيها بعض أصحاب الأمر والنهي عندنا قدرتهم على مخاطبة «الجماهير» ساعات من دون كلل او ملل. يكررون الكلام ويجترونه بصوت جهير مخافة ان لا يبلغ الى الآذان أو يقع فيها وقع الفعل الحميد.

ـ ٤ ـ

هذا الشغف المحموم بالثرثرة وباطل الكلام دليل على أن العافية في زوال. فمتى أخذت الروح تذوي، كما عند قدماء الاغريق، أفلا يزدهر السفسطائيون؟

وما أكثر السفسطائيين فيما بيننا هذه الايام، تجدهم في كل مجلس وبين دفتي كل صحيفة أو كتاب، وتجدهم أكثر ما تجدهم في محافل السياسة شرقا وغربا، يحللون ويناقشون ويتنبأون وينبئون بما لا بد ان ينتهي اليه هذا الحدث أو ذاك. عندهم لكل قضية حل، ولكل سؤال جواب العالم العليم.

ومنذ بداءة الصراع على لبنان خصوصا، راجت سوق السفسطة برواج الغموض الذي رافق ذلك الصراع، فكثر المتاجرون وعمد العدو، أيا كان، الى إغراق السوق ببضاعة الكلام الباطل المضلل، مما أوقع الناس في الحيرة والبلبلة وضيق الصدر وأسهم في زيادة الانهيار على كل صعيد. فكان ذلك بلية على النفس أين منها سلاح الحديد والنار.

ـ ٥ ـ

وفي هذا المجال اذكر ما خبرته في مجلس الأمن، حين قدر لي أن أتابع جلساته على مدى أشهر طوال. فكان كل عضو فيه يصر على التبسط والاسهام في الكلام مؤيدا أو معارضا، فيحتدم الجدل في المسألة قيد البحث وكل منهم يعلم ان أحدا لا يطمح الى الاقناع أو الاقتناع، لأن الرأي لحكومته أولا وأخيرا وهي لا تتخذه اقتناعا بوجاهة هذه الحجة أو تلك، بل استنادا الى سياسة مرسومة لا شأن للحق والحقيقة فيها. وإذن، فلماذا اضاعة الوقت في هدر كل ذلك الكلام؟

وكم هالني أن أسمع الجواب من أحد اعضاء المجلس البارزين، قال:

«هذا الكلام كله للاستهلاك المحلي والدولي، ولا بد من تدوينه للتاريخ. ففي السياسة تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لا تقول. واذا قلت وفعلت ما تقول، فلأنك اخترت أن يسبق القول الفعل».

فان كان الامر كذلك في أعلى محفل دولي، فأي هوان للكلمة أحط من هذا الهوان؟

ـ ٦ ـ

بقي أن أقول في ختام هذه التأملات إن ما ورد فيها لا يخرج عن كونه مما نعانيه من كثرة الكلام، ولكنه كلام بذلت فيه الجهد لئلا يبلغ حد الثرثرة التي لا تجدي.

الورقة الخامسة والعشرون

اذا كان الأدب مرآة الحياة، كما قيل في تعريف الأدب، فالادب العربي في الآونة الاخيرة مرآة الحياة العربية.

ولنعد قليلا الى الماضي القريب لنرسم بالخطوط العريضة واقع الحياة العربية وانعكاساتها في الادب شعرا ونثرا.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية خرج العرب أكثر سيادة واستقلالا عن الاجنبي مما مضى من الأيام، ودخلوا في حقبة من التفاؤل بالغد لم تؤثر فيه الا قليلا هزيمتهم العسكرية الاولى امام الحركة الصهيونية وقيام دولة اسرائيل في ١٩٤٨. ذلك إنهم أصروا على أن القوى الصهيونية التي هزمتهم ما هي الا «عصابات» مغتصبة، وان دولتهم «المزعومة» لا تلبث ان تزول بفعل عدة العرب وعديدهم، وأن ما قام على الباطل والعدوان لا يدوم طويلا.

هذه التفاؤلية في الحياة العربية التي استمرت، بفضل عبد الناصر وانتصاره في معركة السويس في ١٩٥٦، الى هزيمة العرب الثانية في ٥ حزيران ١٩٦٧، كانت عاملا فعالا في قيام مرحلة من الازدهار الادبي قلّ مثيلها منذ عصر النهضة. فنشأت حركة الشعر الحديث يواكبها نشاط على مستوى العصر في المسرح والرواية والقصة وسائر الفنون الادبية، حتى ليقال ان تلك المرحلة، لو لم تقف عند هزيمة ٥ حزيران، لأعطت الكثير مما لم تقدر ان تعطه السنوات التي تلتها، وهي سنوات رزح فيها العرب ولا يزالون رازحين تحت كابوس الخيبة وما يشبه اليأس.

في مناخ التفاؤلية تلك كان الحكام العرب أرحب صدرا، وأكثر سماحا، وأقل احتياجا الى الحد من الحرية والكرامة الانسانية. كان الأمل وطيدا بدفع العدوان وتحرير فلسطين، وبالنهوض الى بناء مجتمع أفضل. وكان يعزز هذا الأمل، عند السواد الأعظم من العرب، شخصية عبد الناصر وقدرتها على الاستقطاب وتوطيد الثقة بالنفس، حتى انه شبه بصلاح الدين في التاريخ العربي، أو بأدولف هتلر في تاريخ الألمان المعاصر، أو بسواهما ممن عملوا جاهدين على رفع الضيم واستعادة الكرامة والسيادة والحق في تاريخ الشعوب. أضف الى ذلك تزايد الثروة المادية

عند عرب الخليج ومنهم عند سائر العرب، وارتفاع مستوى التحصيل العلمي، واستيقاظ الوعي والرغبة في التغيير لدى القوى الفاعلة في المجتمعات العربية. فما ان أطل العام ١٩٦٧ حتى ساد اقتناع العرب بأن القضاء على الجسم الصهيوني الغريب على الأرض العربية صار قريبا، وبأن زواله يزيل عائقا اساسيا في طريق النهوض والتقدم والتغير الجذري.

في مثل هذا المناخ التفاؤلي في الحياة العربية كان لا بد ان يزدهر كل نشاط إنساني في ميادين الادب والفن والعلم والاجتماع. فهو في كل العصور والازمنة شرط لا غنى عنه لكل ابداع، وخصوصا في الادب والفن. ذلك ان الادب والفن نشاط انساني لا يكتفي بأن يكون مرآة لواقع الحياة الحاضرة، وإلا كان نشاطا تقليديا منسوخا لا خلق فيه ولا ابداع، بل يطمح بطبيعته الى الانطلاق من الواقع نحو تغييره بواقع اقل شرا واقرب الى السعادة، بل بواقع عند عباقرة الادب والفن يتخلص فيه الانسان من الشر ويحقق السعادة.

لا أعني بالتفاؤل هنا ان يكون واقع الحياة على ما يرام، بل ان يكون، مهما اشتد ظلامه كالنفق المفتوح ترى في آخره مخرجا الى النور. فلماذا الابداع والرؤيا في الحياة اذا كانت هذه الحياة نفسها صائرة الى زوال بسبب ما يعتريها من فساد مستأصل ميؤوس من إصلاحه اليوم أو غدا؟ وكيف ينمو الابداع والرؤيا في بركة حياة آسنة؟ ومن تنادي اذا كان لا حياة لمن لا تنادي؟ أي زارع يبذر بذوره في أرض موات؟

فعهود الابداع الذهبية، أو في الاقل بعضها، بزغت في الحضارة الانسانية عند أي شعب متحضر، حين كان هذا الشعب يصارع العدوان الخارجي او النزاع الداخلي او كليهما معا. فزمن المأمون وزمن الاندلس كانا عهدين ذهبيين في مسيرة الفكر العربي والاسلامي، لا لأنهما نعما بالامان والاطمئنان، بل لأنهما، على الرغم مما كان يحفّ بهما من المخاطر، أشاعا مناخا من التفاؤل بالغد. وكذلك كان زمن سقراط وافلاطون وارسطو عند الاغريق، وزمن فرجيل وهوراس عند الرومان، وزمن النهضة الاوروبية ابتداء بدانتي وانتهاء بيومنا هذا. ولعل اعظم قبس أضاء في أشد الازمنة سوادا هم امثال تولستوي وديستيوفسكي وترجنيف عند الروس، ولوركا وسرفنتس من قبل عند الاسبان.

واذن، فالتفــاؤل لا يكون، بالضرورة، تفاؤلاً بواقع الحياة، بقدر ما يكون، بالضرورة، تفاؤلا بتغييره الى واقع أفضل. وفي هذه الحال ينشط الابداع والرؤيا في مختلف الميادين، وعلى رأسها الادب والفن، كما نشطا الى حد يبشر بالخير في الفترة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الثانية وهــزيمــة الخــامس من حزيران ١٩٦٧. ولا أجد ضرورة للتفصيل في منجــزات هذه الفتــرة، فكلنا قريب العهد بنشوء الحركات الحديثة في الشعــر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والغناء، وما الى ذلك من العمل الابداعي، مما جعلنا نثق بقدرتنا على مواكبة العصر.

وقعت هزيمــة الخــامس من حزيــران على أهل الأدب والفكر وقوع الصاعقة، فكانت ردة فعلها سريعة وحاسمة، خصوصا عند الذين وثقوا بزعامة عبد الناصر وتفاءلوا بالقدرة العربية على الانتصار وسحق العدو الاسرائيلي. فكأنما كانوا نياماً واستفاقوا، والحلم الذي بدا في منامهم صرحا شامخا تحول في اليقظة الى انقاض. واستولت عليهم الحيرة التي سرعــان ما انقلبت الى خيبة أمل ومرارة بلغت حد اليأس. وساد بينهم السؤال: كيف حدث ما حدث ولماذا حدث؟ فكان لا بد من جواب على هذا السؤال يتناول الماضي والحاضر ويستشرف المستقبل.

وفيمــا أخذ الحكام العرب في ذلك الحين يبررون الهزيمة بمختلف العوامل الخارجية عن ارادتهم، انطوى أهل القلم والفكر على نفوسهم فترة من الزمن، ثم بدأوا يستجمعون قواهم لدخول مرحلة النقد الذاتي والبحث عن الاعوجاج في البنية العربية وطرح الحلول لتقويمها. فمنهم من وجد في الماركسية على هذا النحو أو ذاك ضالته المنشودة، ومنهم من رفع شعار الرفض المطلق أو المحدود لكل ما هو سلفي ثابت من الحقائق التي قامت عليهــا الحيــاة العربية منذ نشوء الاسلام، وبعضهم رأي العودة الى ينابيع الاسلام الصافية التي عكرتها المدنية الحديثة الزائفة، وآخرون نادوا بثورة جذرية تتخذ من الثورة الفلسطينية رأس حربة لها لتقــويض الانــظمة القائمة على أسس اقتصادية واجتماعية واخلاقية فاســدة، وآخــرون وهم قلة أصروا على تطبيق الديمقــراطية بمفهومها الغربي تطبيقا صحيحا.

وفي هذه الاثناء كانت الانظمة العربية على اختلافها تلتقط أنفاسها وتــرمم أجهــزتها بالحركات التصحيحية هنا، وبالوعود والعهود هناك،

وبالترغيب والترهيب هنالك. وكانت كلما اطمأنت الى نفسها أو خافت على نفسها، ضيقت الخناق على حرية الرأي والتعبير عنه، حتى تفرق أهل القلم والفكر بين مستسلم شعاره «السيف أصدق إنباء من الكتب»، وصامت ساكت يرى أن «الصمت زين والسكوت سلامة»، وهارب بجلده يردد: «جانب السلطان واحذر بطشه».

فالحياة العربية اليوم، وهذه حالها من خنوع الرأي او انعدامه أو فساده، لا مجال فيها للابداع في أدب أو فن، ولا للرؤيا نحو غد يلفه الحاضر بحجاب كثيف من الوقائع التي تزيده كثافة يوماً بعد يوم. فمتى أيقن الاطباء أن العلة في القلب، فأي علاج يرجى للجسد؟

أقول ذلك في معرض الوصف ولا أقوله في معرض التقرير الحاسم. فما دامت لنا النعمة دام رجاؤنا بالخلاص. ولا أحسب ان الخالق يقطع نعمته عن مخلوق اتاح له أبدا، يوم خلقه، فرصة الحصول على نعمته.

غير ان النعمة لا تنزل على الانسان جزافا، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وقلّ في أهل الادب والفكر من لا يزال يعتقد ان العرب غيروا شيئا مما في أنفسهم. فهم، برغم الثروة الهائلة في أيديهم والخطر الجاثم في وسطهم، يزدادون فقرا في الروح، ووهناً في مصارعة الخطر. يتلمسون الطريق السوي فلا يعرفون هل هو في الرجوع الى الوراء أم في التقدم الى الامام. يلتفتون يمينا ويسارا، فلا يبصرون غير متاهات شاسعة لا ينير فيها قبس ولا ترتفع علامة. يعزون نكبتهم الى الآخرين وعلتها كامنة في ذواتهم. يعلقون آمالهم عبثا على الانظمة المتتالية والشعارات المتبدلة غير مدركين ان الانسان فوق الانظمة وفوق الشعارات. يتخلون عن حريتهم وكرامتهم الانسانية لأنهما تستلزمان التضحية والفداء، فيؤثرون عليهما الذل والهوان. يعيشون ليومهم كأنهم لا يموتون غدا، فيحللون الحرام طمعا بمكاسب الحياة الدنيا. يحسبون القوة بالبندقية ويهملون الانسان القابض على الزناد. ينعمون بخيرات المدنية الحديثة وينبذون الأخذ بأسبابها الروحية والعقلية. يهابون المجاهل والاعماق، فيكتفون من السلامة بالاياب. يعتبرون الله جثة محنطة في العلاء، وهو الحي القيوم في خليقته مدى الدهر.

هذا الحكم الصارم نقرأه مرارا وتكرارا، وبمختلف الصيغ والاساليب، في كل صحيفة تصدت للحديث عن واقع الحياة العربية،

وخصوصا في الفترة الاخيرة التي نحن بصددها. فاذا كان الامر كذلك، فلا عجب ان تكون الساحة الادبية والفكرية مرآة لتلك الحياة. فهي تغص، الا قليلا، بالثمر الساقط قبل الآوان، وبالطحلب النابت على حفافي البرك الآسنة، وبالخل في دنان من الخمر، أو اذا شئت فقل بالنثر الذي صار شعرا وبالشعر الذي انقلب الى نثر، وبالسياسة التي تأدبت وبالادب الذي تسيس. وهكذا اختلط الحابل بالنابل وعمت الفوضى. فالخطرات العابرة فلسفة، والاطروحة المدرسية عمل فذ في عالم البحث والاستقصاء، والكلام الغامض الغريب فتح في مجاهل الرؤية والكشف، والرأي الملتزم على تفاهته وفساده خير من الرأي السالم الصحيح. وزاد في هذه الفوضى عجز الكاتب والقارىء معا عن التمييز بين الصالح والرديء، بسبب من انحسار الالمام ولو بلغة عالمية حية واحدة في مناهج التعليم العربية. فاذا لم تبصر النملة الفيل، فكيف تعرف حجمها بالقياس اليه؟

وكأنما كان يعوز الحياة العربية زيادة في الحيرة والضياع والفراغ الذي ملأه الطغيان على حرية الادب والفكر، فجاءت حرب لبنان في ١٩٧٥ بهذه الزيادة على طبق من الخراب والدمار.

كان لبنان في تاريخ العرب الحديث فاتحة كتبت حروفها بماء الذهب. أنهض اللغة العربية وآدابها من الانحطاط وانشأ صحافتها وبنى معاهدها. أيقظ العرب على قوميتهم المستقلة عن العثمانيين وقاد الحركات الثقافية والسياسية التي اسهمت في بلوغ هذا الاستقلال. نذر نفسه للمضطهد والمظلوم واللاجىء، ففتح لهم أبوابه وأغدق عليهم شموخ أرزه. قال لهم: انتم أبنائي وأنا اليوم ولدتكم. كلوا واشربوا وافرحوا، فعندي منازل كثيرة. أنتم فيّ وأنا فيكم، ولكن لا تكفروا بي وتتبعوا آلهة أخر.

ومرت الأيام وتوالت العهود ولبنان يناضل للحفاظ على علم الحرية مرفوعا على هذا الشاطىء. فهو بالحرية ولد ويولد كل يوم، وبالحرية يترعرع وينمو، وبالحرية يدوم ويبقى. فهل من عجب ان يكون لبنان المناخ الصالح لكل ولادة ثانية في الادب والفكر؟ وكيف لا يكون كذلك، والحرية هي الشرط الاساسي لتحقيق انسانية الانسان وتوسيع آفاق المعرفة بالحوار الصادق العميق الهادىء بين العقول والقلوب؟

قد يقال إن الحرية اللبنانية التي انقلبت الى فوضى هي التي أفسحت في مجال النكبة الاخيرة التي نزلت به. فليكن. ذلك لأن الحرية لا تتجزأ ولا تتقيد الا بذاتها. فهي كالحب أوكالعطاء. فمن يحب فليحب بكل قلبه، ومن يعطي فليعط بسخاء. وإلا بطل الحب ان يكون حبا والعطاء عطاء.

ثم اذا كانت الحرية اللبنانية أسهمت حقا في نكبة لبنان، فهي وحدها التي تقوى على النهوض به. فأهل الادب والفكر، بل كل لبناني وكل انسان، يؤثر ان تنكبه الحرية على ان ينكبه الظلم والطغيان. فنكبة الحرية تجربة ومعاناة وجودية لا بد من ان يخرج منها كريما سليما معافى، واما نكبة الظلم والطغيان فلا يخرج منها بشرا سويا.

والدليل على ذلك ساطع في ما نرى اليوم في لبنان. فهو على خرابه وانهيار دولته ومؤسساته، ورغم تمزقه وأنين ترابه تحت أقدام الخارجين على سيادته، لا يزال تلك الواحة التي عهدناها به في الحياة العربية. فالصحافة العربية صحافته، والادب المبدع أدبه، والعلم والعرفان علمه وعرفانه، والصراع من أجل الحفاظ على القيم الحضارية صراعه، والدعوة الى التجديد والتغيير لمواكبة العصر دعوته. وما في هذا منّة منه على أحد فهذه رسالته التي بها كان ولأجلها يكون.

فأين النور وسط هذا الظلام الكالح؟

النور في القلوب، فان لم يوجد هناك فعبثا وجدانه.

والحياة العربية، في كل تاريخها، لم تفتقر الى النور، بل كان النور يلمع بين الحقبة والحقبة على اقلام الادباء والمفكرين، فيضيء شمعة هنا وشمعة هناك في هيكل الحضارة الانسانية.

فمن العنف ان يجزم أحد، رغم السحب الكثيفة، بأن النور انطفأ في الحياة العربية. فالامم العريقة في تراثها لا ينطفىء نورها، بل يخبو. واذا حدث ذلك، فعلى الاجيال المتعاقبة ان تسعى الى زيادة شعاعه. وقد تمر على الأمم أجيال دون ان تحظى بمن يتوفق الى ذلك.

وإذن، فمناخ التشاؤم السائد أخيرا في الحياة العربية يجب ان لا يدعو الى اليأس. فاليأس من الانسان نظرة باطلة. ذلك ان الانسان كينونة لا صيرورة. فما دام العقل هو الذي يحده اولا واخيرا، والعقل كلمة الله، فلا حدود لكينونته.

الورقة الأخيرة

لبنان اليوم حائط مبكى.

العيون تدمع عليه، والاقلام تسيل حبرا في رثائه، والألسنة تطيل الكلام في تعليل ما حلّ به وفي تعليل التعليل.

ولبنان بحاجة الى الفعل، والفعل مرهون بوقته، والوقت مرهون بتوقيته، والتوقيت غيب لا يدعي معرفة بواطنه حتى العارفون، عادة، ببواطن الامور.

فإذاً، لبنان قضية معقدة، ثم شائكة، ثم مستعصية، ثم مستحيلة. فأي حل لها رهن باتفاق العرب والعرب، واللبنانيين واللبنانيين، والفلسطينيين والفلسطينيين، والشرق والغرب، واليهود وغير اليهود. وهذا كله، على ما يبدو، معقد، لا بل شائك، لا بل مستعص، لا بل مستحيل.

وفي هذه الاثناء يبكي الباكون ويعلل المعللون، والى إشعار آخر ينعي الناعون وينادي المنادون: «تبلغوا وبلغوا: لقد مات!».

نحن من الذين اسعدهم الحظ، أو ربما أتعسهم، ان ينشأوا ويترعرعوا تحت راية لبنان «الكبير» الذي عاد وتقمَّص في هذه الجمهورية. وظن الذين كبَّروه ثم قمَّصوه ان شعار «اللبننة»، ولو مرتجلا وفارغاً، يغنيهم عن التأمل الدقيق في حقائق الأمور. وحين ارتفع في وجه هذا الشعار شعار «العربنة»، فوجئوا وتعجبوا كيف يصبح لبنان «قضية»: قضية لابنائه القدامى والجدد، وقضية لشقيقاته القريبات والبعيدات، وقضية لاوليائه وعلى رأسهم الولية الكبرى. وبعد سنوات من «الحبل» السياسي، تمخضت «القضية» وولدت الحل المعروف بـ «الميثاق الوطني»، وهو أشبه ما يكون بعقد تم بين شريكين، خلاصته ان يفسح كل منهما، في مجال انتمائه الروحي والفكري، لانتماء جديد ضائع حتى في الذهن، يكرس «لبنانية» اللبناني ويشهد على ولائه الصادق التام للبنان. وهذا كله من أجل تثبيت كيان جغرافي سياسي لا يجمع بين ابنائه من مقومات الوجود والمصير الواحد سوى ما تحمله اللغة المشتركة من آداب وما نتج عن المجاورة والمعاشرة من تجارب بقيت، عبر تاريخ طويل، تفتقر، بشهادة الشريكين معاً، الى «التفهم والتفاهم». وفي

انتظار نعمة «التفهم والتفاهم» هذه، ازداد كل من الشريكين تمسكا بانتمائه الروحي والفكري، خوفاً من ان تتم «اللبننة» او «العربنة» على حسابه. بل أمعن كل منهما في تعميق انتمائه واستخدام هذا الانتماء سلاحا في الصراع على الحكم والنفوذ. ثم جاءت الظروف الدولية، مرة اخرى، لتعلن افلاس هذه «الشركة اللبنانية» بما وجدت عند الشريكين المتعاقدين من استعداد للكفر بها والاجهاز عليها.

وهكذا وجد اللبنانيون انفسهم، بعد جيلين او ثلاثة، شعبا متقاتلا يرسم حدود معركته انتماء بعضه، روحيا وفكريا، الى تراث خاص به يضرب جذوره في العروبة والاسلام، وانتماء بعضه الآخر الى تراث يضرب جذوره في المسيحية وفي حضارة انسانية عريقة في القدم.

نقول هذا والخيبة التي يشعر بها اللبناني لا تخفف من مرارتها ضرورة السماع لصوت العقل. فكم كان لبنان تجربة حلوة فريدة في مجال التوق والتمني. من هنا حيرتنا في أمرها وعنادنا على الافادة منها لخيرنا جميعا. ولن تكون الافادة على قدر ما عانيناه من آلام ومصاعب اذا نحن اعتمدنا «الصيغة» التي تتناول العرض دون الجوهر، كأن نكتفي من العلاج بتعديل النظام أو اعادة توزيع الارباح على الشركاء.

فنحن بعد اليوم نريد وطنا لا شركة، ومجتمعاً يحقق فيه الانسان ذاته ضمن تراثه الروحي والفكري، لا فندقاً يأوي اليه العابرون ويتعايش النازحون. نريد لبنان لنا ونحن له، ونريده بنا ولأجلنا.

نعم، نريد لبنان هذه المرة، بفعل ايماننا به، وطناً قائما على حقيقة الواقع، لا على تشويه وجهها بالشعارات الواهمة، كاللبننة والعربنة اللذين رفعنا إحداهما في وجه الاخرى، فاذا بنا نصل في تعثرنا الى مرحلة وجدنا أنفسنا فيها نطالب بلبننة التعريب او عربنة اللبننة، والا فالوطن وطنان. بل قيل إنه، في الحقيقة، وطنان في وطن واحد، وعلى هذه الحقيقة يجب أن نرسي قواعد مصير أبنائه المشترك. فحين نفعل ذلك تكون عروبة لبنان عروبة رضى ومحبة نابعة من قلب كل لبناني، وتكون لبنانية لبنان فخراً وعزاً لجميع اللبنانيين. فلا إكراه ولا خوف ولا طغيان صفة على أخرى، بل «تفهم» عقلي واع و«تفاهم» واضح صريح.

فالوطن كيان عضوي حي عاش ومات في أرضه الاجداد. هو امتداد للاسرة الواحدة، تنمو وتتكاثر وتتشعب ويبقى ذلك الرباط الروحي

والفكري الذي يجمع فيها بينها، ويشد بعضها الى بعض، ويدفعها الى حياة افضل. ومهما وقع بين ابنائها من خلاف، فهو خلاف في الفرع لا في الأصل. والاصل هنا لبنان. فاذا كان خلافنا فيه، أي في كيانه العضوي الحي الذي يقوم على تراث روحي وفكري موحد مستمر، فكيف يكون لابنائه جميعاً وطناً حقاً؟

لبنان هو انسانه، لا نظامه ولا دستوره ولا حدوده. فهذا كله موضوع ومرسوم، لا لأجل ذاته، بل لأجل هذا الانسان. واذا كان غاية الانسان سعادته، حقّ للانسان ان يغيّر أي شيء في الوجود لبلوغ هذه الغاية.

نقول هذا عالمين ان في الوجود ما لا يجوز للانسان، بحكم طبيعته، تغييره، وهو الوطن. فالوطن للانسان بمثابة الجسد للروح. فكما ان الروح بغير جسد تهيم في العراء، كذلك الانسان بغير وطن يهيم على وجهه في الغربة. ولنا في ذلك عبرة في الحيوان والنبات. فللحيوان ذاته مأوى يعود اليه لينعم بسعادة الالفة والدفء، بل ان الشجرة التي اقتلعتها وغرستها في غير تربتها الصالحة تذبل وتموت. وكم شهدنا من لبناني في الغربة كحيوان تعس شريد، أو كطير خارج سربه اذا قدر على التغريد فبحزن وحنين، أو كشجرة مقتلعة ان حافظت على اخضرارها فلأنها تسقى بدموع الحنين على أمل العودة.

أما ونحن لنا هذا الوطن لبنان، وهو من أقدس الأوطان، فكيف لا نضعه في قلوبنا ونحميه بجفون عيوننا. وإذا كان اليوم مصلوباً، فلأننا نحن الذين صلبناه بأيدينا وأيدي الطامعين بنا. وها نحن نعود اليوم نبكيه ونترحم عليه قائلين: «لقد مات!».

ولكن اذا كان لبنان حقاً مات، فهو لبنان الجسد القديم: موته كموت لعازر رقدة راحة لا رقدة موت. فيكون النداء بموته بشارة لا نعي: بشارة لنا برجاء قيامته.

يوسف الخال

المحوِّل.

الثائر الى استبدال لا الى دمار.

الناهض من الماضي الى المستقبل كما تنهض الأرض الجديدة من الأرض القديمة.

تحت قبة القدر والزمن، اللذين لا يتم شيء من دونهما، اللذين لا يتم شيء من دون مصارعتهما.

الابـداع لديـه معنـاه مرسوم. وهو لفـائـدة واصابة، لا مصادفة. والحرية نظام للعـمـل. انهـا حريـة الحكمـاء المجـددين الذين وجـدوا فيها وقاية من الانطفاء ومن الجنون.

شعـره لم يرغب البريق ولا الاغراء. آثر عري حيطان الصومعة على الزخرف، وبـرود شمس العـقـل على حرارات العواطف السهلة ورطوبات «الأدب».

ركز كل شيء على هدف وأهمل الباقي. وهـدفـه كان الانبعاث، شخصا وشعبا وجنسـا بشريـا، فلا يعود للخريف غير معنى هدوء المـوت الذي يسبق عاصفة الحياة في الربيع.

وشعـره شعـر التـزهـد اللفـظي، والبساطة في العمق والفلسفة، والطبيعة الخـاليـة من الحيلة، فلا مواربـة ولا «ملعنة»، بل مباشرة، ولكن محيرة، لانها مغتنيـة بخليـط الوعي والباطن والظاهر والكـامن والمـراد والمحلوم. وهـو خليـط دقيق، أكـاد أقـول منـظمـا، لا أثر فيه للفوضى ولا كبير وجود للانفلات. فالعقل ضابط الكل.

حتى النهـاية ظل يتطلع الى التمهيد لغد أفضل، ويهندس في سبيل ذلك الاطر والبنى، ويعيد احياء اللسان. من عزلات كثيرة خرج دائما الى حصاد كثير، له ولسواه.

إنه يوسف الخال، احدى الشجرات الوارفة على درب القيامة.

أنسي الحاج

ISBN 1 869844 47 5